



الجامعة الإسلامية - غزة

عمادة الدراسات العليا

كلية الآداب

قسم التاريخ والآثار

الأوضاع الاجتماعية في فلسطين في العهد الملوكي

(648 - 923 هـ / 1250 - 1517 م)

إعداد الطالب /

نسيم زريق جمعة أبو شلوف

إشرافه /

أ.د. رياض مصطفى شاهين

قدم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة

الماجستير في التاريخ الإسلامي

1430 هـ / 2009 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى والدي العزيزة... إلى والدي الغالي... إلى

إخواني الأحباء..

إلى زوجتي العزيزة... إلى أولادي الأعزاء... إلى

أصدقائي المقربين..

شكر وتقدير

أتقدم بجزيل شكري، وخالص تقديري إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور/ رياض مصطفى شاهين الذي شرفني مشرفاً على رسالتي هذه، فضلاً عن أنه هون عليّ الصعاب، وأمدني من فيض علمه، حتى ظهر هذا العمل للوجود، ..أسأل الله العليّ القدير أن يديم عليه تمام الصحة والعافية، وجزاه عني كل خير. كما أتقدم بالشكر إلي أستاذي الدكتور/ خالد الخالدي، الأستاذ المشارك بقسم التاريخ والآثار بالجامعة الإسلامية، وأستاذي الدكتور/ يوسف الزاملي، وذلك بالنظر إلى ما بذلوه من جهدٍ غير مقلٍ في قراءة هذه الأوراق، وعلى موافقتهما بتشريفني في مناقشة هذه الرسالة، والحكم عليها وإبداء ملاحظاتهم الدقيقة، وتوجيهاتهم المفيدة، فلهم مني كل شكر وتقدير، كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ/ إبراهيم عبد الله شقفة، على جهده المبذول في مراجعة الرسالة تدقيقها لغوياً ونحوياً، فضلاً عن تقديم خالص تقديري لأختي العزيزة/ خديجة زريق شلوف، وذلك على خلفية الجهد الذي قامت به فيما يتعلق بترجمة ملخص الرسالة إلى اللغة الإنجليزية، كما وأتقدم بالشكر إلى كل من ساهم معي في إنجاز هذا العمل المتواضع، آملاً من المولى عز وجل أن أكون مستحقاً لما بذله الجميع نحوي من جهد وعون ومساعدة، وراجياً أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة، وأن يؤتي هذا الجهد المتواضع ثماره المرجوة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الختصارات

الرمز	:	الكلمة
ت	:	توفي
ج	:	الجزء
د.م	:	دون مكان نشر
د.ت	:	دون تاريخ نشر
د.ط	:	دون طبعة
د.ن	:	دون ناشر
ط	:	الطبعة
كم	:	كيلومتر
م	:	متر
مج	:	مجلد
م	:	ميلادي
هـ	:	هجري
ق	:	قسم

الحتويات

رقم الصفحة	الموضوع	
ج	الإهداء	•
د	شكر وتقدير	•
هـ	المختصرات	•
و	فهرست الموضوعات	•
1	المقدمة	•
17 - 5	دراسة تحليلية لأهم مصادر البحث	•
26 - 18	تمهيد	•
103 - 27	الفصل الأول: عناصر المجتمع الفلسطيني في العهد المملوكي	
28	أ- طوائف السكان الدينية	
28	المسلمون	•
36	النصارى	•
46	اليهود	•
59	ب- أقسام السكان من حيث نمط المعيشة	
59	المدن	•
67	القرى	•
78	البدو	•
87	ت- العوامل المؤثرة على البنية السكانية	
87	الحروب	•
96	الكوارث الطبيعية	•
100	الأوبئة والمجاعات	•
167 - 104	الفصل الثاني: الأوضاع المعيشية للفلسطينيين في العهد المملوكي	
105	الزراعة	•
116	الصناعة	•
130	التجارة	•
141	الأسعار	•

144	الأسواق	•
155	التنظيمات الاقتصادية	•
214– 168	الفصل الثالث: العادات والتقاليد في المجتمع الفلسطيني	
170	الملابس	•
193	الأفراح	•
200	الاحتفالات والأعياد الدينية	•
214	الطعام	•
261 – 219	الفصل الرابع: مظاهر الحياة الاجتماعية في المجتمع الفلسطيني في العهد المملوكي	
220	وسائل التسلية	أ-
221	الغناء	•
224	الصيد	•
227	لعبة الكرة	•
229	النرد	•
230	المؤسسات التعليمية والصحية	ب-
251	الالتزام الديني في المجتمع الفلسطيني	ت-
257	النظام القضائي	ث-
261	الآثار الاجتماعية لسيطرة المماليك على فلسطين	ج-
272	الخاتمة	•
297-274	الملاحق	•
313-298	قائمة المصادر والمراجع	•
314	ملخص باللغة العربية	•
315	ملخص باللغة الانجليزية	•

القدمة

أهمية الموضوع
أهداف الدراسة
المصادر التاريخية
حدود الدراسة
المشاكل والصعوبات
الدراسات السابقة
فصول الرسالة

القدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

تتمحور هذه الدراسة حول الجوانب الاجتماعية علاقتها بتفكك، وتماسك الفلسطينيين في العهد المملوكي، وذلك للاستفادة منها في واقعنا المعاصر بتجنب مظاهر الفرقة والضعف والعودة إلى الطريق القويم الذي رسمه الإسلام، فضلاً عن بث روح التماسك بين أطراف المجتمع المختلفة، خاصة وإن المجتمع الفلسطيني بشكل خاص والامة العربية الاسلامية بشكل عام تعاني من الفرقة والأفسام، وهما في أمس الحاجة إلي الوحدة. وبناءً على ذلك فإنه يمكن القول بأن المماليك استطاعوا إدارة المجتمع في فلسطين خاصة وبلاد الشام عامة وقد كان يعاني من الضياع والتشردم والتجزئة، لأسباب عديدة، أدناها انتشار الانحلال خلال فترة الصليبيين في جميع الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ومما لا شك فيه أن دراسة الأنظمة الاجتماعية من المواضيع المهمة التي يتعين على القارئ اللوج إلى غمارها، خاصة وأنها تأتي في مرحلة خطيرة ليست بالنسبة إلى المسلمين فحسب، بل للعالم أجمع، إذ أثرى المماليك المجتمع الفلسطيني في كافة المستويات، سيما بعد أن تمكنهم من إزالة أخطر قوتين وهما: الاجتياح المغولي لأقاليم العالم الإسلامي، وبقايا الوجود الصليبي في فلسطين. أما عن أهم الدوافع وراء اختيار موضوع الدراسة:

الدافع الذاتي الأول إذ يرجع اختيار الموضوع إلى الإعجاب بفترة المماليك التي حققت الإنجازات العظيمة في صراعها الدموي مع القوات الغازية في فلسطين.

الدوافع العامة

- 1- تزويد المكتبة الإسلامية التاريخية ببحث اجتماعي علّه يضيف جديداً إلى ماكتب من قبل.
- 2- الحاجة إلى الإطلاع على نماذج من طبقات المجتمع الفلسطيني من تلك المرحلة، وقدرة المجتمع المسلم على التوحد في سبيل مواجهة المغول والتصدي لأطماعهم.
- 3- محاولة تدعيم الجهود التي تهتم بالتاريخ الاجتماعي للأمة الإسلامية.
- 4- الإلمام بالمراحل التي واكبت تكوين جبهة قوية رغم تفكك المجتمع قبيل سيطرة المماليك، وإلحاق الهزائم بالمغول، وإسقاط تلك الأوضاع على ظروفنا الراهنة.
- 5- تسليط الضوء على عوامل التماسك في المجتمع وأثرها عليه إيجاباً وسلباً.

تتركز أهداف الدراسة حول:

- 1- إلقاء الضوء على المجتمع الفلسطيني إبان عصر السلاطين المماليك وطبقاته.
- 2- محاولة بسيطة لجمع ما تفرق من تاريخ المجتمع الفلسطيني خلال هذه الفترة.
- 3- التعرف على مدى تأثير المماليك على المجتمع الفلسطيني.
- 4- دور الطبقة في إشعال الفتنة الداخلية.

حدود الدراسة، فقد تم تحديد الفترة المملوكية في فلسطين من سنة 648هـ/1250م وهو تاريخ قيام الدولة المملوكية، وبداية سيطرة المماليك على فلسطين إلى سنة 923هـ/1517م وهو سقوط الدولة المملوكية.

المشاكل والصعوبات، تتلخص في صعوبة الحصول على بعض المصادر والمراجع التي تتحدث عن الأوضاع الاجتماعية في فلسطين، وذلك خلال فترة الدراسة، وندرة المعلومات المتعلقة بالعبادات والتقاليد، علاوة على بعض الطوائف الدينية.

وفيما يتعلق بالدراسات السابقة التي تناولت الأوضاع الاجتماعية في فلسطين فقد كتبت رسالة ماجستير في الجامعة الأردنية بعنوان (مملكة صفد في عهد المماليك) للطالب طه تلجي الطراونة، وكتاب (تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي) للدكتور يوسف درويش غوانمة، جامعة اليرموك، وكتاب (نيابة غزة في العهد المملوكي) للمؤلف محمود علي خليل عطا الله، إلا أن هذه الدراسات لم تعطِ صورة واضحة كاملة للأوضاع الاجتماعية في فلسطين، إنما مرت على ذلك مجرد مرور عابر، وبمعلومات مجتزئة هنا وهناك، وهذا ما سنتميز به رسالتنا حيث ستعطي بإذن الله صورة كاملة للمجتمع الفلسطيني إبان الحقبة المملوكية...ولقد قمت بتقسيم هذا البحث إلى أربعة فصول هي:

الفصل الأول: وفيه تطرقت إلى عناصر المجتمع الفلسطيني في العهد المملوكي، كالطوائف الدينية من مسلمين ونصارى ويهود، علاوة على أقسام السكان من حيث نمط المعيشة وفيه تحدثت عن المدن والقرى والبدو، وكذلك العوامل المؤثرة على البنية السكانية كالحروب والكوارث الطبيعية والأوبئة والمجاعات.

أما الفصل الثاني فقد تناولت فيه الأوضاع المعيشية للفلسطينيين في العهد المملوكي، كالزراعة والصناعة والحرف والمهن والتجارة والمستوى المعيشي والأسعار والأسواق والتنظيمات الاقتصادية في المجتمع.

أما **الفصل الثالث**: فقد تطرقت في إلى العادات و التقاليد في المجتمع الفلسطيني، كالملابس والأفراح والاحتفالات والأعياد والطعام.

أما **الفصل الرابع**: فقد أفردتُ فيه الحديث عن مظاهر الحياة الاجتماعية في المجتمع الفلسطيني في العهد المملوكي، كوسائل التسلية من غناءٍ وصيد ولعبة الكرة، ثم المؤسسات التعليمية والصحية، و الالتزام العقائدي في المجتمع الفلسطيني، والنظام القضائي، الآثار الاجتماعية لسيطرة المماليك على فلسطين.

دراسة تحليلية لأهم مصادر البحث ومراجعته

تعتبر المصادر التاريخية من أهم الأدوات التي يمكن أن يعتمد عليها الباحث في جمع دلالات مفيدة عن الحياة الاجتماعية في فلسطين، وتتركز هذه المصادر بين كتب الحواشي، وكتب سيرة، و شعر؛ وملاحظات الرحالة والجغرافيين الذين زاروا فلسطين خلال فترة المماليك أو قبلها، وأوردوا دلالات عن الحياة الاجتماعية، ودراسة أوضاع المجتمع تتطلب البحث في المصادر المتنوعة العربية والأجنبية، لمعرفة وجهات النظر المختلفة بين المصادر الإسلامية والأجنبية، من أجل رسم صورة المجتمع في تلك المدة التاريخية.

أولاً: المصادر العربية:

أ- المصادر التاريخية:

1- العماد الأصفهاني⁽¹⁾: "الفتح القسي في الفتح القدسي يعد من المصادر الهامة لدراسة مدة الحروب الصليبية في عهد السلطان الناصر صلاح الدين فقد تطرق للإحداث بين سنة 583 - 589 هـ / 1187 - 1193 م وترجع أهمية هذا الكتاب كون مؤلفه معاصراً وشاهداً لاحداث هذه المد ولازم صلاح الدين وقد أخذت منه معلومات عن دور السلطان الناصر صلاح الدين في التصدي للصليبيين واسترداد المدن الإسلامية منهم كما أنه تطرق للعديد من المسائل الاجتماعية والاقتصادية وخاصة دور صلاح الدين في إعادة الطابع الإسلامي للمدن المحررة وما ذكره من معلومات تتعلق بسكان القرى المحررة .

(1) العماد الكاتب الأصفهاني: هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد، وكنيته أبو عبد الله بن أبي فرج الأصفهاني، وولد في أصفهان س 519 هـ / 1125 م وكان فقيهاً شافعيًا تفقه بالمدرسة النظامية على يد أبي منصور سعيد بن محمد الرزاز وعمل الأصفهاني عند نور الدين زنكي بدمشق وتولي ديوان الإنشاء،الفتح، مقدمةص6-10.أبو شامة، الروضتين،ج5،ص42. ابن خلكان، وفيات،ج5،ص147.

3- ابن الأثير⁽¹⁾ ألف ابن الأثير العديد من الكتب التاريخية أهمها كتابه " الكامل في التاريخ " : وقد تميز في كتابه بالاطلاع، والملاحظة الثاقبة للأحداث التي عاصرها، ويعد هذا الكتاب من أهم المصادر التي تناولت الأحداث التاريخية منذ بدء الخليقة وحتى سنة 628هـ/ 1230م وهو مرتب على نظام الحوليات، وقد اعتمدت الدراسة على هذا الكتاب وخاصة علي الجزءان التاسع والعاشر بما جمعته من معلومات عسكرية، وسياسية، واقتصادية واجتماعية؛ كما أفاد الباحث من بعض تراجم الأعلام والعلماء والفقهاء، والقادة العسكريين الذين ورد ذكرهم في هذا الكتاب وشاركوا في أحداث بلاد الشام عامة وفلسطين خاصة.

5- أبو شامة⁽²⁾ "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية"

يعتبر من أول كتب التاريخ المحلي والإقليمي، وتم تصنيفه حسب طريقة الحوليات بدأها أبو شامة بسنة 548 هـ/ 1153م وأنهاها بإحداث سنة 589 هـ /1193م وهي سنة وفاة صلاح الدين، وتحدث فيه عن سيرة نور الدين محمود، وصلاح الدين، والأحداث التي وقعت في عهدهما، وخاصة محاولتهما تحرير البلاد من أيدي الصليبيين وبالتالي شمل الكتاب العديد من الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ويبتوأ كتاب الروضتين مكانة متميزة كمصدر موثوق بسبب قرب عهد مؤلفه من الحقبة الزمنية التي ألف لها، واعتماده على مصنفات المؤرخين الذين عاصروا قلب الأحداث وكانوا شهود عيان لها؛ كابن القلانسي، وابن عساكر، ويحيى بن أبي طى، وابن الأثير وابن شداد، والعماد الكاتب، ويعد كتاب الروضتين من أكثر الكتب اعتمادا في مواده على الوثائق الرسمية، وقد تم الإفادة من كتاب الروضتين في هذه الدراسة

(1) ابن الأثير : هو عز الدين بن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني، ولد بالجزيرة في 4 جمادي الأولى 555هـ/ 12 أيار 1160م انتقل إلي الموصل مع والده، وكان أماما في حفظ الحديث، للتاريخ المتقدمة والمتأخرة؛ كما كان خبيرا بأنسب العرب وإخبارهم وأيامهم ووقائعهم، وصنف عدة تصانيف منها كتاب " الكامل في التاريخ " ابتداء من أول الزمان حتى سنة 628/ 1230-1231م. ابن خلكان، وفيات، ح384-350 الذهبي، سير، ح21، ص 488-491 .

(2) أبو شامة: هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن إبراهيم المقدسي الشافعي، ولد في دمشق في الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة 599 هـ/ يناير 1203م عرف بابي شامة لوجود شامة كبيرة فوق حاجبة الأيسر، وكان فقيها شافعيًا، وصنف كتبًا أهمها كتاب "الروضتين في أخبار الدولتين" وكتاب الذيل على الروضتين"، وكان متواضعا بعيدا عن التكلف، ثقة في النقل، توفي في رمضان 665هـ/ 1267م. أبو شامة، الروضتين، ج 1، مقدمة المؤلف، ص 7-18. ابن كثير، البداية، ح 13، ص 255، 254 ابن واصل، مفرج، ج 3، ص 27-28.

6- ابن واصل⁽¹⁾ " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ": من المصادر الهامة حيث تناول تاريخ الدولة الأيوبية، وترجع أهمية هذا الكتاب لما فيه من تفاصيل عنهم، لم تذكرها مصادر أخرى، وهو كتاب على المنهج الحولي أرخ فيه مؤلفه للحوادث المهمة حتى سنة 681 هـ/ 1282م وقد أفادت الدراسة في الفصل الأول من هذا المصدر في مواضع تتعلق ببني أيوب.

7- المقرئزي⁽²⁾ :من مؤلفاته 1- " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"

2- " السلوك في معرفة دول الملوك"

3- "إغاثة الأمة بكشف الغمة"

4- " الضوء الساري في خبر تميم الداري"

5- " البيان والأعراب عما نزل بأرض مصر من الأعراب"

وفي هذه المؤلفات تحدث المقرئزي عن الكثير من الحقائق التي أفادت موضوع الدراسة على امتداده، وتميزت مؤلفاته بأنها نقلت من عدة مصادر اندثر بعضها، ويعد أسلوبها واضح وبسيط، وتعرض المقرئزي في كتاباته المختلفة، إلى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والأخلاقية للمجتمع الإسلامي عامة في الشام ومصري خاصة.

فذكر في كتابه الخطط بصفة عامة لكثير من الظواهر الحضارية، وبعض الجوانب التاريخية، أما الكتاب الثاني السلوك يعد دقيق المعلومات، وواضح العبارات، اتصف بالشمول حيث أشار خلاله إلى الكثير من التغيرات في النظم الإدارية والاقتصادية والسياسية للسلطة المملوكية، وأعمال السلاطين والأمراء؛ منها انه زودنا بقائمة إعادة توزيع أراضي قيسارية بعد فتحها على يد الظاهر

(1) ابن واصل: هو جمال الدين بن محمد بن سالم أبو عبد الله المازني التميمي، كان فقيها شافعيًا، ولد في مدينة حماه سنة 604 هـ/ 1208 م، وتلقى فيها علمه، ثم رحل في طلب العلم إلى مدينة دمشق وحلب وبيت المقدس والقاهرة والكرك وبغداد وغيرها، ونبغ في علوم كثيرة، وله عدة مصنفات، أقام بمصر مدة طويلة، وعاصر الحملات الصليبية المتأخرة، وسقوط الدولة الأيوبية، وقيام الدولة المملوكية؛ توفي في 697 هـ/ 1298م ومن أهم المؤرخين اللذين نقل عنهم؛ ابن القلانسي العماد الأصفهاني ابن الأثير وغيرهم. ابن واصل، مفرج، مقدمة المحقق، ج1، ص20

(2) المقرئزي: هو تقي أحمد بن علي المقرئزي، ولد بالقاهر 766 هـ/ 1364م، وهو من أسرة شيعية فاطمية، وقد تبوء صدارة المؤرخين المصريين في النصف الأول من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، ويكفي دليلاً على هذا أن تلاميذه مثلوا أفضل المؤرخين في مصر إبان العصر المملوكي، وقد تناولت كتابات المقرئزي أوجها عديدة من تاريخ مصر والشام في عهود مختلفة؛ توفي في القاهرة عام 845 هـ/ 1442م. المقرئزي مقدمة المحقق، ج1، ص7-17

بييرس؛ بهدف تعميمها بالمسلمين أما الكتاب الثالث إغاثة الأمة فله أهمية كبيرة خاصة، أنه من الكتب القليلة التي ركز فيها المؤرخون على دراسة الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، وقد أخذت منه معلومات دعمت بحثي وأفادته، وكذلك انفرد المقرئزي في كتابه الرابع " الضوء الساري" بالإشارة إلى أن إقطاع تميم الداري عاد إلى أصحابه بعد إنهاء الوجود الصليبي في الخليل، أما كتابه "البيان والأعراب" فقد شمل بعض التفاصيل المهمة عن القبائل العربية التي سكنت في جنوب فلسطين؛ مما أفاد في التأكد من حقيقة العناصر السكانية التي سكنت فلسطين، وموقفها من الغزو والاحتلال الصليبي.

9- القلقشندي⁽¹⁾ 1- " صبح الأعشى في صناعة الإنشا"

2- "نهاية الأرب في معرفة انساب العرب":

3- "قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان"

فالكتاب الأول هو كتاب ضخم يتمثل في أربعة عشر جزءاً، وفيه معلومات على جانب كبير من الأهمية، وهو يدل على عملية تطور تاريخي وظهور المؤرخ المدقق، ويقدم إشارات قيمة في كثير من العلوم، ويتميز مؤلفه انه يتمتع بفكرة ثابتة وعقل نافذ ينفذ عبره في الحوادث، ويعد الكتاب موسوعة علمية في التاريخ والجغرافيا والسياسة والأدب والعلوم الاجتماعية ويتميز الكتاب بان مؤلفه كان رئيساً لديوان الإنشاء في القاهرة، ويشمل الكتاب الكثير من النصوص الإدارية والتجارية، والمعاهدات، والاتفاقيات التي تبحت شتى المجالات، وخاصة بلاد المناصقات، وبعض

(1) القلقشندي: هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، ولد سنة 756 هـ / 1355م ينسب إلى قبيلة بدر بن فزاره التي كانت تقطن في بلدة قلقشندة بالقرب من قليوب؛ درس علوم اللغة بشكل أساسي فأثقن النحو والأدب والشعر والكتابة، إضافة إلي الفقه الشافعي، ابتدأ حياته العملية في خدمة نائب الإسكندرية؛ ثم انتقل إلى القاهرة واستمر بها، فعمل في ديوان الأحباس، وبتوقيع الدرج دون معلوم، ثم عمل قاضياً شافعيًا إلي أن = = التحق بالعمل في ديوان الإنشاء سنة 791 هـ / 1388م وتوفي في عشرة جمادى الآخر 821 هـ / 1418 م، ومن مؤلفاته قلائد الجمان في قبائل العربان، ومآثر الأناقة في معلم الخلافة، طبقات الخلفاء والولاة مع ذكر الحوادث والمجاريات، وغيرها. القلقشندي، صبح، مقدمة المتحقق، ح 1، ص 7-10.

الشؤون والقضايا الخاصة باليهود والنصارى، أما كتابه الثاني نهاية الأرب، فقد تصدى فيه لذكر القبائل العربية بفروعها والتي سكنت في فلسطين، وموقف من عاصر منها الاحتلال الصليبي . أما كتابه الثالث قلائد الجمان ، فقد ركز فيه على أنساب القبائل العربية ورتبها حسب حروف المعجم وخاصة التي سكنت في فلسطين، وموقف من عاصر منها الاحتلال الصليبي .

10- ابن كثير⁽¹⁾ "البداية والنهاية" يعد من المصادر التاريخية الهامة ذكر فيها الأحداث منذ بدء الخليقة وحتى سنة 768هـ/1365م، واتبع فيه الترتيب الحولي، وقد أفادت الدراسة كثيراً من هذا الكتاب حيث ذكر كثير من المعلومات التي تتعلق بالمجتمع في بلاد الشام وخاصة فلسطين في العهد المملوكي.

11- أبوالمحاسن⁽²⁾، جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت874هـ/1469م) وكتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" ويعد هذا الكتاب موسوعة تاريخية عالجت الكثير من القضايا الادارية والسياسية والاجتماعية والعمرانية وقد اعتمدت عليها في جميع فصول الرسالة.

11- العليمي⁽³⁾، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد (ت927هـ/1520م) "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" هذا الكتاب من أوسع المصنفات التي تناولت تاريخ بيت المقدس والخليل والكثير من المدن الفلسطينية منذ بدء الخليقة وحتى سنة 900هـ/1494م، وقد اعتمد هذا الباحث بشكل كبير علي هذا المصدر حيث قدم معلومات كبيرة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية في فلسطين خلال العهد المملوكي.

11- النعيمي⁽⁴⁾، عبد القادر بن محمد، (ت 978 هـ / 1570 م) ، "الدارس في تاريخ المدارس" يعد هذا الكتاب من أوسع المصنفات التي تناولت الحياة العلمية في بلاد الشام منذ القرن الخامس وحتى القرن العاشر الهجري، فقد ذكر عدد كبير من المدارس ودور القرآن والحديث والزوايا والربط والمساجد، إضافة إلى ذكر عدد كبير أيضاً من العلماء والفقهاء والمدرسين. وقد أفادت الدراسة من هذا المصدر من خلال المعلومات التي أوردها النعيمي عن المدارس التي أسسها العلماء الفلسطينيون في

(1) ابن كثير عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت774هـ/1372م) ولد ابن كثير سنة 700هـ/1300م، وقدم دمشق وله سبع سنين مع أخيه بغد موت أبيه، اجتهد كثيراً، وسمع من كثير من العلماء حتى برع في علوم الحديث والتفسير والتاريخ، ولابن كثير العديد من التصانيف المهمة، ينظر: ابن العماد، شذرات، ج6، ص432. ابراهيم، الحياة الاجتماعية، ص28.

(2) ابن تغري بردي، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة، ٦ أجزاء، تحقيق، محمد حسين شمس الدين، (١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م) (بيروت، دار الكتب العلمية، ط ينظر: حاجي خليفة، كشف الظنون، ج1، ص304.

(3) المدني، الحياة العلمية، ص17.

(4) النعيمي، الدارس، ص1. العماد، ج8، ص158. السخاوي، الضوء، ج1، ص270. المدني، الحياة العلمية، ص20.

دمشق مثل: مدرسة أبي عمر، والمدرسة الضيائية، كما زدنا الكتاب بمعلومات عن عدد المدرسين والعلماء الفلسطينيين وغيرهم الذين درسوا في مدارس دمشق وبيت المقدس.

ب- كتب الجغرافيا والرحلات:

أعطت المصادر الجغرافية معلومات قيمة عن الكثير من المدن والقرى الوارد ذكرها في الدراسة وحددت هذه المعلومات المواقع الجغرافية لتلك المدن والقرى، أما كتب الرحلات فقد كان لصاحبها دور كبير في جمع المعلومات المتنوعة من خلال مشاهدتهم، وتجارتهم، وعلاقاتهم العامة والخاصة مع الناس من مختلف الطبقات الاجتماعية وقد أفادت الدراسة من هذه المعلومات في مواضع مختلفة، ومن أهم كتب الجغرافيا والرحلات التي أفادت الدراسة.

أ- ناصر خسرو⁽¹⁾ "سفرنامه": قام ناصر خسرو بزيارة فلسطين 436هـ/1047م وترك لنا وصفا لرحلته يؤكد على انه كان يدون مشاهداته أولا بأول، وعلى الرغم من أن الرحلة حدثت قبيل الهجوم الصليبي على منطقة الشرق الإسلامي إلا أنها غنية بالمعلومات التي تشير إلي الأحوال الاقتصادية والاجتماعية؛ فدللت على نواحي هامة تعتبر جذورا للعديد من الظواهر الاقتصادية، والاجتماعية في فصول الدراسة؛ فوصف التطور العمراني في فلسطين، وتطور عدد من القرى حتى أصبحت تضاهي المدن، وعند ذكره لمدينة القدس وذكر عدد سكانها حيث بلغ عشرين ألف نسمة، وقدم وصفا للبيمارستان في مدينة القدس حيث صنفه بأنه بيمارستان عظيم يصرف لمرضاه العلاج والدواء.

ب- المقدسي⁽²⁾: "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم": يعد هذا الكتاب من أهم الكتب الجغرافية التي اعتمدت عليها الدراسة في كثير من الجوانب المتعلقة بفصول الدراسة، فقد أفدت من كتاب المقدسي فيما يتعلق بجغرافية فلسطين، ومصادر المياه بالإضافة إلى التطور العمراني، وتطور العديد من القرى واتفق في ذلك مع ناصر خسرو وتميز بالإشارة إلى

(1) ناصر خسرو: ولد في بلدة من أعمال بلخ بإقليم خراسان في عام 394هـ/1003م سافر إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، وقام برحلات طويلة في العلام الإسلامي، وكان يعني بالاتصالات بالشعوب التي مر بها، ويتفهم مظاهر الحضارة التي يشاهدها؛ توفي عام 435هـ/1061م خسرو سفر نامة، مقدمة المحقق، ص15-29.

(2) المقدسي: هو شمس الدين أبو عبد الله ابن احمد ابن أبي بكر، ولد في بيت المقدس سنة 336 هـ/946م ويعد المقدسي من أعظم الجغرافيين العرب؛ عمل في التجارة حيث كان ينتقل بين مختلف الأقطار الإسلامية؛ مما ساعده في وصف أحوال الشعوب، والأمم التي شاهدها. المقدسي، التقاسيم، ج1، مقدمة المؤلف، ص8-10. المدني، الحياة، 26.

اعتناق نصف سكان نابلس للمذهب الشيعي، وانفرد بذكر العادات والتقاليد التي انتشرت في بعض المدن الفلسطينية قبل احتلال الصليبيين لها.

ت- ابن جبير⁽¹⁾: رحلته المعروفة باسم "اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك": ذكر ابن جبير في رحلته الكثير من الجوانب المتعلقة بأوضاع بلاد الشام سواء في المناطق الصليبية أو الإسلامية، ومن ذلك وصفه للساحل الشامي، والعوامل الاقتصادية المختلفة كذلك تطرق لدور العناصر المغربية في المجتمع الشامي، والتشكيلة المذهبية لتلك البلاد، ووصف القلاع والحصون. وتطرق ابن جبير كذلك للعلاقات السلمية بين الصليبيين والمسلمين في بلاد الشام، وذلك من خلال التعامل والتبادل التجاري بينهما، ووصفه للطرق التجارية، ومن ابرز ما ذكره، وصفه لأحد جمارك بوابات مدينة عكا والرسوم الجمركية التي فرضها الصليبيون على بوابات مدينة عكا. كما أن ابن جبير كان يحرص على ذكر بعض الجوانب الخاصة بالعادات والتقاليد الاجتماعية سواء لدى المسلمين أو الصليبيين مما زدنا بمعلومات ذات أهمية كبيرة في الرسالة، اختص بالحديث الحصون مع بعض القلاع، وذكر العناصر السكانية في فلسطين، وتحدث أن المسلمين شكلوا أغلبية في القرى بسبب عدم هجرة الكثير منهم أو أنهم عادوا بعد مدة قصيرة إلى قراهم وأراضيهم.

ث- الإدريسي⁽²⁾: "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق" : تكمن أهمية كتاب نزهة المشتاق أنه يعبر عن رؤية شاهد عيان معاصر للاحتلال الصليبي الذي كان مقدمة لمجيء المماليك وزار عدد من المناطق المحتلة حيث تحدث عن المدن الرئيسية في الساحل

(1) ابن جبير: وهو محمد بن احمد بن جبير الكتاني أبو عبد الله، وقيل أبو الحسن المعروف بابن جبير، ولد في مدينة بلنسيا سنة 540 هـ / 1145 م. وتلقى العلم على الكثير من شيوخ عصره في غرناطة وسبته، وقام ابن جبير بثلاث رحلات إلى المشرق الإسلامي، الأولى 578 هـ وانتهى منها بعودته إلى نابلس 581 هـ والثانية في 585 هـ بعد أن استرد صلاح الدين بيت المقدس؛ أما الثالثة فكانت سنة 614 هـ ولكن لم يطل به العمر حيث توفي في الإسكندرية في 27 شعبان 614 هـ / 1217 م. ابن جبير، الرحلة، مقدمة المحقق، ص 6-10. عوض، الجغرافيا، ص 283-287.

(2) الإدريسي: محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، ولد في المغرب الأقصى عام 499 هـ / 1100 م بدأ الارتحال والتنقل وهو في السادسة من عمره ثم رحل إلى مصر وبلاد الشام واليونان، حيث وصل إليها عام 513 هـ / 1116 م. واتصل ببلاط ملك صقلية روجر الثاني 533 هـ / 1164 م وتوفي سنة 560 هـ / 1164 م. عوض، الجغرافيا، ص 17-19.

الشامي، وتحدث الجوانب الاجتماعية والاقتصادية فيها فمثلاً عندما تحدث عن عكا ذكر أنها مدينة كبيرة ذات أرجاء متسعة، وان أهلها أخلاط وأناس شتى كما ذكر الإدريسي نشاط الصليبيين في تنصير الأراضي الإسلامية من خلال تحويل المساجد إلى كنائس.

ج- ابن شداد⁽¹⁾ عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت 684 هـ-1285 /) "الأعلاق الخطيرة

في ذكر أمراء الشام والجزيرة."

عاش ابن شداد بالشام، بعد سقوطها بأيدي المغول، ثم رحل إلى مصر واستقر بها وأصبحت له مكانة عالية لدى الملك الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون، وكان فاضلاً أديباً له الكثير من المؤلفات التاريخية وأهمها كتاب "الأعلاق الخطيرة"، حيث جمع فيه بين التاريخ والجغرافيا، وقسمه ثلاثة أقسام، الأول لحلب، والثاني لدمشق والأردن وفلسطين والثالث خص لمنطقة الجزيرة وقد أفاد منه الباحث في الرسالة خاصة في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية.

ح- **ياقوت الحموي**⁽²⁾: "معجم البلدان" وصف ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان العديد من

الجوانب المتعلقة بأوضاع بلاد الشام، ووصف مدن الساحل الشامي أنها ذات أهمية خاصة، وذكر الوضع السكاني لبعض المدن الشامية، والعوامل الاقتصادية مثل مصادر المياه أو الأنشطة الصناعية أو التجارية والزراعية ووصف العمائر الحربية والمقامات والمزارات الدينية، وهذا يقدم دليل أن التعمق في تلك العناصر التي تعرض لها الحموي تعكس مدى اهتمامه ببلاد الشام فهو قدم دلالات واضحة عن الأوضاع السكانية لبعض

(1) ينظر: إبراهيم، الحياة الاجتماعية، ص 26-27

(2) الحموي: هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ولد في الفترة الواقعة بين سنتي 574-575 1178-1179م ببلاد الروم ولكنه وقع في الأسر وهو صغير واشتراه احد تجار بغداد لكي يعتمد عليه في تجارته وتنقل ياقوت بين كثير من الأمصار توفي بظاهر مدينة حلب سنة 622 هـ 1228م ابن خلكان وفيات ج 6 ص 127-139

المدن الشامية في عهده من حيث كثافتها وازدحامها بالسكان، فوصف أن مدينة عكا من أفضل بلاد الساحل وأمرها، وأشار إلى إن المساكن بها عزيزة بسبب كثرة أهلها، وفي الوقت الذي تحدث فيه الحموي عن كثافة بعض المدن الشامية، أشار إلى تراجع مستوى القرى، ومن أمثلة ذلك قيسارية. وتحدث عن، تطور الحياة الريفية في بعض المدن، فوصف ريف مدينة حلب أن به ثمانمائة ونيفا وعشرين قرية ملكا لأهلها، ونحو مائتين ونيف قرية مناصفة بين الرعية والسلطان وأورد عدد من القلاع الإسلامية، والصليبية من أجل توضيح دورها، كما أن وصفه اختلفت من قلعة إلى أخرى.

خ- **العمري**⁽¹⁾ وأهم كتبه التي اعتمدها الباحث "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" خاصة وأنه تحدث عن أهم قبائل الشام في العهد المملوكي وقدم وصف لمدن الشام من الناحية الجغرافية وما احتوت عليه من مؤسسات دينية واجتماعية أفادت الباحث في معرفة بعض المعلومات التي تتعلق بأحوال المجتمع في فلسطين خلال العهد السابق.

د- **ابن شاهين الظاهري**⁽²⁾ "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" اشتمل هذا الكتاب على معلومات إدارية تتعلق ببيانات بلاد الشام أفادت البحث بشكل مباشر

(1) ابن يحيى بن فضل الله العمري (ت749هـ/1348م) مقدمة المحقق، ص6

(2) ابن شاهين الظاهري (ت873هـ/1468م) ولد بببيت المقدس. وتعلم بالقاهرة. وولي نظر الإسكندرية ثم نيابته سنة 837 وحمدت سيرته فنقل إلى الوزارة بالقاهرة، فاستعفى بعد مدة يسيرة. وسافر سنة 840 أميرا للحاج المصري. وولي نيابة الكرك، فأتاكية صفد، فنيابة ملطية، فأتاكية حلب. وشكا نائبها منه، فاعتقل وسجن بقلعتها مقيدا، ثم أطلق. وولي إمرة الحاج الدمشقي مرتين، وتوفي في طرابلس. نسبته إلى الظاهر برقوق، وكان أبوه شاهين من مماليكه. مقدمة الكتاب، ص4-5. الزركلي، الأعلام،

ج- كتب التراجم:

تظهر أهمية كتب التراجم أنها تعكس الجوانب الفكرية والثقافية في فلسطين خلال حقبة الرسالة ، وتعرض في بعض الأحيان خلال ترجمتها للأشخاص إلى إظهار بعض الجوانب الحضارية المختلفة؛ الاجتماعية والإدارية والاقتصادية، وكذلك الجوانب السياسية، فهي متكاملة من الجوانب الموضوعية؛ فبعضها يتخصص في تراجم الساسة والقادة العسكريين، والبعض منها في العلماء والأدباء والشعراء، والقسم الثالث يختص بالقضاة والأطباء والمحدثين؛ ومن كتب التراجم التي اعتمدت عليها الباحثة.

ابن خلكان ⁽¹⁾: "وفيات لأعيان وإنباء أبناء الزمان": يعتبر هذا الكتاب من كتب التراجم الهامة، وتظهر أهميته؛ لأن مؤلفه اعتمد على مصادر متنوعة، و ترجم لعدد كبير من سلاطين وملوك الأيوبيين والمماليك، وكان لبعضهم دور في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية؛ إضافة لذلك ترجم لعدد من السياسيين والعلماء والأدباء وغيرهم وقد أفادت الدراسة من هذه التراجم في جميع الفصول .

1- ابن أبي أصيبعة ⁽²⁾ "عيون الإنباء في طبقات الأطباء": في هذا المصدر أظهر لنا ابن أصيبعة الكثير من المعلومات عن علم الطب في فلسطين في فترة البحث، واعتمدت عليه في الفصل الرابع عند الحديث عن الحياة العلمية في فلسطين، وخاصة عند الحديث عن الحياة العلمية والبيمارستانات في فلسطين.

(1) ابن خلكان : هو شمس الدين محمد بن بكر ولد في ابريل سنة 608هـ 1211م وتفقّه بالموصل والشام النقي كبار العلماء وسكن مصر مدة وناب في القضاء ثم ولي قضاء الشام عشر سنين وكان إماماً فاضلاً بصيراً بالعربية علامة في الأدب والتاريخ توفي سنة 681هـ 1282م ابن خلكان وفيات ج1 مقدمة المحقق ص5-13 ابن كثير البداية ج13 ص305

(2) ابن أبي أصيبعة: هو موفق الدين احمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي الشهير بابن أبي أصيبعة ولد في دمشق سنة 600هـ /1203م كان عالماً في الأدب والطب والتاريخ وكان له فضل عظيم فما جمعه من أخبار ومعلومات فاق فيها غيره في التاريخ الطبي فقد ترجم لأطبائه تراجم دقيقة بلغت أربعمئة ترجمة توفي سنة 668هـ 1269م ابن كثير البداية دص261 ابن العماد شذرات ج3 ص327 .

2- الذهبي⁽¹⁾: "سير أعلام النبلاء"

"العبر في خبر من غبر"

ويعد كتاب من أضخم الموسوعات التاريخية التي تتصف بالشمول لأنها بحثت في التراجم، والطبقات، ومن إجابيات كتاب الذهبي أنه شمل سبع قرون ونيفا من تاريخ رجال الإسلام، وذلك منذ بداية الدعوة الإسلامية وحتى سنة 746هـ / 1345م كما أنها تناولت جميع طبقات الناس من خلفاء وسلطين وملوك وحكام وأمراء وشعراء وأدباء مسلمين وغير مسلمين وقد أفادت الدراسة من هذه الكتاب في معظم فصولها. كذ

3- ابن حجر⁽²⁾ وأهم ما كتبه في التاريخ والتراجم "إنباء الغمر بأبناء العمر" وكتاب "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" ويعتبر هذا الكتاب هام؛ لأن صاحبه كانت له علاقة مع بعض السلاطين في عصره وكان يحب الرحلة ليجمع الأخبار من مصر والشام والحجاز واليمن ولقد أفاد الباحث من هذا الكتاب في فصول الدراسة.

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد أفاد الباحث في رسالته من مصادر أخرى لاتقل أهميتها عن المصادر السابقة:

ابن العديم، كمال الدين بن القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م).

("بغية الطلب في تاريخ حلب".⁽³⁾)

("زبدة الحلب في تاريخ حلب".⁽⁴⁾)

(1) الذهبي : هو شمس الدين محمد ولد بدمشق سنة 673هـ 1211م برع في علوم الحديث والقراءات والتاريخ صنف مصنفات عديدة بلغت حوالي مائة مصنف وفي عام 741هـ 1340م فقد بصره فانقطع عن التأليف وكتب على التدريس بمدارس دمشق حتى وفاته سنة 748هـ / 1340م الذهبي سير، ج1 مقدمة المحقق ص13-15 ابن تغري، النجوم ج10 ص 144-145 ابن العماد شذرات ج3 ص 153-155

(2) ابن حجر ابن حجر أحمد بن علي المصري ولد في القاهرة (ت853هـ/1449م) ويعتبر من كبار المؤرخين في عصره، وتميز بثقافة واسعة واهتم بدراسة الحديث والتاريخ، مقدمة المحقق، ج1، ص7-9.

(3) ابن العديم، عمر بن أحمد، بغية الطلب في تاريخ حلب، ١٢ جزء، تحقيق، سهيل زكار، (بيروت، دار الفكر)، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م). حاجي خليفة، كشف الظنون، ج1، ص249.

(4) ابن العديم، عمر بن أحمد، بغية الطلب في تاريخ حلب، ١٢ جزء، تحقيق، سهيل زكار، (بيروت، دار الفكر)، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م). ابن خلكان، وفيات، ج7، ص89. حاجي خليفة، كشف الظنون، ج2، ص952.

النويري⁽¹⁾ ، أحمد بن عبد الوهاب (ت 733 هـ / 1332م) ، "نهاية الأرب في فنون الأدب". و عدد أجزاء هذا الكتاب ثلاثين جزءاً طبع منها سبع وعشرين جزءاً ويعد موسوعة تاريخية وإدارية وجغرافية، وقد استفاد الباحث منها في الدراسة وخاصة في الجانب المتعلق بالاراضي الزراعية وأوضاع الفلاحين في القرى والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية. كتاب ضخمة، وهو عبارة عن موسوعات. جمع فيه النويري خلاصة التراث العربي في شقّيه، الأدب والتاريخ، وأنجزه قبل عام (721هـ/1320) أفاد منه الباحث في الرسالة خاصة الفصل الثاني الذي يتعلق بالنواحي الاقتصادية

ج- كتب الرحالة الأجانب.

واعتمد الباحث على العديد من كتب الجغرافية، وكتب الرحلات التي أفادت الدراسة في معظم فصولها ، وأشارت إلى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والدينية في فلسطين خلال مدة الوجود الصليبي وفي العهد المملوكي ومن أهم هذه المصادر.

1. **ثيودريش theodrich** ⁽²⁾ الذي صنف رحلته تحت اسم " description of the holy land و اعتمدت على الترجمة التي قام بها سعيد البيشاوي ورياض شاهين تحت عنوان "وصف الأماكن المقدسة في فلسطين " وأفاد الرحالة في ذكره للعديد من الإشارات الاجتماعية ، فوصف عيد سبت النور .
2. **بنيامين التطيلي Benjamin of tudela** ⁽³⁾ وقد شملت رحلته الكثير من الدلالات المفيدة عن المدن والأعمال التي سادت والحرف التي مارسها اليهود وكذلك أعدادهم ، كما أفادت من معلومات التي أوردها الرحالة عن اليهود في أثناء الحقبة الصليبية وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية.

(1) ينظر: إبراهيم، الحياة الاجتماعية، ص 26-27

(2) ثيودريش: لم يذكر سوى اسمه الأول ولم تسعفنا المصادر المعاصرة بالمعلومات الكافية عن نسبه ومكان مولد ونشأته أو عن الأعمال التي مارسها ووجد ثيودريش في فلسطين في سنة 559هـ/1164م وقد كتب رحلته على شكل كتاب دونه بعد عودته إلى ألمانيا وبعد أن انتصار المسلمين في معركة حطين 583هـ/1187م . ثيودريش ، وصف ، مقدمة المؤلف ، ص 11-15.

(3) بنيامين: رحل إلى الشرق من مدينة طيطة وزار مناطق جنوب فرنسا وإيطاليا واليونان والقسطنطينية و بلاد الشام والعراق ومصر واليمن ثم عاد إلى اسبانيا وكانت رحلته بين سنتي 561-569هـ/1156-1173م. بنيامين، الرحلة، مقدمة، المؤلف، ص 138-148.

3. بورشارد Burchard⁽¹⁾ Description of the holy land واعتمد الباحث على

الترجمة العربية التي قام بها سعيد البيشاوي لهذه الرحلة بعنوان وصف الأراضي المقدسة واعتبرها الكاتب من أهم الرحلات وأفادت لدراسة في جميع الفصول حيث ذكر بورشارد. البنية السكانية في فلسطين وأشار إلى التنوع والاختلاف فيها وما يميزه عن غيره من الرحالة الذين زاروا الأراضي المقدسة الإشارة إلى العناصر البدوية والتركماني، الذين مارسوا تربية الماعز والماشية وحياة التنقل وعدم الاستقرار وتطرق لبعض عادات العناصر السكانية في فلسطين حيث ذكر أن المسلمين لا يعتادون شرب النبيذ والخمر كما هو سائد عند المسيحيين وتعمق في وصف الأوضاع الاقتصادية لفلسطين خلال فترة الحروب الصليبية وتصدي المماليك لهم وأشار إلى أهم الصناعات التي اعتمدت على الزراعة .

4. فابري⁽²⁾ وجاء اسم رحلاته "جولات الراهب فيلكس فابري ورحلاته" تأتي أهمية هذه

الرحلات أن فابري دون فيها مشاهداته مع ما قرأه وسمعه وكذلك من صور أهميتها أنها جاءت قبل اكتشاف أمريكا، وانتهاء العصور الوسطى في أوروبا بعقد من الزمن، وتمت في أواخر العهد المملوكي، وقبل سيطرة العثمانيين على بلاد الشام ومصر بحوالي الربع قرن من الزمن، وأفادت من هذه الرحلات في جميع فصول الدراسة خاصة وأن مؤلفها أشار للكثير من الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية

(1) بورشارد : كان مواطناً ألماني من بلدة سترازبورغ وقد اشتغل في سلك الرهبنة وأصبح راهباً في هيئة الدومينيكان التي إست عام 1215م ذهب بورشارد إلى الشرق عام 630هـ/1232م وقد قام بزيارة أرمينيا وسوريا ومصر ويقال انه أمضى في جبل صهيون نحو عشر سنوات وانه لم يعد إلى أوروبا حتى أواخر عمره غير إن تاريخ وفاته غير معروف .بورشارد ،وصف ،مقدمة المؤلف ،ص16،17.

(2) جولات الراهب فيلكس فابري، ألمانياً معتداً ومتعصباً لها أكثر من اعتداده بانتمائه إلي رهبان الدومينيكان قام برحلتين إلي فلسطين كانت أولها قصيرة حدثت سنة 1480م وكانت الثانية طويلة استغرقت عام 1483م، مقدمة المؤلف، ص 4. زيادة، نقولا، فيلكس فابري في فلسطين، ص192-203.

تمهيد

الإطار التاريخي

الإطار الجغرافي

الإطار الإداري

الإطار التاريخي:

قبيل سيطرة المماليك على بلاد الشام كان أبناء البيت الأيوبي مفككين ومتصارعين على الحكم بعد صلاح الدين الأيوبي و في هذه الفترة بدأت المراسلات بينهم و بين الصالح نجم الدين أيوب لتصفية بعض الخلافات بينهم مقابل حصول نجم الدين على بعض الامتيازات في بلاد الشام، ولكن هذه المراسلات، فشلت حيث ذكر: "وأنة لم يقع اتفاق، وعادت الفتنة بين الملوك، فانفق الناصر داود صاحب الكرك، مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق، على محاربة الملك الصالح نجم الدين وعاد رسول حلب، وتأخر ابن القطب بالقاهرة، فبعث الناصر داود والصالح إسماعيل، ووافقا الفرنج على أن يكونوا عوناً لهم على الملك الصالح نجم الدين، ووعداهما أن يسلما إليهما القدس وسلماهما طبرية وعسقلان أيضاً فعمر الفرنج قلعتيهما وحصونهما، وتمكن الفرنج من الصخرة بالقدس، وجلسوا فوقها بالخمير، وعلقوا الجرس على المسجد الأقصى" (1).

وبهذا تتضح لنا الأوضاع في بلاد الشام عامة وفلسطين خاصة ودرجة الانحطاط التي وصلت إليها الدولة الأيوبية المسيطرة على بعض أجزاء فلسطين؛ عدا ما كان تحت يد الفرنجة. ممّا أثار الصالح أيوب — صاحب مصر— و دفعه إلى التوجه من القاهرة و الاتصال بالخوارزمية (2) يستدعيهم لمحاربة بقايا الأيوبيين المفككين في الشام (3) و بالفعل تقدمت الخوارزمية عبر الفرات و قد ذكر أن عددهم عشرة آلاف مقاتل و انضمت عساكر الصالح نجم الدين إليهم، و قد ذكر المقرئ أنهم وصلوا إلى غزة بعد أن حرروا القدس و قتلوا من بها من النصارى (4) وقد لعب الصالح نجم الدين أيوب دوراً غير مباشر في قيام الدولة المملوكية عن طريق الإكثار من شراء المماليك (5). و من أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور المماليك على الساحة قدوم الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع (القديس لويس) ملك فرنسا و كان هدف الحملة الرئيس هو الاستيلاء على فلسطين و استعادة القدس (6) و لكن المماليك البحرية أنقذوا الموقف بهزيمة الصليبيين الذين تفرقوا في دروب المنصورة و أوسعوهم قتلاً، حتى انتهت المعركة بهزيمتهم، ولا شك أن موقعة المنصورة أعادت الثقة إلى نفوس المسلمين فقيوت عزائمهم وتطلعوا إلى استئصال شأفة الغزاة (7)

(1) ابن واصل، مفرج، ج5، ص359-365. المقرئ، السلوك، ج1، ص417-418.

(2) مقاتلين نسبة إلى خوارزم من بلاد خراسان. ينظر: الأصبهاني، معجم، ج2، ص515.

(3) ابن واصل، مفرج، ج1، ص418.

(4) ابن واصل، مفرج، ج1، ص419. ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص323.

(5) ابن تغري، النجوم، ج6، ص319. المكي، سمط، ج4، ص17. زكار، فلسطين، ص537. ينظر: شلبي محمود، حياة الظاهر بيبرس، ص11-16.

(6) زكار، فلسطين، ص537.

(7) المقرئ، السلوك، ج1، ص437. عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص123.

وفي أثناء هذه المعركة كان الملك الصالح نجم الدين أيوب مريضاً فحمل إلى قلعة المنصورة التي توفي فيها سنة 648هـ / 1249م⁽¹⁾، وتولى بعده ابنه توران شاه الذي أساء معاملة المماليك فقتل بسبب ذلك، ويذكر المقرئزي أنه "أخذ في إبعاد رجال الدولة"⁽²⁾ مما أدى إلى قتله في النهاية بصورة مروعة، وصفها المقرئزي "و قطعوه بالسيوف قطعاً حتى مات جريحاً حريقاً غريقاً... و ترك المعظم على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخاً لا يقدر أحد أن يتجاسر على دفنه"⁽³⁾ وجاءت بعده شجرة الدر وهي "أول من ملك مصر من ملوك الترك" بعد مقتل توران شاه⁽⁴⁾. وحسب ما تقدم فإن المقرئزي يعتبر شجرة الدر هي أول سلاطين المماليك في مصر و لكنها لقيت معارضة شديدة من الخليفة في بغداد الذي أرسل لهم كتاباً يقول فيه "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم... نسيروا إليكم رجلاً"⁽⁵⁾ ووقع الاختيار بعد ذلك على المعز عز الدين أيبك⁽⁶⁾ و بعد مقتله تولى ابنه الملك المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك قبل أن يقبض عليه الملك المظفر سيف الدين قطز و يتولى السلطنة⁽⁷⁾

و بالفعل كان وصول السلطان قطز إلى الحكم نقطة تحول تاريخية هامة في الدولة المملوكية الناشئة في مصر و الشام: لأنه بوصوله إلى الحكم بدأت جموع التتار بالوصول إلى مشارف الشام و تهديد مصر، وفي عام 656هـ / 1257م بدأ الاستيلاء على بغداد و "قتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة... وأنقضت دولة بني العباس"⁽⁸⁾ وكان أول وصول لهم إلى مدينة حلب فقتلوا عدداً كبيراً من سكانها بعد أن ملكوا ما بينها وبين بغداد من المدن والقرى⁽⁹⁾

و في عام 658هـ / 1260م حاصر التتار قلعة دمشق و استولوا عليها "و تسلموا بعلبك وأخذوا نابلس و نواحيها بالسيوف"⁽¹⁰⁾ ووصل التتار إلى غزة و قد عزموا الدخول إلى مصر و عليهم كتبغا بعد أن ألحقوا الخراب بالبلاد و العباد⁽¹¹⁾، وتجدر الإشارة إلى كيفية سيطرة التتار على المدن

(1) المقرئزي ، السلوك ، ج 1 ، ص 437. عاشور، العصر المماليكي، ص 7.

(2) المقرئزي ، السلوك ، ج 1 ، ص 457

(3) المقرئزي ، السلوك ، ج 1 ، ص 458

(4) المصدر نفسه ، ج 1 ن ص 459

(5) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 464

(6) المصدر نفسه / ج 1 ، ص 463

(7) المصدر نفسه / ج 1 ، ص 493 ، ص 495 ، ص 507

(8) ابن كثير ، البداية ، ج 13 ، ص 220

(9) المكي ، سمط ، ج 3 ، ص 526

(10) الذهبي ، العبر ن ج 5 ، ص 242. العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص 147.

(11) ابن كثير ، البداية ، ج 13 ، ص 220. العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص 148.

الفلسطينية فقد بلغت غارتهم غزة و الخليل فقتلوا الرجال وسبوا النساء والصبيان وأخذوا الأسرى كل ذلك والسلطان قطز في مصر يتهيأ للقاء التتار⁽¹⁾ وأول هزيمة تلقاها التتار في غزة على يد الظاهر بيبرس حيث هزم قائدهم بيدرا وطارد المغول حتى نهر العاصي⁽²⁾ وكان لوصول المماليك إلى فلسطين واستيلائهم على غزة رد فعل قوي عند المسلمين في كافة مدن الشام⁽³⁾ ثم توجه بعد ذلك الملك المظفر قطز " بعساكره من غزة و نزل الغور بعين جالوت و فيه جموع التتار في يوم الجمعة 25 رمضان سنة 658هـ / 1260م " ووقع المصاف بينهم في اليوم المذكور و تقاتلا قتالاً شديداً لم ير مثله حتى قتل من الطائفتين جماعة كثيرة " ⁽⁴⁾ و بالفعل انتصر المسلمون " و انكسر التتار وولوا الأدبار على أقبح وجه بعد أن قتل معظم أعيانهم ... و تبعهم الأمير ركن الدين بيبرس... إلى أطراف البلاد "⁽⁵⁾ وهذه الأحداث تبين لنا كيفية دخول فلسطين تحت السيطرة المملوكية ،وربما كان السبب الذي دفع هؤلاء المماليك للسيطرة على بلاد الشام بشكل عام وفلسطين بشكل خاص الخطر الخارجي الذي تمثل في المغول وهجومهم على بلاد الإسلام ومحاولاتهم للسيطرة على مصر .

ثم بدأت مرحلة مهمة من تاريخ فلسطين في عهد المماليك و هي تصفية الوجود الصليبي الذي استمر منذ عهد السلطان بيبرس هـ 659 / 1261م إلى عهد الاشراف خليل بن قلاوون وتدمير آخر معاقل الصليبيين في سنة 690هـ / 1291م و هو مدينة عكا ⁽⁶⁾

الإطار الجغرافي⁽⁷⁾

قسم الجغرافيون المسلمون فلسطين عدة أقسام من حيث سطحها الطبيعي، وحدودها وخاصة في العهد المملوكي، ومن المعروف إن فلسطين قبل سيطرة المماليك عليها كانت تحت حكم الأيوبيين ولم تكن واضحة المعالم الجغرافية بسبب سيطرة الفرنج على جزء منها. واهم هذه الأقسام أربعة وهي: السهل الساحلي ومن أهم مدنها: غزة و الرملة واللد وقاقون⁽⁸⁾

(1) ابن تغري، النجوم، ج7، ص77

(2) نهر العاصي ويقال له المقلوب لأنه يخالف أنهار الدنيا كلها لأنه يجري من الجنوب إلى الشمال ومخرجه من أرض بعلبك ويمر بحمص وحماه وأنطاكية ثم يصب في البحر، ينظر: ابن أبي جرادة، بغية الطلب، ج1، ص390.

(3) المقرئزي، السلوك، ج1، ص515. ابن تغري، النجوم، ج7، ص77، 79. عاشور، العصر المماليكي، ص33. العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص161.

(4) ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص79. العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص161-162.

(5) ابن تغري بردي، ج7، ص79. ينظر: الغامدي، جهاد المماليك، ص126-132

(6) انظر: زكار، فلسطين، ص545-555. ينظر خريطة(10)

(7) ينظر خريطة(9)

(8) القلقشندي، صبح، ج4، ص102، ص103، ص104. المقدسي، التقاسيم، ج1، ص171. العمري، مسالك، ج3، ص319 حصن بفلسطين قرب الرملة وقيل هو من عمل قيسارية من ساحل الشام، ينظر: الحموي، معجم، ج4، ص299

والمنطقة الجبلية وهي غنية بالجبال والشجر وقرى وعيون الماء والمزارع ومن أهم مدنها بيت جبريل⁽¹⁾ وإيليا⁽²⁾ و نابلس واللجون⁽³⁾ و قدس⁽⁴⁾ و البقاع⁽⁵⁾ وهو الشئ الذي أكد عليه القلقشندي وذكر المنطقة الجبلية وبها ثلاثة أعمال: عمل القدس والخليل ونابلس⁽⁶⁾

أما القسم الثالث فهو الأغوار الغنية بالقرى والأنهار⁽⁷⁾ وهي عشرة أعمال⁽⁸⁾ وقد ذكر في حدودها من الجنوب جبال الغور المجاورة لمرج بني عامر ومن الشرق البرية ومن الشمال حدود ولاية دمشق ومن الغرب الأغوار إلى بلاد الشقيف⁽⁹⁾ ومن أعمالها بيسان وبانياس⁽¹⁰⁾ وعمل نوى و عمل أذرع⁽¹¹⁾ وعمل عجلون⁽¹²⁾ و البلقاء⁽¹³⁾ وصرخد⁽¹⁴⁾

(1) بيت جبرين لغة في جبريل بليد بين بيت المقدس وغزة وبينه وبين القدس مرحلتان وبين غزة أقل من ذلك وبين بيت جبرين وعسقلان واد يزعمون أنه وادي النملة التي خاطبت سليمان بن داود عليه السلام، ينظر: الحموي، معجم، ج1، ص519.

(2) إيلياء اسم مدينة بيت المقدس قيل معناه بيت الله، وقد سمي البيت المقدس إيلياء بقول الفرزدق وبيتان بيت الله نحن ولاته وقصر بأعلى إيلياء مشرف وقيل إنما سميت إيلياء باسم بانيها وهو إيلياء بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، ينظر: الحموي، معجم، ج1، ص293.

(3) اللجون واللجن واللزج واحد وهو بلد بالأردن وبينه وبين طبرية عشرون ميلا وعن الرملة بفلسطين أربعون ميلا، ينظر: الحموي، معجم، ج5، ص13.

(4) قدس بلد بالشام قرب حمص فتحها شرحبيل بن حسنة، وإليه تضاف بحيرة قدس، ينظر: الحموي، معجم، ج4، ص311.

(5) المقدسي، التقاسيم، ج1، ص171. العمري، مسالك الأبصار، ج3، ص319. والبقاع تشمل الكثير من المناطق في الشام ينظر: المقدسي، التقاسيم، ج1، ص142.

(6) القلقشندي، صبح، ج4، ص104، ص105، ص106 – ص107. العمري، مسالك الأبصار، ج3، ص319

(7) المقدسي، أحسن التقاسيم، ج1، ص171

(8) العمري، مسالك، ج3، ص319

(9) القلقشندي، صبح، ج4، ص107، وهو قلعة حصينة جدا في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل، ينظر: الحموي، معجم، ج3، ص356.

(10) بلدة تقع بين دمشق وصور، ينظر: الحموي، معجم، ج2، ص14.

(11) ذكر العمري أنها البثنة وهو اسم ناحية من نواحي دمشق ولكن الحموي ذكر أن البثنية قرية بين دمشق وأذرع ينظر: مسالك، ج3، ص319. معجم، ج1، ص338.

(12) عجلون من أعمال الأردن، وهي على جبل مطلق على الغور ينظر: العمري، مسالك، ج3، ص319.

(13) البلقاء كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى قصبتهما عمان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة وبالبلقاء مدينة الشراة شراة الشام أرض معروفة ينظر: الحموي، معجم، ج1، ص489.

(14) صرخد بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة، ينظر: الحموي، معجم، ج3، ص401.

وبصري⁽¹⁾ أما القسم الرابع فإن الكثير من مناطقه وقراه لا تقع في فلسطين سوي بعض أطراف المنطقة، التي ذكرها المقدسي وهي " والصف الرابع سيف البادية وهي جبال عالية باردة معتدلة ذات قرى و عيون و أشجار يقع فيه من البلدان موآب و عمان و أزرعات و دمشق و حمص و تدمر و حلب ... و سرت الأرض المقدسة في الجبال المطلة على الساحل " (2). ولعلنا ندرك مما تقدم الصورة الجغرافية، والأقسام الطبيعية التي تشكلت منها فلسطين، والتي لها أثر مباشر على البنية السكانية التي سنلاحظها في الفصول القادمة .

ولقد كسبت فلسطين أهميتها المباشرة عند الجغرافيين العرب لعدة أسباب : فهناك مكانتها الدينية العريقة ، ووجود العديد من المنشآت العمرانية والبقايا الأثرية التي تخدم هذا الجانب، وهناك موقعها الجغرافي الممتاز فهي بوابة القادمين من آسيا في طريقهم إلى إفريقيا عبر مصر و بالعكس وهي إحدى المنافذ الآسيوية المطلة على البحر المتوسط باتجاه أوروبا و هي الممر الذي لا بد من اجتيازه منذ قرون لمعظم القوافل المتحركة من الشمال إلى الجنوب و من الجنوب إلى الشمال ، وهي فضلاً عن هذا وذاك ذات مكان وسط عبر مساحات العالم القديم على المستويات السياسي والعسكري والحضارية .⁽³⁾ فقد وصفها صاحب تقويم البلدان " هي كورة كبيرة تشتمل على بيت المقدس و غزة وعسقلان ... و فلسطين أرخى بلدان الشام مدينتها العظمى الرملة " (4) و قد وصف ابن بطوطة مدينة الرملة بفلسطين في قوله " وهي فلسطين مدينة كبيرة ذات خيرات حسنة الأسواق " (5)

مما سبق يتضح لنا أن هذا الموقع الجغرافي قد انعكس على جميع جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية . وبذلك نكون قد قدمنا بشكل سريع وصفا لجغرافية فلسطين الطبيعية والتي تمثلت في السهل والجبل والأغوار والصحراء بما حوته تلك الأقسام من مدن وأنهار وبحار وبحيرات .

الإطار الإداري:

بعد الحديث عن الإطار الجغرافي للبحث يجب التطرق للإطار الإداري لأن فلسطين في العصر المملوكي كانت لها خصوصية حيث أنها كانت تنقسم إلى ثلاثة نيابات وهي نيابة غزة، والقدس

(1) العمري ،مسالك ،ج3،ص319،ص320،ص32.القلقشندي:صبح ، ص107- ص109.بصري ذكر أنها حوران ينظر: العمري،مسالك،ج3،ص319.

(2) أحسن التقاسيم ، ج 1 ، ص 171

(3) خليل ، عماد الدين : " فلسطين ، ص 183 ، ص 43

(4) أبي الفداء ، ص 337

(5) رحلة ، ج 1 ، ص 80

وصفد⁽¹⁾ وذكر ابن شداد نشأة نيابة صفد بعد أن فتحها الظاهر بيبرس بقوله: " ثم رتب السلطان فيها والياً ... وجعل فيها أربعة وخمسين مملوكاً من مماليكه، واقطعهم بلدها إقطاعاً ... وسير نيابته في بلدها " ⁽²⁾ وعلى ما يبدو أن حدود نيابة صفد كانت في أقصى اتساعها في العصر المملوكي كما يلي⁽³⁾: حدها من الغرب البحر المتوسط، ومن الشمال حوض نهر الزهراني، و من الشرق طرف مرج عيون⁽⁴⁾، امتداداً حتى نهر الحاصباني، ثم مجرى نهر الأردن حتى جسر الصنبرة⁽⁵⁾، ومن الجنوب أطراف مرج ابن عامر حتى البحر المتوسط ومن الواضح أن أراضي نيابة صفد هذه قد احتلت مكاناً استراتيجياً في وسط بلاد الشام، و كانت تمتلك الموارد والإمكانيات⁽⁶⁾ ولقد اختلفت الآراء حول ظهور نيابة غزة فوردت نصوص تاريخية مختلفة حول نشأتها، فالبعض يذكر أنها نشأت منذ زمن الظاهر. والمقريزي يذكر في حوادث 680هـ / 1281م قوله: " ثارت العشران⁽⁷⁾ ونهبوا نابلس، وقتلوا مقتلة عظيمة، فركب الأمير علاء أيدكين الفخري⁽⁸⁾ من غزة و قبض على جماعة منهم، و شنق اثنين وثلاثين من أكابرهم، وسجن كثيراً منهم بصفد، ورتب الأمير علاء الدين أيدغدي الصرخدي⁽⁹⁾ نائباً بالبلاد الغزاوية والساحلية لردع العشير " ⁽¹⁰⁾ ولقد تحدث ابن شداد في الأعلام عن

(1) صفد فقد فتحها الظاهر بيبرس في سنة 664هـ " نزل على صفد في ثامن رمضان و أخذت في أربعين يوماً بخديعة

الذهبي ، العبر ، ج 5 ، ص 275، ابن العماد ،شذرات ، ج 5 ، ص 314

(2) الأعلام الخطيرة نقلاً عن زكار، ص 556

(3) الفلقشندی ، صبح ، ج 4 ، ص 246

(4) تقع على ساحل الشام ،ينظر، الحموي ،معجم، ج 5، ص 101

(5) الصنبرة: موضع بالأردن مقابل لعقبة أفيق بينه وبين طبرية ثلاثة أميال والصنبر بكسر الباء البرد ،ينظر: الحموي ،معجم، ج 3، ص 425.

(6) انظر: زكار ،فلسطين، ص 557

(7) هو لفظ أطلقته مصادر التاريخ المملوكي علي القبائل البدوية التي سكنت الشام أو مصر والبعض ميز بين العشير

والعربان: ينظر، المقريزي، السلوك، ج 2، ص 151. الفلقشندی، صبح، ج 3، ص 156، الذهبي، من ذبول العبر، ج 6، ص 317

(8) أيدكين الأمير علاء الدين الصالحي نائب قوص كان بطلاً شجاعاً مشهوراً من كبار الأمراء المصريين ضابطاً وخلف أموالاً عظيمة وكان من مماليك الصالح أيوب توفي سنة خمس وسبعين وستمائة، ينظر: الصفدي، الوافي ، ج 9، ص 274 .

(9) الأمير علاء الدين الأعمى أيدغدي ناظر أوقاف القدس والخليل أنشأ العمائر والربط بالقدس والخليل وكان من أحسن الناس سيرة وأجملهم طريقة عمر الأوقاف في أيامه وتضاعف مغلها وقيل إنه كان إذا مر به فرس من خيله عرفه وقال هذا من خيلي توفي بالقدس سنة 693هـ / 1293م ينظر: الصفدي، الوافي ، ج 9، ص 274 .

(10) السلوك ، ج 2، ص 151

غزة فقال: "وهي في عصرنا الذي وضعنا فيه الكتاب، فيها نواب مولانا السلطان الظاهر ركن الدنيا و الدين بيبرس الصالحي" (1).

وقد أهتم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بنيابة غزة، حتى ذكر أنه "هو الذي مصرها وجعلها على هذه الهيئة. وكانت كإحدى قرى بلاد الشام و جعل لها نائباً... ولم تكن قبل ذلك إلا ضيعة من ضياع الرملة" (2). ويلاحظ مما سبق أن مدينة غزة أصبحت في سنة 711هـ/ 1311م نيابة في عهد الناصر محمد بن قلاوون، الذي عين لها نائباً وجعلها مدينة كبيرة، بعد أن كانت ضيعة (3).

و قد وصفها الرحالة المغربي العبدري الذي زار غزة في أيام الأشرف خليل بن قلاوون فقال: "وغزة مدينة متسعة عامرة لا سور لها، وبينها وبين البحر مسافة أميال، و هي أكثر عمارة من كل ما تقدم ذكره من بلاد الشام، وهي جسر إلى مصر و إلى الشام، وبها أسواق قائمة، ومساجد معمورة و لها جامع مليح حسن، لكنها قد عريت من عالم أو متعلم، وأفقرت من فقيه و متكلم، فهي عامرة و قائمة دائرة" (4) وبهذا النص قد تم نفي رواية صاحب النجوم الزاهرة التي وصف غزة بأنها ضيعة تتبع مدينة الرملة، بل كانت مدينة مزدهرة فيها الجوامع والأسواق. وربما كانت رواية ابن شداد هي أقوى الروايات التي تذكر أن مدينة غزة أصبحت نيابة منذ عهد الظاهر بيبرس؛ لأنها تعتبر البوابة الرئيسية الموصلة إلى مصر مركز السلطنة المملوكية، و لكن السبب الذي دفع لهذا الاختلاف بين المؤرخين، ربما أنها كانت نيابة صغيرة، و تطورت و بلغت ذروتها على عهد الأشرف خليل بن قلاوون. أما عن نيابة بيت المقدس فقد ذكر في معاهدة سنة 682هـ/ 1283م بين السلطان قلاوون والصليبيين ما يدل على أن مدينة القدس كانت نيابة. فذكر في هذه المعاهد "و ثغر غزة المحروسة و ما معها من الموانئ و البلاد... و مملكة بلاد الخليل صلوات الله عليه و سلامه و مملكة القدس الشريف و أعمالها" (5). و هذا يؤكد أن القدس كانت في تلك الفترة نيابة كغيرها من النيابات، أما القلقشندی فقد ذكر أنها أصبحت نيابة في سنة 777هـ/ 1375م (6)، و يذكر البعض أنها أصبحت نيابة في عهد الظاهر برقوق (7) سنة 796هـ/ 1393م بسبب ظهور تيمورلنك

(1) الأعلام الخطيرة نقلاً عن زكار، ص 573

(2) ابن تغري بردي، النجوم، ج 9، ص 19

(3) زكار، فلسطين، ص 573

(4) رحلة، نقلاً عن زكار، فلسطين، ص 573، ص 574

(5) المقرئزي، السلوك، ج 2، ص 166.

(6) القلقشندی، صبح، ج 4، ص 205، 206. لمزيد، ينظر: النقر، القوي الفاعلة في المجتمع، ص 114-115.

(7) قام بدولة الشراكسة جلبي عثمان بن مسافر فلذلك يقال له برقوق العثماني فاشتراه الأتابك يلغا العمري وهو من جملة الأتراك الذين مسهم الرق ممالك بني أيوب وإنما سمي برقوق لحوظ في عينية وقلبت به الأحوال إلى أن صار أمير

وزيادة خطره⁽¹⁾ وهو الرأي الراجح بسبب ما قام به السلطان برقوق من إصلاحات، حيث ذكر الحنبلي " وفي أيامه عمرت دكة المؤذنين بالصخرة الشريفة تجاه المحراب إلى جانب باب المغارة بمباشرة ناظر الحرمين ونائب القدس "⁽²⁾

مائة فقام بخلع الملك الصالح حاجي وتولي السلطنة بعد سنة ونصف في يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة 784هـ/1382م، ينظر: المكي، سمط، ج 4، ص 38-40. الشوكاني، البدر، ج 1، ص 162-163.

⁽¹⁾ المقرئزي، السلوك، ج 5، ص 166. العلمي، الأئس ج 2، ص 94.393. ينظر: ابن عرب شاه، عجائب المقدور، ص 97.

⁽²⁾ العلمي، الأئس ج 2، ص 94

الفصل الأول

مناظر المجتمع الفلسطيني في العهد المملوكي

طوائف السكان الدينية

المسلمون

النصارى

اليهود

أقسام السكان من حيث نمط المعيشة

المدن

القرى

البدو

العوامل المؤثرة على البنية السكانية

الحروب

الكوارث الطبيعية

الأوبئة والمجاعات

طوائف السكان الدينية :

كانت فلسطين كبقية أجزاء الدولة المملوكية تتكون من مجموعة من العناصر السكانية التي تختلف حسب المسكن و طبيعة الأرض، وكانت الكثافة السكانية تختلف أيضاً من وقت إلى آخر، و هذا بسبب عوامل عدة سنتطرق لها بالتفصيل لاحقاً أثناء الحديث عن الحروب و الأوبئة التي كانت تأتي على المنطقة الشامية— و منها فلسطين — بشكل مستمر، والاضطرابات التي تميز بها في العصر المملوكي، و عدم ثبات الأوضاع السياسية. وقد زار فلسطين عدد من الرحالة وذكروا العديد من العناصر السكانية في المدن الفلسطينية التي كونت البنية السكانية لفلسطين فذكروا المسلمين، واللاتين، والسريان، واليونان، واليعاقبة، و الأرمن، والجورجيين، والفرس والمصريين المماليك و اليهود المسيحيين اللاتين، والتركمان، والبدو، والحشيشية، والمحمديين⁽¹⁾.

و أشار البعض إلى عناصر سكانية كانت تنضم للمدن بعد فتحها فقد ذكر المقرئزي تحت حوادث سنة 820 هـ/1417م دخول نواب الشام و منهم نائب صفد على السلطان بصحبته العربان و التركمان⁽²⁾. مع العلم أنه يجب التطرق إلى أصل السكان في فلسطين فقد ذكر اليعقوبي (ت284هـ—/897م) في حديثه عن سكان فلسطين أنهم أخلاط من العرب ، من لخم و جذام ، وعاملة و كندة ، وقيس وكنانة⁽³⁾

المسلمون

قبل الحديث عن سكان فلسطين من المسلمين في العهد المملوكي، يجب التطرق إلى الأيوبيين و دورهم في تحرير المدن من أيدي الصليبيين، حيث كان للغزو الصليبي دور كبير في طرد المسلمين من العديد من مدن فلسطين. وهذا أثر على أعدادهم فقد ذكر أبو شامة كيف استطاع المسلمون فتح المدن و سكنوها مرة أخرى فقال: " و قد جاس المسلمون خلالها واستوعبوا ثمارها و غلالها " ⁽⁴⁾. و قد ذكر ابن جبير عام 580هـ / 1184م كيف أصبحت المدن الفلسطينية خالية من السكان عقب الغزو الفرنجي لها في قوله " و اجمعوا على دفع البلاد و الخروج منها بسلام فكان ذلك. وتفرقوا في بلاد المسلمين " ولكنهم لم يتركوها بشكل مطلق فقد ذكر أيضاً في نفس النص " منهم من استهواه حب الوطن فدعاه إلى الرجوع و السكن بينهم بعد أمان كتب لهم في ذلك ⁽⁵⁾ وهذا يؤكد أن أغلبية سكان

(1) بور شارد ، وصف ، ص 170 ، ص 173. فابري ، رحلة، ق4، ج38، ص 1188 ، ص 1196

(2) السلوك ، ج 6 ، ص 438

(3) البلدان ، ص 168. معجم البلدان ، ج 3 ، ص 54 ، ص 55

(4) الروضتين ، ج 3 ، ص 318

(5) رحلة ، ج 1 ، ص 213 ، ص 214

القرى والضياح كانوا من المسلمين، حيث ذكر أن نابلس كان أهل ضياحها معظمهم من المسلمين في سلك الرعية مع الفرنج منتظمين، وهم يجبون منهم الضرائب كل عام (1).

و قد لعب صلاح الدين دوراً في إعادة المسلمين للمدن التي أخرجهم منها الصليبيون حيث أنها أصبحت شبه خاوية بعد خروجهم منها. ففي عام 587 هـ/1190م عندما توجه صلاح الدين إلى بيت المقدس، كان معه زهاء عشرة آلاف من الفقهاء والقراء الذين فضل بعضهم الإقامة فيها. وهذا يعتبر بداية تدفق العنصر المسلم للمدن الفلسطينية بعد فتحها (2).

و كانت أيضاً قد دخلت في العهد الأيوبي عناصر جديدة في التركيبة السكانية لفلسطين من المسلمين. وخاصة من الأكراد، والترك. فاقطع صلاح الدين نابلس لحسام الدين لاجين (3). في سنة 583 هـ / 1187م و أقطع طبرية صارم الدين قمياز النجمي (4) وأعاد تعميرها بعد توقيع صلح الرملة مع الصليبيين وأقطع علم الدين قيصر (5)، أعمال الخليل و الداروم و عسقلان و غزة و ما والاها. واتبع سياسة تهدف إلى توزيع الفلاحين في الأرض و تثبيتهم فيها و اقطع الناصر صلاح الدين الثاني الأمير ركن الدين بيبرس نابلس و جنين حرصاً من الأمراء الأيوبيين على تعمير الأرض والدفاع عنها (6). وطائفة الأكراد هذه كانت تعيش في الخليل حيث حصل في ما بينها وبين الدارية (7) فتنة، وقتل من الفريقين ثمانية عشر نفرًا وحدث هذا سنة 878 هـ/1473م (8) وهي السياسة التي أتبعها المماليك حيث ذكر المقرئ في حوادث 666 هـ / 1268م أن السلطان الظاهر بيبرس أعطى أحد أعيانه قرية، و ملكها إياها و أنزل التركمان بالبلاد الساحلية لحمايتها و " قرر عليهم خيلاً و عدة... وفيه رسم بتجديد عمارة الخليل" (9)، وعمل المماليك بعد فرض سيطرتهم على فلسطين لإعادة الطابع الإسلامي للمنطقة و إسكان عناصر مسلمة فيها بهدف إعمارها والدفاع عنها ضد أي غزو

(1) أبوشامة، الروضتين، ج3، ص316، 289، ج4، ص315، 332. العلمي، الأنس، ج2، ص269

(2) أبوشامة، الروضتين، ج3، ص171. ابن الأثير، الكامل ج10، ص158. علي، القدس، ص69

(3) الأمير حسام الدين محمد بن عمر بن لاشين أمه ست الشام بنت أيوب أخت صلاح الدين توفي ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان وهو فاتح نابلس سنة 583 هـ/1187م ابن كثير، البداية، ج12، ص347

(4) صارم الدين النجمي من أكابر ممالك نجم الدين أيوب و اعيان الدولة الصلاحية وكان عند الملك صلاح الدين الدين وهو الذي تسلم القصر حين مات العاضد: ينظر: أبوشامة، الروضتين، ج4، ص464. النجمي، الدارس ج1، ص441

(5) الشيخ الفقيه الرياضي علم الدين قيصر بن أبي القاسم عبد الغني بن مسافر الحنفي المصري المعروف بتعاسيف وكان إماماً في علوم الرياضة بالديار المصرية ودمشق: ينظر: ابن خلكان، وفيات ج5، ص315

(6) أبوشامة، الروضتين، ج3، ص316، 289، ج4، ص332. العلمي، الأنس، ج2، ص269

(7) أتباع الصحابي تميم الداري وسكنوا الخليل، ينظر: العلمي، الأنس، ج2، ص82.

(8) العلمي، الأنس، ج2، ص298

(9) المقرئ، السلوك، ج2، ص49

خارجي حيث أن المناطق الساحلية في عهد المماليك كانت تتعرض للهجوم من البحر في بعض الفترات المختلفة. و قد تعرض هؤلاء التركمان خاصة في نواحي قاقون⁽¹⁾ لغارة فرنجية سنة 670 هـ / 1271م، حيث قُتل عدد منهم و نهبت ممتلكاتهم. وقد استمر التركمان في هذه المنطقة كعنصر دخيل حتى وقت متأخر من العهد المملوكي وأوائل العهد العثماني، أما في شمال مدينة المملكة الصفدية فقد وجدت (جيني) التركمانية في ولاية بر صفا⁽²⁾، وحول نهر الأردن كما توطن قسم منهم في عكا في القرى الساحلية. أما الأكراد فقد كان قسم منهم في عكا و في بعض قرراها الساحلية، كما وجد قسم آخر في مدينة صفا، حيث كان لهم حارة تسمى باسمهم و في حارات أخرى منها كحارة الصواوين⁽³⁾ و قد عرف التركمان بالذات أنهم ساهموا بنصيب بارز في حركة الجهاد ضد الصليبيين منذ وقت مبكر، فعملوا جنوداً في جيوش أتابكة السلاجقة، ثم في جيوش الأيوبيين و المماليك⁽⁴⁾. وهذا يؤكد وجود هذه الطائفة في فلسطين كإحدى عناصر المجتمع الفلسطيني سواء أكان في العهد الأيوبي أو العهد المملوكي . والمؤكد أن اجتياح التتار للمناطق الشرقية في الدولة الإسلامية كان له آثار على التركيبة السكانية في فلسطين قبيل سيطرة المماليك عليها فقد ذكر أن التتار عملوا على إبادة سكان المناطق التي استولوا عليها، فقد كان كتبغا⁽⁵⁾ يعتمد في حروبه للمسلمين أشياء لم يسبقه أحد إليها، فكان إذا فتح بلداً ساق مقاتلة هذا البلد إلى البلد الآخر الذي يليه⁽⁶⁾، ففي سنة 625هـ / 1227م ذكر توجه التتار إلى بلاد الإسلام وخاضا عدة حروب مع السلطان جلال الدين خوارزم شاه ثم اتجه إلى الشام⁽⁷⁾. وبالفعل دفع جماعة من الخوارزمية إلى الاستقرار في بلاد الشام، ومنها فلسطين حيث استعان بهم الملك الصالح نجم الدين أيوب في تحرير بيت المقدس من الفرنج⁽⁸⁾، ومن الآثار التي ترتبت على دخول التتار بغداد سنة 656هـ / 1258م نزوح جماعات كبيرة من العراقيين إلى بلاد الشام ومصر، وكان لهذا أثره على المجتمع الفلسطيني ودخول شريحة جديدة من السكان إلى البنية السكانية

(1) قاقون حصن بفلسطين قرب الرملة وقيل هو من عمل قيسارية من ساحل الشام: ينظر، الحموي، معجم ج4، ص299

(2) ولاية من ولايات صفا تقع بالقرب من صور: ينظر، الذهبي، تاريخ، ج51، ص7

(3) ابن كثير، البداية ج13، ص261، الطراونة ، مملكة ، ص147 ، ص148

(4) ابن الأثير، الكامل ج8، ص71. الحموي، التاريخ المنصوري، ج1، ص207. الذهبي، العبر، ج3، ص276، ج4، ص70. ابن كثير، البداية، ج12، ص225-229. ابن تغري، النجوم، ج7، ص117، ج12، ص288. عاشور، العصر ، ص261

(5) كتبغا النوين المغلي كان عظيماً عند التتار يعتمدون عليه لرأيه وشجاعته وعقله وله خبرة بالحصارات وافتتاح الحصون وكان هولاء لا يخالفه ويتيمن برأيه وكان شيخاً مسناً يميل إلى النصرانية قاتل المسلمين في عين جالوت واسر ولم يعرف قاتل يوماً المصاف إلى أن قتل في سنة 658هـ/1260م، ينظر: الصفاي الوافي ج24، ص240

(6) المقرئزي السلوك ، ج1 ، ص351

(7) ابن واصل ، مفرج ، ج5، ص336 ، 337

(8) ابن واصل ، مفرج، ج5 ص336 ص337

ففي سنة 660هـ / 1261م قدم جماعات من البغاددة⁽¹⁾ مماليك الخليفة المستعصم⁽²⁾ الذين تأخروا بالعراق بعد قتل الخليفة، ومقدمهم سيف الدين سلار⁽³⁾ فأكرمهم السلطان الظاهر بيبرس، وأعطى الأمير سلار نصف مدينة نابلس. ومن العناصر السكانية التي استقرت في بلاد الشام المغول، وقد بدأت الهجرة المغولية منذ عهد السلطان ركن الدين بيبرس و السلطان المنصور قلاوون سنة 678- 689 هـ/ 1279-1289م حتى أن السلطان كتبغا (694هـ / 1294م - 696هـ/ 1296م) يرجع بأصله إلى الجنس المغولي وقد أُسر يوم وقعة حمص سنة 659 هـ / 1261م مع التتار الهولاونية⁽⁴⁾ وقد وصل إلى مصر أكثر من عشرة آلاف مغولي بما معهم من نساء و أطفال وماشيه وأنهم استقبلوا بالترحيب من السلطان كتبغا، وكانوا على غير دين الإسلام، فمنهم وثنيون وبوذيون مما أدى إلى نفور المصريين منهم، وكرهيتهم لهم، مما اضطر السلطان إلى إرسال أعداد كبيرة منهم إلى ساحل الشام في كل من عنتيت، والبقاع، والمرج، ودمشق وغيرها من البلاد⁽⁵⁾. ويلاحظ مما تقدم أن المجتمع الفلسطيني في العهد المملوكي كان مجتمعاً طبقياً يتكون من عدة عناصر مختلفة، وأهم طبقات هذا المجتمع طبقة المماليك والتي وجدت في زمن الأيوبيين و لكنها ظهرت على مسرح الأحداث بعد معركة عين جالوت 658 هـ / 1260م - وكان المماليك من الطبقة العسكرية التي سيطرت على البلاد وأهلها، ولهم في أصلهم ونشأتهم وترتيبهم طريقة ولهم أسلوبهم الخاص في الحياة، حيث لا يختلطون بأهالي البلاد مما جعل لهم خصائص وسمات تعزلهم عن محيط المجتمع الذي يعيشون فيه، وتثبت الشواهد التاريخية أن المماليك لم يكونوا جميعاً من أصل واحد، فالسلطان قطز من الخوارزمية والسلطان قلاوون قفجاق من قبيلة برج أعلى ببلاد القفجاق والسلطان كتبغا مغولي الأصل كما سبق⁽⁶⁾

(1) سكان بغداد الذين هاجروا إلى الشام أمام هجمات التتار: ينظر، المقرزي، السلوك، ج1، ص 542. أبو شامة، الروضتين، ج4، ص 211.

(2) المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله آخر الخلفاء العراقيين ولد سنة 609هـ/ 1212م وكان كريماً حليماً متديناً متمسكاً بالسنة، ينظر: السيوطي، تاريخ ج1، ص 464

(3) المقرزي، السلوك، ج1، ص 542.

(4) يبدو أن المقصود هم أتباع هولاكو قائد التتار. ينظر، ابن كثير، البداية، ج13، ص 248

(5) ابن تغري، النجوم، ج 8، ص 55. الذهبي، العبر، ج5، ص 380. الشوكاني، البدر، ج2، ص 58. ابن خلدون، تاريخ، ج5، ص 473. سالم، دراسات، ص 338 - 389

(6) ابن تغري، النجوم، ج 8، ص 55-60. الصفدي، الوافي، ج24، ص 189. الذهبي، سير، ج23، ص 200. الحنبلي، شذرات، ج5، ص 409. الياضي، مرآة، ج4، ص 208. العلمي، الأنس، ج2، ص 88. عاشور، المجتمع، ص 16-17.

فهم ينحدرون من أراضي القبائل الرحل حول سهوب⁽¹⁾ البحر الأسود⁽²⁾. ومما يثبت أنهم أصبحوا طبقة في المجتمع أنه في سنة 666هـ/1267م عندما فتح السلطان الظاهر بيبرس صفد قسمها على الأمراء (المماليك) وأخذ لنفسه نصيباً وافراً⁽³⁾.

فقد ذكر الصفدي في حديثه عن المماليك في بعض المدن الفلسطينية أنهم تولوا النيابات في عهد السلطان الملك الناصر في كل من غزة و القدس والخليل و نابلس و قاقون و لد و الرملة و أقطعهم الإقطاعات الهائلة حيث بلغت مابين عشرين ألفاً و خمسة وعشرين ألفاً⁽⁴⁾ مما يؤكد بالفعل أن هؤلاء المماليك كانوا طبقة أرستقراطية نبيلة لم يندمجوا مع أهالي البلاد الأصليين فكانوا غرباء عنهم، لا تربطهم بهم رابطة الدم، أو الأصل، أو الجنس، لذا لم يشعروا في كثير من الأحيان بروح التجاوب مع الأهالي والعطف على مصالحهم وقد نظر المماليك إلى بقية طبقات الشعب نظرة أدنى واعتبروهم أقل منهم درجة⁽⁵⁾، ومن صور انتشار طبقة المماليك أيضاً أن العزيرية نسبة إلي استأذهم العزيز عثمان بن صلاح الدين، كانت بالساحل وغزة⁽⁶⁾ وكانت كل فرقة من المماليك تسمى باسم أستأذهم فذلك سميت العزيرية و قد ذكر الرحالة فابري أنه "يوجد في القدس ممالك وهم مسيحيون مرتدون"⁽⁷⁾

وهم بأعداد كبيرة وهم مكروهون من المسلمين ومن المسيحيين سواء وهم يمتلكون الشرق كله بقوة سلاحهم"⁽⁸⁾ ويؤكد هذا النوايا الخبيثة عند الحجاج المسيحيين فكان لفابري في حديثه أهداف دينية بحتة يبين أن أغلب سكان بيت المقدس من المسيحيين حتى هؤلاء المماليك الذين هم حكام البلاد الحقيقيون ولكن حديثه متناقض حيث يقول وهم يمتلكون الشرق كله بقوة سلاحهم و ملك مصر الذي

(1) من الأرض المستوي في سهولة والجمع سهوب السهب وقيل سهوب الفلاة نواحيها التي لا مسلك فيها السهب ما بعد الأرض وهي أجواف الأرض ونحو ذلك وهو بطون الأرض تكون في الصحاري والتمتون وربما تسيل وربما لا تسيل لأن فيها غلظا وسهولا تنبت نباتا كثيرا: ينظر، لسان العرب ج1، ص476

(2) سيمنوف، صلاح الدين ، ص34.

(3) المقريري ، السلوك ، ج2 ص 64.

(4) الوافي بالوفيات ، ج15 ، ص293

(5) ابن تغري، النجوم، ج8، ص55. العليمي، الأنس، ج2، ص88. ابن خلدون، تاريخ، ج5، ص531. العمري، مسالك، ج3، ص261-268. غوانمة ، التاريخ ، ص127

(6) المقريري ، السلوك ، ج1 ، ص518

(7) ربما أن الرحالة فابري يقصد أن أصول بعض الفرق المملوكية كانت من المسيحيين وعندما تم جلبهم إلي العالم الإسلامي حيث كانوا يخضعون لنظام تربية إسلامي صارم داخل الطباقي وهو مكان تربية المماليك: ينظر، ابن تغري، النجوم ، ج9، ص53. ابن خلدون، تاريخ، ج5 ، ص467. العريني، المماليك، ص83 - 127 .

(8) رحلة، ق4 ، ج38، ص1195

هو السلطان من بينهم" (1) فكيف يكون يملكون الشرق كله وهم مكروهون من المسلمين. و لكن هذا الراهب أراد أن يعطي صورة سيئة عن المجتمع المسلم .

ويقابل هذا التنوع في البنية السكانية تنوع في مذاهبهم فمعظمهم من أهل السنة والجماعة، يغلب عليهم مذهب الشافعي و منهم بعض أتباع المذهب الحنفي والحنبلي(2)،و كان أهل الشام أكثر من اخذ من مذهب ابن حنبل وهم أكثر الناس حفظاً للسنة و رواية للحديث لتقاليد مذهبية سابقة في التمسك به مع العلم أنه كان أكثر انتشاراً في العهد الأيوبي ، (3) ولقد استمر المذهب الشافعي في بداية العصر المملوكي في الشام،و في عهد الظاهر بيبرس بدأ الأخذ بأحكام الأئمة الأربعة و سبب ذلك أن الظاهر بيبرس اختلف مع قاضي القضاة الشافعي لتوقفه في تنفيذ الأحكام و كثرة الشكاوي منه بسبب ذلك فأصدر السلطان أمراً بتعيين أربعة قضاة وهو بذلك أراد أن يوزع سلطة الحل والعقد بين عدة مذاهب (4)

و خلاص أحد الباحثين المحدثين أن غالبية السنة كانوا يعيشون في صدد وعكا و طبرية والناصرية و مرج ابن عامر (5)، وأن معظم سكانها من الشافعية، وذكر أن غزوة فيها قاضيان في إشارة إلي قاض شافعي وآخر حنفي " تم استحداثه " (6) وقد أشار صاحب الأنس إلي وجود المذاهب الأربعة في القدس خلال العهد المملوكي بما فيها المذهب المالكي (7) .

و قد كان لبني أيوب دور في تدعيم المذهب السني في فلسطين مما يؤكد أن السواد الأعظم من سكانها هم من أهل السنة و من ذلك أن السلطان صلاح الدين كان شافعي المذهب عندما فتح بيت المقدس،ووقف المدرسة الصلاحية و جعلها للشافعية (8) .

و قد ذكر أن معظم سكان فلسطين من المسلمين عند فتح المدن الفلسطينية وخاصة نابلس و أعمالها وكان معظم أهلها و جميع سكان نواحيها مسلمين وكانوا يعانون من المعاملة الفرنجية لهم (9)

(1) فابري،رحلة،ق4 ، ج38،ص1195

(2) عباس ، إحسان ، الحياة العمرانية و الثقافية في فلسطين خلال القرنين الرابع و الخامس ص354

(3)الذهبي،من ذبول العبر،ج6،ص17. ابن كثير،البدایة،ج12، ص 113. العليمي،،الأنس ،ج1، ص297،ج2،ص262. السيد ، تاريخ ، ص 72 ، ص 73

(4)ابن تغري،النجوم ، ج 7، ص 122—124.السبكي،طبقات،ج1،ص326.القلقشندي،مآثر،ج1،ص78. ابن العماد،شذرات،ج5،ص312. السيد، تاريخ ص 73 — 74 .

(5) الطراونة ، مملكة ، ص 146 .

(6) ينظر: القلقشندي ، صبح ، ج 4 ، ص 205 .

(7) العليمي، ، ج 2 ، ص 32 .

(8) العليمي ، الأنس ، ج 2 ، ص 101 .

(9) المصدر نفسه، ج 1 ، ص 324 .

وهذا يؤكد لنا أن المسلمين لم يتركوا أرضهم رغم احتلال الفرنجة لها بشكل مطلق، وإنما كانوا يشكلون أغلبية سكان المدن والقرى فيها .

و يؤكد لنا ما سبق أن غالبية سكان المدن في فلسطين في العهد المملوكي كانوا سُنةً على المذهب الشافعي رغم وجود أصحاب المذاهب الأخرى مثل الحنفي والمالكي والحنبلي. وممن وجد في مدينة الخليل من أهل السنة طائفة الدارية و لهم حارة تسمى حارة الدارية بالقرب من مشهد الأربعين في القدس و لهم إقطاع أقطعهم إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم لتميم الداري وهي قريبة من مدينة الخليل (1).

كما أشار ابن تغري بردي إلى " فخر الدين عمر بن عبد العزيز بن الحسين الخليل التميمي الداري " أنه تولى الوزارة في السنة الأولى من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون في عهد دولة المماليك البحرية سنة 640هـ - 711هـ (2) .

ووجدت في القدس طائفة من الهنود فقد ذكر صاحب الأنس " زاوية الهنود بظاهر باب الأسباط و هي زاوية قديمة وكانت للفقراء الرفاعية ثم نزل بها طائفة الهنود فعرفت بهم، (3) وهذا يؤكد لنا أهمية مدينة القدس الدينية، والتي تعطي صورة للمجتمع الفلسطيني في العصر المملوكي و لو بصورة غير مطلقة . أما الشيعة فلم ترد إشارات كثيرة حول وجودهم بشكل كبير في المدن الفلسطينية فقد ذكرت أن أهل طبرية و نصف أهل نابلس ينتمون إلى المذهب الشيعي و مما أوجد هؤلاء الشيعة هو سيطرة الفاطميين على مقاليد الحكم في مصر والشام (4).

و قد أورد ابن بطوطة عند زيارة مدينة صور أنها خراب و بها معمورة و أكثر أهلها روافض (شيعة) فقد ذكر " لقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الضوء فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه و لم يتمضمض ولا استنشق ثم مسح بعض رأسه فأخذت عليه في فعله فقال لي أن البناء إنما يكون ابتداءً من الأساس " (5). و يذكر أن أكبر تجمع للشيعة (الإسماعيلية) حسب قول: الحموي "كفر لاثا بلدة ذات جامع ومنبر في سفح جبل عاملة (6) من نواحي حلب بينهما يوم واحد ... وأهلها إسماعيلية" (1)

(1) العلمي، الأنس، ج2، ص 81 .

(2) النجوم، ج9، ص 220 .

(3) العلمي، ج2، ص 48.

(4) المقدسي، التقاسيم، ج1، ص 164. عباس، الحياة العمرانية، ص 354 .

(5) رحلة، ج1، ص 81. ياغي، كتب الجغرافيا العرب، ص 556 .

(6) جبل عامل، ويسمى كذلك جبل عاملة نسبة لقبيلة عاملة وهو جبل ممتد في شرقي ساحل بحر الروم و جنوبيه، حتى يقرب من مدينة صور، ، نزله بنو عاملة بن سبأ من عرب اليمن أو جبل الجليل ويبدو أنه جزء من جبل لبنان حسب

و قد تحدث ابن خلدون عن بعض الحصون للإسماعيلية بالشام في قوله " كان الأسماعلية في حصون من الشام قد ملكوها "(2) و هذا يؤكد لنا وجود هذه الفرقة في بلاد الشام حيث ذكر الفلقشندي الزيدية، الأسماعلية، والدرزية (3)، والنصيرية (4). ومن هذه الطوائف وجد في فلسطين أيضاً الدرزية وكانت تتبع نيابة صفد في ولاية الشاغور الواقعة ما بين ولاية صفد (بر صفد) وولاية عكا غرباً و قد كانوا يمثلون غالبية سكان هذه الولاية و كان أكثر تركيزهم في منطقة جبل الزابور و في القرية الواقعة فيه والتي تحمل الاسم نفسه (5) و كان هؤلاء الدروز يسكنون جبل لبنان و أطلق عليهم الكسروانيون (6) و كانوا من النصيرية (7) و العلويين (8) والمتأولة (9) و كان موقفهم عدائياً من المماليك و خاصة أثناء الصراع مع الصليبيين بالشام حيث حاصرهم السلطان المنصور قلاوون سنة 677هـ / 1279م بسبب نجدتهم لبوهيموند السابع أمير طرابلس فزحف المماليك على جبل كسروان ونجحوا في كسر شوكتهم (10)، وعندما استولى السلطان الأشرف خليل على عكا و غيرها من البقايا الصليبية بالشام، لجأ بعض الصليبيين إلى جبل كسروان (11) والدرزية و حاولوا استثارة أهلها ضد سلطنة المماليك مما دفع الأشرف خليل إلى إرسال حملة في بداية 690هـ / 1292م بقيادة الأمير بدر الدين

قول الإدريسي حيث اعتبره أربعة أقاليم وهي إقليم السرية و إقليم جليل إقليم كفر قبيلا وإقليم الرامي من ضمن صيدا؛ ينظر، الحموي، معجم ج 4، ص 470. اليعقوبي، البلدان، ج 1، ص 38. الإدريسي، نزهة ج 1، ص 370. الفلقشندي، صبح، ج 4، ص 89.

(1) معجم ج 4، ص 470. الطراونة، مملكة، ص 144

(2) تاريخ، ج 5، ص 449

(3) صبح، ج 13، ص 230، ص 253.

(4) الفلقشندي، صبح، ج 13، ص 230—253.

(5) الفلقشندي، صبح، ج 4، ص 158—159. الطراونة، مملكة، ص 144.

(6) نسبة إلى جبل كسروان، ينظر: المقرئ، السلوك، ج 2، ص 234. ابن كثير، البداية، ج 14، ص 256.

(7) وهم أتباع " نصير " غلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهم يدعون ألوهية علي رضي الله عنه مغالاة فيه؛ ينظر، الفلقشندي، صبح، ج 12، ص 253.

(8) وهم أتباع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ ينظر، ابن الجوزي، المنظم، ج 10، ص 83. ابن خلدون، تاريخ، ج 5، ص 531. المكي، سمط، ج 3، ص 360.

(9) المتأولة الذين ينكرون حقائق الأسماء والصفات الإلهية من المعتزلة وغيرهم ممن تأثر بهم من الخلف؛ ينظر الذهبي، مختصر العلوم، ج 1، ص 22.

(10) ابن كثير، البداية، ج 13، ص 327. عاشور، العصر، ص 215.

(11) يقع في شمال لبنان علي الساحل ويبدو انه كان جزء من جبال لبنان حسب ما ذكره المقرئ حوادث سنة 699 هـ / 1299م عند محاصرة الجبل المذكور من القوات المملوكية لقيهم أهل الجبال؛ وكذلك أطلق عليه البعض بلاد كسروان و أغلب أهله من الدروز وهو جبل الدروزية، ينظر: المقرئ، السلوك، ج 2، ص 234. ابن كثير، البداية، ج 14، ص 256. ابن خلدون، تاريخ، ج 5، ص 404—411

بيدرا و لكن الكسروانيين أنزلوا الهزيمة بالعسكر المماليك، وزاد نفوذهم و بطشهم، ويؤكد ذلك ابن خلدون " لما نالوا من العسكر عند الهزيمة أزم أهل دمشق بالرماية" (1)

ويبدو مما تقدم أن سبب وجودهم في مناطق المملكة الصفدية و عكا هو تحالفهم مع الصليبيين قبل خروجهم من بلاد الشام وخاصة في مدينة عكا، الأمر الذي دفع السلطنة المملوكية أن تنظم حملات لقمعهم و التخلص من ثوراتهم في المناطق الشمالية. و قد ذكر القلقشندى في تأييدهم للحاكم أنهم كتبوا " باسم الحاكم الله الرحمن الرحيم " (2) و أنهم كانوا يشربون الخمر و ينكحون المحارم، ولا يغتسلون من جنابة، ويزرعون الحشيشة المسكرة في قرية الزابور و يعتصرون الخمر حتى تبقى لهم مخازن (3) و حاولت سلطنة المماليك نشر المذهب السني بينهم وفي عهد الاشراف خليل بن قلاوون حاول أن يفرضها عليهم بالقوة كما صدرت الأوامر في عهد أخيه الناصر محمد سنة 717هـ / 1317م — بأن يوجد مسجد في كل قرية من قراهم إلا أنهم استمروا على معتقداتهم (4) هذا ما يتعلق بأهم طوائف المسلمين في العصر المملوكي سواء أكانت على أساس ديني أم على أساس عرقي من أكراد و أتراك و أرمن و تركمان

النصارى :

أما عن النصارى في العهد المملوكي فقد عاشوا في معظم المدن الفلسطينية و خاصة الشرقيين، وكانوا احد عناصر المجتمع الفلسطيني و من المدن التي سكنوها في فلسطين في العهد المملوكي و الأيوبي القدس و بيت لحم و رام الله و غزة و الناصرة و طبرية و البيرة و لد و الرملة و الخليل و بيت جبرين و غيرها بالإضافة إلى القرى الواقعة في منطقة شرق الأردن (5) و قد ذكر القلقشندى تفرق النصارى إلى عدة فرق المشهور منها ثلاثة: الملكانية و اليعقوبية و النسطورية (6)

(1) ابن كثير، البداية، ج13، ص327، ج14، ص256. المقرئزي، السلوك، ج2، ص331. القلقشندى، صبح

ج12، ص251—252. ابن خلدون، تاريخ، ج5، ص475. عاشور، العصر، ص216

(2) وهم أتباع أبي محمد الدرزي. قال في " التعريف " وكان من أهل موالة الحاكم أبي علي المنصور بن العزيز خليفة مصر. قال: وكانوا أولاً من الإسماعيلية، ثم خرجوا عن كل ما تمحلوه، وهم يقولون برجعة الحاكم، وأن الألوهية انتهت إليه، وهو يغيب و يظهر بهيئته و يقتل أعداءه و ينكرون المعاد من حيث هو، و يقولون الطبايع هي المولدة، و الموت بقاء الحرارة الغريزية، كانطفاء السراج بقاء الزيت، و ذكر أنهم يستنجون فروج المحارم و سائر الفروج المحرمة، و أنهم أشد كفرةً و نفاقاً من النصيرية ينظر، القلقشندى، ج12، ص251—253.

(3) ابن تغري، النجوم، ج7، ص184. القلقشندى، صبح، ج12، ص251. الطراونة، مملكة ص145.

(4) ابن تغري، النجوم، ج7، ص184. القلقشندى، صبح، ج12، ص251. الطراونة، مملكة، ص145.

(5) ابن الاثير، الكامل، ج10، ص158. العليمي، الأئس، ج2، ص50—147—264—345. لودولف، وصف، ص318

—380. فابري، رحلة، ج38، ق2، ص712. بر اور، الاستيطان، ص272

(6) صبح، ج13، ص279، ص283.

و كان للصليبيين دور في زيادة عدد النصارى في فلسطين على الأقل في أثناء سيطرتهم عليها من ذلك أنهم شجعوا النصارى الوطنيين⁽¹⁾ إلى الهجرة لمدينة القدس⁽²⁾. وأشار المؤرخ الفرنجي فوشيه الشارترى إلى تحول الكثير من الفرنجة الأوربيين الذين استوطنوا فلسطين إلى نصارى شرقيين فقال: "من كان روميا أو إفرنجيا قد تحول في هذه البلاد إلى جليلي أو فلسطيني"⁽³⁾ ومما سبق يتضح أن بعض الصليبيين أصبحوا مواطنين نصارى بلا شك.

وتعددت الأجناس التي يتكون منها النصارى، حيث ذكر الفيتري أن المدن "تمتلئ بمختلف الأجناس من البشر على مختلف أممهم وألسنتهم"⁽⁴⁾. وقد ذكر أنهم كانوا في جميع أنحاء البلاد، شمالها وجنوبها ومعظمهم كان يقيم في الكرك و الشوبك والبلقاء و عمان و نزح قسم منهم إلى بيت المقدس، و خصص لهم هناك حي يعرف (بحارة المشاركة) و قد كان معظم سكانه من عمّان والبلقاء شرقي القدس⁽⁵⁾. ففي فترة سابقة على سيطرة المماليك على بلاد الشام في العهد المملوكي ذكر ناصر خسرو أنه كان " يأتي لمدينة بيت المقدس من ديار الروم كثير من النصارى ... لزيارة الكنيسة " ⁽⁶⁾، وكان للنصارى تواجد في منطقة الغور، في مدينة أريحا على الوادي المسمى الأردن، ولهم كنيسة عظيمة، اسمها شنت يوحنا يسكنها رهبان الإغريق⁽⁷⁾.

وقد أكد ابن بطوطة الوجود النصراني عند زيارة بيت المقدس و مدينة بيت لحم و هي معظمة عند النصارى أشد التعظيم على حد قوله⁽⁸⁾، وأشارت وثيقة مملوكية، وهي عبارة عن محضر شرطة يرجع تاريخه إلى سنة 796هـ/1393م أن بعض سكان قرية تقوع⁽⁹⁾ من النصارى والأشخاص الذين ذكروا في المحضر أغلبهم نصارى⁽¹⁰⁾.

ومن المدن المقدسة عند النصارى، وفيها كنائسهم و معابدهم التي يعظمونها ويحجون إليها من جميع أقطار الأرض بيت لحم، حيث مولد عيسى المسيح عليه السلام⁽¹¹⁾

(1) سكان البلاد الذين يدينون بالنصرانية

(2) فابري، رحلة، ج38، ق4، ص 1191-1196. غوانمة، نيابة، ص 120.

(3) الشارترى، تاريخ، ص218

(4) الفيتري، تاريخ، ص96

(5) العليمي، الأنس، ج2، ص54. غوانمة التاريخ، ص 141، ص 142

(6) سفرنامه، ج1، ص55.

(7) الإدريسي، نزهة، ج1، ص361.

(8) رحلة، ج1، ص76.

(9) من قرى بيت المقدس يضرب بجودة عسلها المثل: ينظر، الحموي، معجم، ج2، ص37

(10) ينظر: العسلي، وثائق، ص224-225.

(11) العمري، مسالك، ج3، ص186.

وتشير الوثائق المملوكية في عهد السلطان جقمق⁽¹⁾ سنة 851هـ/1447م والسلطان خشقدم⁽²⁾ في سنة 870هـ/1465م إلى وجود النصارى في قرية بيت لحم وكان لهم ديرٌ سُمحَ لهم ببنائه وكانت لهم حاكورة شرقي الدير وكان مستواهم المعيشي متدنياً وكانوا فقراء⁽³⁾. ويبدو أن المقصود بالحديث عن قرية بيت لحم، أنهم كانوا يسكنون القرى، أو أن المدينة تراجعت بسبب ما تعرضت له من هدم بسبب الخلافات بينهم وبين غيرهم من السكان .

فقد ذكر فابري أن مدينة " بيت لحم في هذه الآونة كانت أهلة بالسكان و مشهورة و ثرية و جلب المسيحيون من كل بلد في الأرض الهدايا إلى هناك، وعاش التجار الأثرياء جداً فيها⁽⁴⁾. وهذا دليل على تواجد النصارى في هذه المدينة في العهد المملوكي، وإنهم كانوا أكثر من طبقة، منهم الأغنياء والفقراء. وهو ما سبق ذكره في الوثائق .

و قد ذكر فابري الطوائف النصرانية التي وجدت في القدس في العصر المملوكي وهي (الروم الأرثوذكس⁽⁵⁾ والسريان⁽⁶⁾)

(1) جقمق الظاهر أبو سعيد جركسى جلب إلى مصر وهو صغير ثم أعتق ولقب بالظاهر ثم صار في الدولة الناصرية أمير عشرة ثم صار أمير طبليخاناه ثم جعل خازن دارا ثم صار أحد المقدمين ثم استقر في الحجويبة الكبرى أيام الأشرف برسباى ثم نقله في سنة 826هـ/1422م إلى الأتابكية واستمر فيها إلى أن مات الأشرف بعد أن أوصاه على ولده الملقب بالعزیز فأصبحت كل أمور السلطنة في يده ثم خلع العزیز وتسلطن في سنة 842هـ/1438م، ينظر: السمعاني، البدر ج1، ص184.

(2) السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد خشقدم الناصري ولي السلطنة في سنة 865هـ/1460م، ينظر: ابن العماد، شذرات ج7، ص315

(3) ينظر: العسلي، وثائق، ص63-64. ملحق (3)

(4) فابري، رحلة، ق4، ج41، ص721، ص722.

(5) هم أتباع الكنيسة الشرقية الأريوسية نسبة لأريوش في القسطنطينية ولا يعترفون بكنيسة روما. ينظر: فابري، رحلة، ق4، ج83، ص1190-1191. القلقشندي، صبح، ج13، ص278.

(6) يتبعون المذهب الشرقي مثل الروم الأرثوذكس وهم نصارى سوريا. ينظر: فابري، رحلة، ق4، ج83، ص1190-1191. القلقشندي، صبح، ج13، ص278.

واليعاقبة⁽¹⁾ والأحباش⁽²⁾ والنساطرة⁽³⁾ والأرمن⁽⁴⁾ والجورجيون⁽⁵⁾ والموارنة⁽⁶⁾ والفرنسيكان⁽⁷⁾. وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء النصارى معظمهم من العرب. وقد قدموا خدمات للمسلمين ضد الصليبيين في عهد الملك المعظم و لغيره من سلاطين بني أيوب. وكان لسلاطين المماليك دور في التعامل معهم حيث أوقفوا عليها الأوقاف، لأنهم ساندوا كلاً من الملك الناصر محمد بن قلاوون، والناصر أحمد⁽⁸⁾، والظاهر برقوق⁽⁹⁾. وتواجد النصارى في الخليل، وخاصة في القرى فقد ذكرت وثيقة مملوكية، وهي عبارة عن مرسوم صادر من السلطان الأشرف في شعبان⁽¹⁰⁾ سنة 766هـ/1364م تتحدث عن الجوالي⁽¹¹⁾ الضريبة التي تؤخذ من أهل الذمة بمجدل فضيل⁽¹²⁾ في الخليل⁽¹³⁾ وهذا يؤكد وجودهم في

(1) وهم أتباع ديسقوس بطرك الإسكندرية وهو الثامن من بطاركتها وسمي أهل مذهبه يعقوبية؛ لأن اسمه كان يعقوب، ينظر: القلقشندي، صبح، ج 13، ص 281.

(2) وهم نصارى الحبشة وأكد العلمي، وجودهم في مدينة القدس وذكر أن الدولة المملوكية اعتنت بهم أكثر من الطوائف النصرانية الأخرى. ينظر: الأنس، ج 2، ص 265.

(3) هم أتباع نسطور يوس بطرك القسطنطينية. وهو من المذهب الذي يقول مريم عليها السلام لم تلد إلهاً، وإنما ولدت إنساناً، ينظر: القلقشندي، صبح، ج 13، ص 283.

(4) الأرمن، وهم أهل أرمينية الذين بقاياهم ببلاد سبسي ومدينة فارس وأرجيش وهم نصارى قرييين من اليعاقبة وينسبون إلي سيدنا إبراهيم عليه السلام، ينظر: ابن خلدون، تاريخ، ج 5، ص 148. فابري، رحلة، ق 4، ج 38، ص 1193.

(5) هم نصارى جورجيا وكانت تعرفت ببلاد الكرج وكانت لهم كنيسة في بيت المقدس تسمى المصلية، ينظر: العلمي، الأنس، ج 2، ص 51. فابري، رحلة، ق 4، ج 38، ص 1193.

(6) هم الطائفة الكلدانية، ينظر: فابري، رحلة، ق 4، ج 38، ص 1193.

(7) فابري، رحلة، ق 4، ج 38، ص 1190، ص 1195. علي، القدس، ص 81 – 87. هم نصارى لاتين

(8) السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد ابن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون، تسلطن بعد خلع أخيه الأشرف كجك وكان بويع بالسلطنة قبل خلع كجك أيضاً، وهو بقلعة الكرك

وهو الخامس عشر من ملوك الترك بالديار المصرية والثالث من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون، ينظر: ابن تغري، النجوم ج 10، ص 50.

(9) ابن كثير، البداية، ج 14، ص 202. غوانمة، التاريخ، ص 142.

(10) السلطان الملك الأشرف أبو المفاخر زين الدين شعبان ابن الملك حسين ابن السلطان الملك الناصر محمد بن السلطان المنصور قلاوون تولى الحكم بعد خلع ابن عمه المنصور المظفر حاجي وهو السلطان الثاني والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية ووصل إلي السلطنة وعمره عشر سنة في سنة 764هـ/1362م، ينظر: ابن تغري، النجوم ج 11، ص 24.

(11) الجوالي وهي ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة، ينظر: القلقشندي، صبح، ج 3، ص 530.

(12) قرية مجدل فضيل بقرية مدينة الخليل والقرية وقف على مصالح قناة العين، ينظر: العلمي، الأنس ج 2، ص 80.

(13) ينظر: العسلي، وثائق، ص 183-187.

الخليل؛ لأن هذه الضريبة لا تؤخذ إلا من أهل الذمة والمقصود النصارى وهو ما أكدته وثيقة صادرة سنة 745هـ/1344م تتعلق بنفس الموضوع وكان عملهم في الزراعة وفلاحة الأرض⁽¹⁾. ومن المدن المقدسة التي تواجد فيها النصارى مدينة الناصرة، والتي فتحها صلاح الدين واستولى عليها من أيدي النصارى، وسلمها إلى المسلمين وفيها مجموعة من حصون الفرنج⁽²⁾، ومما يؤكد أن هذه المدينة من أكبر معاقل النصارى في فلسطين، أن السلطان الظاهر بيبرس سنة 661هـ/1262م فتح المدينة وهدمت كنيستها، وهي أكبر مواطن عباداتهم، وخرج دينهم منها⁽³⁾. ومن المدن المقدسة عند النصارى وفيها كنائسهم ومعابدهم التي يعظمونها القدس وبها كنيسة القيامة، وإليها يحجون من جميع أقطار الأرض⁽⁴⁾. وقد ذكر العليمي تواجد النصارى وتركزهم في بلاد الشام وخاصة في بيت المقدس إلى جانب مجموعة كبيرة من الكنائس التابعة لهم فيها فقد قال: "و في القدس الشريف عدة من الكنائس والديارات ... نحو عشرين مكاناً وعمد النصارى منها كنيسة قمامة فإنها عندهم بمكان عظيم. وبنائها في غاية الإحكام والإتقان، ويقصدونها في كل سنة في عدة أوقات، من بلاد الروم والإفرنج، و من بلاد الأرمن و من الديار المصرية والمملكة الشامية و سائر الأقطار و يسمونها القيامة،... ويليها كنيسة صهيون المختصة بالإفرنج، ... وكنيسة مار يعقوب و تعرف بدير الأرمن، ... وكنيسة المصلبية المختصة بطائفة الكرج،... فهذه الأربع كنائس عمدة النصارى "⁽⁵⁾ أي أنهم إضافة إلى وجودهم في بعض المدن الفلسطينية فأنهم جاءوا لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين الأمر الذي كان له آثار اجتماعية و اقتصادية على السكان، حيث أنه ما من مدينة في فلسطين إلا و فيها مكان مقدس، أوله مكانه دينية عند أصحاب الديانات. ومن الأماكن التي تواجد النصارى فيها، واعتبرت حول القدس بمفهوم الفترة التي ذكرت فيها قرية طيبة لسم (قضاء رام الله) وهو ما ذكرته وثيقة في عهد السلطان خشقدم سنة 866هـ/1461م. أن بها جوالي تصرف على الصخرة المشرفة (6)، ومما يدل على القول السابق ما ذكره الحنبلي سنة 881هـ/1476م أن ناظر الجوالي في المملكة الشامية توجه إلى القدس وجمع من أهل الذمة مبلغ ثلاثمائة دينار⁽⁷⁾. وتعيين الدولة المملوكية ناظر جوالي يشير إلى انتشار هذه الطائفة في بلاد الشام بشكل عام وخاصة فلسطين.

(1) ينظر: العسلي، وثائق، ص 187-188

(2) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 150.

(3) العليمي، الأنس، ج 2، ص 86.

(4) العمري، مسالك، ج 3، ص 186.

(5) الأنس، ج 2، ص 51.

(6) العسلي، وثائق، ص 189-191.

(7) العليمي، الأنس، ج 2، ص 51.

ويبدو أن العلاقات التي تربط النصارى بالسلطات المملوكية لم تكن على وتيرة واحدة فكثيراً ما هدمت كنائسهم وقد أكد الرحالة فابري حوادث الهدم حيث ذكر بعدما انتصر المسلمون على الصليبيين وأخرجوهم من البلاد اندفعوا أولاً نحو القدس إلى كنيسة الضريح راغبين في هدمها ولكن السريان (أي نصارى السوربيين) أنقذوها بإعطاء السلطان مبلغاً كبيراً من المال، وهدمت كنيسة بيت لحم وهدم صور المدينة⁽¹⁾.

و يبدو أن السبب في هدم الكنائس يأتي في سلسلة الحروب التي دارت بين المماليك و الفرنج في فلسطين، حيث أنهم كانوا يغيرون على المدن و يأسرون المسلمين و يقتلون و ينهبون المدن ويعتدون على المقدسات الإسلامية، ومن الملاحظ أن عدد النصارى في فلسطين و خاصة فترة الدولة المملوكية الأولى كان في تناقص؛ لأن المماليك كانوا يقومون بعملية تطهير لتلك المدن من الفرنج، ومعظمهم من النصارى، مثلما فعل الظاهر بيبرس، حيث قام بفتح العديد من المدن في (661هـ/1262م – 664هـ/1265م) حيث أغار على عكا وفتح قيساريه بنفسه و فتح أرسوف و فتح " صفد... ثم قتل أهلها عن آخرهم"⁽²⁾

ففي سنة 661هـ-1262م أرسل السلطان الظاهر بيبرس العسكر و هدموا كنيسة الناصر وهي من أكبر أماكن عبادات النصارى: لأن منها خرج دين النصرانية⁽³⁾. وفي سنة 667هـ/1268م تم هدم كنيسة المصلبة في القدس و قتل قسيسها⁽⁴⁾

و يتضح مما تقدم، أن عمليات الهدم تهدف إلى إعادة العناصر المسلمة لتلك المناطق، وتطهيرها من النصارى وهي السياسة التي صار عليها بنو أيوب و من بعدهم المماليك حيث أنه لما فتح نابلس ووصل المسلمون إلى سبسطية ووجدوا مشهد زكريا عليه السلام وقد اتخذه القساوسة كنيسة فأعادوه مشهداً كما كان⁽⁵⁾. وهذا يؤكد على وجود الطوائف المسيحية المختلفة من جميع أصقاع الأرض: الأرمن و الكرج و غيرها من الطوائف .

وللحرب التي دارت بين الأيوبيين أو في العهد المملوكي أثارها على النصارى، فقد ذكر ابن بطوطة أثناء زيارته لمدينة عسقلان بأنه كان فيها نصارى و لهم مكان يعظمونه على شكل " اسطوانة حمراء عجيبة، " ووصفها بأنها خراب و " أطلال"⁽⁶⁾

(1) فابري، رحلة، ج38، ص41، ج726.

(2) العلمي، الأنس، ج2، ص86.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص86.

(4) الصفدي، الوافي، ج13، ص207.

(5) الصفدي، الوافي، ج2، ص86.

(6) رحلة، ج1، ص78.

وقد أورد المؤرخون سلسلة من المعلومات عن الهدم و التعدييات على الكنائس التابعة للنصارى، والخلاف بينهم و بين المسلمين في مختلف المدن الفلسطينية في العهد المملوكي. ومن ذلك فقد ذكر في سنة 721هـ/1320م أن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون زار القدس، وأمر بحفر بركة قريبة من الميدان، وكان في جوارها كنيسة فأمر الوالي بهدمها " فلما هدمها تسلط الحرافيش⁽¹⁾ وغيرهم على الكنائس بمصر يهدمون ما قدروا عليه"⁽²⁾. و يرجع هذا التصرف كما هو واضح ضمن المصلحة العامة للسكان في المدينة، ومد شبكة من المياه ولكنه يبدو أن البعض استدل بتصرفات السلاطين و قام بعملية الهدم في الكنائس .

وكانت العلاقات متوترة سنة 700هـ/1300م حيث قدم بريد من دمشق، يلزم النصارى في مصر والشام بصبغ عمائمهم، إلا أهل الكرك والشوبك استمروا في لبس العمائم البيضاء؛ لأن معظم سكانها من النصارى⁽³⁾ ولا يركبون فرساً ولا بغلاً ولا يدخلون حماماً إلا وجرس في أعناقهم ولا يترينون بزي المسلمين هم ونساؤهم وأولادهم⁽⁴⁾. حتى أن بعض النصارى أظهروا إسلامهم في تلك الفترة فقد ذكر في ذلك " وأحتاج عدد من النصارى إلى إظهارهم الإسلام"⁽⁵⁾

ومما يؤكد عدم ثبات العلاقات النصرانية الإسلامية في العهد المملوكي دائماً أن كنيسة المصلبية قد أخذت من النصارى في دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون و جعل فيها مسجداً، وفي سنة 705هـ/1305م وصلت رسالة من ملك الكرج من القسطنطينية إلى نائب الملك الناصر وطلبوا إعادة الكنيسة لهم و تم إعادتها لهم مرة أخرى⁽⁶⁾ وفي سنة 752هـ/1351م وعلى عهد الملك الصالح صالح ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون منع النصارى من العمل في الدواوين، وأن تكون عمائمهم دون العشرة أذرع⁽⁷⁾

و في سنة 755هـ/1353م في عهد الملك الصالح صلاح الدين بن الملك الناصر محمد الصالح ألزم أهل الذمة بالشروط العمرية السابقة الذكر⁽⁸⁾. ولم تصل الدرجة إلى هدم كنائس

(1) الحرافيش وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة أو هو الذي ليس بصاحب صنعة أو حرفة ولا يملك دكاناً، وهو فقير وهم أحد طبقات الشعب: ينظر ابن بطوطة، رحلة ج1ص59 دهمان، معجم، ص60-61.

(2) ابن كثير، البداية، ج14، ص98.

(3) المقرئزي، السلوك، ج2، ص339. ابن حجر، الدرر، ج5، ص406. السيوطي، تاريخ، ج1، ص485، ص486. حمادة، الوثائق السياسية، ص60.

(4) ابن تغري، النجوم، ج9، ص71. ابن كثير، البداية، ج14، ص305.

(5) ابن تغري، النجوم، ج9، ص71.

(6) المقرئزي، السلوك، ج2، ص391. العلمي، الأنس، ج2، ص51.

(7) القرمانى، أخبار الدول، ص286، ص287.

(8) ابن كثير، البداية ج14، ص250.

النصارى فقط، فقد سار السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس من غزة إلى العوجا ومضى إلى الخليل ثم إلى القدس ومنع أهل الذمة من دخول مقام الخليل " و كانوا قبل ذلك يدخلون و يؤخذ منهم مال على ذلك فأبطله " (1)

و بعض عمليات القمع التي حدثت ضد النصارى، كانت فردية، قام بها بعض المتنفذين في الدولة، مثل الشيخ خضر صاحب الزاوية الحسينية الذي أتى على أشياء كثيرة منكراً مع أنه كان من أشد المقربين للظاهر حتى أنه عندما " دخل إلى كنيسة قمامة ذبح قسيسها بيده وانتهب تلامذته ما كان فيها " (2) .

و كان للنصارى تصرفات قبيحة، ربما هي التي دفعت المسلمين للسلوك معهم هذا المسلك ففي سنة 658هـ/1259م عندما قدم التتار على بلاد الشام " استطال النصارى على المسلمين، وأحضروا فرماناً من هولاء بالاعتناء بأمرهم و إقامة دينهم فتنظروا بالخمير في نهار رمضان ورشوه على ثياب المسلمين في الطرقات وصبوه على أبواب المساجد وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم " (3). و بعد أن انتصر المسلمون في معركة عين جالوت 658 هـ/1260م، بادروا إلى كنائس النصارى و أحرقوها و القوا النار فيما حولها وأحرقوا دورهم وحرقت كنائس اليعاقبة (4). فقد علق البعض بأن اليهود والنصارى قد دفعوا الثمن غالباً لتعاطفهم مع المغول خلال فترة احتلالهم المدينة، والتي لم يستتب الأمن والنظام فيها إلا بعد أن دخلها السلطان قطز بعد نصر عين جالوت سابق الذكر (5) و قد وصف الصفدي العام 690 هـ/1260م بأنه عام الدمار على اليهود و النصارى في قوله: " بموت أرغون والملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور قلاوون ... فكان عام الدمار على اليهود و النصارى " (6)، هذا وقد استمرت تصرفات النصارى الفاسدة مع المسلمين حيث أنهم كانوا ينتسترون في الإسلام ومن ذلك ما أورده المقرئ أن شخصاً أسمه " ابن زنبور " كانت له أعمال مخالفة للشريعة الإسلامية في بيت المقدس (7). ومن الملاحظ من حديث المقرئ أن بعض النصارى تستر بالإسلام من أجل الدس والفساد على الدين فكان هذا أحد الذين دخلوا الإسلام ولهم تصرفات مسيئة للإسلام والمسلمين، وهو الشيء الذي تكرر

(1) المقرئ، السلوك، ج2، ص33. الدباغ، بلادنا، ص72.

(2) ابن تغري، النجوم، ج7، ص162.

(3) المقرئ، السلوك، ج1، ص512.

(4) ابن كثير، البداية، ج13، ص221. الياضي، مرآة، ج4، ص149. ابن خلدون، تاريخ، ج5، ص424.

الذهبي، العبر، ج5، ص243.

(5) حطيط، تاريخ، ص129.

(6) الوافي، ج8، ص227.

(7) المقرئ، السلوك، ج4، ص171.

سنة 856هـ/1451م، فقد روي أن نصرانياً من طائفة الحبش و قع في حق النبي (صلي الله عليه وسلم) بسبب هدم بعض التعديلات في كنيسة القيامة ونقل أخشابها إلى المسجد الأقصى الشريف فثارت عليه بعض العامة وقتلوه (1)، وهذا يؤكد أن سكان مدينة القدس من المسلمين كانوا ضد أي توسع يحدث لصالح النصارى على حساب المسلمين والمسجد الأقصى .

و قد ورد في تاريخ البصري 905هـ/1499م أن أهل القدس ثاروا بسبب ترميم القمامة بسبب خسف كبير في جانبها و انه مجاور للخانقاه الصلاحية فوصل مرسوم يطلب عمارة القمامة فلما قرئ هذا المرسوم ثار أهل القدس ضد، من طلب وصرحوا بأن السائل عن هذا المرسوم قد أخذ رشوة من النصارى تبلغ 600 دينار وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما فتح بيت المقدس وضع شروطاً على أهل الذمة ألا يقوموا بإصلاح أي كنيسة للعبادة (2)

و قد أكد الحديث السابق العليمي في سنة 856هـ/1451م عندما قال: ولم يتلفت إلى النصارى ولا إلى من يساعدهم في كل ذلك وهم مستمرين على الفساد، وكان النصارى قد أصلحوا في نفس العام قبة عند دير صهيون، كان قد اختل نظامها حتى صارت كنيسة (3)، يتضح مما تقدم أن النصارى كانت لهم تصرفات غير شرعية في المدن الإسلامية، في فلسطين وفي العهد المملوكي وخاصة أنهم مارسوا أنواع الرشوة مع بعض النواب الذين سمحوا لهم ببناء بعض الكنائس على حساب مقدسات الإسلام .

وقبل هذا العام كان النصارى قد قدموا إلى ميناء الإسكندرية و طلبوا رهائن عندهم حتى ينزلوا من مراكبهم و يؤدون رسالتهم لأنهم هاجموا المدينة و اسروا وقتلوا بعض المسلمين في سنة 767 هـ / 1365م " فلم تؤمن مكيدتهم حتى ترد الأسرى التي أخذت من الإسكندرية ويعوض المال ومن ثم يعقد صلح (4) .

و يشير هذا إلي أن أوضاع النصارى في فلسطين كانت قد ارتبطت بالوضع العام في دولة المماليك، حيث أنه عندما تم مهاجمة الإسكندرية في مصر تم إغلاق كنيسة القيامة في القدس أمام النصارى سواء السكان في المدينة أو الحجاج من خارج فلسطين إلى الديار المقدسة.

و في خضم الحديث عن العلاقات المتجاذبة بين الجانبين ففي سنة 813 هـ/1410م في عهد الملك الناصر زين الدين فرج أظهر تسامحاً مع النصارى، يعكس بذلك الصورة الحقيقية للإسلام حيث

(1) العليمي ، الأئس ، ج2 ، ص265.

(2) البصراوي ، تاريخ ، ج1 ، ص243 ، ص244.

(3) الأئس ، ج2 ، ص348 ، ص350 .

(4) المقرئزي ، السلوك ، ج4 ، ص284 ، ص292.

سمح للنصارى بترميم كنيسة بيت لحم، ويذكر المقرئزي أنه وصل مركب إلى ميناء يافا أربع قطع، فيها نحو سبعمائة من الفرنج، معهم أخشاب وعجل وصناع من أجل عمارة بيت لحم، وكانوا يحملون مرسوماً من السلطان يمكنهم من العمل وإصلاح الكنيسة فدعوا الناس للعمل بالأجرة فأتاهم عدة من القلعة و الصناع و شرعوا في إزاحة ما بطريقهم من الأوعارو كان سبب هذا الإعمار أن صبيّاً اسمه موسى من النصارى الملكانية⁽¹⁾ سأل السلطان لما قدم إلى القدس في سنة 812 هـ/1409م أن يسمح للنصارى بإعمار كنيسة مولد عيسى عليه السلام في بيت لحم، فكتب له بذلك، فأسرع به هذا الصبي إلى بلاد الفرنج وبعث النصارى هؤلاء المذكورين للقيام بهذه المهمة⁽²⁾. وانعكست الحالة في مدينة القدس في العهد المملوكي أيضاً على النصارى في الحبشة ففي عهد الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر تم سنة 825 هـ/1421م غلق كنيسة القيامة فغضب ملك الحبشة " وقتل عامة من في بلاده من رجال المسلمين " ⁽³⁾

و قد أكد صاحب الأنس الجليل سنة 895 هـ/1489م استيلاء المسلمين على كنيسة دير صهيون " موضع تعظمه النصارى، وهذا الموضع هو الآن بأيدي المسلمين " ⁽⁴⁾

و في أواخر الدولة المملوكية سنة 919 هـ / 1513م، أصدر السلطان قانصوة الغوري مرسوماً، أمر فيه معاملة النصارى الملكانيين واليعاقبة والقبط معاملة حسنة وألغى كل ما كان يؤخذ منهم من رسوم عند دخولهم كنيسة القيامة، أو عند دخولهم إلى فلسطين عن طريق يافا، أو غزة ⁽⁵⁾ وسكن النصارى الأديرة والكنائس العديدة في المدينة المقدسة وبيت لحم و التي بلغت عشرين كنيسة أكبرها القيامة التي كانت تتسع لثمانية آلاف شخص ⁽⁶⁾

⁽¹⁾ وهم أتباع ملكان الذي ظهر ببلاد الروم؛ ومقتضى ذلك أنهم منسوبون إلى مركان قيصر أحد قياصرة الروم، من حيث إنه كان يقوم بنصرة مذهبهم، فقليل لهم مركانية، ثم عرب ملكانية؛ ومعتقدهم أن جزءاً من اللاهوت حل في الناسوت، ذاهبين إلى أن الكلمة، وهي أفنوم العلم عندهم، اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته ومازجته ممازجة الخمر اللبن أو الماء اللبن: ينظر، الفلقشندى، صبح، ج3، ص13، ص279.

⁽²⁾ المقرئزي، السلوك، ج6، ص265، ص266.

⁽³⁾ المقرئزي، السلوك، ج7، ص87.

⁽⁴⁾ العلمي، ج1، ص117.

⁽⁵⁾ غوانمة، نيابة، ص121.

⁽⁶⁾ العلمي، الأنس، ج2، ص53، ص54، ص78. غوانمة، نيابة، ص122

أما بخصوص مدينة غزة فقد ذكر أن فيها مسيحيين أكثر ممن في القدس (1) وأشارت نتائج الإحصائيات السكانية التي أجريت في سنة 932هـ/1526-1525م أن عدد النصارى في غزة بلغ 323 خانة(2).

اليهود

وقد انقسم اليهود في العهد المملوكي في فلسطين على أساس ديني إلى ثلاثة فرق وهم الربانيون والقراون والسامرة. وكان هذا الاختلاف لأنهم اعتقدوا أن ألفاظ التوراة قد تم تحريفها(3).

وكل طائفة تزعم أنها صاحبة المذهب الأمتل والأقرب إلى أصول الديانة اليهودية وتركز الخلاف بين تلك الفرق حول الاعتراف بأسفار التوراة والتلمود أو إنكار بعض هذه الأصول(4). وهنا علينا أولاً إثبات الوجود اليهودي في المدن الفلسطينية وهو ما ذكرته المصادر التاريخية والجغرافية و قد وصفها الإدريسي في حديثه عن كورة فلسطين أن كورة السامرية " وهي نابلس وبيسان وأريحا وزغر(5) وعليها الآن كنيسة حسنة"(6). وهذا النص يؤكد لنا وجود هذه الطائفة في منطقة الغور الفلسطيني أيضاً إلى جانب نابلس، وذكر غيرها من القرى والضياع في أثناء حديثه عن كورة السامرية . وقد ذكر العليمي وجودهم في نابلس" وبها كثير من السامرة فإنهم يعتقدون أن القدس جبل نابلس"(7)

ومن الذين ذكروا السامرة في مدينة نابلس في فلسطين – حيث أنها كما تقدم لها قدسية خاصة عندهم – البلاذري قال: " السامرة بالأردن و فلسطين، و كانوا عيوناً وأدلاء للمسلمين على جزية رؤوسهم و أطعمتهم و أرضهم فكما وضع يزيد بن معاوية الخراج على أرضهم و قد ذكر عندما حاصرها ففتحها معاوية قسراً ، فوجد بها من السامرة ثلاثين ألفاً ومن اليهود مائتي ألف"(8) وهذا يؤكد أنه قبيل

(1) فابري، رحلة، ق4، ج38، ص1258-1259. Obadiah، op.cit. نقلاً عن السيد، اليهود، ص115-116

(2) الخانة مصطلح عثماني يطلق على الأسرة التي تتألف من 5-7 أفراد: ينظر، عطا الله، نيابة، ص 81. ورغم أن هذه المعلومات جمعت في العهد العثماني إلا أنها تفيد البحث لأنها في بداية سيطرة العثمانيين وما زالت آثار الحكم المملوكي في المجتمع.

(3) المقدسي ، البدء، ج5، ص30.

(4) قاسم ، عبد قاسم ، عصر سلاطين المماليك ، ص258.

(5) زغر وهي بحيرة ويقال لها المقلوبة أيضاً وهي غربي الأردن قرب أريحا وهي بحيرة ملعونة لا ينتفع بها في شيء ولا يتولد فيها حيوان ورائحتها في غاية النتن، ينظر: الحموي معجم ، ج1، ص352

(6) نزهة ، ج1، ص377، ص356.

(7) الإنس، ج2، ص75

(8) فتوح البلدان ، ج1، ص162 ، ص147.

فتح فلسطين كان السامرة واليهود يسكنون مع بعضهم البعض في مدينة نابلس رغم الاختلاف الديني بينهم .

وذكر الحموي قرية بيت ماما من قرى نابلس بفلسطين كان أهلها سامرة كانت الجزية على الرجل منهم عشرة دنانير⁽¹⁾. وقد أكد أبو الفداء أنهم سكنوا نابلس⁽²⁾ أما القلقشندي فقال و"هي مدينة السامرة" ⁽³⁾.

و بالحديث عن أوضاع اليهود بشكل عام في فلسطين في العهد المملوكي، نشير إلي أن التجمعات اليهودية في فلسطين قبيل سيطرة المماليك و أثناء ذلك،— حيث افترض — انه كانت مدينة رام الله من المراكز اليهودية الهامة و كانت تعتبر عاصمة للمنطقة الجنوبية من فلسطين في العهد الفاطمي في مصر. و شهدت هذه المدينة نزوحاً مستمراً بين طائفتي القرائيين والربانيين. وكانت لهاتين الطائفتين علاقات مع اليهود في البلدان الإسلامية الأخرى، مثل القاهرة ودمشق و حلب و بغداد، و تقريباً ثلاثين منطقة تواجد فيها اليهود في بلاد الشام .⁽⁴⁾ عندما حدث الزلزال العنيف سنة 597هـ/1200م هدمت مدينة نابلس لم يبق سوى حارة السامرة⁽⁵⁾ وكان لليهود حارة في بيت المقدس يعيشون فيها وقد ورد ذكرها في أكثر من موضع عند الحديث عن حارات القدس. وكان بابها يطل على خان المصرف، وكان يفتح باب دير صهيون عليها، ومن جهة الغرب يحدها دير الأرمن⁽⁶⁾، وهو ما دل على التواجد اليهودي في القدس .

وكان للعهد السلجوقي أثاره على اليهود وخاصة في حالة الحروب والمنازعات التي انتشرت في بلاد الشام بين أبناء البيت السلجوقي أنفسهم، أو مع الدولة الفاطمية وانضمام القبائل العربية إلي هذا الصراع⁽⁷⁾. ومما ترتب على هذا الصراع انتقال قيادة الجماعات اليهودية من مدينة رام الله إلى صيدا؛ ثم استقرت هذه القيادة أخيراً في مدينة دمشق، وخضعت للقيادة التركية السلجوقية⁽⁸⁾. ومن الأسباب التي دفعت اليهود لهذه الهجرات من المدن مثل :رام الله ويافا خوفهم من الحروب الصليبية

(1) معجم ، ج1 ، ص522.

(2) تقويم البلدان ، ص341، ص343.

(3) صحيح ، ج4 ، ص106، ص107 .

(4) براور ، الاستيطان الصليبي ، 282.

(5) اليافعي ، مرآة ، ج3 ، ص488—489. ابن كثير ، البداية، ج13، ص28. العليمي، الأنس، ج2، ص75.

(6) العليمي ، الأنس ، ج2 ، ص52 ، ص53 ، ص56 .

(7) براور ، الاستيطان الصليبي ، 281.

(8) المعاضيدي ، الحياة السياسية، ص11. ينظر: الأغا، الأوضاع، ص174—179.

القادمة من غرب أوروبا⁽¹⁾ وذكر ابن عساكر في حديثه عن مدينة دمشق وجود حارة لليهود⁽²⁾ وقدر عددهم في دمشق بنحو ثلاثة آلاف يهودي⁽³⁾ وتواجد اليهود في مدينة حلب حيث أشار البعض إليهم وكان عددهم ألفاً وخمسمائة⁽⁴⁾

أما عن أوضاع اليهود في العهد الأيوبي والفرنجي فقد كانت مفرعة حيث أنهم اضطهدهم وأكثر من ذلك لما بلغ الفرنج خروج الأفضل من مصر جدوا في القتال ونزلوا من السور وقتلوا خلقاً كثيراً وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم، وهدموا المشاهد وقبر الخليل عليه السلام⁽⁵⁾، وقد وصف أوضاع اليهود عندما قام الفرنج بالمذبحة بعد أن حاصروا بيت المقدس شهراً ونصف، وقتلوا سبعين ألفاً، و"جمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم"⁽⁶⁾ أما صلاح الدين الأيوبي فأدخل كثيراً منهم مصر في خدمته و لكن يبدو أن الوضع أنقلب في العصر المملوكي إلى بعض الإضطهادات العنيفة⁽⁷⁾، و مما يؤكد أن أوضاع اليهود رغم ذلك كانت أفضل عندما زار فلسطين الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي و قدم إحصائية حول أعداد اليهود فكانت بعض المدن الفلسطينية خالية من أي يهودي منها (حيفا سبسطية، الخليل، بيسان)⁽⁸⁾ فقد ذكر أن في بيت جبريل 3 يهود و 12 يهودياً في بيت لحم و في الرملة 3 يهود و في يافا يهودي واحد و في عسقلان 200 و في طبرية 50 يهودياً و بالنسبة لبيت المقدس و نابلس لم يجد فيها يهودياً واحداً، وفي عكا 200 يهودي معظمهم من الربانيين⁽⁹⁾. وكانت الجماعات اليهودية في مناطق بيت المقدس، وفي السهل الساحلي تعيش في أحياء مستقلة ضمن مجتمع المدينة المسلم وفي منطقة الجليل عاشوا في قرى ضمن أخلاط من السكان إلا أن هذا لا يعني أنهم لم يختلطوا ويتعاملوا مع الآخرين من أبناء المجتمع الإسلامي⁽¹⁰⁾.

(1) براور، الاستيطان الصليبي، 283. ينظر: الأغا، الأوضاع، ص174-179.

(2) تاريخ، ج2، ص111

(3) التطيلي، رحلة، ص117

(4) ابن كثير، البداية، ج13، ص211. ابن أبي جرادة، بغية الطلب، ج1، ص55. المقدسي، النقاسيم ج1، ص143. التطيلي، رحلة، ص121.

(5) ابن تغري، النجوم، ج5، ص159.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص19. ابن تغري، النجوم، ج5، ص150. السيوطي، تاريخ، ج1، ص427.

(7) عاشور، المجتمع، ص49.

(8) رحلة، ص93-106.

(9) التطيلي، رحلة، ص93، 111. غوانمة، نيابة، ص122.

(10) براور، الاستيطان، ص282.

ومن الأمور الهامة التي تتعلق باليهود في بلاد الشام قبيل قدوم الحملة الصليبية الأولى أنهم لم يعيشوا في تجمعات سياسية مستقلة، ولكنهم عاشوا في الدولة الإسلامية كأقلية دينية تتمتع بالحريات الدينية والاقتصادية حسب مأنص عليه الإسلام⁽¹⁾.

ومن الفرق اليهودية التي ذكرها الرحالة عوبديا الربانيون وكان تركزم في الخليل حيث ذكر أنها كانت تشتمل على عشرين أسرة وقد وصفهم من الذين أجبروا على ترك دينهم إلا أنهم عادوا إليه مرة ثانية وعند عودة عوبديا إلى الخليل مرة أخرى في عام 895هـ / 1490م قدم في خطابه إلى اليهود وقال " إن إقامتي في هذه البلدة محببة إلى قلبي أكثر من إقامتي في القدس، إذ أن أعداد اليهود في الخليل قليلة كما أنهم طيبون ليسوا سيئين مثل أولئك الذين بالقدس... ولا يندس فيما بينهم مسلم"⁽²⁾، وهذا القول يؤكد أن أعداد اليهود ظلت ثابتة إلى القرن الخامس عشر الميلادي دون تغيير، وقد أكد حديثه أنهم عادوا إلى دينهم في ظل المجتمع الفلسطيني الخليلي ووجود طائفة الربانيين في الخليل جعل منهم مجتمعاً متجانساً حتى أنه فضلهم على من بالقدس من اليهود، وقد أكد عوبديا ظاهرة اجتماعية مهمة بين اليهود في الخليل وهي استقبال زوارها العرب والأجانب بحفاوة وعنها يذكر " إن الخليل و ما يضمه من حقول وأراض مجاورة موقوفة على مغارة الأنبياء، (أي الحرم الخليلي) إذ يتم توزيع الخبز، والعدس، وربما البقوليات الأخرى، على الفقراء كل يوم دون تمييز بين عقيدة كل منهم وهذا تكريم لإبراهيم⁽³⁾.

وقد تحدث عوبديا عن اليهود في الجهاز الإداري للدولة المملوكية أن الرجل الذي يشرف على شؤون اليهود يسمى " النجيد اليهودي " ،و كان يتخذ لنفسه مقراً في القاهرة و ذكر اسم لهذا النجيد سنة 888هـ / 1483 م / 908هـ / 1502م وكان يدعى الرابي ناثن هاكوهين وهو رجل غني وحكيم وتحدث أنه انتقل إلى القدس حيث أخبر في خطابه الثاني قائلاً: " وإني أسكن هنا بالقدس في البيت الخاص بالنجيد الذي قام بتعييني حاكماً " ⁽⁴⁾. وهو الأمر الذي له أهمية كبيرة في المجتمع اليهودي خاصة في استقبال الغرباء و استضافتهم بكل كرم ⁽⁵⁾.

(1) قاسم، رؤية، ص42.

(2) Obadiah, op.cit. p249. نقلا عن السيد، اليهود ،ص117.

(3) Obadiah, op.cit. p249. نقلا عن السيد، اليهود ،ص117.

(4) Obadiah, op.cit. p229. نقلا عن السيد، اليهود ص157 .

(5) السيد، اليهود ، ص157 .

و يرجع عاشور سبب العداء لليهود و أهل الذمة بشكل عام إلى:-

- 1 - أن الحروب الصليبية بثت روح العداء بين المسلمين وغير المسلمين في مصر والشام
 - 2 - رغبة سلاطين المماليك في الظهور بمظهر حماة الدين لدعم مركزهم في نظر المسلمين.
- ويذكر أيضاً أن سلاطين المماليك حسدوا أهل الذمة على ثروتهم، و طمعوا في الاستيلاء عليها، وهم مطمئنون إلى أنهم لن يتعرضوا في هذه الحالة لنقد أو معارضة الفقهاء⁽¹⁾.

و قد أكد القلقشندى أن اليهود افترقوا إلى فرق كثيرة المشهور منها طائفتان والمتفق على يهوديتهما وهما طائفة القراءون و الربانيون⁽²⁾. ويلاحظ أنه لم يذكر السامرة من الفرق المشهورة مما يدل على أنه لم يعتبرها من الفرق اليهودية. أما عن أعداد اليهود في فلسطين في القرن الخامس عشر فقد تطرق لها عوبديا حيث ذكر أن عدد سكان اليهود في غزة ما بين الخمسين و الستين أسرة و هم يمتلكون معبداً صغيراً و لكنه جميل حيث تحيط به المنازل والحقول الخاصة به⁽³⁾، و ذكر أن جماعة اليهود في مجتمع غزة أكثر منهم في القدس⁽⁴⁾.

و كانت زيارته سنة 895هـ / 1490م أواخر الدولة المملوكية، ووصف فيها بعض المجتمعات اليهودية في القدس والخليل، وظهر في حديثه نزعة عنصرية حيث فضل بعضهم علي بعض⁽⁵⁾، وفي المنطقة التي تقع بين القدس والخليل لم يذكر عوبديا اليهود أياً من الأسر اليهودية في حين ذكر المعاصرون وجود سبعة بيوت يهودية متطرفة بطول المسافة ذاتها، وفي حديثه عن مدينة القدس ذكر أنه قابل يهودياً من الإشكيناز، وهو رجل تلقى تعليمه في ايطاليا اسمه الرابي يعقوب كولومبانو (اليهودي)، ووصف مدينة القدس بأنها مهجورة، يعمها الخراب، و منازلها من الحجر، و ليس من خشب أو ملاط⁽⁶⁾، و يبدو أن عوبديا اليهودي إنما أراد الإساءة إلى المسلمين حين وصف مدينة القدس تحت حكم المماليك المسلمين بأنها خراب إذ يتنافى هذا الوصف مع ما أورده المصادر المعاصرة من أن مدينة القدس مدينة عظيمة، وهذا العليمي يصف بيت المقدس فيقول: " وأما مدينة القدس الشريف في عصرنا فهي مدينة عظيمة محكمة البناء بين جبال و أودية وبعض بناء المدينة مرتفع على علو وبعضه منخفض في واد وشوارع المدينة بعضها سهل، وبعضها وعر،⁽⁷⁾ هذا فضلاً

(1) المجتمع ، ص 49 ، ص 50.

(2) صيح ، ج 13، ص 259-270.

(3) Obadiah، op.cit .p232، نقلا عن السيد، اليهود ص 115 ، ص 116 .

(4) فابري، رحلة، ج 4، ص 38، ص 1258. السيد، اليهود ص 115 .

(5) Obadiah، op.cit .p249، نقلا عن السيد، اليهود ، ص 117 .

(6) Ibid p 233 ص 119، نقلا عن السيد، اليهود ، ص 117 .

(7) الأنس ، ج 2 ، ص 50 .

عن أنّ عوبديا ناقض نفسه حين وصف مدينة القدس في موضع آخر بقوله: " أسواق من أجمل ما رأيت فكيف تكون المدينة خراباً وبها أسواق جميلة جداً و ذكر أنواع الأسواق منها القطنين، وسوق العطارين، وسوق القماحين، والبصاليين وسوق الحبانين " (1).

و قد ذكر أن أعداد اليهود في سنة 893 هـ / 1488م بثلاثمائة أسرة، و قد أكد بعض من جاء بعده، أن عددهم أخذ في التراجع (2)، و يرجع سبب ذلك إلي انتشار الفوضى في المدينة على عهد السلطان الأشرف قايتباي (3) (873هـ – 1468 – 1469م) وهو العام التالي لاعتلائه السلطنة حيث وقعت الفتن والاختلاف بين الأكابر في القدس والخليل بسبب سوء تدبير الناظر (4).

و يرجع البعض سبب ما ألم باليهود من المآسي في العهد المملوكي أنهم كانوا ينظرون لهم نظرة شك و ريبة والمماليك متواطئون مع خصومهم الأتراك العثمانيين (5).

الفرقة الأولى : الربانيون

و أصل التسمية تحريف للكلمة العبرية " ربانيم" التي تعني الأمام أو الحبر أو الفقيه و يعود سبب التسمية إلى أن الربانيين أخذوا بتفسيرات أحبار اليهود و علمائهم التي تضمنها التلموذ و المشناه (6) و قد وردت كلمة الربانيين في القرآن الكريم في أكثر من موضع في قوله تعالى " إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ " (7) .

ويفرد الربانيون عن بقية الفرق اليهودية بشرح الفرائض في التوراة و يذهب الربانيون إلى تأويل ما في التوراة كما تفعل الأشعرية من المسلمين و يقولون بالقدرية أي بسابق القدر، ومن أعظم أنواع الكفر عندهم تعبد فرعون و هامان، ومن أعظم العظائم عندهم أيضاً الأخذ بدين النصرانية و تصديق مريم عليها السلام (8)، وينكرون خطاب الله تعالى لموسى عليه السلام و من

(1) العلمي ، الأنس ، ج3 ، ص30 ، ص50 ، ص68 ، ص389 .

(2) Obadiah ، op.cit .p249 نقلا عن السيد، اليهود ، ص121.

(3) أصل الملك الأشرف قايتباي هذا أنه جاركسى الجنس جلب من بلاده إلى الديار المصرية في حدود سنة تسع وثلاثين وثمانمائة فاشتره الملك الأشرف برسباي ولم يجر عليه عقا وجعله بطبقة الطازية من أطباق قلعة الجبل و تدرج في الوظائف حتى أصبح سلطاناً: ينظر ابن تغري، النجوم ج16، ص395

(4) العلمي ، الأنس ، ج2 ، ص285. السيد ، اليهود ، ص121.

(5) السيد ، اليهود ، ص125 .

(6) قاسم ، عصر ، ص258.

(7) سورة المائدة : آية 43.

(8) القلقشندي ، صبح، ج13، ص261، 260.

الأمر التي يستعظمونها الشرب من النهر الذي ابتلى به قوم طالوت (ملك بني إسرائيل) والميل إلى جالوت (ملك الكنعانية) ويقال: إن هذا النهر بين الأردن وفلسطين قد ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى " إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي " إلى قوله تعالى " وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ " (1) و قد وصفت هذه الطائفة بأنها " الشعب الأكبر و الحزب الأكثر و لهذا السبب كانت رآسة اليهود منهم في العصر المملوكي، و هذا ما أكده نص وثيقة تعيين رئيس لهم أوردتها القلقشندی سنة 684 هـ / 1285م (2).

و قد اختلف الربانيون في قضية حساب السنين والشهور مع الطوائف الأخرى ضد اليهود التي تعمل برؤية الأهلة كما هي عند المسلمين " فيقع عند اليهود في رؤوس السنين والشهور اختلاف " (3) وقد أكد عوبديا الذي زار القدس في القرن الخامس عشر على هذا الخلاف الذي حدث في التقويم بين طوائف اليهود، وقد أكد أيضاً على أن اليهود في مصر كانت تتبع رآسة اليهود في فلسطين في العصر المملوكي الواقعة في القدس حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (4). ودفع طائفة الربانيين هذا الاختلاف إلى اختلاف في إحدى الشعائر الدينية وهي الصوم؛ لأنهم يتبعون الحساب في تحديد رؤوس الشهور (5) ومن الأسماء الأخرى لهؤلاء الربانيين التلموديين وقد أشار عوبديا أن معظم هذه الطائفة من الفقراء إلا أنه يذكر أحياناً وجود أغنياء بين التلموديين في فلسطين (6)

الفرقة الثانية : القرائيين

الذين أشتق أسمهم من الكلمة العبرية التي تعني " قرأ " و ذلك؛ لأنهم يؤمنون بغير التوراة المكتوبة التي يمكنهم قراءتها و من ثم فإنهم لم يكونوا يعترفون بما جاء في التلمود أو في غيره من الكتب التي اعترف بها الربانيون (7). و قد أنفق على " استخراج ستمائة و ثلاث عشرة فريضة من التوراة يتعبدون بها " (8).

(1) سورة البقرة، آية 247.

(2) القلقشندی ،صبح، ج11، ص379، ص381، ينظر الملاحق.

(3) ابن نخري ، النجوم ، ج14، ص313.

(4) Obadiah ، op.cit .p228 نقلا عن السيد، اليهود ، ص98.

(5) السيد، اليهود ، ص100.

(6) Obadiah ، op.cit p227-231 نقلا عن السيد، اليهود ، ص98.

(7) قاسم ، عصر ، ص259 ، ص260 .

(8) القلقشندی ،صبح ، ج13 ، ص260 .

وهذا يؤكد القول السابق بأنهم يعتمدون على حرفية النص من التوراة و لا يعتمدون على التسهيلات الواردة في التلمود⁽¹⁾ ويرجع نشأة هذه الفرقة إلى "عنان بن داود" سنة 800هـ/1397م الذي دعا إلى مذهب جديد بسبب الخلاف الذي نشب بينه وبين أخيه الأصغر "حنائنا" حول تولي منصب رأس الجالوت (أي رئيس الطائفة اليهودية في العالم الإسلامي)⁽²⁾. ويعتمدون في التقويم على الأهلة كما هو الحال عند المسلمين، وهو ما سبق ذكره أنهم يضبطون رعوس سنينهم وشهورهم برؤية الأهلة كما هو عند أهل الإسلام، فيقع الاختلاف فيما بينهم وبين الربانيين في رأس السنة⁽³⁾ والقراؤن يقولون بسابق القدر⁽⁴⁾ أما في قضية الصوم، فقد ذكر عوبديا "القراؤن بالقاهرة يصومون في يومي السابع والعاشر من شهر آب" الموافق طبقاً للتقويم اليهودي بعضاً من شهري يوليو وأغسطس وهم في ذلك يختلفون عن الربانيين⁽⁵⁾ ويتفق القراؤن والربانيون على أنهم يستقبلون صخرة بيت المقدس في صلاتهم، و يوجهون لها موتاهم لان الله كلم موسى عليه السلام على طور سيناء⁽⁶⁾. وهو ما أكدته العمري سنة 749هـ/1348م في قوله "والصخرة قبلة اليهود الآن وإلى القدس حجهم"⁽⁷⁾

أما الفرقة الثالثة: فرقة السامرة :

يرجع تاريخ هذه الفرقة إلى الفترة التي أعقبت تدمير مملكة إسرائيل التي انشقت على مملكة سليمان بعد وفاته، و قد تم تدمير هذه المملكة على يد الملك الأشوري " تغلب فلاسر " في سنة 738 ق م، و قد أجلي اليهود عن فلسطين، و أسكنهم منطقة شمال إيران الحالية، و جلب قبائل لتسكن في مدينة السامرة القديمة بدلاً من اليهود و يعتمد أصحاب هذا الرأي على نص من الكتاب المقدس يحكي هذه الحادثة و هم بذلك يصفون السامرة بأنهم حثالة من الأجانب المتعاونين مع أعداء اليهود⁽⁸⁾، وأنهم وثنيون مشركون وأطلقوا عليهم اسم " شومرونيم " أي السامريون، لكن السامريين حرقوها إلى " شونيم " أي المحافظين بدعوى أنهم أصحاب الدين الموسوي الأصلي⁽⁹⁾ .

(1) الأغا ، الأوضاع ، ص172، ص173.

(2) قاسم ، عصر ، ص260 .

(3) ابن تغري ، النجوم ، ج14 ، ص363.

(4) القلقشندی ، صبح ، ج13 ، ص261.

(5) Obadiah ، op.cit .p226 نقلا عن السيد، اليهود ، ص100.

(6) القلقشندی ، صبح ، ج13 ، ص260 .

(7) مسالك الأبصار ، ج3 ، ص278.

(8) قاسم ، عصر ، ص261، ص262.

(9) الأغا ، الأوضاع ، ص173.

و يذهب البعض إلى أن نشأتهم كانت زمن السبي البابلي سنة 586 ق م؛ لأنهم بنو هيكلمهم المقدس فوق جبل جرزيم القريب من مدينة نابلس في هذا التاريخ، و يتهمهم اليهود بأنهم تعاونوا مع الرومان أثناء ثورة اليهود ضد الحكم الروماني، و منحهم الرومان مقابل هذه المساعدة أن سمحوا لهم ببناء مدينة السامرة القديمة (شكيم) (1). وهم أتباع السامري (2) وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم حيث قال تعالى " وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمُ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (3) و في قوله: " وأضلهم السامري " (4).

وقد اختلف في السامرة : هل هم من اليهود أم لا ؟ و القراءون والربانيون ينكرون كون السامرة من اليهود، وقد قال الشافعية: إن وافقت أصولهم أصول اليهودية فهم منهم (5).

ثم أن السامرة لهم تورا خاصة غير التوراة التي بيد القرائين والربانيين، والتوراة التي بيد النصارى ينفردون بها عن الطوائف السابقة بإنكار نبوة من بعد موسى ما عدا هارون ويوشع عليهما السلام، ويخالفون أيضاً في استقبال صخرة بيت المقدس و يستقبلون طور نابلس ويوجهون إليها موتاهم، ويزعمون أن الله كلم سيدنا موسى من عليها (6) "وإلى طورها حج السامرة" (7) وأما "التوراة العبرانية التي بأيدي اليهود، و التوراة السامرية و كل واحدة منها مبطولة ولا عمل عليها و الله أعلم " (8)

و هذا ما أكده الاختلاف في التوراة بين اليهود من مختلف الطوائف و السامرة و يؤكد أيضاً أن التوراة لم تكن مكتوبة بلغة واحدة .

و بالفعل هو ما أكد عليه عوبديا " أن لدى السامريين الكتب الخمسة الخاصة بموسى فقط وهم لا يؤمنون سوى بالإسفار الخمسة، التي تمثل القسم الأول من العهد القديم (9). و قد ذكر أن هؤلاء

(1) قاسم ، عصر ، ص 261 ، ص 262 .

(2) القلقشندي ، صبح ، ج 13، ص 270.

(3) سورة الأعراف ، الآية رقم 85.

(4) سورة طه، آية 85.

(5) القلقشندي ، صبح ، ج 13 ، ص 271.

(6) المصدر نفسه ، ج 13 ، ص 271 ، 272.

(7) العمري ، مسالك ، ج 3 ، ص 279 . السيد ، اليهود ، ص 104 .

(8) العليمي ، الأنس ، ج 1 ، ص 156 . المقدسي ، البدء ، ج 5 ، ص 30.

(9) Obadiah ، op.cit .p225 نقلا عن السيد، اليهود ، ص 104.

السامرة انقسموا إلى عدة أقسام، فيقسمهم عوبديا إلى الكوثانية و الدوثانية و ترجع هذه الطوائف إلى السامريين، في حين أن البعض قسمهم إلى ثلاثة أقسام الدوسيثيان و الجروسينية و الماسبوتانية (1).

ومن هنا يمكن ملاحظة الاختلاف العقائدي و الديني بين السامرة و مختلف طوائف اليهود، من الربانين و القرائيين، وهو ما تم تأكيده في خطابات عوبديا " و السامريون موضع بغض و استنكار من اليهود نظراً لأنهم يقدمون الأضاحي، ويحرقون البخور على جبل جرزيم (2)

أما فيما يخص الأشراف على طائفة السامرة فقد ذكر أن الحكم و القضاء بينهم على أساس دينهم، و الموجودون من اليهود ثلاث طوائف وهم: الربانيون و القراءون و السامرة و قد جرت العادة أن يكون الرئيس من طائفة الربانيين وهو يحكم الطوائف الثلاثة (3). و قد دلت الوثائق المملوكية على هذا القول الذي أورده الفلقشندي (4).

ويبدو أنه قد أباح لكل من السامرة و القرائيين رئيساً مستقلاً في فترة متأخرة من عصر السلاطين المماليك (5). ووردت إشارة تدل أن بعض السامرة اعتنق الإسلام، و كان "محمد بن عبد الله الصغد من مسلمة السامرة... و سكن دمشق " (6).

و ذكر في 27 رمضان 658هـ / 4 أيلول 1260م أي بعد استيلاء المماليك على الحكم في بلاد الشام و طرد التتار و كان هذا العام دماراً على اليهود فقد جرت ضدهم مذبحه بسبب تعاونهم مع التتار ضد المسلمين أثناء عملية الاحتلال (7). و في عام 664هـ/1265م خرج السلطان الظاهر بيبرس من غزة إلى الخليل و القدس و منع أهل الذمة من دخول الخليل حيث كانوا يدخلونها مقابل مال يؤخذ منهم (8).

و في سنة 700هـ/ 1300م أصدر الناصر محمد بن قلاوون قراراً بتمييز اليهود بملابس خاصة، فلبس اليهود العمائم الزرق، و السامرة العمائم الحمر، و من يخالف هذه الأوامر يعرض نفسه للعقاب، فالترزم النصاري و اليهود بسائر المملكة في مصر و الشام ما أمروا به و صبغوا

(1) السيد، اليهود، ص105 .

(2) السيد، اليهود، ص105 .

(3) الفلقشندي، صبح، ج11، ص378-379.

(4) الفلقشندي، صبح، ج11، ص379 ينظر الملاحق (2) .

(5) قاسم، عصر، ص63.

(6) السخاوي، الضوء، ج8، ص116 .

(7) الصفدي، الوافي، ج8، ص227. ابن كثير، البداية، ج13، ص221. ابن خلدون ج5، 424. حطيط، قضايا، ص149.

(8) المقرئزي، السلوك، ج2، ص33. الدباغ، بلادنا، ج9، ص2، ص72.

عمائمهم⁽¹⁾. وأيضاً لا يركب أهل الذمة فرساً ولا بغلاً، وهذا في عهد الملك المؤيد بن الملك المظفر⁽²⁾.

وأكثر من ذلك أنهم مُنِعُوا من العمل في دواوين الدولة، وأن تكون عمائمهم دون العشرة أذرع و أن لا يدخلوا الحمامات بالصليب في رقابهم، و حتى نساؤهم لا تدخل مع نساء المسلمين وأن يلبس الخف بلونين كل فردة من لون، وقد صدرت هذه الأوامر ضدهم في 752هـ/ 1351م في عهد الملك الصالح صالح ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون⁽³⁾. حتى أن اليهود والنصارى طبقت عليهم أحكام الإسلام بشكلها الصحيح، وسبب الإجراءات المملوكية هو فسادهم و ابتزازهم للمسلمين، و أطباعهم التي تميل إلى العنصرية. ورغم هذه الإجراءات المملوكية إلا أن اليهود كانوا يعيشون مع المسلمين في المدن وكانت لهم شوارع وحارات خاصة بهم، كما سبق القول أن لهم حارة في القدس⁽⁴⁾ وهذا الوضع يختلف عما قام به الصليبيون ضدهم و ممارسة عمليات قتل جماعي و حرقهم، فقد ذكر أنهم أصبحوا منذ الفتح العربي أسعد حالاً مما كانوا عليه تحت حكم الدولة البيزنطية، بسبب ما لقوه من تسامح ديني. واستمرت سياسة التسامح اتجاههم طوال فترة الدولة الطولونية والإخشيدية، حتى في العصر الفاطمي ووصلوا إلى أرفع مناصب الدولة⁽⁵⁾.

ورفض التطيلي عند حديثه: عن مدينة نابلس أن يعتبر السامرة من اليهود ووصفت هذه الفرقة بالهرطقة الدينية، ولم يعتبر السامرة الموجودين في كل من قيسارية وعسقلان يهوداً⁽⁶⁾ والذي سمح لهم بالعودة إلى المدن الفلسطينية، هو صلاح الدين الأيوبي، وبعد القيام بعملية تحريرها من الصليبيين 587هـ / 1191م وخاصة مدينة عسقلان، وبيت المقدس، وعادوا على شكل دفعات ما بين 606 – 608 هـ / 1209 – 1211م و تدفقت أعداد كبيرة منهم في السبعينات والثمانينات من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، و استقرت جماعة منهم في الجليل و في المدن الساحلية⁽⁷⁾. و كان لأوضاع اليهود في أوروبا إبان عصر المماليك دور كبير في هجرتهم إلى فلسطين و الاستقرار في المدن، لما لها من أهمية دينية عندهم من ذلك صدور مرسوم من الإمبراطور الألماني رادولف الهانسبرج عام 684هـ/ 1286م ينص على مصادرة أملاك اليهود وما تعرض له اليهود في أسبانية

(1) المقرئزي، السلوك، ج2، ص339. ابن حجر، الدرر، ج5، ص406. ابن كثير، البداية ج14، ص54.

(2) ابن كثير، البداية، ج13، ص35، ج14، ص305.

(3) القرمانى، أخبار، ص286.

(4) العليمي، الأنس، ج2، ص52، ص53، ص56.

(5) عاشور، المجتمع، ص49.

(6) التطيلي، رحلة، ص95 – 96.

(7) براور، الاستيطان، ص289.

من محاكم التفتيش سنة 661هـ/1263م حيث شارك الحبر اليهودي الأسباني موسى بن نعمان في الجدل الديني وقرر هذا الحبر مغادرة مكانه في مدينة قطالونيا، واستقر في بيت المقدس 665هـ/1267م وكان يستقبل الطلاب اليهود الذين يأتون لتلقي العلم، و يحرضهم على الهجرة إلى الأرض المقدسة⁽¹⁾.

و قد هدمت الكنائس اليهودية في العهد المملوكي كما حصل للنصارى عام 879 هـ/ 1474م وذكرها المؤرخون، وأشهرها واقعة كنيسة اليهود في القدس التي تقع بحارة اليهود قرب مسجد للمسلمين، وكانت تقع بالقرب من هذا المسجد دار من جملة أوقاف اليهود فوق مطر الشتاء وهدم الدار، وحاول المسلمون الاستيلاء عليها لشق طريق؛ لأنه أقرب على المصلين في المسجد فرفض اليهود، ورفعوا الأمر للقضاة، وأظهروا المستند الذي يثبت ملكية الدار، وبالفعل ذهب القضاة وتأكدوا من ملكيتهم وجلسوا في المسجد، وتأكدوا وبأن الدار من جملة أوقاف اليهود فرفض المسلمون، وتوجه بعض العوام إلى القاهرة، وأرسل السلطان مرسوماً للقدس، واجتمع القضاة في المدرسة التتكريية⁽²⁾، وشهد قاضي الشافعية بأن كنيسة اليهود محدثة في دار الإسلام، فتكلم كبير اليهود واسمه يعقوب بكلام يقتضي العند لما أمر به القاضي. فاستنفر القاضي و قال له تنازع في الأحكام الشرعية، وأراد أن يحضر له الجند لضربه وهم المسلمون أن يبطشوا باليهودي فنهاهم القاضي عن ذلك⁽³⁾.

و هذا يظهر سبب عداة القضاة وعامة المسلمين في القدس لليهود، إذ يتبين لنا طرق الاحتيال التي سيطر اليهود بها على بعض أراضي المقدسات واستغلالهم تسامح الدين الإسلامي في أغراضهم الدينية الفاسدة، إلا أنهم لم يقفوا عند هذا الحد، بل رفعوا الأمر للسلطان مرة أخرى فطلب من القضاة النظر في الأمر، و جلسوا في المسجد، و سمحوا لليهود أن يدخلوا المسجد، وتداولوا الأمر و قال قاضي الشافعية أنا ما رفعت أيديهم عنه، و إنما منعهم من اتخاذها كنيسة، وأذن لهم أن يتخذوها حانوتاً، و بالفعل منعوا اليهود مرة ثانية من اتخاذها كنيسة⁽⁴⁾.

و يلاحظ أن قاضي المالكية بالقدس 888هـ/1483م لما حضر إلى المدينة بخلعة السلطان ذكر إعادة كنيسة اليهود، وإعادة ما تهدم لهم، و حصلت في هذه السنة محنة للعلماء المسلمين، وسعى اليهود إلى السلطان لإعادة الكنيسة. وكان يساعدهم يشبك الدوادر الكبير بمال بذلوه ولم يعلم السلطان. وأصدر القاضي الحنفي لهم مرسوماً بذلك، فخرج قاضي الشافعية إلى القاهرة من القدس مستكراً ما حدث⁽⁵⁾.

(1) الأغا، الأوضاع ص 297 ، ص 301.

(2) ينظر الفصل الرابع من هذه الدراسة، ص 17.

(3) العلمي ، الأنس ، ج 2 ، ص 300، ص 301 ، ص 302 .

(4) المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 303 .

(5) المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 312 — 313 .

و من العادات السيئة التي كرهت المسلمين في اليهود نشر الرشوة عندما دفعوا المال ليشبك الدوادر مقابل مساعدتهم في إعادة الكنيسة و المنزل دون علم السلطان، و مما يؤكد أن اليهود استخدموا عدة طرق في السيطرة على الأماكن الدينية و كلها بدون مبالغة غير شرعية .

وقد ذكر في شذرات الذهب أن الملك الأشرف قايتباي لم ينتقده أحد سوى ما أمر بإعادة كنيسة اليهود بالقدس الشريف بعد هدمها، و عقوبته لقاضيها و لبعض العلماء، بسبب هدم الكنيسة حتى حملوا إليه و ضرب بعضهم بين يديه،⁽¹⁾ و قد أنتشر هدم الكنائس في بلاد الشام بشكل عام حيث هدمت كنيسة اليهود في دمشق و نهبت⁽²⁾.

و كان لليهود في الدولة المملوكية ألقاب دينية ذكر منها.

الأول : الرئيس .. و هو القائم فيهم مقام البطريرك في النصارى.

الثاني : الحزان ... و هو فيهم بمثابة الخطيب يصعد المنبر و يعظهم.

الثالث : الشليحصبور ... و هو الإمام الذي يصلي بهم⁽³⁾

و قد أثبتت وثائق العصر المملوكي الصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يتولى رئاسة اليهود ، أن يكون من أكبر الكهنة، و أعلم الأحبار و أن يتميز بالنزاهة و حسن الخلق، و أن تكون له خدمته في مهام الدولة كما اشترط أن يكون عارفاً بكتب اليهود و شرائحهم ملماً بالعبرية إماماً تاماً⁽⁴⁾، و كانت أهم الأعمال التي اشتغل بها اليهود : الصباغة و التجارة، و كان منهم الصيارفة، و كان منهم الأساكفة⁽⁵⁾.

و بالنسبة لتاريخ اليهود في فلسطين في العهد المملوكي يلاحظ أنهم شكلوا عنصراً مهماً من عناصر السكان في فلسطين، و لكن يلاحظ عليهم في هذا العهد أنهم لم يندمجوا بشكل كبير في المجتمع و مالوا إلى العزلة الاجتماعية على عاداتهم و كانت أحياءهم مغلقة على شكل جيتوهات و هو ما أكده عوبديا أن اليهود في الخليل يقيمون جميعاً في فناء مقصور عليهم و لا يندس فيما بينهم مسلم⁽⁶⁾ و عملوا أيضاً في المنسوجات التي نشطت بقدم المهاجرين الذين عملوا في الصباغة⁽⁷⁾. و مما

(1) ابن العماد، ج 8 ، ص 8 .

(2) ابن تغري ، النجوم ، ج 7 ، ص 162. الصفدي الوافي ، ج 13 ، ص 207 .

(3) القلقشندي ، صبح ، ج 5 ، ص 445 .

(4) القلقشندي ، صبح ، ج 11 ، ص 384، ص 385 . قاسم أهل الذمة ، ص 109 .

(5) غوانمة ، تاريخ ، ص 145.

(6) السيد ، اليهود ، ص 117 .

(7) الطراونة ، مملكة ، ص 141.

يؤكد هذه العنصرية أن اليهودي مَيَّزَ بين مجتمع الخليل والقدس وفضل يهود الخليل على يهود القدس .

أقسام السكان من حيث نمط المعيشة:

تطورت المدينة الفلسطينية تطوراً ملحوظاً في عصر دولة المماليك في شتى الميادين، فعندما استولى المماليك على زمام الأمور قاموا ببناء المؤسسات التعليمية والاقتصادية والاجتماعية.

المدن :

ولقد حدث تغير جوهري في التركيب الاجتماعي للمدينة في العهد الأيوبي و المملوكي ويبدو واضحاً بالمقارنة بالعهد الفاطمي خاصة عندما كان دور الحكومة بارزاً في التجارة والحرف⁽¹⁾، ومما هو جدير بالذكر أن السياسة المملوكية كان لها آثار على المدن وخاصة السياسات الاقتصادية، حيث أن أساليب التجار و الإنتاج كان موجهاً لأهم المدن التي كانت تشكل العواصم سواء في دمشق، أو غيرها؛ بينما لم تشغل المدن الأخرى إلا أدوراً ثانوية و كانت هذه المدن تحصل على حاجتها الغذائية من المناطق المجاورة⁽²⁾ و هذا يؤكد لنا دور العوامل الاقتصادية في نمو المدن خلال العهد المملوكي .

و تجدر الإشارة إلي مواقع المدن الفلسطينية الجغرافية لما له من أهمية سواء من جانب نشأتها أو حياتها الاقتصادية ومن حيث تأثيرها وانعكاسه على بقاء المدينة أو خرابها، خاصة في فترة الصراع الذي دار بين الفرنجة و الأيوبيين من جهة، والفرنجة و المماليك من جهة ثانية فقد ذكر المؤرخون و الرحالة و الجغرافيون خصائص المدن الفلسطينية من حيث الموقع والسكان والمنتجات والتخطيط. فذكر المقدسي الأقسام الجغرافية في فلسطين التي نشأت فيها المدن الساحلية على المناطق الجبلية ومنها بيت جبريل ونابلس واللجون والقدس والأغوار ذات قرى منها بيسان وأريحا وطبرية والبادية وغيرها من المناطق⁽³⁾ ونشأت مدن في الساحل مثل غزة و الرملة و يافا و لد وقاقون⁽⁴⁾ .

ويلاحظ على كل منطقة من تلك المناطق الجغرافية أن لها خصائصها التي ميزتها عن الأخرى، وساعدت في نشأة المدن فيها، فمنطقة الساحل قريبة من البحر المتوسط وتساعد في نشاط التجارة و سهولة النقل، وبها كثير من المواني، و هذا ما أكده الرحالة الذين زاروا تلك المدن فقد ذكر الإدريسي

(1) ل . 1 . سيمينوفا ، صلاح الدين و المماليك ، ص232.

(2) لأبيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي ، ص51.

(3) أحسن التقاسيم ، ج 1 ، ص171. العمري ، مسالك ، ج3 ، ص319

(4) الفلقشندی ، صبح ، ج4 ، ص102 ، ص103 ، ص104. العمري ، مسالك ، ج3 ، ص319.

أن مدن سواحل فلسطين: عسقلان⁽¹⁾ و أرسوف و يافا " كلها مدن تتقارب مقاديرها و صفاتها و أحوال أهلها و بها الكثير من العمارة"⁽²⁾. وأهم ما يميز المدن في العهد المملوكي انتشار المؤسسات الاجتماعية التي وجدت في فلسطين. مثل السجون التي انتشرت في صفد و غزة و القدس و الخليل فقد ذكر أن الظاهر برقوق "كان محبوساً و إن القاعة التي كان بها لها شبابيك ينظر منها إلى مدينة الخليل عليه السلام... وكان الظاهر يقف كل يوم في شباك منها"⁽³⁾ وكذلك مثلت أهم المرافق الاجتماعية الأسواق في المدن فكانت ثلاثة أنواع محلية و موسمية و سنوية، و من هذه الأسواق في المدن الفلسطينية، ذُكرَ في القدس سوق القماش، سوق الفحم، سوق المبيض، سوق الطباخين، سوق العطارين، سوق الحرير، سوق القطنين، سوق الزيت، سوق الفخر⁽⁴⁾. واهتم المماليك ببناء شبكات المياه في المدن الكبرى و خاصة مدينة القدس، فقد قام نائب القدس 717هـ / 1317م ببناء قناة الماء الواصلة إلى مدينة القدس الشريف و أدخلها إلى وسط المسجد الأقصى في أواخر سنة 728هـ / 1327م و شيّد بركة من الرخام و بين البركة و الصخرة بني الحمام عند باب القطنين، ثم زار القدس الملك الأشرف قايتباي في سنة 880هـ / 1475م فلم تعجبه فلما كانت سنة 884هـ / 1479م أمر خاصكي بهدمها و توسيعها بما يضاف إليها من العمائر⁽⁵⁾. و قد ذكر صاحب الأئس وجود برك المياه ينقع بها أهل القدس " من قناة السبيل ... و مسافتها عن القدس نحو نصف بريد "⁽⁶⁾ وفي عهد الملك الناصر أنشأ الأمير تنكز نائب الشام . بالقدس رباطاً و وصل المياه إليه عن طريق قناة و أدخلها إلى الحرم و بني به حمامين و قيسارية مليحة و عمرَ بصفد البيمارستان و الخانات وله بجلولية خان السبيل و الحوانيت بكامل بلاد الشام⁽⁷⁾ .

و ذكر الكثير من المنشآت العسكرية و المدنية التي بنيت في المدن و أشهر من قام بالبناء نائب الشام الذي بني قناة السبيل بظاهر القدس، وله الكثير من العمارات و عاصر الكثير من السلاطين المماليك منهم كتبغا و المنصور و كانت سلطنته 49 سنة حتى توفي سنة 741هـ / 1340م⁽⁸⁾.

هذه الأعداد الكبيرة من الأسواق تؤكد لنا أهميتها في الحياة العامة للمدن في العصر المملوكي، و لا سيما ما ذكر في عام 794هـ / 1391م أن الست طنشق المظفرية⁽¹⁾ قامت ببناء عقبة السوق، و

(1) تراجع و أصبحت في العهد المملوكي قرية. ينظر: ابن الفرات، تاريخ، ج1، ص227

(2) نزهة ، ج 1 ، ص364.

(3) العلمي ، الإنس، ج9، ص109. العيني، السلطان برقوق ص253. فابري، رحلة، ق1، ج38، ص344.

(4) العلمي ، الإنس ، ص52 ، ص55.

(5) المصدر نفسه ج2 ، ص35 .

(6) المصدر نفسه ج2 ص59 .

(7) الصفدي، الوافي، ج10، ص260، ص261. الكتبي، فوات، ج1، ص263. النعيمي، الدارس، ج1، ص93.

(8) الصفدي ، الوافي ، ج2 ، ص92.

سميت باسمها و قد ذكر أن أسباب إتقان البناء في المؤسسات الاجتماعية والأسواق و غيرها في بيت المقدس و الخليل و نابلس " انه لم يكن في جميع المملكة أتقن و لا أحسن رؤية من بناء القدس و الخليل و نابلس فهي متقنة لكونها في الجبل و الحجارة متوفرة (2).

و انتشرت المؤسسات الاجتماعية في مدينة غزة أيضاً فقد ذكر فيها الجوامع و المدارس و الزوايا و البيمارستان والأسواق " وهي صحيحة الهواء " (3)، حتى أن بعض المصادر تطرقت لأنواع سكان المدن، فقد ذكر أن فيها العرب و التركمان و العشير (4). و أنواع المواد المستخدمة في بناء الدور، و المؤسسات ذكرت في غزة كغيرها من المدن الفلسطينية استخدم في بنائها حجر الكلس (5) و قدّم الرحالة ابن بطوطة وصفاً لهذه المؤسسات في غزة فقد قال: "مدينة هي أول بلاد الشام مما يلي مصر متسقة الأقطار كثيرة العمارة حسنة الأسواق بها العديد من الأسوار ... جامعها أنيق البناء محكم الصنعة و منبره من الرخام " (6) ولها قلعة صغيرة (7).

وقد ذكر المقرئزي في حوادث سنة 823 هـ/1419م سوق الجزائر في غزة (8)، و من المؤكد أن المماليك قاموا بهدم المدن التي لا تخدمهم و المهدة من هجمات الفرنج عبر البحر ولكنهم قاموا بتجديد مدن أخرى بعد طرد الفرنج منها و تعميرها مثل مدينة صفد التي عمرت سنة 675 هـ/1276م (9).

و مدينة الخليل عليه السلام كانت أيضاً مقسمة إلى حارات من ضمن هذه الحارات، حارة الشيخ على البكا وهي منفصلة عن البلدة من جهة الشمال و حارة الأكراد و هي مرتفعة على علو سفح الجبل، و حارة الجبارية و اسمها القديم حارة الفستقة، و حارة المشرفية و حارة السواكنة، و حارة الحدابنة، و ضمنها حارة النصارى، و حارة الشماينة، و حارة رأس قيطون و هي منفصلة عن البلدة من جهة الغرب، و حارة الدارية و من جملتها حارة القصاروة و حارة اليهود و حارة الزجاجين و

(1) الست طنشق بنت عبد الله المظفرية ولم يذكر في ترجمتها سوى بعض أعمال الخير التي قامت بها في القدس: ينظر، العلمي الأتس ج2، ص64.

(2) العلمي الأتس ، ج2 ، ص54 ، ص56 .

(3) القلقشندى ، صبح ، ج4 ، ص102 .

(4) القلقشندى ، صبح ، ج4 ، ص102 . العمري ، مسالك ، ج3، ص334 ، ص335 .

(5) العمري ، مسالك ، ج3، ص335 ، .

(6) ابن بطوطة ، رحلة ، ج1 ، ص74 .

(7) أبو الفداء ، تقويم ، ص339 .

(8) السلوك ، ج7 ، ص17 .

(9) المصدر نفسه ، ج2 ، ص98 .

حارة الداربية تقع غربي المسجد و هي أحسن الحارات (1) ووجد في المدينة مجموعة كبيرة من المدارس و الزوايا و الربط خلال العصر المملوكي وكثرت الأوقاف على هذه المؤسسات، وأهم هذه المؤسسات البيمارستان الذي بناه الملك المنصور قلاوون سنة 680 هـ / 1281م و رتب فيه الأطباء لخدمة سكان بلد الخليل (2)

ومن المؤسسات الاجتماعية الحمامات ومن المؤسسات الاقتصادية الخانات التي انتشرت في المدن الفلسطينية و كانت موجودة منذ عهد المسلمين حتى عندما سيطر الفرنج على تلك المدن و هذه المؤسسات موجودة فيها، واهتم بها السلاطين المماليك منذ اللحظة الأولى لحكمهم على فلسطين، ومنهم الملك الظاهر بيبرس والأشرف خليل بن قلاوون والعاقل كتبغا حتى أن الأمير سلار بنى في غزة الجامع و في الخليل أيضاً و بني خان بيسان و خان قاقون، وذكر انه كان " فاضلاً فقيهاً و له مصنفات في الفقه " (3). وفي عهد السلطان الملك الصالح إسماعيل بن الناصر قام أحد القضاة بعدة أعمال، كان من بينها تغيير جامع بالخليل و بنى في غزة حماماً هائلاً للغاية ومدرسة و جامعاً عديم النظير و عمّر الخان للسبيل بغزة و عمّر الخان العظيم في قاقون حتى ذكر أنه هو " الذي مدنّ غزة و مصرها و بنى بها البيمارستان ووقف عليه أوقافاً جليلة ... و عمر بغزة الميدان والقصر وبنى الخان بقرية الكتبية و بنى القناطر بعناية أرسوف و كل العمائر ظريفة متقنة محكمة البناء " (4). وأشارت وثيقة مملوكية ترجع إلي عهد الأمير تتكز تشير إلي بناء المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والصحية بشكل موسع في القدس والاهتمام بها (5)، وقد أكد ابن بطوطة عندما زار مدينة طبرية أن بها " الحمامات العجيبة لها بيتان أحدهما للرجال والثاني للنساء وماؤها شديدة الحرارة" (6). وقد قام الملك الظاهر بيبرس سنة 659هـ/1260م بجمع الأموال اللازمة للعمارة وكان بصحبته علم الدين اليعمري حيث بعث الصناع و الآلات لإصلاح قبة الصخرة بالقدس وما كان في إقطاعات الأمراء من أوقاف الخليل عليه السلام ووقف عليه قرية تعرف بإذنا (7) وفي سنة 676 هـ/1277م كانت وفاة الظاهر ركن الدين بيبرس و ذكر من مناقبه " جدد قبر الخليل عليه السلام و زاد في زاويته "، و زاد فيما يصرف على المقيمين و بني على قبر موسى عليه السلام قبة قبلي اريحا، و جدد بالقدس الكثير

(1) العليمي ، الأُنس ، ج2 ، ص77 ، ص78 .

(2) العليمي ، الأُنس ، ج2 ، ص79 . غوانمة، نيابة، ص64-65 .

(3) ابن تغري ، النجوم ، ج10 ، ص109 .

(4) الصفدي ، الوافي ، ج15 ، ص293 .

(5) العسلي، وثائق، ص105-114

(6) رحلة ، ج1 ، ص81 .

(7) المقرئزي ، السلوك ، ج1 ، ص526 .

من المنشآت مثل قبة السلسلة ورمم سقف الصخرة و بني بالقدس خاناً هائلاً... و نقل إليه المواد من قصر الخلفاء الفاطميين من مصر و عمر فيه طاحوناً و فرنناً و بستاناً، و من يأتي إلى قبر الخليل عليه السلام خصص لهم أموالاً تفق عليهم" (1). و أنشأ جسوراً كثيرة بمدينة الغور مثل جسر دامية و أنشأ جسوراً بالساحل و عمّر قلعة قاقون و بني بها جامعاً و أوقف عليه وقف، و بني حوض السبيل و جدد جامع الرملة و أصلح مصانعها، و أصلح جامع زرعين، و جدد باشورة في قلعة صفا أنشأها بالحجر الكلسي و عمّر أبراجاً و بدنات و بغلات مصفحة (2). و في سنة 728 هـ/1327م تم توصيل المياه إلى مدينة القدس بعد أن عمل الصناع ستة أشهر و تم تجديد حيطان الجامع بعد أن أصابه الزلزال و أصلحت المقصورة و أركان القبة و وجد فيه محراباً للحنفية (3).

و من الرحالة الذين زاروا المدن الفلسطينية في فترة متأخرة من الحكم المملوكي و تحدثوا عن المؤسسات الصحية (فابري) من (885 هـ/1480-888 هـ/1483م)، فقدم و صفاً لمستشفى حبرون الخليل " فوصلنا إلى باب المشفى المخصص للناس الفقراء و هو موجود تحت المسجد و دخلنا إليه فشهدنا مكاتبه الجميلة و في مطبخه و فرنه كانت هناك استعدادات عظيمة معمولة لصالح الحجاج " (4).

أما الرحالة الذين زاروا فلسطين في القرن الخامس عشر الميلادي /التاسع الهجري مثل عوبديا فقد ذكر العديد من الأماكن المقدسة و معالم المدن سوء أكان في الخليل التي ذكر فيها مقابر الأنبياء (و أطلق على مقابر الأنبياء الماكفيل أي (المزدوجة) أو الحرم الإبراهيمي يوجد مبنى عتيق معظمه من كتل حجرية مهولة و يعلو هذا البناء العتيق مبنى آخر حديث خاص بالعرب (5) و بذلك يفرق بين الحرم و بين بناء جديد للعرب بطريقة تبين أن هذا الحرم هو ملك لليهود، ولكن يبدو أن العرب أدخلوا على هذا البناء مدخلات معمارية جديدة مما سبب الخلط و جعل هذا اليهودي يقول بأن العرب لهم بناء حديث. و ذكر المغارة المقدسة في الخليل أعلى قمة الجبل المقابل فيها قبور بعض الأنبياء و الصالحاء و كانت مزاراً للمسلمين، و قد شهدت المباني بعد صلاح الدين عدة إصلاحات بعد خروج الفرنج منها و من البقاع المقدسة في الخليل ذكر الرحالة جدول مائي ذكر أنه يحمل اسم أشكول (6) أما

(1) ابن كثير ، البداية ، ج13 ، ص275.

(2) الصفدي ، الوافي ، بالوفيات ، ج10 ، ص213. ابن تغري ، النجوم ، ج7 ، ص195 .

(3) الذهبي ، ذيول العبر ، ج6 ، ص155.

(4) رحلة ، ق4، ج38، ص1222.

(5) Obadiah ، op.cit .p233 نقلا عن السيد، اليهود ، ص56 .

(6) Obadiah ، op.cit .p249 نقلا عن السيد، اليهود ، ص58 ، ص61

من الناحية الاقتصادية فقد ذكر أن مدينة الخليل غنية جداً بكروم العنب⁽¹⁾، أما عوبديا فعندما يذكر القدس يؤكد على أهميتها الدينية بالنسبة للكل، وأن الناس يأتون إليها من مصر و دمشق و حلب و من بلاد أخرى، وقد ذكر عوبديا انه لحق بمدينة القدس دمار شديد، كما تحدث عن هيكل سليمان، وموقف السلطات المملوكية من زيارة اليهود وأشار أنه لم يسمح لهم بالدخول إلى المدينة وزيارتها بدون أن يأذن العرب بذلك، وذكر ما أدخله السلطان المملوكي قايتباي من تشييد مباني أكثر بهاء من أي مبنى تم بناؤه من قبل، وتم تزيينه بالذهب والأحجار الكريمة، وأنواع العمائر في القدس التي ذكرها عوبديا، ولها أهمية حربية برج داود في الركن الشمالي الشرقي⁽²⁾، وهذا ما أكده صاحب الأانس بقوله: "هو حصن عظيم البناء بظاهرية القدس من جهة الغرب... وكان قديماً يعرف بمحراب داود عليه السلام، وكان سكنه به، ويقال: إن البناء كان متصلاً إلى دير صهيون، وفي هذا الحصن برج عظيم يسمى برج داود وهو البناء القديم السلیماني"⁽³⁾. وذكر المدخلات المعمارية بعد سيطرة الفرنج على بيت المقدس في برج داود وقال: "إن للقلعة نائب"، ويلاحظ أنها أصبحت مقرّاً للنائب في عهد السلطنة المملوكية سنة 886هـ / 1481م⁽⁴⁾.

ويلاحظ أيضاً أن الرحالة والمؤرخين المسلمين ركزوا في مدينة القدس و الخليل على الجوانب الدينية وما حوت المدينة من مقدسات للطوائف المختلفة سواء اليهود، أو المسلمين، أو النصارى، و قبور الأولياء التي ذكرت عند باب الساهرة عند البقيع بجانب "طور زيتا"، وبها جماعة من الصالحين⁽⁵⁾، ومن الملاحظ أن بعض القرى الفلسطينية قد تحولت إلى مدن، مثل: لد و كفر سابا و علقر و بينا و عمواس و كفر سلام، وكانت هذه القرى الكبيرة ذات مناير أيضاً، وتلك حقيقة تمنح الناحية العمرانية بفلسطين بعداً كبيراً؛ فالحاق هذه القرى بالمدن كان لا بد نتيجة التضخم السكاني و ما يترتب عليه من حيوية اقتصادية عامة⁽⁶⁾، و مما أكد هذا التطور ما ذكره المقدسي في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي عن مدينة الرملة "قصة فلسطين، بهية حسنة البناء، خفيفة الماء... جامعة الأضداد بين رساتيق جليلة و مدن سرية... و قرى نفيسة و التجارة بها مفيدة... و لا أحسن ولا أطيب من حواريتها، ولا أبرك من كورتها، ولا ألد من فواكهها، موضوعة بين بساتين زكية ومدن محيطة، ورباطات فاضلة، ذات فنادق رشيقة، وحمائم أنيقة... و منازل فسيحة، ومساجد حسنة، و

(1) السيد، اليهود، ص 58-61

(2) Obadiah, op.cit. p249 نقلا عن السيد، اليهود، ص 62-68

(3) العلمي، ج 2، ص 55

(4) المصدر نفسه، ج 2، ص 55

(5) المصدر نفسه، ج 2، ص 62-63

(6) عباس، الحياة العمرانية، ص 347

شوارع واسعة "ولكن أصابها القليل من الخراب إذا ما قورنت بالمدن الأخرى في فلسطين بسبب الحروب الصليبية⁽¹⁾ .

أما فيما يتعلق بسكان المدن في العصر المملوكي فقد قسمها أحد الباحثين المحدثين إلى أربع مستويات رئيسية: الصفوة الحاكمة و الوجهاء و العامة من الشعب و طبقة الرعايا فقد سكن المدينة الفلسطينية كغيرها من المدن، والذي سبق ذكره طبقة النخبة من المماليك تسمى النخبة الحاكمة "الخاصة" مقابل طبقة العامة من الشعب، وتكونت هذه الطبقة من الأمراء و المماليك ذوي المراتب العليا و الموظفين و الجنود، ولم يكن لهم سوى أهمية ثانوية في جهاز الدولة، وسموا أحياناً بالعامة و يلاحظ وجود طبقة اجتماعية ثانوية واقعة بين الخاصة و العامة و هم الأعيان "يعني الوجهاء" و قد أطلقت لفظة أعيان المماليك و أعيان العلماء و أعيان الناس و البعض أطلقها على العلماء و كانت طبقة العامة من الشعب محرومة من جميع الامتيازات⁽²⁾ وتجدر الإشارة إلى أن طبقة العامة في المدن الفلسطينية حُرمت من الامتيازات بسبب سيطرة طبقة جديدة على مقاليد الحكم و هم المماليك الذين كانوا ينظرون لأنفسهم نظرة استعلاء لأنهم ليسوا من أبناء البلد بل كانوا من جنس واحد غريب عن البلد، و يلاحظ استثنائهم في المدن الفلسطينية بالحكم، و الإقطاعات، و هذا يدل على أنهم نظروا لأنفسهم نظرة تختلف عن باقي الناس ففي عهد الملك الناصر و زرع النواب على كل من غزة، و القدس، و الخليل، و نابلس، و قاقون، و ولد، و الرملة، و أقطعهم إقطاعات هائلة⁽³⁾.

و قد ذكر أن سكان المدن كانوا مجتمعاً طبقياً حيث أنقسم إلى سبعة أقسام: أهل الدولة من التجار و متوسطوا الحال من الباعة و السوقة و أهل الفلح و الفقهاء، و يشملون طلاب العلم و أرباب الصنائع، و المهن و ذوي الحاجة، و السكنة و أرباب الوظائف الديوانية من المسلمين و الذميين و الأعراب الذي يعتبرهم من أهل الفلح⁽⁴⁾ .

فقد ذكر ضمن السكان في غزة البدو (العسكر) و التركمان و العرب المسلمين و مما يؤكد أن غالبية سكان غزة من المسلمين ما وجد فيها من المدارس و الجوامع و العمارات. و هذا بالطبع يستلزم وجود سكان مسلمين فيها كما أن مدينة غزة عندما كان يتقدم إليها العشير و هم سكانها أو سكان قراها فهم عرب مسلمون في أغلبهم. فقد ذكر في سنة 902هـ/1496م أنه انفصل عن بلاد غزة جماعة من العشير و توجهوا إلى الساحل⁽⁵⁾.

(1) أحسن التقاسيم ، ج 1 ، ص 151 . زايد، محمود، دراسة للتقسيمات الإدارية في فلسطين، ص 583.

(2) لابيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي ، ص 134 ، ص 135 ، ص 136

(3) الصفدي ، الوافي ، ج 15 ، ص 293

(4) عاشور ، المجتمع ، ص 15

(5) البصراوي ، تاريخ ، ج 1 ، ص 202 ، ص 203 . عطا الله نيابة ، 79

و ما كان في غزة من قضاة يدل على أن عدد المسلمين كان أكبر الأعداد. فقد ذكر في عهد الملك الأشرف برسباي سنة 900هـ/1494م عندما نزل في الجامع المنسوب إليه حضر قضاة غزة و أكابرها للسلام عليه عقب صلاة الجمعة⁽¹⁾ وفي إشارة إلى التميز بين طبقات سكان المدن فقد ذكر في نفس العام على عهد الملك الأشرف أن الجمالي يوسف كاشف الرملة " لما خرج من الرملة ووصل إلى آخر معاملتها وجد ثلاث أنفار من العشير و العوام فطردهم إلى أرض عمورية من عمل غزة المحروسة " و كتب شيخ الإسلام و قضاة غزة و القدس و الرملة محضراً في النائب⁽²⁾ و هذا الذي ذكره المؤرخ أكد لنا شيئين مهمين الأول: أنه في حديثه قسم سكان المدينة إلى طبقات و الأمر الثاني أن معظم سكان المدن من المسلمين؛ لأنه استخدم لفظة قضاة و شيخ الإسلام و كانت الصيغة بالجمع.

ومما أكد ارتفاع نسبة الكثافة السكانية في مدن فلسطين في أواخر الدولة المملوكية عند زيارات الرحالة فابري لها. فقد وصف غزة بقوله "في هذه الأيام مدينة متميزة في فلسطين وهي كبيرة... حجم القدس و مكتظة بالسكان و مزدهرة... و كل الأشياء التي يحتاجها الإنسان من أجل الحياة البشرية و افرة و رخيصة"⁽³⁾ و أثبتت نتائج الدراسات الحديثة في بعض مدن فلسطين مثل صفد أن المسلمين كانوا يمثلون غالبية سكان المنطقة. و قد بلغ عددهم نحو 30110 فرداً (6022) خانة مشكلين نسبة تزيد بقليل على 93% من مجموع السكان و الشيعة و الدرروز كما سبق القول⁽⁴⁾. و قدر سكان بيت المقدس في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي 20000 نسمة ثم ارتفع العدد فبلغ 30000 نسمة و بلغت مساحة المدينة 720 دونماً فكثافتها السكانية إذاً 42 شخصاً لكل دونم أي كانت في المرتبة الثانية بعد عكا التي بلغت الكثافة السكانية فيها 50 شخصاً للدونم الواحد⁽⁵⁾.

أما مدينة القدس فقد بلغ عدد سكانها في القرنين السابع و الثامن الهجري (الثالث و الرابع عشر الميلادي) آنذاك 40000 نسمة فكثافتها السكانية كانت 56 شخصاً للدونم الواحد و هي أعلى كثافة سكانية و صلتها المدينة المقدسة في العصور الوسطى، ثم أخذت الكثافة السكانية في التدني فبلغ سكانها في القرن التاسع الهجري _ الخامس عشر الميلادي (16000 نسمة ثم تدنى إلى النصف فبلغ في منتصف القرن التاسع الهجري 8000 نسمة، ثم أصبح في أوائل القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي 3000 نسمة، ثم أخذ في الصعود خلال العهد العثماني⁽⁶⁾. كما يجب التنويه إلى أن

(1) العليمي ، الأنس ، ج2 ، ص376 ، ص377

(2) المصدر نفسه ، ج1 ، ص377

(3) فابري، رحلة، ق4، ج38، ص1258

(4) الطراونة ، مملكة ، ص143

(5) غوانمة ، تاريخ ، ص115

(6) غوانمة ، تاريخ ، ص115 ، ص116

فلسطين حدث فيها تخلخل في الكثافة السكانية أثناء الغزو الصليبي على بلاد الشام حيث هجر السكان المدن الساحلية، أما المدن الداخلية فهجرها بعض السكان، ومع ذلك بقيت مأهولة بالعرب الوطنيين، وهذا التخلخل حدث في الرملة وبيسان والخليل، أما بيت المقدس فقد الكثير من سكانها نتيجة ذلك الغزو، وتذكر المصادر العربية العدد بسبعين ألفاً، فأصبحت المدينة خالية من السكان إذ أنّ الموجودين فيها لم يملأوا شارعاً واحداً من شوارعها، وفي العهد الأيوبي بدأت الزيادة، وبلغت أقصاها في العهد المملوكي، فقد استقبلت المدن الفلسطينية أعداداً أكبر من المسلمين وخاصة من العراق أو ما يسمى بالبعثاء الذين ذكرناهم في بداية البحث عند الحديث عن المسلمين وسكنوا المدن الفلسطينية مثل القدس ونابلس⁽¹⁾.

مع العلم أنه في نهاية الدولة الأيوبية و بداية الدولة المملوكية تعرضت المدن الفلسطينية لهجمات التتار و قتل عدد كبير من سكانها، فقد ذكر أن التتار ساروا إلى نابلس فملكوها و قتلوا من كان بها من العسكر و استولوا على معظم بلاد الشام حتى غزة⁽²⁾.

و مما يؤكد كثرة سكان المدن في فلسطين ما ذكر من أن المماليك عندما أرادوا محاربة العثمانيين توجهوا إلى القدس ونابلس لتجنيد الرجال ضد العثمانيين، وفي سنة 885هـ / 1480م حضر القاضي الزيني أبو بكر بن مزهر الأنصاري الشافعي، وكان صاحب ديوان الإنشاء في مصر لتجهيز الرجال⁽³⁾. وقد أثبتت نتائج المسح السكاني التي أجراها العثمانيون في نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي إن الكثافة السكانية في المدن الفلسطينية لم تكن عالية بل كانت على الشكل التالي: ⁽⁴⁾ صدف أكبر المدن الفلسطينية 12000 نابلس، 4300 للقدس، 2500، القدس 8000، الخليل 3500 أما غزة فقد بلغ تعداد 6000 والمجدل 2800 نسمة.

القرى:

هذا و من المؤكد أن فلسطين بأقسامها الجغرافية المختلفة السهول والجبال والأودية والأغوار كانت تتنوع فيها القرى وأنواع الزراعة، فعندما ذكر المقدسي مدينة الرملة أنها " قصبية فلسطين ... واسعة الفواكه ... و بها قرى نفيسة "⁽⁵⁾ و ذكر أن " الجبل مشجر ذوي قرى و عيون و مزارع ... والأغوار ذات قرى و أنهار ونخيل ومزارع ... و البادية وهي جبال عالية باردة معتدلة ذات قرى

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص19. ابن كثير، البداية، ج12، ص15. الذهبي، العبر، ج3، ص334. ابن تغري، النجوم، ج5، ص150. السيوطي، تاريخ، ج1، ص427. ابن خلدون، تاريخ، ج4، ص86. غوانمة، تاريخ، ص116.

(2) ابن خلدون، تاريخ، ج5، ص423.

(3) الصفدي، الوافي، ج24، ص75.

(4) غوانمة، تاريخ، ص116.

(5) أحسن التقاسيم، ج1، ص151 - 171.

وعيون و أشجار"⁽¹⁾.ومما يشير إلى أهمية فلسطين وخصوبة تربتها وغنى قراها ما ذكره الإدريسي من أن "فلسطين حسنة البقاع أزكى بلاد الشام "⁽²⁾وتحدث أيضاً عن غزة و عسقلان و الجبي و مدينة بيسان و الرملة و نابلس و قيسارية و الرملة و ذكر أن " خارجها بساتين و ليس بها شيء من الشجر "⁽³⁾ و لعل هذا يشير إلى وجود العديد من المناطق العامرة التي تقوم فيها الزراعة و تزرع فيها البساتين .

و عندما ذكر ياقوت مدينة طبرية وصف البحيرة وبيان حولها الكثير من القرى المنتشرة في المنطقة وأن بها نبات النخيل بسبب جوها الحار⁽⁴⁾.ومما يؤكد أن فلسطين كانت غنية بالقرى ما ذكره ابن حوقل من " أن أكثر جبال فلسطين زيتون وجميز إلى سائر الفواكه"⁽⁵⁾.

و بعض المصادر المعاصرة لتاريخ الممالك ذكرت مدن فلسطين و تحدثت عن خصوبة ماحولها من أراض وهي القرى فقد ذكر أنه من فلسطين: القدس و الرملة و عسقلان و لد و سبسطية و نابلس و الخليل و اللجون و يافا و أريحا و أكد على مدينة الرملة "وهي وسط أرض فلسطين في أرض سهلة و هي كثيرة الأشجار و النخيل و حولها الكثير من المغارس و فيها أنواع الفواكه و ظاهرها حسن المنظر " ⁽⁶⁾.

وهذا يؤكد بأن ما يحيط بتلك المدن هو عبارة عن مزارع و قرى و ذكر أصناف المزروعات فيها، وناصر خسرو عندما قام بزيارة الخليل ذكر أنه بين القدس و الخليل قرى كثيرة في قوله: " قري كثيرة و زرع و حدائق و شجر بري لا يحصى من عنب و تين و زيتون و على فرسخين من بيت المقدس تقع أربع قرى بها حدائق و بساتين كثيرة تسمى الفراديس لجمال موقعها و في الخليل قرية مطلون وهي موقوفة مع قرى كثيرة و في هذه القرية عين ماء تخرج من الصخرة " ⁽⁷⁾.هذا الكم الكبير من القرى التي ذكرها هذا الرحالة يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك كثرة القرى من ناحية في فلسطين وخصوبة أرضها من ناحية أخرى مما ساعد على نشأة هذه القرى.

(1) أحسن التقاسيم ، ج 1 ، ص 171

(2) نزهة ، ج 1 ، ص 356

(3) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 356 ، ص 357

(4) معجم ، ج 4 ، ص 18

(5) صورة الأرض ص 159

(6) العلمي ، الأنس ، ج 2 ، ص 67 ، ص 68 . ابن الفرات ، تاريخ ، ج 1 ، ص 227

(7) سفرنامه ، ج 1 ، ص 70 ، ص 71

و ذكر المقدسي نمو القرى الفلسطينية وتطورها حيث ذكر أنه في أقاليم فلسطين " قرى أجل وأكبر من أكثر مدن الجزيرة مثل داريا وبيت لهيا وكفر سلام وكفر سابا⁽¹⁾.وقدم بورشارد وصفاً لخصوبة أرض فلسطين التي زارها في القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري والبعض قال:أنه زار فلسطين وقام في دير جبل صهيون سنة 681 هـ /1283م وُذكر أنه زار فلسطين في عهد الملك المنصور سيف الدين قلاوون حيث قال: الأرض المقدسة " خصبة وغنية جداً بالقمح الذي يزرع و ينمو دون أدنى جهد كما تجود الأرض بالعديد من الأعشاب الطيبة أو العطرية الشومر والمرمريّة والسذاب والورود التي تنمو في كل مكان "⁽²⁾ .

وعندما وصف بورشارد قرية سيلون والطريق المؤدي إلى عكا هي عبر سهل جميل مطلّة على جبال "ويوجد هناك الكثير من المدن والقرى الجديدة والقديمة و من بينها كفر جمالا و كفر سيمالا و قلعة قاقون الواقعة في واد خصب " ⁽³⁾.وعندما ذكر القلقشندى عثليت قال: كوره بين قاقون وعكا فيها قرى متسعة ⁽⁴⁾ و قد ذكر لنا الإدريسي الذي زار مدينة عكا أنها " كبيرة واسعة الأرجاء كثيرة الضياع "⁽⁵⁾ .

و في سنة 664هـ/1265م في عهد السلطان بيبرس ورد الخبر أن الفرنج في عكا وجدوا أربعة من المسلمين في طين⁽⁶⁾ شيحا فشنقوهم فعزم السلطان على الإغارة على بلاد الفرنج ⁽⁷⁾.

وعندما نتحدث عن القرى يجب ذكر النظام الإقطاعي الذي شمل القرى والمدن علي حد سواء في دولة المماليك لأهميته بالنسبة للقرى حيث قسمت غالبية القرى الفلسطينية كإقطاعيات بين السلاطين والأمراء المماليك ففي سنة 663هـ/1264م قام الظاهر بيبرس بتوزيع الإقطاعيات على أمرائه بعد فتح مدينة قيسارية و أرسوف وأمر وكيل بيت المال بأن يملك الأمراء والمجاهدين من البلاد التي فتحها وجهزت التوقيعات بذلك ⁽⁸⁾ وكان وكيل بيت المال في هذه الفترة القاضي شمس الدين ابن خلكان،وكتب مرسوماً بذلك. ويبدو أن السلطان كان يوزع الإقطاعيات على أمرائه في خطوة منه لربطهم بالأرض التي تم فتحها حتى يزيد من إصرارهم على حمايتها وتعميرها و إعادة إسكان

(1) أحسن التقاسيم ، ج 1 ، ص 142

(2) وصف ، ص 167 ، ص 168

(3) المصدر نفسه ، ص 122 ، ص 123 لم أعثر علي ترجمة لهذه القرى

(4) صبح ، ج 4 ، ص 157

(5) نزهة ، ج 1 ، ص 365

(6) المقصود هنا الأرض الزراعية الواقعة قرب جبل شيحا،ينظر: المقرئزي،السلوك ،ج2، ص36

(7) المقرئزي ، السلوك ، ج 2 ، ص 36

(8) المقرئزي ، السلوك ، ج 2 ، ص 21— 22

المسلمين فيها مرة أخرى بعد تحريرها من الفرنج، وكانت حسب النظام الإقطاعي تنتقل الإقطاعات إلى الوارث بعد الموت، ويختلف هذا النوع من الإقطاع عن الإقطاع العسكري، والحربي المملوكي الذي كان أكثر انتشاراً⁽¹⁾. ومما يؤكد أن السلطان بيبرس عمل على توزيع الإقطاعات في القرى الفلسطينية من أجل حماية المناطق بعد فتح يافا سنة 666هـ/1227م أنه أمر ببنائها وإعادة أعمارها ورتب الخفراء على السواحل وألزمهم بحراستها. ورسم أن المال المتحصل من هذه البلاد لا يخلط بغيره و جعله لمأكله ومشربه وأعطى الأمراء قري و ملكها إياهم و أنزل التركمان بالبلاد الساحلية لحمايتها، وقرر عليهم خيلاً و عدة (2). وهم بذلك يمنحون الإقطاعات نظير خدمات في حماية أطراف الدولة من الأعداء المتاخمين. وهم الصليبيون والتتار والعثمانيون الذين أخذ خطرهم يشتد منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي كما فعل الظاهر بيبرس(3)، مع العلم بأن الإقطاع المملوكي كانت لهم طريقة في توزيع الأراضي، بعد تحريرها من الصليبيين حيث جعلت هذه الإقطاعات إقطاعات شخصية غير وراثية، وأعيد النظر في حصص الأراضي الممنوحة للسلطان و الأمراء والأجناد وصارت الإقطاعات تتوزع بين عدة مناطق بعد أن كانت تتوزع في ناحية واحدة ثم شمل كافة الأرض مثلاً الأوقاف و الأحباس و كل موارد الرملة وعائداتها (4).

و كانت دولة المماليك دولة الإقطاعية بكل معني الكلمة استأثر فيها السلطان و كبار الأمراء بالأراضي وأكثرها خصوبة في حين أخذ المماليك السلطانية الأراضي الأقل خصوبة، أما أراضي الدرجة الثالثة فكانت من نصيب أجناد الحلقة(5) والعربان و التركمان و كان الإقطاع أمراً شخصياً بحتاً لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه بمعنى أنه كان مفروضاً في المقطع أن يحل محل السلطان في أن يتمتع بغلات الإقطاع و إيراده فحسب، فإذا مات المقطع أو اخل بشرط الإقطاع جاز للسلطان أن يستولي على إقطاعه فوراً، أما المناسبات التي كانت تتم فيه عملية توزيع الإقطاعات فهي تولية سلطان جديد، ويكون إما بالمنح أو الزيادة أو إنقاص أو مكافأة الأنصار ومعاقبة الخصوم، وتوفر أرض جديدة أو استصلاح الأرض أو شق قناة أو ترعة يقوم السلطان بتوزيع هذه الأراضي على هيئة إقطاعات⁽⁶⁾. وشمل التوزيع أيضاً على الموظفين المدنيين مع أن لهم أرزاق من الرواتب

(1) المقرئزي ، السلوك ، ج 2 ، ص 21—22

(2) المصدر، نفسه، ج 2 ، ص 48—49

(3) خليل، الإقطاع، ص 195

(4) المرجع نفسه، ص 195

(5) هم المحترفين من الجند وخاصة ممالئك السلاطين السابقين وأولادهم ويشرف على كل ألف منهم احد الأمراء المتئين وكان لكل مئة منهم نقيب وكانت لهم إقطاعات في جميع أرجاء الدولة، ينظر: ابن تغري، النجوم، ج 8، ص 94. الجزائر، النظام، ص 40.

(6) عاشور، العصر، ص 360—361

والمخصصات. وكان الخليفة أول شخص من الفئة المذكورة حازت على الإقطاع فضلاً عما له من مخصصات راتبية و قد حاز أيضاً عدداً من الصناعات و غيرهم على الإقطاع و المنح العقارية في زمن بعض السلاطين في أوقات مختلفة (1).

ومما يؤكد انتشار الإقطاعات بشكل كبير في قرى فلسطين زمن المماليك أن الملك الناصر قام بتوزيعها على النواب في كل من غزة و القدس و الخليل و نابلس و قاقون و الرملة "أقطعهم... إقطاعاً هائلاً كان إقطاع مماليكه فيها" (2).

و الإقطاع عند المماليك في فلسطين لم يكن وراثياً وإنما كان ينتقل من أمير لآخر حيث أن الملك الناصر أعطى الجاولي إقطاعات في مدن و قرى فلسطينية كانت سابقاً ملكاً لبعض مماليكه و في سنة 657هـ / 1259م و قبل أن تخضع بلاد الشام للمماليك التجأ المماليك البحرية الذين فروا من السلطان المعز أيبك في مصر إلى السلطان الناصر يوسف صاحب دمشق، و طلب ببيرس الأمان له و لجماعته من السلطان فأعطاه الأمان و أقطعه نصف نابلس و جنين و أعمالها بمائة و عشرين فارساً. و بعد أن أصبح الظاهر سلطاناً بعد أربع سنوات وبدأت عملياته ضد الفرنج في بلاد الشام استولى على جبل طابور سنة 661هـ / 1262م ووزعه على أمرائه و كتب لهم مناشير بها (3).

و هذا النظام من الإقطاع هو ما سار عليه بنو أيوب من قبل و قد نقلوه عن السلاجقة في منح الأمراء و نواب السلاطين و حتى أبنائهم، فعندما استولى صلاح الدين على عكا و أخذ ما فيها من أموال و بضائع و أطلق من كان بها من المسلمين فأسروا و كان عددهم أربعة آلاف نفس و حول ما كان بها من كنائس إلى مساجد و أقطع ابنه الأفضل كل ما للداوية من إقطاع و أعطى الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري ضياعاً (4) و هذا يشير أن المماليك ورثوا نظام الإقطاع عن الأيوبيين. و في سنة 664هـ / 1266م عندما فتح الظاهر ببيرس قلعة صنف و شحنها بالأسلحة و أزال ما كان للفرنج بها "أقطع بلدها لمن رتبته لحفظهما من الأجناد" (5) و قدرت هذه الإقطاعات بثمانين ألف درهم (6).

أما الإقطاع في غزة فلم يعثر على معلومات بخصوصها سوى إشارة بسيطة تدل عليه أنه في سنة 735هـ / 1334م أن السلطان الملك الناصر محمد (7) أصدر مرسوم يأمر بإخراج عمير وأبيه إلى غزة و كتب إلى نائبها أن يقطعها خبزاً هناك (1) و المقصود بالخبز الإقطاع.

(1) خليل، الإقطاع، ص 197

(2) الصفدي، الوافي، ج 15، ص 392-393

(3) الطراونة، مملكة، ص 152

(4) المقرئ، السلوك، ج 2، ص 208-209

(5) ابن تغري، النجوم، ج 7، ص 139

(6) ينظر: الطراونة، مملكة، ص 153

(7) ابن تغري، النجوم، ج 1، ص 114. عطا الله، نياحة، ص 100

و ذكر في مدينة الخليل إقطاع الدارية من سلالة تميم الداري و بعد خروج الفرنج من البلاد سنة 583هـ / 1187م فقد ذكر المقرئزي كيف استرد الدارية هذا الإقطاع بعد عودة الإسلام للمدينة فقال: " فلما أعاد الله تعالى البلاد إلى الإسلام بعد إقامتها بأيدي الفرنج نحو مائة سنة لم يتبين لي إلى الآن كيف وضع الداريون أيديهم على القرئتين في (عينون و أمة الخليل) فإنه لم يتأخر بتلك البلاد أحد من الداريين إلى أن استردها المسلمون"⁽²⁾. واستمرت في أيديهم حتى العصر المملوكي فقد ذكر المعاصرون لفترة المماليك مثل صاحب الأئس " استمر هذا الإقطاع بيد ذرية تميم الداري يأكلونه وهم يقيمون ببلد الخليل وهم طائفة كثر"⁽³⁾ وكانت مدينة أريحا إقطاعاً لمن يكون نائب القدس⁽⁴⁾ حتى أن الإقطاع من هذا النوع أوقف على نواب بيت المقدس من أجل تقديم خدماتهم لمدينة بيت المقدس لما له من أهمية دينية.

و من هذه النصوص يتبين: أن المماليك طبقوا النظام الإقطاعي في شتى قرى فلسطين و بجميع أنواعه و أشكاله، و يلاحظ أنهم ورثوه عن الأيوبيين الذين أخذوه بدورهم عن السلاجقة و حولوا أغلب هذه القرى إلى ملكيات خاصة للسلطان يتصرف فيها كيفما شاء و يوزعها على أمراءه و جنوده و كل من هو مقرب منه، حتى أنهم منحوا بعض الموظفين الذين يتقاضون الرواتب مثل القضاة و العلماء وغيرهم.

و لا يغيب عنا في هذا الجانب أنه أمام ضغط التتار و سقوط بغداد سنة 656هـ / 1258م و هروب جماعة منهم سكنت فلسطين، ففي سنة 660هـ / 1261م قدم هؤلاء البغاددة وكانوا من بقايا ممالك المستعصم الذين تأخروا بالعراق بعد مقتل الخليفة و مقدمهم سيف الدين سلار فأكرمهم السلطان ... و أعطاهم أمرة خمسين في الشام و نصف مدينة بنابلس⁽⁵⁾ و لعل هذا النص يؤكد لنا أن المماليك بدأوا منذ اللحظة الأولى لسيطرتهم على فلسطين في تقسيمها لنظام إقطاعي ارستقراطي. مما يؤكد أيضاً أن المماليك قد طبقوا النظام الإقطاعي الذي يقضي عدم توريثهم للإقطاعات في القرى الفلسطينية و خاصة في صفد، فقد ورد في سنة 727هـ / 1321م أن الأمير سيف الدين أقطاي كتب للسلطان الملك الناصر محمد يشكو منه فأمر باعتقاله في قلعة صفد و خرج خبزه (إقطاعه)⁽⁶⁾ و ذكر في العام نفسه

(1) المقرئزي ، السلوك ، ج3، ص190

(2) المقرئزي، الضوء الساري 35-37.

(3) العلمي ، ج2، ص82

(4) المصدر نفسه، ج2، ص75

(5) المقرئزي ، السلوك ، ج1، ص542

(6) الصفدي ، الوافي ، ج24، ص75

نقل أحد أمراء الطبلخانات⁽¹⁾ من القاهرة إلى صغد على إقطاع⁽²⁾. وقد ذكر في مطلع عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (748هـ/ 1347م – 755هـ/ 1351م) نقل الأمير عز الدين الشمس و كان من جملة أمراء مصر وأمر أن يجهز إلى صغد فجهز إليها ثم حضر له منشور بإقطاع جمال الدين عبدالله ابن الأمير سيف الدين اللمش بصغد⁽³⁾ .

و قد عمد السلاطين المماليك توزيع الإقطاع على الأمراء في أكثر من موضع ومنعوا توريثه من أجل تقليل نفوذهم، ويؤكد ما ذكره الصفدي على هذا القول حيث أنه عثر على ورقة فيها أسماء أماكن إقطاع في فلسطين ومنها أرض المزارات من الجولان قرية سلمين و قرية حلين⁽⁴⁾ وأخصاص العوجاء⁽⁵⁾ والبييرة⁽⁶⁾ و من عكا عشرة أرماح⁽⁷⁾ ومن صغد المنبية والمناوات والمعثوقة وكفر كنا ومن نابلس مراد ثلثا ورويسون دير بجالا⁽⁸⁾ وكان هذا في السنوات 711هـ / 1311م – 713هـ 1313م وهذا يشير إلي خصائص الإقطاع المملوكي في فلسطين، أن توزيع الإقطاع علي الأمراء كان في أكثر من منطقة وذلك من أجل تقليص نفوذهم، ويعتبر النص وثيقة هامة تؤكد لنا تطبيق نظام الإقطاع من النوع غير المورث بشكل كبير في القرى الفلسطينية في العهد المملوكي، فقد منح الأمير إينال الحكمي باستقراره في نظر البيمارستان وتولى بغير إقطاع واستمر على إقطاعه القديم غير أنه أنعم عليه بقرية حجة ومردة من أعمال نابلس وكانت من جملة إقطاع الأمير⁽⁹⁾.

ومما يؤكد أن النظام الإقطاعي لايورث ما أشارت إليه وثائق أن قرية مجدل فضيل كانت ضمن وقف سيف الدين بكتمر الجوكندار كافل في المملكة سنة 710هـ/ 1310م ،وعندما تراجع نفوذه

(1)الطبلخاناه.ومعناها بيت الطبل، ويشتمل على الطبول و الأبواق و توابعها من الآلات؛ ويحكم أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم، يقف عليها عند ضربها في كل ليلة، ويتولى أمرها في السفر؛ ولها متسلم لحواصلها يعرف بمهتار الطبلخاناه؛ وله رجال تحت يده ما بين دبندار: وهو الذي يضرب على الطبل، ومنفر وهو الذي يضرب بالبوق، وكوسبي، وهو الذي يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض وغير أولئك من

الصناع؛ ينظر: القلقشندي، صبح، ج4، ص13

(2) ينظر: الكتبي، فوات، ج10، ص181. الطراونة، مملكة، ص153

(3)الصفدي، الوافي، ج10، ص13. الطراونة، مملكة، ص153

(4)قرية سلمين و حلين قري تقع في الجولان ،ينظر: الصفدي، الوافي، ج10، ص187. لم يرد لها وصف بشكل محدد

(5) العوجاء نهر بين أرسوف والرملة من أرض فلسطين، ينظر: الحموي، معجم ج4، ص167. ويبدو أن المقصود بأخصاص العوجاء هي منطقة محاذية لهذا النهر.

(6) البييرة بين بيت المقدس ونابلس خربها الملك الناصر حين استنقذها من الأفرنج، ينظر: الحموي، معجم ج1، ص526.

(7) مقياس يستخدم لقياس مساحة الأرض، ينظر: ابن منظور، لسان ج1، ص454.

(8)الصفدي، الوافي، ج10، ص187. أغلب ما ورد من قري تتبع نيابة صغد في العهد المملوكي.

(9)النجوم الزاهرة، ج15، ص41

وضع بعض الأمراء المتنفذين على القرية فصدر مرسوم سلطاني يمنعهم ويعيد صرفها على الصخرة الشريفة⁽¹⁾.

وقد ذُكرت بعض المعلومات التي تؤكد لنا أن المماليك منحوا الإقطاعات لعدد من زعماء وشيوخ العشائر مقابل بعض الخدمات التي يقدمونها لهم كالمساهمة في حفظ الأمن وحماية الطرق والمساهمة كقوات مساعدة في بعض المعارك وطبق هذا النوع من الإقطاع مع الأسرة الحارثية التي سكنت مرج ابن عامر وذلك عندما توجه حاجب الحجاب بدمشق سنة 885 هـ/1480م لتسليم منطقة مرج ابن عامر لابن طريبة عوضاً عن أبيه المقتول حتى أن السلطان سليم الأول العثماني أمره في هذه المنطقة؛ لأنه كان من المتعاونين معه، وذكّرت السجلات العثمانية أن ناحية مرج ابن عامر كانت من تصرف ابن طراباي من أمراء الأعراب⁽²⁾.

وهذا يؤكد أن منح الإقطاعات و سحبها وإجراء المناقلات بين ذويها كان من حق السلطان إلا أنه كان لبعض نواب السلطنة حق منح إقطاعات صغيرة فعندما قدم الأمير علاء الجاولي إلى صفد أقطعه بها نائبها الأمير سيف الدين أرقطاي (818 هـ/1335م - 736 هـ/1318م)⁽³⁾.

و في بداية القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري بدأ التدهور الاقتصادي و إقفار بعض الأقاليم بالكامل أديا إلى بعض التطورات في الاستتجار الفلاحي الفردي حيث انه بعد وفاة الظاهر برقوق استولى المقربون من الأمراء على الأراضي التي كانت مقتطعة لهم و استدعوا مستأجراً بها من الفلاحين و زادوا من قيمة إيجارها⁽⁴⁾ و في سنة 659 هـ/1260م أوقف الظاهر بيبرس ما كان من إقطاعات الأمراء من أوقاف الخليل عليه قرية تعرف بأذنا⁽⁵⁾.

و تجدر الإشارة إلى أن القرى في فلسطين خلال العهد المملوكي لم تخضع للنظام الإقطاعي فقط بل أيضاً خضعت للأوقاف فأوقفت الكثير من القرى في فلسطين على قبور الأنبياء و مزاراتهم و المصالحة ففي سنة 664 هـ / 1226م أوقف نصف قرية قديتا في ولاية بر صفد على مزار الشيخ خضر و من القرى التي أوقفت على الحرم في الخليل قرية مجدل فضيل⁽⁶⁾ وأشارت وثيقة مملوكية سنة 664 هـ / 1226م أن قرية العوجاء بالغور وقف على الحرم في القدس⁽⁷⁾.

(1) ينظر: العسلي، وثائق، ص 183-186

(2) ينظر: الطراونة، مملكة، ص 154، ص 155

(3) الكتبي، فوات، ج 1، ص 230. الطراونة مملكة، ص 155

(4) ابن خلدون، تاريخ، ج 5، ص 531. سيمونفا، صلاح الدين و المماليك، ص 197

(5) ابن خلدون، تاريخ، ج 1، ص 526

(6) ابن كثير، البداية، ج 13، ص 265، الطراونة، مملكة، ص 162. العسلي، وثائق، ص 183-186

(7) ينظر: العسلي، وثائق، ص 177-178.

ففي سنة 690هـ / 1290م بعد فتح عكا على يد الأشرف خليل بن قلاوون أوقف على قبر أبيه " القبة المنصورية بين القصرين من قرى عكا الكابرة و تل المشيوخ و كردانه من ساحل صور ... وأوقف أيضاً على المدرسة الأشرفية بجوار السيدة نفيسة قرية من ساحل صور و قرية طبرية "(1).

و في سنة 820 هـ/1290م زار السلطان المؤيد أبو الناصر الظاهري مقام الخليل إبراهيم عليه السلام و قابله الأمير فخر الدين " فأقبل عليه و سر السلطان بالقائمة التي أوقفه ... عليها مما أعده من الأموال " (2) فقد لاحظ أن الأوقاف التي قام بها الظاهر بيبرس كان يهدف من ورائها أعمال الخير والبر والإحسان التي يريد بها مرضاة الله والتقرب من الرعية خاصة و انه قام بجهود كبيرة في تحرير هذه القرى من أيدي الفرنج بينما كان هدف الأشرف خليل بن قلاوون توفير مصدر دخل للمنشآت الدينية (3)، ولكن من المؤكد أن كل ما قام به المماليك من أنشطة عمرانية و دينية في المدن و القرى الفلسطينية وغيرها هي عبارة عن أعمال الهدف منها تثبيت الحكم و إعطاؤه شرعية في الأوساط الإسلامية و التقرب للرعية .

أما الأوقاف في مدينة غزة فالمعلومات عنها قليلة و المتوفر من الإشارات يؤكد أن السلطان الملك الأشرف قايتباي عندما أقام مدرسته بالقدس عام (877هـ / 1472م) و كان قد بناها الظاهر خشقدم ثم أمر قايتباي 880هـ/1475م بتوسيعها بما يضاف عليها من العماير وأوقف عليها أوقافاً بمدينة غزة عليها هذا بجانب الأوقاف التي أوقفها أهل الخير في غزة على الجوامع و المدارس التي أموها (4) هذا ما يتعلق بتفسير الملكيات الإقطاعية والأوقاف في فلسطين وقد أكثر الرحالة و المؤرخون من أوصاف القرى الفلسطينية و غنى فلسطين بالقرى التي وجدت قبل سيطرة الصليبيين و بقيت عامرة عند خروجهم في عهد بني أيوب أما في العهد المملوكي فقد بدأ الاهتمام بهذه القرى بشكل أكبر؛ لأنها كما لاحظنا كانت تشكل مصدراً مهماً جداً من مصادر الدولة المملوكية سواء للجيش أو للمؤسسات أو للسلطان و الأمراء.

و قد أكد لنا هذه النصوص معظم سكان القرى و الضياع حيث كانوا من المسلمين حتى أن الناظر من المسلمين بسبب كثرتهم العددية، و هذا يؤكد لنا أنه عندما سيطر المماليك على فلسطين و بدأوا في عملية تحرير الأراضي من الفرنج وكان اغلب سكان الضياع من الفلاحين المسلمين .أما

(1) المقرئزي ، السلوك ، ج2 ، ص227

(2) المصدر نفسه، ج6 ، ص450

(3) الطراونة ، مملكة ، ص163

(4) العليمي ، الأنس ، ج2 ، ص35 . عطا الله ، نيابة ، ص100

فيما يتعلق بحياة الفلاحين فكانوا يشكلون النواة الأعظم من أهل البلاد وإن كان نصيبهم في المجتمع المملوكي لم يكن سوى الاحتقار و الإهمال (1)

و قد أكد ابن خلدون على ظروف الفلاحين في قوله " الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو ... و لا تجده ينتحله أحد من أهل الحضر " (2) وهو بذلك يقدم لنا صورة حقيقية للأوضاع المعيشية التي عاشها الفلاحون حيث كانوا يعانون القهر و الظلم و لا يغادرون الأرياف و القرى و الضياع، و لعل الفلاح الفلسطيني قد عانى مثل غيره تحت سيطرة الدولة المملوكية كزميله الفلاح الشامي والمصري من التعرض للظلم الاجتماعي القاسي الذي ترتب على نظام الإقطاع سابق الذكر فكانوا يلزمون بفلاحة الأرض و لا يسمح له بالنزوح منها قبل ثلاث سنوات و إن نزع يعاد إلى الأرض بالقوة و يلزم بفلاحتها و زراعتها و إن احتج يقولون له هذا شرع الديوان و المقصود هنا ديوان الجيش المسئول عن هذه الإقطاعات (3).

و كان أغلب سكان القرى من الفلاحين في العصر المملوكي، فقد ذكر في سنة 753هـ/1352م قيام رجل بثورة في قرية حطين من عمل صفد و معه جماعة من الفلاحين (4) و من الواضح أن الفلاحين عاشوا حياة قاسية في عام 812 هـ / 1409م وأن الأمير سودن المحمدي (5) توجه إلى بلاد صفد و صادر أهل القرى من الفلاحين (6) .

و لكن هذا القمع لم يكن في جميع فترات الدولة المملوكية ففي عام 666هـ/1267م فعندما كان السلطان الظاهر بيبرس في غزة أُبلغ أن مجموعة من الجمالين " تعرضوا إلى زرع فقطع أنفهم وبلغه عن الأمير علم الدين سنجر الحموي (7) أنه ساق في زرع فأنزله عن فرسه وأعطاه بما عليه من السرج و اللجام لصاحب الزرع ثم رحل السلطان إلى العوج " (1).

(1) عاشور ، المجتمع ، ص56

(2) مقدمة ، ج1 ، ص394

(3) غوانمة ، التاريخ ، ص131

(4) المقريري ، السلوك ، ج2 ، ص158

(5) سودون المحمدي ويعرف بتلي بعني مجنون كان من أعيان خاصكية سيده ثم ترقى في أيام ابنه إلى التقدمة ثم قبض عليه وحبسه باسكندرية ثم أفرج عنه وأخرجه إلى دمشق على إقطاع ووصف بأنه شابا شجاعا مفرطا في الجهل :ينظر، السخاوي، الضوء، ج3، ص285.

(6) المقريري ، السلوك ، ج6 ، ص244

(7) الأمير علم الدين سنجر الجاولي أحد أعيان أمراء الديار المصرية توفي يوم الخميس في رمضان ودفن بمدرسته فوق جبل الكبش وكان أصله من ممالك جاول أحد أمراء الملك الظاهر بيبرس ثم اتصل بعده إلى بيت السلطان وأخرج أيام الأشرف خليل بن قلاوون إلى الكرك ثم قدم في أيام العادل كتبغا إلى مصر فقدمه الأمير سلالر إلى أن ولي نيابة غزة ثم عدة ولايات بعد ذلك بمصر والبلاد الشامية وهو صاحب الجامع بغزة والخليل عليه السلام وخان بيسان وخان

هذا يقدم لنا دليلاً على اهتمام المماليك بالزراعة و القرى في فلسطين كغيرها من أقطار دولتهم و كانوا ينزلون أشد العقوبات بمن يتعرض للزراعة بالتخريب و الرعي داخلها .

وقد انتشرت في فلسطين حسب الإحصائيات أعداد كبيرة من القرى في فترة الصليبيين في القرنين الثاني و الثالث عشر من الميلاد حيث وصلت إلى ألف و مائتي قرية (1200 قرية) و قد احتفظت معظم القرى الفلسطينية بأسمائها القديمة الكنعانية أو الآرامية و هذه الأسماء ذات أصل عربي و كانت تحمل الشكل العربي في هجاء الحروف (الكتابة) وطريقة اللفظ، وكانت القرى الريفية في فلسطين تحمل أسماء عربية كما أن اللغة العربية كانت لغة الحديث والتفاهم لدى كل السكان الوطنيين المحليين المسلمين و المسيحيين و اليهود أو السامرة (2). وهذا يشير إلى خاصة من خصائص القرية الفلسطينية التي وجدت في عهد الفرنج و استولى عليها المماليك بهذا الشكل و هو ما أكدت عليه النصوص السابقة من انتشار المسلمين في معظم القرى الفلسطينية المجاورة حتى أن ناظر القرى و الضياع كما ذكر ابن جبير في عهد الفرنج كان من المسلمين وقد سبق التنويه إليه .

وقد أكدت الاتفاقية التي وقعت بين الظاهر بيبرس و الفرنجة سنة 682هـ / 1283م بأنه كان لها اهتمام كبير جداً بالقرى، حيث ذكر فيها " المواضع و المصايد و الملامات و البساتين و الجزائر سهلها و جبالها و عامرها و دائرها و ما يجري فيها من أنهار ... و ما استجد بها من القراح (3) ... و ما ينسب إلى ذلك من البلاد و الضياع و القرى التي كانت مناصفة " (4).

و نستدل من هذه الوثيقة على العدد الكبير من الفلاحين و القرى التي وجدت في فترة سيطرة المماليك و أهمية هذه القرى عند المماليك الذين شملوها في اتفاقيات الهدنة التي وقعت ولم تنترق فقط للقرية و إنما شملت الاهتمام بالفلاحين و لا يحابي أحداً منهم لأخذ الفلاح في هذا أو غيره في مصلحة عمارة البلاد و استخراج الحقوق و مقاسمة الغلال و طلب المفسدين ليلاً و نهاراً (5)

و عملت هذه الهدنة على ضمان بقاء الفلاحين في أرضهم سواء التابعة للفرنج أو التابعة للمسلمين هذا لما للقرى من أهمية في حياة الجانبين من الناحية الاقتصادية فقد نصت الهدنة " أنه من كان من فلاحي بلاد المسلمين يعود إلى بلاد المسلمين مسلماً أو نصرانياً، وكذلك من كان من فلاحي

قاقون وكان فاضلاً فقيها وله مصنفات في الفقه وغيره، ينظر: المقرئزي، السلوك، ج2، ص48. ابن تغري، النجوم ج7، ص176. الصفدي، الوافي، ج1، ص256، ج10، ص211.

(1) المقرئزي، السلوك، ج2، ص48

(2) براور، الاستيطان، ص425، ص426

(3) القراح من الأرض: المخددة للزرع و ليس عليها بناء ينظر القلقشندی، صبح، ج14، ص47.

(4) القلقشندی، صبح، ج14، ص47، ص48

(5) القلقشندی، صبح، ج14، ص53، ينظر ملحق (7)

بلاد الفرنج مسلماً كان أو نصرانياً، معروفاً قرارياً من الجهتين"⁽¹⁾ و يلاحظ أن سكان القرى من الفلاحين كان للحروب تأثير عليهم سواء بالقتل أو مشاركتهم في فتح تلك المدن فعندما هاجم السلطان الظاهر ما حول مدينة عكا شاركوا في ردم الخنادق التي حفرها الفرنج لحماية المدينة في سنة 661هـ/1262م⁽²⁾ .

البدو

تعتبر القبائل البدوية التي وجدت في الشام خلال العصر المملوكي هي امتداد لتلك القبائل التي هاجرت من شبة الجزيرة العربية في فترات تاريخية مختلفة إلى الشام عامة وفلسطين خاصة و كان لها دور هام في الحياة السياسية، و الاقتصادية، و الاجتماعية في فلسطين سواء قبل الفتح العربي لفلسطين أو بعده حيث عملت هذه القبائل عند البيزنطيين لحماية حدود دولتهم الشرقية .

و تجدر الإشارة إلى صعوبة دراسة النظام القبلي في فلسطين خلال الفترة المملوكية بطريقة مفصلة بسبب ندرة النصوص التي وردت عن القبائل، فهي متفرقة في الكتب التي تحدثت عن أنساب القبائل العربية التي سكنت تلك المنطقة و التداخل بين هذه القبائل و الانقسام إلى فروع مختلفة و التي ذكرها بعض من مؤرخي المسلمين الذين تعرضوا لتلك الموضوعات و هي الشعب ، القبيلة ، العمارة ، البطن ، الفخذ، الفصيلة⁽³⁾ و يبدو أن المؤرخين المسلمين استمدوا هذه المعلومات من القرآن الكريم و هو أول من تحدث عن النظام الاجتماعي القبلي الذي ساد بين العرب في موطنهم و من ذلك قوله تعالى " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، " ⁽⁴⁾

وقد قسم ابن خلدون قبائل البدو إلى قسمين من حيث المكان والحرفة التي سادت بينهم فنذكر أن بعض هذه القبائل سكنت بالقرب من القرى ولكنهم لم يمارسوا الزراعة وتربية الماشية إلا في حدود ضيقة وتغذوا على منتجاتها وباعوها في المدن والأسواق والقرى وكانوا ينظرون لأنفسهم أنهم طبقة عسكرية تلو طبقة الفلاحين فهم بذلك يعدون مجتمعاً عسكرياً رعوياً. والقسم الآخر منهم سكن القرى⁽⁵⁾ و خاصة منطقة الأغوار ووادي الأردن و عجلون و احترفوا الزراعة و لم ينظر لهم أنهم بدو أو عرب أفحاح و نظر لهم نظرة احتقار⁽⁶⁾ .

(1) الفلقشندى، صبح، ج14، ص47-48

(2) المقرئزي، السلوك، ج1، ص554.

(3) الفلقشندى، صبح، ج1، ص360، ص361

(4) سورة الحجرات آية 13

(5) مقدمة، ج1، ص120.

(6) غوانمة، التاريخ، ص135.

والمؤكد أن بعض القبائل التي سكنت فلسطين تحولت إلى قبائل زراعية وسكنت القرى و يدل على ذلك أنه عندما قامت ثورة المبرقع اليماني سنة 227هـ/ 842م حيث كان المبرقع⁽¹⁾ من قبيلة لخم و ادعى أنه السفيناني وُذكرت أحداث هذه الثورة أنه تحولت هذه القبائل إلى حياة قروية في قوله " قوم من فلاحى تلك الناحية و أهل قرى و إنهم في حدود مائة ألف"⁽²⁾ وأكد هذا القول اليعقوبي عندما ذكر أن أغلب أتباع المبرقع كانوا من العرب و قبائلهم من لخم و جذام و عاملة و بلقين⁽³⁾.

و قد أشار الهمداني إلي مساكن العرب بالشام فقال: " أما مساكن لخم فهي متفرقة وأكثرها بين الرملة و مصر في الجفار و منها في الجولان و منها في حوران و البثنية و أما جذام فهي بين مدين إلى تبوك فإلى أذرح و منها فخذ مما يلي طبرية و أما عاملة فهي جلها مشرفة على طبرية إلى نحو البحر"، و ذكر رواية أخرى عن "لخم و من خالطهما كنانة سكنوا من الرملة إلى نابلس و للخم الجولان و ما يليها من الأماكن و استوطن الجولان أيضاً قوم من قيس أكثرهم بنو مرة و في الشراه و الحميمة فيها منازل آل العباس بن عبد المطلب و أولادهم و ذكر في رواية أخرى أن أهل جند فلسطين أخلاط من لخم و جذام و عاملة و كندة و قيس و كنانة و في غزة طي بالبقاء و اليرموك بطون من غسان و جهينة في الغور الفلسطيني"⁽⁴⁾.

و تؤكد لنا النصوص أن أغلب القبائل العربية التي سكنت فلسطين نزلت في مناطق ريفية يمكن قيام الزراعة فيها وربما يكون هذا هو سبب تحول الكثير من هذه القبائل إلى حرفة الزراعة و ترك الحرف القديمة والرعي و يلعب في هذا الجانب الموقع الدور الأكبر حيث أن هذه القبائل معظمها هاجرت من شبه الجزيرة العربية و هي منطقة صحراوية تفرض عليهم حياة التنقل و الترحال بينما كانت بلاد الشام أرضها أخصب و تتوفر فيها المياه و مقومات الحياة الزراعية ففرضت على هذه القبائل حياة الاستقرار و ممارسة حرفة الزراعة و لقد ذكر الجغرافيون المسلمون و منهم ابن حوقل (367هـ / 977هـ). حركة القبائل العربية و تحدث عن التغيرات التي طرأت على تلك القبائل البدوية و خاصة التي سكنت الشام الأعلى⁽⁵⁾ أنهم متحضرون و امتلكوا الجمال و مالوا إلى الحياة

(1) أبو حرب المبرقع اليماني بفلسطين و خالف المعتصم و كان سبب خروجه أن بعض الجند أراد النزول في داره و هو غائب فمنعه بعض نسائه فضربها الجندي بسوط فأصاب ذراعها فأثر فيها فلما رجع أبو حرب إلى منزله شكت إليه ما فعل بها الجندي فأخذ سيفه و سار نحوه فقتله ثم هرب و ألبس وجهه برقعاً و قصد بعض جبال =الأردن فأقام به و كان يظهر بالنهار متبرقعاً فإذا جاءه أحد ذكره و أمره بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و يذكر الخليفة و ما يأتي ويعيبه فاستجاب له قوم من فلاحى تلك الناحية: ينظر، ابن الأثير، الكامل، ج6، ص69.

(2) الطبري، تاريخ، ج9، ص116، ص118. ينظر، الأغا، الأوضاع، ص205-211.

(3) اليعقوبي، البلدان، ص167. عمر و آخرون. الوسيط، ص21، ص22. ينظر: الأغا، الأوضاع، ص205-206.

(4) اليعقوبي، البلدان، ص167.

(5) بلاد فلسطين و الأرض المقدسة إلى الأردن شاماً و يقولون الشام الأعلى: ينظر القلقشندي، صبح، ج4، ص94.

الريفية أكثر من حياة الترحال حيث تأثرت بهم معظم القبائل القديمة و بدأت تستقر نهائياً⁽¹⁾ و قد أورد القلقشندی بعض بقايا القبائل التي وجدت في فلسطين بعد استقرارها و منها مضر التي شملت عدة قبائل منها قيس و هي قبيلة عظيمة و ذكر أن بنابلس من بلاد الشام بقية من مضر⁽²⁾

وفي مقابل القبائل القيسية هاجر إلى فلسطين مجموعة من القبائل اليمنية التي استقرت في جنوب بلاد الشام قبل الفتح الإسلامي و بعده، فكانت مساكن قبائل كلب اليمنية الذين اختلطوا بالعرب اليمنية و الذين سكنوا فلسطين قبل الفتح و كما سبق القول سكنت القبائل القيسية في الشمال و ذكر القلقشندی هذا الانقسام في قوله: " فيقال قيس و يمن " ⁽³⁾ و لم يقتصر الأمر على الهجرة و الاستقرار في بلاد الشام فقط فقد نجحت بعض القبائل في إنشاء كيانات سياسية و منها دويلة في الرملة لقبيلة طئ و أخرى في دمشق لكلب و الأخيرة في حلب لقبيلة كلاب شكلت حلفاً انتهى بالصدام مع الفاطميين و فشل سنة 419هـ / 1028م بسبب تفرق القبائل البدوية و تمزق الجبهة الداخلية و عدم أهليتها لتقبل النظام الحضري . الأمر الذي ترتب عليه فرض النفوذ الفاطمي في جنوب الشام بعد معركة الاقحوانة قرب طبرية⁽⁴⁾.

ومن العناصر البدوية الجديدة التي دخلت في أواسط القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي إلى بلاد الشام و فلسطين في الجهة الشمالية الأتراك الغز حيث رتبوا دولة مستقلة و جلبوا الفلاحين إلى الرملة و ما حولها⁽⁵⁾. و القلقشندی من المعاصرة الذين ذكروا العرب الغز – الذين يتكلمون بالتركية و يركبون الأكاديش و لهم غارات عظيمة و أول ما استقروا في حلب من طوائفهم كلاب و انتشروا في الشام –⁽⁶⁾ و في زمن الحملة الصليبية الأولى كانت قبيلة بني ربيعة سادة في رام الله و كانت عاصمة فلسطين في العهد الفاطمي، و اعترف الحكام الفاطميون في مصر بسيادة هذه القبيلة⁽⁷⁾ و قد أشار ابن خلدون إلى بعض سلوكياتهم و طبيعتهم و عدم خضوعهم، و من أهم مصادرهم الاقتصادية النهب و "في ظلال رماحهم و ليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه... و لا يخضعون إلا لشيخ القبيلة"⁽⁸⁾.

(1) صورة الأرض ، ص 209.

(2) صبح ج 1، ص 392

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 393.

(4) ابن العديم ، زبده ، ص 98-99-112

(5) ابن القلانسي، ذيل، ج 1 ص 200-201. ابن الأثير، الكامل ، ج 8، ص 390. ينظر، الأغا، الأوضاع، 205-211.

(6) القلقشندی ، صبح، ج 1، ص 394

(7) براور ، الاستيطان ، ص 71

(8) ابن خلدون ، مقدمة ، ج 1، ص 149

و يمكن أن يكون السبب الذي دفع السلطات التي سيطرت على فلسطين في عصور مختلفة أن ترتب حملات تأديبية ضدهم لما كانوا يسببون لها من قلاقل و متاعب و خاصة تأثيرهم على الطرق التجارية حيث ثبت أن الصليبيين رتبوا حملات ضدهم لتأمين الطرق التجارية (1)

و قد ذكر أن بعض القبائل العربية في فلسطين كانت على علاقة مع الصليبيين ومنها ثعلبة و جرم بالشام "يداً مع الفرنج على المسلمين" فلما فتح السلطان صلاح الدين البلاد انتقلت طائفة منهم إلى مصر (2) أما القبائل البدوية التي استقرت خارج الأرض التي سيطر عليها الصليبيون كان لها دور في مقاومتهم ومن هذه القبائل قبيلة طى التي كان لها دور في الأوضاع السياسية في بلاد الشام وخاصة في القدس والبلقاء خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي فقد اشتركت مع جيوش حكام دمشق من آل طغتكين (3)، وشاركت كذلك مع الزنكيين والأيوبيين والمماليك في حروبهم ضد الصليبيين خاصة في منطقتي حوران والبلقاء موطن آل ربيعة من طى (4) وهذا يدل على مشاركة القبائل البدوية في عمليات تحرير المدن من أيدي الصليبيين سواء كان في مدن فلسطين أو غيرها من بلاد الشام. فقد ذكر الحنبلي " وبلغ السلطان أن الإفرنج يخرجون للاحتشاش وينتشرون في الأرض فانئذ جماعة من العربان فأغاروا عليهم وحالوا بينهم وبين خيامهم وحشروهم وأبادوهم قتلاً وقطعوا رؤوسهم وأحضروها عند السلطان ... وسر المسلمون وتباشروا هذا والقتال على عكا" (5).

و مما سبق يتضح أهمية القبائل البدوية كعنصر من عناصر المجتمع في العهد المملوكي التي كان لها تأثير قبل هذه الفترة حيث بدأت أهميتها قبل الفتح الإسلامي و بعده في العصور الإسلامية المختلفة وصولاً إلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي و فترة الحروب الصليبية و عهد الأيوبيين إلى الفترة المملوكية فقد أدرك سلاطين المماليك أهمية هذه القبائل و حاولوا احتوائها منذ اللحظة الأولى لسيطرتهم على الحكم .

فكان لهم موقف مشرف عندما حاول التتار الانتقام لأنفسهم في سنة 659هـ /1260م بعد معركة عين جالوت فهجموا على بلاد الشام و تصدى لهم زامل بن على أمير العرب في عدة و العربان " فأفنوهم قتلاً وأسرا" (6)، و اشتركت العديد من القبائل العربية في قتال التتار مع السلطان قطز ومنهم بنو نصير وهم من آل فضل عرب الشام، وبلغ عدد مقاتليهم أربعة وعشرون ألف مقاتل فضلاً

(1) الأغا ، الأوضاع ، ص207

(2) الفلقشندی ، صبح ، ج1، ص375

(3) ابن الأثير ، الكامل، ج9، ص115. الصوري، تاريخ، ج2، ص702

(4) ابن الأثير ، الكامل ، ج10، ص182-183.

(5) الأانس، ج1، ص359.

(6) المقرئزي، السلوك، ج1، ص525. السيد، تاريخ، ص124. ينظر: ابن عرب شاه، عجائب المقدور، ص103-109.

عن قبائل الشام (الأخرى آل مرء و آل على و بني عقبة و بني مهدي و العائذ و غيرهم) و جميعهم ممثلون في جيش الشام⁽¹⁾ و من البدو الذين شاركوا في صد هجمات التتار مانع ابن حديثة بن عقبة بن فضل و حصل على إقطاع منطقة اسمها سلمية بعد أن تم انتزاعها من المنصور ابن المظفر صاحب حماه⁽²⁾ و من صور مشاركة قبائل فلسطين البدوية في صد العدوان التيموري على بلاد الشام ففي سنة 803هـ / 1401م فقد توجه الأمير شهاب الدين أحمد بن الشيخ إلى الأغوار و جمع خلقاً كثيراً و كان من بينهم آل علي و بني مهدي و عرب حارثة و ابن القان الغزاوي " فصدفوا من التمريفة⁽³⁾ زيادة على ألفي فارس فقاتلوه و قتلوا أكثرهم " ⁽⁴⁾ و كان لهم دور في توفير الحماية لشبكات الطرق الممتدة بين مصر و الشام و الحجاز حيث عهد لهم الظاهر بيبرس سنة 661هـ / 1263م بحراستها و منهم بني عقبة حيث ذكر القلقشندي ديارهم بالكرك و الحجاز و عليهم درك الطرق ما بين المدينة إلى حدود غزة من بلاد الشام⁽⁵⁾ و ذكر أيضاً أن الظاهر بيبرس ولى عيسى بن مهنا بن مانع⁽⁶⁾ حفظ السابلة⁽⁷⁾ و وفر الإقطاعات و بقي حتى توفى سنة 684هـ / 1285م فولى المنصور قلاوون مكانه ابنه مهنا بن عيسى⁽⁸⁾.

و مقابل هذه الخدمات حصلوا على الكثير من الإقطاعات، ففي عهد الظاهر بيبرس سنة 661هـ / 1262م وزع الإقطاعات على رجال الكرك و عربانها و احضر الدواوين و رتب الإقطاعات للعربان و الأجناد فكتب بين يديه زيادة على ثلاثمائة منشور و سلمت لأربابها بعد ما حلفوا بين يدي السلطان و عفا عن بني مهدي و ألزمهم أدراك⁽⁹⁾ البلاد و خفرها⁽¹⁰⁾ إلى أرض الحجاز⁽¹¹⁾ و عندما نزل السلطان على غزة نظر على أمراء التركمان و خلع على أمرائهم و على أمراء العربان من العائذ و

(1) القلقشندي ، صبح ، ج7، ص203، ص209. السيد، تاريخ، ص138.

(2) القلقشندي ، صبح، ج4، ص213.

(3) أتباع تيمورلنك .

(4) المقرزي ، السلوك، ج6، ص48.

(5) القلقشندي ، قلائد، ص65. غوانمة ، التاريخ، ص135، ص136

(6) ابن مهنا رأس آل فضل ملك العرب عيسى بن مهنا كان له منزلة عالية في الدولة المملوكية، ينظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات ج5، ص383

(7) السابلة أبناء السبيل المختلفة في الطرقات، ينظر: الرازي، مختار، ج1، ص120.

(8) القلقشندي ، صبح، ج4، ص213

(9) المقصود بأدراك البلاد حراستها.

(10) الخفيرُ المجبر تقول خفر الرجل أي أجاره وكان له خفيرا يمنع و بابيه ضرب وكذا خفره تخفير، ينظر: الرازي، مختار، ج1، ص76.

(11) المقرزي ، السلوك، ج1، ص556، ص557

جرم و ثعلبة⁽¹⁾، وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ساند بنو عقبة وبنو مهدي في ثورته بالكرك سنة (709هـ / 1309م) ولما استرجع سلطته للمرة الثالثة لم ينس لهم ذلك فجعل الإمرة فيهم فالأمير شطي بن عقبة رفع منزلته و ألقه بأمرآء آل فضل و أمرآء آل مرا" وألبسه التشريف وأجزل له الحباء⁽²⁾ وعمر له ولأهله البيت والخباء"⁽³⁾.

وشاركت القبائل البدوية في الحروب ضد العثمانيين عندما بدأت خطورتهم تزيد ضد الدولة المملوكية حيث كانت قواتهم من ضمن الجيوش التي جمعت من نابلس والرملة والعوجاء وقاقون واللجون والقدس⁽⁴⁾ رغم أن السلاطين المماليك حاولوا السيطرة على هذه القبائل منذ بداية حكمهم إلا أنها ما لبثت أن قامت بالعديد من الثورات و عمليات السلب و خلق جو من القلاقل رغم المحاولات لضمهم لسيطرة السلطة المملوكية لأنهم؛ نظروا إليهم على أنهم عبيد بينما كان ينظر البدو لأنفسهم أنهم سادة البلاد الحقيقيين فكيف يخضعون لأشخاص كانوا عبيد عند الحكام المسلمين.⁽⁵⁾

و من المؤكد أن البدو لم يخضعوا بشكل مطلق لسلطة المماليك فكانوا في كثير من الأحيان يقومون بالتحالف مع أعداء الدولة المملوكية فهذا السبب الذي دفع السلطان الأشرف خليل بن قلاوون القبض على مهنا بن عيسى و جماعة من قومه و سجنهم في قلعة الجبل فذكر أنه كان أيام الناصر بن قلاوون في "نصرة و استقامة تارة وتارة ميل إلي التتر بالعراق"⁽⁶⁾.

و قد حافظ البدو على عاداتهم و تقاليدهم المتوارثة و مارسوا نفوذاً خلقياً لا يزال تأثيره على الحياة العربية الحاضرة فما زال كثير من النظم الاجتماعية و أنماط السلوك و القيم البدوية تتعايش في المدن و العواصم العربية المعاصرة، بل تكاد تتفرد بشخصيتها في المجتمعات العربية و القروية فنظام القرابة و الانتماء العائلي ساعد على أن يحتفظ العرب بوحدتهم الحضارية و تماسكهم والحفاظ على قيمهم الروحية⁽⁷⁾، و قدّم الرحالة بور شارّد بعض المعلومات التي تتعلق بالمجتمع البدوي وكيف كان يعيش في هذه الفترة و ذكر أهم طوائفه و هم الأتراك و البدو التركمان و كانوا يسكنون الخيام و وصف قطعان الماشية و الجمال التي كانوا يمتلكونها، قد أكد هذا الرحالة على حياة التنقل و الترحال التي كان

(1) القلقشندي ، نهاية الأرب، ص304

(2) حَبَاهُ يحبوه حَبْوَةً بالفتح أعطاه و الحَبَاءُ العطاء، ينظر: الرازي، مختار، ج1، ص52.

(3) القلقشندي، قلائد، ص65. الخِبَاءُ واحد الأَخْيَابِ من وبر أو صوف ولا يكون من شعر وهو على عمودين أو ثلاثة وما فوق ذلك فهو بيت و اسْتَحْيَيْتُ الخباء أي نصبناه و دخلنا، ينظر: الرازي، مختار، ج1، ص71.

(4) العليمي ، الأنس، ج2، ص335-337

(5) غوانمة، التاريخ، ص135.

(6) القلقشندي ، صبح ، ج4، ص213

(7) غوانمة ، التاريخ، ص135

يمارسها هؤلاء البدو وأهم أعمالهم هي العناية بالماشية والجمال وليس لهم مساكن محددة و الذي يتحكم في حركتهم هي المراعي ووصفهم بأنهم طبقة عسكرية محاربة في قوله: "و هم شجعان في الحرب" (1) ويتضح لنا مما تقدم أن القبائل البدوية كانت تسكن بيوتاً من الشعر بسبب سهولة هدمها ونقلها؛ لأن هذه القبائل غير ثابتة في مكان واحد فهم يبحثون عن المراعي وموارد المياه بسبب ما يمتلكونه من قطعان الماشية و الإبل فهم دائمو التحرك.

و يلاحظ أن القبائل البدوية كانت تتقرب عند السلاطين على حساب بعضها بعضاً وكانت تحل الواحدة مكان الأخرى و كثيراً ما صادر السلاطين المماليك الإقطاعات من بعض القبائل لحساب قبيلة أخرى، كما حدث في عهد السلطان الملك الناصر حيث طرد آل فضل بسبب موالاتهم للنتار بالعراق من الشام و جعل مكانهم آل على وولى منهم على أحياء العرب محمد بن أبي بكر بن على و صرف إقطاع مهنا و أولاده إليه و إلى أولاده (2).

وفي العصر المملوكي كان الناصر محمد بن قلاوون يشجع قبائل بني كلاب على التعاون معه وكان صحبة للعرب حتى ذكر أنه كان يتزي بزيتهم فأمنهم و خلع عليهم وأقطعهم (3) و أمر عليهم أميراً من آل ربيعة سليمان بن مهنا أمير على بني كلاب و هم من عرب الجنوب حيث صار كلاب في العصر المملوكي تحت خفارة الأمراء من آل ربيعة (4).

ومما تقدم يتضح أن عرب شمال الشام قاموا بالدفاع عن الثغور العربية في العصر المملوكي مثلما كانوا يفعلون في العصور السابقة و إن كان دورهم يظهر ضمناً في ظل الدفاع المملوكي عن شمال الشام أما القبائل العربية في جنوب الشام فهي كثيرة، منها جذام وهم بنو جذام بن عدي من عرب الجنوب مع أنها كانت تجاور عرب القيسية وعرب شمال الحجاز وكانت مساكنهم بين مدين وتبوك ومنها فخذ مما يلي طبرية من أرض الأردن إلى اللجون واليامون أي ناحية عكا (5)

و أيضاً ثعلبة و جرم و مرجعهم إلى طيء (6) من القحطانية عرب الجنوب (7) و ذكر أنهم ينتشرون في بلاد غزة والداروم مما يلي الساحل إلى الجنوب و بلد الخليل (8) و ذكر أن الإمرة على

(1) ينظر: وصف، ص 167

(2) ابن تغري، النجوم ج9، ص31-35. ابن حجر، الدرر، ج2، ص307. الفلقشندی، صبح، ج4، ص214

(3) ابن تغري، النجوم، ج10، ص67. السيد، تاريخ، ص55.

(4) الصفدي، الوافي، ج8، ص57. السيد، تاريخ، ج4، ص56

(5) الفلقشندی، نهاية الأرب ص108

(6) الفلقشندی، صبح، ج7، ص208

(7) الفلقشندی، نهاية الأرب ص13. السيد، تاريخ، ص56.

(8) الفلقشندی، صبح، ج7، ص218

عرب غزة في دولة الظاهر برقوق كانت في آل مرا من أمرائهم فضل بن حجي من آل مرا⁽¹⁾ وذكر المقرئزي في سنة 822هـ/1418م أن علي بن أمير جرم مات ببلاد القدس في وقعة بينه وبين محمد بن عبد القادر شيخ جبل نابلس و كان كثير الفساد⁽²⁾ و هذا يؤكد لنا وجود القبائل العربية في فلسطين خلال فترة المماليك و يشير إلى أن البدو كانوا يمارسون الفساد و خلق المشاكل للدولة المملوكية في قوله " كثير الفساد " ⁽³⁾.

و منهم آل مرا : نسبة إلى مرا بن ربيعة و منازلهم منتشرة في حوران الجولان وهي مرتفعات شرقي صفد و طبرية و كانوا ينتقلون بين الشام و مكة بين المراعي⁽⁴⁾ و كان لآل مرا دور هام في الدفاع عن الشام ضد التتار في العصر المملوكي⁽⁵⁾ ، و بنو عمر كانت تقيم ببلاد غزة و معهم آل عمرو⁽⁶⁾ و ذكر الفلقشندی أن منهم بالقدس و ينسب إليهم بني فضل الله كتاب السر الشريف بمصر و الشام⁽⁷⁾ و من القبائل التي سكنت الشام في المناطق الساحلية بني بحتر و في عهد السلطان فرج قاموا بدور حربي تحت قيادة شيخ المحمودي في مناطق مجاورة لمنطقة صفد و اشتركت في الدفاع عن السواحل مع بقية القوات المدافعة، و في سنة 693هـ/1294م استقروا في حراسة بيروت⁽⁸⁾ و بنو عقبة⁽⁹⁾ ديارهم من الكرك و الشوبك و كان عليهم درك الطريق ما بين المدينة المنورة إلى حدود غزة من بلاد الشام⁽¹⁰⁾ . و بنو مهدي⁽¹¹⁾ من القحطانية، منازلهم بالبلقاء و حول الكرك،⁽¹²⁾ وكانت هذه القبيلة البدوية موجودة في فلسطين خلال العهد المملوكي، فقد أورد المقرئزي نص في سنة 803 هـ/1401م أن الأمير شهاب الدين أحمد بن الشيخ توجه إلى الأغوار و جمع خلقاً كثيراً منهم، عيسى بن فضل أمير على و بني مهدي و عرب الحارثة فصدفوا من التمرية زيادة على ألفي فارس

(1) الفلقشندی ، صبح ، ج 1، ص 369، ص 370 ، ج 4، ص 219، ج 7، ص 208

(2) السلوك، ج 6، ص 514

(3) المصدر، نفسه، ج 6، ص 514

(4) الفلقشندی، صبح ، ج 4، ص 206، ج 7، ص 215

(5) المقرئزي ، السلوك، ج 6 ص 48 . الفلقشندی، صبح، ج 4، ص 213. السيد ، تاريخ ، ص 57

(6) المقرئزي ، السلوك ، ج 6 ص 48 . الفلقشندی، صبح، ج 4، ص 213. السيد ، تاريخ ، ص 57

(7) قلائد ، ص 139، ص 140

(8) ابن تغري، النجوم ج 12، ص 220-223. السيد ، تاريخ ، ص 57 - 58

(9) المقرئزي ، البيان ص 131

(10) الفلقشندی ، قلائد ، ص 65. صبح، ج 7 ص 207. السيد، محمود، تاريخ القبائل العربية في عهد الدولتين الأيوبيه المملوكية، ص 217.

(11) الفلقشندی ، نهاية ، ص 381

(12) الفلقشندی ، قلائد ، ص 65-69. السيد ، التاريخ ، ص 58

فقاتلوهم و قتلوا أكثرهم (1)، ومن القبائل التي انتشرت في فلسطين خلال العصر المملوكي العائذ من جذام ومساكنهم بين بلبيس آل عقبة أيله إلى الكرك من ناحية فلسطين وكانت مسؤولياتهم حماية طريق الحجاج في منطقة العقبة و بني مرة و هم خفر القدس و بنو طيف من عرب القدس وكذلك بنو شجاع من عرب القدس و الضفافة من عرب الخليل والحديث عن عرب الساحل الغزاوي أقطعهم الظاهر بيبرس إقطاعات فيها بنو أسلم، وجدوا في غزة واختلطوا بجذيمة من عرب طيء و من لخم بنو عبد الدار و منهم تميم الداري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، و الخليل معمورة منهم (2) ووجد القحطانية رأس هذه القبائل حيث أن معظمها تفرقت عنها كما ذكر القلقشندى؛ و من العرب من ينسب نفسه إلى قحطان "إلى الآن" في نابلس من بلاد الشام كثير منهم (3) ومعظم ما تقدم من القبائل من جذام من أهل القبائل التي وجدت خلال هذا العهد المملوكي، قبيلة حارثة سكنت بنيابة صفد (4).

وكانت قبيلة حارثة من بين العشائر كما سبق التي شاركت في نهب القوات المملوكية سنة 803هـ/1401م في جبال صفد و اللجون و قاقون المتراجعة من أمام ضغط تيمورلنك ونهب مدينة الرملة (5) و ذكر في حوادث سنة 812هـ/1410م أن حارثة شاركت مع بعض قبائل العشير و كان قائدهم حسن بن قاسم بن متيرك حيث دار الصراع حول صفد في عهد السلطان الظاهر فرج (6) و قبيلة بشارة المجهولة الأصل فأول ظهور لها في أحداث سنة 807هـ/1405م عندما ذكرت حملة شيخ المحمودي على صفد و كان بصحبته " أحمد بن بشارة و عشرانه و قال بعض من تحدث عنها أنها من أصل قيسي لأنها وقفت ضد قبيلة حارثة اليمينية (7) و من الواضح أن القبائل البدوية العربية التي وجدت خلال العهد المملوكي قد انقسمت إلى قسمين قيسيه و يمنية، فقد أورد المقرئزي في حوادث سنة 750هـ/1349م أن عرب الكرك وعشير بلاد الشام فريقان قيس و يمن لا يتفقان و قليل ما يثور بعضهم على بعض ويكثر قتالهم (8) و في حوادث سنة 841هـ/1437م ذكر أن عسكر الشام ثار " قيسها و يمنها " وتحاربوا فقتل من الفريقين جماعات يقول: المكثر زيادة عن الألف (9) فقد لاحظنا من خلال ما تقدم أن معظم العناصر البدوية التي عاشت في المجتمع الفلسطيني خلال العهد

(1) المقرئزي السلوك ، ج6 ، ص48

(2) القلقشندى ، قلائد ، ص64،ص65،ص67،ص68

(3) القلقشندى ، قلائد،ص37

(4) القلقشندى ، قلائد ، ص80 . زكار، فلسطين ،ص569

(5) القلقشندى ، قلائد ، ج6،ص48. زكار، فلسطين ،ص569

(6) القلقشندى ، قلائد ، ج6،ص64 . 65 . زكار، فلسطين ،ص569

(7) القلقشندى ، قلائد ، ج7،ص72 . زكار، فلسطين ،ص570

(8) القلقشندى ، قلائد ، ج4،ص102

(9) القلقشندى ، قلائد ، ج7،ص355

المملوكي تعود أصولها إلى القبائل العربية التي هاجرت من الجزيرة العربية قبل الفتح و بعده و استمرت هذه الهجرات خلال فترة العصور الوسطى التي عاصرها الأيوبيون و المماليك و وجد من هذه المجموعات العشائرية التركمان و الأكراد و الترك و هم قبائل الغز التي هاجرت و سكنت بلاد الشام و منها فلسطين.

العوامل المؤثرة على البنية السكانية:

الحروب:

امتازت فلسطين على مدى التاريخ بأهميتها الجغرافية و الدينية و الحضارية بل و الاقتصادية مما جعلها على الدوام محط أنظار جميع الدول المحيطة على مدى العصور، ولكننا سنتناول في دراستنا هذه أهم الحروب التي حدثت إبان الغزو التتاري و بعض بقايا الصليبيين و أثرها على المجتمع الفلسطيني، فبالنظر إلى الغزو التتري على الشام و فلسطين نجد تداعيات كبيرة على المجتمع الفلسطيني، فالقتل و السبي و الهجرة و الدمار كانت أهم سمات هذا المجتمع إبان الغزو التتاري و بذلك يكون قدر لهذا المجتمع أن يقع فريسة الحروب منذ الحملات الصليبية حتى اليوم من الاحتلال الإسرائيلي .

ففي عام 658 / 1259م سار التتار بعد دمشق و بعلبك متوجهين إلى فلسطين و خربوا بانياس و غزة و سعروا البلاد خراباً و ملأوها قتلاً و نهباً⁽¹⁾، و قد رافق الغزو المغولي الكثير من الإشاعات و التخويف التي أثرت في المجتمع الشامي ككل، حتى أن سكان دمشق قبل الغزو المغولي كانوا قد ازدحموا بالأبواب و هرب بعضهم قبل وصول التتار⁽²⁾، و استمر الغزو التتري في التهام المدن الفلسطينية بعد سقوط دمشق فوصل إلى القدس حيث ذكر أحد الرحالة القادمين من أسبانيا إلى القدس عام 663هـ / 1267م أن سكان المدينة المقدسة هربوا في كل الاتجاهات؛ عندما اقترب منها المغول و لم يعودوا إليها مما أوصل عدد سكانها بعد سبع سنوات إلى ألفي نسمة فقط⁽³⁾، و كان من جملة البلاد التي أجتاحتها التتار عام 658هـ / 1259م بيت جبريل و الخليل و بركة زيزياء و وصلت و قد قتلوا و سبوا و اخذوا ما قدروا عليه و عادوا إلى دمشق فباعوا بها المواشي و غيرها⁽⁴⁾.

(1) السلوك ، المقريري ، ج1، ص513

(2) ابن كثير، البداية ، ج14 ، ص66

(3) ينظر: الأغا، الأوضاع، ص213. لم يذكر الباحث من هو الرحالة بل هي معلومة منقولة عن، التاريخ الاقتصادي لأشتور .

(4) المقريري ، السلوك ، ج1 ، ص512

و قد ذكر الذهبي أن التتار لما تمكنوا من دمشق صارت طائفة منهم إلى نابلس وغزة فنهبوا ودمروا ما مروا عليه من قرى و ضياع⁽¹⁾. حيث وصلت هذه الأخبار إلي القاهرة وأدرك المماليك بأن مصر ستكون الهدف الثاني . أما ابن خلدون فيقول سير المغول بعد احتلالهم دمشق بأنهم ساروا إلى نابلس فملكوها و قتلوا من كان بها حتى دفع ذلك الناصر أيوب للاستجداد بالمصريين الذين ترددوا في البداية بنصرته،⁽²⁾

وكان لهذه الحروب وما رافقها من قتل و دمار أثار كبيرة على بنية المجتمع الفلسطيني، فمن جانب ظهر الخوف والدمار والهجرات، ومن جانب آخر ظهرت روح المقاومة والجهاد فقد ساهم فلاحو الأرض الفلسطينية وبأعداد كبيرة في حملة الأمير قطز إلى عين جالوت⁽³⁾، و قد ظهر دعم المجتمع الفلسطيني بكافة أطرافه للجيش المملوكي بعين جالوت، فقد قدموا لهم كل دعم و أخذوا بالتكبير والصيحاح أثناء المعركة دعماً و تثبيتاً للجيش المملوكي حيث مثلوا المتطوعة و بأعداد لا بأس بها في الجيش المملوكي⁽⁴⁾ ولم تكن هذه المعركة الأخيرة على فلسطين، فقد تعرضت لهجوم التتار في مراحل مختلفة فقد حاول التتار الانتقام لأنفسهم في عام 659هـ/ 1260م بعد معركة عين جالوت و تصدت لهم مجموعة من القبائل العربية التي تسكن في الشام و خاصة فلسطين و كافأهم الظاهر بيبرس بالإقطاعات⁽⁵⁾ .

و لكن الهجوم الأهم الذي كان له آثار مباشرة على المجتمع الفلسطيني فقد أعدّ غازان⁽⁶⁾ جيشاً كبيراً من التتار وزحف نحو بلاد الشام في سنة 699هـ/ 1299م ودارت معركة مع المسلمين بقيادة الملك الناصر محمد بن قلاوون عند حمص وهزم فيها الناصر وفر جند المسلمين و تبعهم التتار وسيطروا على دمشق واستمروا فيها 100 يوم ثم تقدموا إلى غزة والقدس والكرك وقاموا بعمليات

(1) الأمصا، ص 38

(2) تاريخ، ج 5، ص 423

(3) ابن تغري بردي، النجوم، ج 7، ص 79، ص 80. المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 516

(4) المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 516

(5) المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 525- 556 .

(6) غازان بن أرغون بن أبغاين هلاكو بن جنكز خان سلطان التتار كان وصوله إلي الملك سنة 693 هـ/ 1294م وحسن له نايبه نوروز الإسلام فأسلم في سنة 694 هـ/ 1294م وانتشر الإسلام بين التتار في عهده وكان ملك خراسان بأسرها والعراق وفارس والروم وأذربيجان والجزيرة وكان يتكلم بالفارسية ويفهم أكثر اللسان العربي توفي 703 هـ/ 1303م، ينظر: السمعاني، البدر، ج 2/ص 2. الطهراني، الأنوار الساطعة ج 1، ص 12.

قتل ونهب داخل هذه المدن وانسحبوا بعد ذلك إلى الشرق⁽¹⁾ وتعرضت مدينة الرملة للنهب أيضاً "ورجعت عساكر التتر من أتباع الترك بعد أن وصلوا إلى القدس وغزة والرملة واستباحوا ونهبوا"⁽²⁾.

و في سنة 700هـ/ 1300م هاجم التتار بلاد الشام مرة أخرى و لكنهم تراجعوا بسبب غزارة سقوط الأمطار و أخذوا الضرائب من الناس لمدة أربعة أشهر و عندما سمع السلطان بقدمهم انسحب إلى مصر " و لم يظهر لقدمه فائدة " ⁽³⁾ ووصلوا إلى العوجاء من أرض فلسطين واشتدت الوحل وانقطعت الطرقات، وأثناء قدومهم قاموا بعمليات نهب و قتل ⁽⁴⁾ ويبدو أن الدولة المملوكية كانت تعاني ضعفاً شديداً في هذه الفترة الأمر الذي دفع التتار للهجوم عليها أكثر من مرة وكانت أهم المناطق تأثراً بهذه الهجمات بلاد الشام،ومنها فلسطين؛لأن هذه القوات كما لاحظنا تقوم بعمليات السلب و النهب و القتل والهدم في المدن والقرى مما كان له أكبر الأثر على النواحي الاجتماعية و الاقتصادية، و في كثير من الأحيان كانت القرى و المدن تخلى من السكان الذين يفرون من وجه العدو و كان يصحب هذه الحروب غلاء الأسعار بسبب عمليات الهجرة و تدمير القرى الزراعية و هجرة سكانها، و أمام هذا الضعف كان للفقهاء دور كبير في تحريض السلاطين و الناس على الجهاد حيث توجه الشيخ ابن تيمية و جلال الدين القزويني وطلبوا من غازان الأمان و أعطاهم الأمان الذي لم يوافق عليه السلطان الناصر حيث أعد الجيوش و المدد من غزة و توجه نحو التتار و هزمهم شر هزيمة ⁽⁵⁾، و على الأقل فقد توقفت هجمات التتار على بلاد الشام بعد وفاة غازان سنة 703 هـ/ 1303م و لكنها سرعان ما تجددت في عهد تيمورلنك بعد أن أستطاع أن يستولى على بلاد كثيرة منها العراق و أقاليم ديار بكر و خربها ثم قصد البلاد الشامية 798هـ/ 1395م فتصدي له الظاهر برقوق الذي رابطت قواته عند حلب فراجع بسبب وفاة قائدهم ⁽⁶⁾ . ثم عاد بعد موت الظاهر برقوق سنة 803هـ/ 1401م فهاجم بلاد الشام فخرج إليه الناصر فرج و لكنه توجه إلى بلاد الروم ⁽⁷⁾. ولكن التتار في هذه المرة ألحقوا خراباً واسعاً بالمدن و قتلوا الناس فقد وصف هذا الدمار من خلال نص تاريخي أورده الذهبي حيث يقول " كثر فيهم القتل والسبي و النهب والتخريب فقتلوا الرجال والأطفال وسبوا النساء وارتكبوا فيها العظائم وهدموا الدور و قطعوا الأشجار و أحرقوا المساجد والمدارس و المكتبات و أشعلوا فيها

(1) الذهبي، الأمصار، ص40.41. العبر، ج5، ص391، ص392. الحنبلي، شذرات، ج5، ص391.392. اليافعي، مرآة، ج4

ص149

(2) ابن خلدون، تاريخ، ج5، ص474

(3) الذهبي ، العبر ، ج 5 ، ص 408

(4) أبو الفداء ، المختصر ، ج 2 ، ص 384 ، ص 385

(5) ابن خلدون، تاريخ، ج5، ص474. الذهبي، الأمصار، ص41. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص387، ص388

(6) الذهبي ، الأمصار ، ص 41 ، ص 42 . ابن حجر ، إنباء الغمر، ج2، ص13، ص137

(7) المكي ، سمط ، ج 4 ، ص 42

النار" (1). وقد تركت هذه الحملة أثراً سلبية على المدن الفلسطينية (2) فزحف تيمورلنك جنوباً فعندما سمع أهل المدن الفلسطينية بقدومه تركوا مدنهم وتوجهوا إلى الديار المصرية حتى يتقوا شر تيمورلنك وخاصة بعد أن انسحبت القوات المملوكية بقيادة فرج بن برقوق فأغلب أهل الرملة و غزة .و القدس و دمشق و صدد و حماة و طرابلس قدموا إلى الديار المصرية و تركوا أولادهم وأوطانهم و أموالهم خوفاً من تيمورلنك، فمنهم من جاء حافياً عارياً و منهم من جاء عليه قميص واحد على بدنه في البرد الشديد بعدما كان في الخدم و العز الشديدين و ابتلاههم الله بإجلائهم عن أوطانهم في مثل هذه الأيام الشديدة (3)

و يكشف لنا هذا النص بالتفصيل عن الآثار التي انعكست على المجتمع من خلال الحروب التي تعرضت لها بلاد الشام و كان لها تأثير على المدن الفلسطينية التي أصبحت شبه خاوية من جراء الهجوم الكاسح و ما لهذه الحروب من آثار نفسية دفعت السكان الترك أولادهم وأوطانهم و بعضهم هرب عارياً حافياً كما يؤكد لنا أن للحروب نتائج هامة مثل تدمير المدن و تهجير السكان و غلاء الأسعار و انتشار الفوضى الداخلية نتيجة لعدم قدرة الدولة على السيطرة على الأوضاع الداخلية للسكان و في المقابل لها دور في تنمية روح الجهاد عند السكان الذين شاركوا منذ اللحظة الأولى لدخول المماليك المدن الفلسطينية عندما دارت رحى معركة عين جالوت و شارك الفلاحون من أهل القرى في الجهاد ضدهم و شاركت العربان في الهجمات المتأخرة.

أما عن الحروب مع الصليبيين التي خاضها الظاهر بيبرس و استمرت إلى زمن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون و كان لها من تأثيرات على المدن الفلسطينية وخاصة على الأوضاع السكانية و الاقتصادية و الاجتماعية، ففي سنة 661هـ / 1261م سار الظاهر من العوجاء إلى مدينة يافا و حاصرها و سيطر عليها و هدم قلعتها و أخرج من كان فيها و جمع كل ما فيها من أخشاب و حمله لمصر و أصلح به الجامع الظاهري (4).

و في سنة 663هـ / 1264م هاجم الظاهر عتليت و حيفا و قتل من بها من الفرنج و دخلها المسلمون بعدما أسروا كثيراً و هدم المدن و القلاع و أحرقت أبوابها و قطعوا الأشجار حتى أنهم لم يدعوا لها أثراً (5) .

(1) الأمصار ، ص 43

(2) ينظر: زكار، فلسطين ، ص 569 ،

(3) ابن تغري ، النجوم ، ج 12 ، ص 205 ، 207 . ابن حجر ، أنباء، ج 2 ، ص 134 – 137 . زكار، فلسطين، ص 578 .

(4) المقرئزي ، السلوك ، ج 2 ص 48.

(5) المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 20 .

و من الآثار السلبية للحروب هدم المدن تلك السياسة التي اتبعها الأيوبيون وسار عليها المماليك فعندما حرر الظاهر بيبرس مدينة قيسارية سنة 663هـ / 1264م قام بهدمها بنفسه " و في يده الإقطاعية حتى تجرحت يداه " (1) و هذا يشير إلى أن الحروب في عهد المماليك في فلسطين لم يكن لها نتائج تدميرية فقط بل كان لها دور في تغير الكتل السكانية حيث هجر السكان المدن التي يمكن أن يهددها الأعداء إلى مناطق أكثر أماناً في الداخل .

و في سنة 664هـ / 1265م قام الظاهر بمهاجمة صفد " (2) وقتل أهلها عن آخرهم (3) ولكن هذه المدينة بخلاف المدن الأخرى فقد قام السلطان بتعميرها و ذكر فيها المقريري " و فتح صفد و عمرها و فتح طبرية و يافا و شقيف ... و خربها " (4) ويعكس لنا هذا النص أهمية صفد الأمر الذي دفع السلطان إلى القيام بعمليات تعميرها مرة أخرى، وفي سنة 666هـ / 1267م عقد الظاهر هدنة مع الفرنج بموجبها يقتسم الجانبان مناطق النفوذ وحصل الفرنج على حيفا و عكا و ثلاث ضياع و بقية بلادها مناصفة حتى الكرمل (5). وبهذا يتضح لنا أن الظاهر بيبرس حاول الحفاظ على الأرض وسكانها لأن معظم المناطق المحيطة بهذه المدن كانت أرضاً زراعية و ربما كان هدفه اقتصادياً و لقد أدرك ما للحروب من نتائج تدميرية على المجتمع و لا سيما أن معظم المناطق التي سبق ذكرها تم تدميرها و تهجير سكانها سواء من المدن أو من القرى و الضياع.

أما عن فتح مدينة عكا في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون سنة 690 هـ / 1290م فهذه العملية تعتبر من أهم الحروب التي خاضها المسلمون مع الفرنج و التي كان لها آثار واضحة على المجتمع الفلسطيني، فكانت آخر الجيوب الصليبية التي أنهى عليها المماليك في فلسطين؛ لأنه بسقوطها سيطر المسلمون على الساحل الفلسطيني بكامله، و مما كان لهذه المدينة من أهمية عند الصليبيين، ولكنهم كانوا يمارسون أشد أنواع العنف ضد من أتى إليها من تجار المسلمين فربما كان هذا السبب الذي دفع الأشرف خليل بن قلاوون لفتح المدينة فقد ذكر أن الفرنج كانوا " اعتدوا على من عندهم من تجار المسلمين فقتلوهم و أخذوا أموالهم " (6).

(1) المقريري ، السلوك ، ج2 ، ص 20 .

(2) أبو الفداء ، المختصر ، ج2 ، ص 332.

(3) أبو الفداء ، المختصر ، ج2 ، ص 332 . العليمي ، الأئس ، ج2 ، ص 86

(4) السلوك ، ج 2 ، ص 98 .

(5) المقريري، السلوك، ج2 ، ص 52. ينظر ملحق (8)

(6) ابن كثير ، البداية ، ج13 ، ص 320 ، ص 321.

وقد وصف الشاعر هذا التهديم بسبب الحرب فقال : -

مررت بعكا بعد تخريب سورها وزند أور النار في وسطها واري
و عاينتها بعد التنصر قد غدت مجوسية الأبراج تسجد للنار (1)

فقد صور لنا هذا الشاعر ما للحرب من أبعاد اجتماعية وسكانية حيث دمرت معظم المدن الساحلية الفلسطينية و ظهرت مدن جديدة احتلت مكانها و انتقل إليها السكان، وليس فقط على النواحي الاجتماعية فقد أثرت على الناحية الاقتصادية لان معظم هذه المدن كان لها مواني و فيها نشاط تجاري فالحرب دمرتها و خربت تلك المواني وانتقل منها السكان هذا إضافة إلي ما كان يتعرض له التجار من عمليات قتل كما سبق في مدينة عكا، حتى أن الفرنج عندما هربوا استولوا على مراكب التجار وهربوا فيها (2)، وبهذه الحروب كانت نهاية الفترة الصليبية في فلسطين وبلاد الشام بشكل عام و خربت أغلب المدن الساحلية (3).

و كانت الفتن الداخلية لا تقل أهمية عن الحروب في التأثير على المجتمع خلال العهد المملوكي في فلسطين لما لها من دور في تدمير الاقتصاد في المدن و القرى و خاصة على الزراعة التي تأثرت بسبب ما قام به العشير (البدو) (4) من ثورات داخلية كان لها أكبر الأثر على المجتمع من هجرة الفلاحين و تركهم لأرضهم أو تعرض التجار للسرقة أثناء المسير في قوافل بين الشام و مصر، و في بعض الأحيان كان لهذه الفتن الداخلية أثر على السكان أكثر من الحروب؛ لأنها كانت تعرقل الجهاد ضد الأعداء من التتر أو غيرهم فقد حدثت للعشير ثورة سنة 680هـ / 1281م نهبوا فيها نابلس و قتلوا عدداً كبيراً من السكان ممّا دفع الأمير علاء الدين أيدكين الفخري التوجه إليهم من غزة و ألقى القبض على جماعة منهم و أعدم 32 من أكابريهم وسجن كثيراً منهم بصفد، و عيّن الأمير علاء الدين أيدغدي الصرخدي نائباً بالبلاد الغزاوية لردع العشير (5) .

(1) المقرئزي ، السلوك ، ج2 ، ص224 ، ص225 .

(2) ابن كثير ، البداية، ج13 ، ص319.

(3) المقرئزي ، السلوك ، ج2 ، ص43.

(4) هو لفظ أطلقته مصادر التاريخ المملوكي علي القبائل البدوية التي سكنت الشام أو مصر والبعض ميز بين العشير

والعربان: ينظر، المقرئزي، السلوك، ج2، ص151. القلقشندي، صبح، ج3، ص46، الذهبي، من ذبول العبر، ج6، ص317

(5) المقرئزي ، السلوك ، ج2 ، ص151

و في نفس العام كانت ثورة للعشير (البدو) فنهبوا مدينة غزة و قتلوا عدداً كبيراً من سكانها و
كثُر فسادهم فأرسل لهم السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الأمير علاء الدين أيدكين الفخري من
دمشق و الأمير شمس الدين سنقر البدوي من القاهرة⁽¹⁾ .

و من أهم هذه الثورات التي شملت العديد من المدن الفلسطينية كانت سنة 750هـ/1349م
حيث كثُر فسادهم ببلاد القدس و نابلس و قد خرجت لهم الجيوش و ألقى القبض على أمير جرم
وسجن بقلعة الجبل فقاتلت القوات المملوكية أمير ثعلبة فمالت حارثة مع جرم و مالت بنو كنانة مع
ثعلبة و جرت بينهم حروب كثيرة قتل فيها خلائق و فسدت الطرقات على المسافرين . فخرجت إليهم
عساكر دمشق فلم يعيئوا بهم فلماً ولي الأمير يلجك غزة استمال جرم بعد أيام و حرضهم على ثعلبة و
اشتدت الحروب بينهم و فسدت أحوال الناس فركب يلجك بعسكر غزة ليلاً وقاتل ثعلبة فقاتلوه وهزموه
ووقع في الأسر وكدوا أن يقتلوه لولا تدخل أمير ثعلبة فتركوه بعد أن سلبوا كل ما يملك و أهانوه و
تم الإفراج عن يلجك بعد يومين و كان لهذه الخسارة دور في قوة العسكر لما أخذوه من أسلحة الجيش
في تلك المعركة فهاجموا الغور و قتلوا أعداداً كبيرة من السكان و خاصة عمال المعاصر و ذبحوا
الأطفال على صدر الأمهات و قطعوا الطرقات فلم يدعوا أحداً يمر من الشام إلى مصر و قصدوا
القدس فخلت الناس منها و من الخليل ثم قصدوا الرملة فانتهبوها مما دفع السلطنة المملوكية في هذه
الفترة اتخاذ الإجراءات اللازمة ضد هجمات قبائل العشير الخارجية عن القانون فتقدم الأمير دلنجي
عندما علم بكثرة جموعهم في لد و الرملة و ما زال يرأسهم و يمدعهم حتى ألقى القبض على نحو
المائتين من أكابريهم فقبض عليهم و أعدمهم جميعاً في غزة⁽²⁾ .

و من المؤكد أن مثل هذه الثورات كان لها آثار أكثر من الحروب الخارجية التي تعرضت لها
فلسطين خلال العهد المملوكي و خاصة أثناء هجمات التتار المختلفة فكان لهؤلاء البدو نفس الدور
الذي قام به الأعداء من نهب و قتل و حرق المدن و ذبح الأطفال حتى أنهم قتلوا عمال معاصر الزيت
في منطقة الغور وهذا ما يؤكد تأثيرهم على النواحي الاجتماعية والاقتصادية داخل المدن الفلسطينية
التي قاموا بالثورات فيها فالانقسام في أي دولة يكون له آثار أكبر من الأخطار الخارجية؛ لأن من
يعيش في داخل الدولة يعلم كل قدراتها و أماكن الضعف والقوة فيها فيكون قادراً على التأثير داخلها
أكبر من الأعداء الذين لا يعلمون إلا القليل، وفي بعض الأحيان تكون معلوماتهم في حدود التخمين
فمن هنا جاءت تأثيرات العشير على المدن الفلسطينية وعلى بلاد الشام بشكل عام داخل السلطنة
المملوكية . وفي سنة 759 هـ/1357م تعرضت بلاد الشام لهجمات من الفرنج مما دفع الجيش
المملوكي للتوجه لهم فاستغلت العشير هذه الحادثة و قامت بثورات و قطعوا الطرق و قاتلوا بعضهم

(1) المقريري ، السلوك ، ج2 ، ص144

(2) المقريري ، السلوك ، ج4 ، ص106 ، ص107

حتى أفنى بعضهم بعضاً⁽¹⁾ وفي عهد السلطان الظاهر " برقوق قام حسام الدين بن باكيش نائب غزة و جمع العشرات وسار بهم لمحاربة السلطان، وذكر أنه كان يمتلك قوة كبيرة جداً من هذه القبائل⁽²⁾ .

من هذه الأحداث يتبين لنا القوة التي بلغتها هذه القوى التي أرقت سلطنة المماليك في فترات مختلفة و كانت ثوراتها بمثابة طعنة من الخلف في بعض الأحيان للسلطين . حتى أنها في بعض الأحيان تجرأت على محاربة السلطين أنفسهم وهذا ما يعني أن خطورتها كانت لها أبعاد مختلفة إلا أنّ مكن هذه الخطورة في هذا البعد أن بعض النواب الخارجين أخذ يستعين بمثل هذه العناصر الخارجة لتحقيق أهدافه في السيطرة على الحكم . و في عام 811هـ/1408م استولى الأمير نيروز على البلاد الشامية و توجه من دمشق إلى صفد فجمع له القوات الأمير بكتمر شلق ونزل الجاعونة ومعه بنو بشارة وحدث القتال و قتل بينهم جماعة كبيرة من الناس" و حرق الزرع و خربت القرى و نهبت وسار نيروز إلى الرملة⁽³⁾، فقد شارك هؤلاء البدو في الأحداث الداخلية بين المماليك أنفسهم ففي عام 812هـ/1409م توجه عساكر دمشق و فيها شيخ جبل نابلس و كان عدد العشير كثيراً في هذه الحادثة و شارك التركمان فخرج إليهم الأمير شاهين و قاتلهم و أسر في هذه المعركة كاشف الرملة و عدد كبير من أهل صفد و نزل الشيخية قريباً من صفد ومنعت الميرة من الوصول إليها و يقال: إن عرب بني مهدي تم مهاجمتهم في بيسان⁽⁴⁾ .

و في سنة 813هـ/1410م وجد دقماق المحمدي نائب صفد متيرك أمير قبيلة حارثة قد استولى على صفد و قسمها واستولى على أموال السكان الذين فروا أمام هجوم تيمورلنك واستطاع أن يهزم دقماق و قتل عدد من مماليكه يقدر بإثنا عشر فارساً وأسرت أمه⁽⁵⁾، أما في عام 825هـ/1242م فقد هدد عرب بني جرم غزة فخرج نائبها الأمير يونس الركني لقتالهم ولكنهم هزموه و قتلوا عدداً كبيراً من عسكره⁽⁶⁾ وفي بعض الأحيان كانت تنشب صراعات بين النواب في فلسطين فيلجأ بعضهم إلى تأليب العرب على نيابة الآخر كما حدث، حيث وقعت فتنة بين نائب القدس و الرملة وبين نائب غزة و كان السبب أن نائب القدس انتزع من نائب غزة كشف الرملة فتأكدت العداوة بينهما فكان نائب غزة يسلط العرب و المفسدين و يغريهم على نائب القدس و يحرضهم على الفساد

(1) الذهبي ، من ذبول العبر ، ج6 ، ص317 ، ص318

(2) ابن تغري ، النجوم ، ج11 ، ص353

(3) المقرئزي، السلوك، ج6، ص201. ابن تغري، النجوم، ج12، ص321، ص322. ابن حجر، إنباء، ج2، ص396

(4) المقرئزي، السلوك ، ج6 ، ص247 . ابن حجر ، أنباء ، ج2 ، ص427

(5) المقرئزي، السلوك ، ج6 ، ص65

(6) المقرئزي، السلوك، ج7 ، ص61. ابن تغري ، النجوم ، ج14 ، ص249

في معاملته⁽¹⁾ ويدل على أن بعض ثورات هؤلاء العشير كانت تحدث بتحريض من بعض النواب نكايّة في بعضهم البعض بغض النظر عن التأثير على السكان من أجل الاستبداد بأكبر الصلاحيات في النيابة.

ووصلت درجة قوة العشير(البدو) في الدولة المملوكية إلى أنهم فرضوا الأموال على الفلاحين سكان القرى في جبل بيت المقدس كما فعل أمير عرب جرم حيث فرض المال على الفلاحين وكان صغير السن حتى دون البلوغ⁽²⁾، و في العام 849 هـ / 1445م اشتدت الحروب بين عربان جرم و العائد فخرج نائب غزة على رأس قواته و تدخل إلى جانب العائد وذلك على الرغم من تحذير أمير جرم له و طلب منه الوقوف على الحياد، و انتصرت جرم وتم قتل الأمير طوخ و دوداره⁽³⁾ مع عدد من الطرفين و جرح طوغان⁽⁴⁾ نائب القدس و نتيجة لذلك علت كفة جرم و استبد رجالها ببلاد غزة و الرملة و نهبوا المسافرين و قطعوا الطرقات و انعدمت سلطة الدولة و نوابها⁽⁵⁾. و يتضح من العرض السابق للثورات الداخلية سواء أكانت القبائل البدو (العشير) أو للمماليك أنفسهم أن السلطة لم تكن على الدوام قادرة على ضبط هذه العناصر من السكان رغم أنها استخدمت معهم كل الأساليب من وضعهم في الجهاز الإداري للدولة أو عن طريق منحهم الإقطاعات أو إسناد بعض الأعمال العسكرية لهم مثل حفظ الأمن على الطريق بين الشام و مصر أو مشاركتهم في الحروب و الحملات التي كانت تنظمها الدولة لصد هجمات، و اتضح لنا هذا عندما أعد المماليك الجيش سنة 885هـ / 1445م لمحاربة العثمانيين حيث شارك عدد كبير من رجال نابلس سواء كانوا من العربان أو من غيرهم في هذه الحملة لصد هجوم " ابن عثمان " بايزيد السلطان العثماني⁽⁶⁾، وتشير النصوص السابقة بأن معظم نيابات فلسطين الثلاث: غزة و القدس و صفا تعرضت لمخاطر العشير الذين كثيراً ما كان لهم تأثيرات على المجتمع الفلسطيني تفوق الحروب الخارجية كما سبق الحديث في هذا الموضوع إذا ما كنا مبالغين في الأمر. والأدلة التاريخية توضح بشكل كبير أن الأخطار التي تعرضت لها فلسطين خلال العهد المملوكي: مثل التتار و هجماتهم و الخطر الموجود من عهد سابق على وجود المماليك

(1) العلمي ، الأنس ، ج2 ، ص3

(2) المصدر نفسه ، ج2 ، ص346

(3) هي وظيفة في الدولة المملوكية مهمة صاحبها تبليغ رسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور والمشورة علي من يحضر إلي الباب ويقدم البريد: ينظر، العمري، مسالك، ج3، ص275

(4) طوغان بن عبد الله العثماني نائب القدس ثم حاجب حلب ثم نائب غزة بها وأصله من مماليك الأتابك ألتنبغا العثماني نائب الشام وكان شجاعاً مقداماً كريماً للسيف وللضيف رحمه الله تعالى: ابن تغري، النجوم ، ج15، ص532. السخاوي، الضوء ، ج1 ، ص286

(5) السخاوي ، الضوء ، ج4 ، ص10 . العلمي ، الأنس ، ج2 ، ص3. زكار فلسطين ، ص577

(6) العلمي ، الأنس ، ج2 ، ص37 – 423

مثل: الصليبيين و الخطر الداخلي لقبائل العشير أو الصراعات التي حدثت في بعض الأحيان بين نواب و سلاطين الدولة المملوكية فهذه كانت تؤثر بشكل كبير و متفاوت على المجتمع داخل فلسطين .

ومن الجدير ذكره أن المجتمع في فلسطين خلال العهد المملوكي كان مرتبطاً بما يحيطه من أقاليم من بلاد الشام فإذا تعرضت دمشق أو حلب لهجوم أثر مباشرة على المجتمع ولاحظنا في ما تقدم كيف كان الناس ينزحون أمام هذه الهجومات هروباً إلى مصر، فتصبح المدن خالية، الأمر الذي انعكس بشكل ملحوظ على اقتصاد المدن الشامية و منها مدن فلسطين ، أما عن ثورات العشير ربما أن السبب فيها هو أنهم نظروا لهؤلاء المماليك أنهم رقيق و أن معظمهم كانوا من أصول غير عربية و استبدوا بالسلطة و اقتسموا الإقطاعات و في بعض الأحيان كان هؤلاء العشير يتعرضون للتهميش مما دفعهم للقيام بالثورات ناهيك عن الصراع الذي حدث بين النواب و تحريض العرب.

الكوارث الطبيعية :

بلاد الشام بشكل عام ومنها فلسطين تقع على شريط زلزالي الذي يسمى الانهدام السوري الأفريقي العظيم و تعتبر منطقة البحر الميت و جبال الضفة الغربية امتداداً لهذا الشريط الزلزالي و هما معاً عرضة في مختلف فترات التاريخ لبعض الزلازل التي انعكست بدورها على حياة السكان، هذا من جانب و من الجانب الآخر فإن بعض الكوارث آخري تمثلت في أسراب الجراد التي من كثافتها كانت تأتي على الأخضر و اليابس، و انحباس الأمطار فكل هذه الكوارث كان لها آثار اجتماعية أثرت على السكان و آثار اقتصادية و سياسية .

و الدليل على أن فلسطين تقع على خط الزلازل أنها تعرضت للكثير منها قبل فترة المماليك؛ فقد ذكر المؤرخون أنه حدثت في سنة 460 هـ/ 1067م زلزلة شديدة طلع فيها الماء من الآبار

وهلك تحت الردم عدد كبير و هدمت معظم مدينة الرملة⁽¹⁾. و في عام 600هـ/ 1203م و وقعت زلزلة كبيرة جداً عمت أكثر أرض مصر و الشام كلها⁽²⁾، و يلاحظ أن هذه الزلازل وقعت قبيل العهد المملوكي و من المؤكد أنه كان لها آثار على المدن الفلسطينية التي شملتها بسبب ما ألحقته من دمار في المباني و المنشآت العمرانية الاجتماعية و المدنية و ما كان لها من تأثير على السكان سواء الذين ماتوا تحت الركام أو على الدولة التي أنهكت اقتصادياً بسبب عمليات الإصلاح و البناء التي تقوم بها .

(1) الفلقشندي، مآثر، ج1، ص343. العليمي ، الأنس، ج1، ص304، ص418. ابن كثير، البداية، ج12، ص96.

(2) المقرئزي ، السلوك، ج1، ص276.

أما عن أهم الزلازل التي وقعت في فلسطين في العهد المملوكي فكانت في سنة 692هـ—/ 1293م حيث تعرضت كل من غزة و الرملة و لد⁽¹⁾ و قاقون و الكرك و كان معظم تأثيرها في مدن الكرك التي هدمت فيها ثلاثة أبراج و مبانٍ كثيرة و دورها و أماكنها⁽²⁾، و في نفس العام زادت السيول حتى خربت طواحين العوجا و تكسرت أحجارها و ووجد في السيل أحد عشر أسداً ميتاً و زلزلت أيضاً البلاد الساحلية فانهدمت عدة أماكن⁽³⁾.

و في سنة 670هـ/1271م أثناء خروج السلطان الطاهر بيبرس بعسكر الشام و مصر لمهاجمة عكا أثناء سيطرة الفرنجة عليها تعرضت لأمطار غزيرة في مرج برغوث فقد ذكر " أن الأمر زاد عن الوصف فكاد الناس يهلكون لعدم وجود ما يستظلون به "⁽⁴⁾، حتى أن السلطان من شدة السيول و الأمطار توجه إلى مصر تاركاً الشام⁽⁵⁾، و في سنة 702هـ وقعت زلازل عظيمة شملت كل من مصر و بلاد الشام عامة فغرقت المراكب و هدم الكثير من الجوامع و المزارات و تم انتداب الجاشنكير و أكابر الأمراء للقيام بعمليات إصلاح ما تهدم من هذه المؤسسات⁽⁶⁾.

ومن صور الكوارث التي تعرضت لها فلسطين أيضاً ما حدث في مدينة غزة سنة 753هـ— /1352م فقد ذكر المقرئزي أنه قدم الخبر من غزة بكثرة الأمطار التي لم يعهد مثلها ، وإنه هدم بيوتاً كثيرة منها على أهلها و سقطت نصف دار النياية و سكن النائب بجامع الجاولي و تلف ما زرع من كثرة المياه ثم سقط ثلج حتى تعدى العريش ، وهذا يعكس بشكل واضح مدى تأثير مثل هذه الكوارث على السكان و كل مرافق حياتهم⁽⁷⁾. ولم تكن الزلازل مؤثرة بشكل دائم، فقد ذكر ابن كثير في سنة 727هـ/1326م حدوث زلازل في بلاد الشام و لكنه لم يحدث أي خسائر في قوله: " حصلت زلزلة بالشام و في الله شرها "⁽⁸⁾ و في عام 763هـ/1361م فقد اشتد البرد ببلاد الشام و جمدت المياه حتى ماء الفرات و المسافرين مروا بأنقالهم فرأوا منظرأً عجباً⁽⁹⁾ و هذا يؤكد لنا شدة برد الشتاء وتأثيره على السكان و الزراعة في نفس الوقت؛ لأنه كان يعقب مثل هذه الكوارث البيئية عمليات غلاء الأسعار بسبب قلة الزراعة في مثل هذه الظروف القاسية. و في فترة قريبة من الأعوام السابقة ذكر

(1) المقرئزي، السلوك، ج2، ص239—240.

(2) ابن تغري، النجوم، ج8، ص36.

(3) المقرئزي، السلوك، ج2، ص239، ص240.

(4) المقرئزي، السلوك، ج2، ص77.

(5) المقرئزي، السلوك، ج2، ص77.

(6) ابن حجر، الدرر، ج5، ص406.

(7) المقرئزي، السلوك، ج4، ص172.

(8) البداية، ج4، ص128.

(9) المقرئزي، السلوك، ج4، ص263.

مجيء موجات الجراد إلى بلاد الشام في عام 756هـ/1354م والذي أتى على معظم الأشجار في مدن بلاد الشام عام⁽¹⁾، و من الطبيعي أن تكون فلسطين من ضمن أقاليم بلاد الشام التي تعرضت لهذا الجراد حتى لو لم يأت على ذكرها؛ لأن بلاد الشام مرتبطة جغرافياً ببعضها ببعض، و أي تأثير سوءً أكان طبيعياً أو سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً كان يؤثر على معظم بلاد الشام .

وفي سنة 743هـ / 1342م تعرضت فلسطين لموجة من الجراد مع بقية بلاد الشام " سد الأفق " من كثرته و أكل الأشجار حتى خشبها و انتشر في مناطق واسعة من حلب و دمشق و القدس و غزة⁽²⁾ .

أما عن الاجتياح الأهم للجراد فكان في سنة 803هـ/ 1401م فلقد وصف فيها الجراد بشكل كبير جداً حيث ذكر المقرئزي: " اقبل على دمشق جراد حجب من كثرته الشمس عن الأبصار فأتلّف جميع ماتنتبته الأرض بعامة أرض الشام كلها حتى لم يدع بها خضراً من شجر ولا غيره من غزة إلى الفرات⁽³⁾ و هذا يدل على ضخامة أسراب الجراد التي بدأت تتوالى على بلاد الشام في هذه الفترة التي انعكست على حياة السكان فإن صحت هذه الرواية فإن هذا الجراد قد ألحق دماراً واسعاً بكل الزراعة وأشجار السكان في بلاد الشام و فلسطين خاصة .

و في سنة 800هـ/ 1397م سقط على فلسطين أمطار غزيرة في غزة و الرملة حتى " أخبر ناس ثقات أنه إنهدم في الرملة من كثرة المطر فوق ألف بيت " ⁽⁴⁾ وإن صح هذه النص فإنه يبين بشكل واضح مدى الدمار الذي كانت تحدثه الكوارث الطبيعية في المدن و تأثير ذلك على السكان و أعداد الناس الذين تم تشريدهم وقتلهم داخل البيوت من شدة السيول التي سقطت في هذه السنة .

و في عام 825هـ/ 1421م حدثت أشكال مختلفة من الكوارث الطبيعية منها كثرة الأمطار في بلاد الشام و الحجاز و صاحب ذلك سقوط برد أدى إلى تدمير المزروعات ⁽⁵⁾ وبلغ وزن الواحدة منها ثلاثين رطلاً بالمصري حيث وجدت على باب بعض البيوت⁽⁶⁾ وإن صدقت الروايات السابقة فإن هذا ألحق دماراً كاملاً ببعض البيوت التي نزل عليها و يبدو أن الروايات فيها بعض المبالغة في الوصف نوعاً ما ربما يكون البرد كبيراً ولكن ليس بهذا الشكل.

(1) الذهبي، العبر، ج6، ص303

(2) المقرئزي، السلوك، ج4، ص379

(3) المقرئزي، السلوك، ج6، ص63

(4) العيني، السلطان برقوق، ص455

(5) المقرئزي، السلوك، ج7، ص56

(6) ابن حجر، إنباء، ج3، ص274

و في نفس العام 825هـ/1422م أجدبت بلاد الشام من حوران و الكرك و القدس و الرملة و غزة بسبب عدم سقوط الأمطار في أوانها و نزح كثير من سكان هذه البلاد عن أوطانهم و قلت المياه عندهم⁽¹⁾ و ذكر ابن حجر انه في سنة 826 هـ وقع في فلسطين قحط شديد فأمرت و تراجعت الأسعار و لولا ذلك لنزح جميع أهل تلك النواحي⁽²⁾، وفي عام 837هـ/1433م حدث في بعض مناطق فلسطين سيول و أمطار غزيرة أدت إلى تدمير السدود و المزروعات في غزة و القدس⁽³⁾، وكان في سنة 841هـ/1437م الرياح التي هبت في دمشق و جنوب بلاد الشام ألحقت أضراراً بالغة فأتلقت المزروعات و الأشجار و هلك كثير من الناس⁽⁴⁾.

و يظهر مما سبق الآثار الاجتماعية للكوارث الطبيعية على السكان فالجذب دفع السكان لترك قراهم و مدنهم و الهجرة منها بسبب قلة الماء و الطعام مع العلم انه لم يكن شاملاً كل بلاد الشام فقد تقدم الحديث عن غزارة سقوط الأمطار و حتى بعض بلاد الشام مثل صفد و المناطق الساحلية و هذا ما يؤكد أن الهجرة يترتب عليها تغير ديمغرافي مما يؤثر على المدن بشكل عام و التركيب السكاني .

و ذكر الرحالة عوبديا اليهودي الذي زار فلسطين في هذه الفترة أن حدث بين عام 873هـ/1468م – 891هـ/1485م احتباس في الأمطار على عهد السلطان الاشراف قايتباي و كان له آثار في ارتفاع الأسعار و تحدث عن أسراب كثيفة من الجراد قامت باجتياح فلسطين و ما حولها سنة 889هـ/1484م و كان على شكل موجات متتالية حيث أكل ثمرة الكروم و الزرع و الخضراوات⁽⁵⁾. و في عام 895هـ/1490م وقع القحط في فلسطين و خاصة في مدينة بيت المقدس و مضى أغلب فصل الشتاء و لم تسقط الأمطار و صام الناس ثلاثة أيام و لجئوا إلى الجامع الأقصى بالدعاء بالذكر و التهليل⁽⁶⁾، ويتضح مما تقدم كيف تأثير الكوارث الطبيعية على السكان في فلسطين و دفعتهم في كثير من الأحيان إلى ترك أراضيهم و قراهم و مدنهم و الهجرة منها فهي عامل مساعد على الهجرة سواء كانت الداخلية و الخارجية هذا إلى جانب تأثير العوامل البيئية الأخرى على السكان مثل انحباس المطر و غزارتها و هي على الوجهين تلحق أذى بالناس و أسراب الجراد التي كانت تدمر الحقول و البساتين الزراعية مما يؤثر في النواحي الاقتصادية و يؤدي إلى غلاء الأسعار و الزلازل التي تهدم البيوت و تقتل عدداً كبيراً من الناس.

(1) المقرئزي، السلوك، ج7، ص69

(2) إنباء، ج3، ص297

(3) المقرئزي، السلوك، ج7، ص261. ابن حجر، إنباء، ج3، ص550، ص551،

(4) المقرئزي، السلوك، ج7، ص348، ص350

(5) العلئمي، الأنس، ج2، ص337. السيد، اليهود، ص122،

(6) العلئمي، الأنس، ج2، ص337، ج2، ص348

الأوبئة والمجاعات :

إن الأوبئة والمجاعات لا تنقل أهمية عن الحروب و الكوارث الطبيعية إذ أن هذه العوامل مجتمعة هي المسؤولة والتي تؤدي إلى حدوث المجاعات والأوبئة بسبب ارتباطها بحياة السكان مباشرة، و هي التي تدفعهم في بعض الأحيان للهجرة من القرى والمدن سواء الداخلية أو الخارجية، فقد لاحظنا كيف أن الزلازل و انحباس المطر و الجراد من أسباب حدوث المجاعات؛ لأن الحروب تدمر و تشرّد السكان، والعوامل الطبيعية تأتي على الزراعة فلا يجد السكان ما يتغذون عليه فالجراد أكل الأخضر واليابس و نقص المطر يعطل الزراعة و يدفع السكان لترك أراضيهم بسبب القحط .

و قد تعرضت فلسطين لموجات عنيفة جداً من الطاعون الذي ترك بعض المدن و القرى فيها خالية من أي سكان . و كان اشد هذه الموجات قد بدأ في سنة 749هـ / 1348 م و قد وصفه المؤرخون بأن الوباء بدأ بأرض حلب، و عم بلاد الشام... و باد أهل الغور و سواحل عكا وصفد وبلاد القدس و نابلس و الكرك و عربان البوادي و سكان الجبال و الضياع حتى انه لم يبق في جنين سوى عجوز واحدة خرجت منها فارة و لم يبق بمدينة لد و الرملة أحد وصارت الخانات وغيرها مملأى بجيف الموتى... و بلغ من يموت بحلب في كل يوم خمسمائة إنسان و مات بغزة على حد قول المؤرخين اثنان و عشرون ألف إنسان حتى خلت أسوقها وشمل الموت الضياع بأرض غزة و كان حدوثه أواخر الحرث فكان الرجل يوجد ميتاً والمحراث في يده و آخر قد مات و في يده ما يبذره وماتت أبقارها و ذكر أن رجلاً خرج بعشرين نفراً لإصلاح أرضه فماتوا واحداً بعد واحد و هو يراهم يتساقطون أمامه فعاد إلى غزة و منها إلى القاهرة ، و دخل ستة نفراً لسرقة دار بغزة فأخذوا ما في الدار ليخرجوا به فماتوا ومن شدة هذا الطاعون هرب نائب غزة إلى ناحية بدعشر و ترك غزة خالية ومات أهل قطيا حتى أن جثثهم انتشرت تحت النخيل و في الحوانيت و لم يبق بها سوى الدالي وبعض أصحابه وجارية عجوز و أرسل للسلطان يستعفي الوزير فعين بدلاً منه⁽¹⁾،ومن السرد السابق للروايات التاريخية يتضح لنا أنّ خطر موجات الطاعون التي تعرضت لها فلسطين كانت في هذا العام؛ لأنه أباد سكان النيابات بشكل كبير حتى أنه ترك الكثير من المدن خالية،وأهل القرى والناس لم يجدوا من يوارى جثثهم التي بقيت ملقاة في الشوارع و الأسواق والحوانيت وفي الضياع و تحت الأشجار و هروب بعض النواب،ومن شدة فتك هذا الطاعون أن من دخل يسرق من اللصوص مات على الفور لم يخرج من البيوت،وتشير الروايات السابقة إن صدقت بأنّ الأعداد الكبيرة للسكان في المدن ونيابات فلسطين خلال هذه الفترة التاريخية وقد وصف المؤرخ الفلسطيني الصلاح خليل بن أبيك الصفدي في أبيات من الشعر:

(1) المقرئزي، السلوك، ج4، ص82، ص83. ابن تغري، النجوم، ج1، ص195، ص197. ابن حجر، الدرر، ج4، ص70

قد جال من قطيا إلى بيروت

و قد قلت للطاعون و هو بغزة

وحكمت يا طاعون بالطاغوت (1)

أخليت أرض الشام من سكانها

و في حوادث سنة 752هـ / 1345م أورد المقرئزي تفشي الوباء في مصر و بلاد الشام في قوله: " و كان الفناء العظيم الذي لم يعهد مثله و توالي شراقي الأراضى " (2) و في عام 790هـ / 1388م اجتاحت الطاعون عامة بلاد الشام و السواحل و خاصة غزة و وقع أيضاً بعد خمس سنوات 795هـ / 1392م في غزة و امتد إلى الرملة و لد و تزامن مع هجوم تيمورلنك و بلغ عدد من يموت في اليوم خمسمائة إنسان و اجتمع الفقهاء بالقدس مع الرهبان لمناقشة أمر هذا الطاعون (3) و قد وصف الرحالة ابن بطوطة عند زيارته لفلسطين آثار هذا الوباء على المدن الفلسطينية عندما مر بغزة و وجد معظمها خالية من كثرة من مات بها من الوباء و أخبره قاضيها أن "العدول بها كانوا ثمانين فبقى منهم الربع و أن عدد الموتى بها انتهى إلى ألف و مائة في اليوم " (4).

و ذكر المقرئزي أيضاً في سنة 813هـ / 1409م ظهر وباء شمل دمشق ثم امتد إلى فلسطين و كان في " أول هذا العام و باء ببلاد فلسطين و حوران و عجلون و نابلس و طرابلس فمات خلق كثير " و أعقب هذا الوباء نزول في الأسعار ربما بسبب موت عدد كبير من السكان و تكديس البضائع (5) . و بعد هذه الموجة من الطاعون تجددت موجة أخرى في سنة 826هـ / 1423م حيث قدم فيها المقرئزي إحصائية لعدد من يموت في اليوم في مناطق الشام المختلفة، فقد ذكر أن الطاعون بدأ في الشام بعد ما شمل كورة دمشق و فلسطين و الساحل حيث بلغ عدد من مات في دمشق زيادة على 115 ألف إنسان و من ورد ديوان دمشق من الموتى بلغ عددهم ثمانين ألفاً و كان من يموت في غزة في كل يوم 'مائة إنسان و أزيد و كان أغلب من مات من الصغار و الخدم و النساء فخلت الدور منهم إلا قليلاً و فيه أيضاً وقع الوباء ببلاد الخليل (6) .

و في عام 833هـ / 1429م عاد الطاعون مرة أخرى فانتشر في الكثير من المدن الفلسطينية و شمل النيابات الثلاثة غزة و القدس و صفد، و في دمشق و حمص و حماه و حلب و كان في الشتاء

(1) المقرئزي ، السلوك ، ج4 ، ص91

(2) المقرئزي، السلوك، ج4 ، ص138 ، ص139

(3) ابن العماد ، شذرات ، ج6 ، ص337

(4) رحلة ، ج2 ، ص750

(5) المقرئزي ، السلوك ، ج6 ، ص279 . ابن حجر ، أنباء ، ج2 ، ص463

(6) المقرئزي ، السلوك ، ج7 ، ص78 ، ص80 . ابن حجر ، إنباء ، ج3 ، ص304

وهو أمر لم يعهده الناس، أن يقع الطاعون في فصل الشتاء إلى فصل الربيع ويعلل الأطباء ذلك بسيلان الأخلاط في الربيع وجمودها في الشتاء⁽¹⁾.

والواضح أن المؤرخين حاولوا تفسير بعض أسباب هذا الطاعون و أوقاته عندما تحدث عنه المقرئزي أنه حدث في فصل الشتاء و"عدّ هذا من النواردين الوقت شتاء" و ذكر الأطباء أن سبب هذا الطاعون هو سيلان الأخلاط في الربيع وجمودها في الشتاء⁽²⁾ ويقول المقرئزي في حوادث سنة 833هـ — 1429م: أن الوباء و النزلات فتكت بالناس إذ كانت تتحدر من الدماغ إلى الصدر فيموت الإنسان في أقل من ساعة بغير تقدم مرض، و كان أكثر هذا في الأطفال و الشباب؛ ولعل هذا الوباء الذي وصفه المقرئزي هو نوع من أنواع الحميات القوية التي تفتك بالناس بهذا الشكل الخطير⁽³⁾ والغريب في هذا المرض أنه ليس له مقدمات و الدليل على ذلك أنه عندما وقع الطاعون في غزة وجد الناس قد ماتوا على المحاريث ووجد بعضهم و في يده البذور فالإنسان المريض لا يستطيع أن يعمل أو يذهب للبذر و إنما كان الموت يأتي يباغتهم دون أي أعراض⁽⁴⁾ وفي العام 841هـ / 1438م فشا الوباء في دمشق و صفد و الغور و الرملة و غزة و قتل الكثير من الناس و كان معظمهم من الأطفال و الإماء و العبيد و أثبتت الأوراق التي وردت على ديوان المواريث في القاهرة أن عددهم ثمانية عشر إنساناً و تزايد عددهم كل يوم و ذكر أن عدد من مات في شهر واحد كان اثني عشر ألفاً⁽⁵⁾.

و في سنة 881 هـ/1476م شمل بلاد الشام و مصر و بقاء ذكره صاحب الأئسن " وفيها دخل الوباء بالطاعون حتى عم جميع المملكة و كان دخول بيت المقدس في أوائل رجب واستمر مدة طويلة و لم يزل الطاعون بالقدس و استمر فيها حتى عام 882 هـ/1477م "وأفنى خلقاً من الشباب والنساء و أهل الذمة و لم يكن طال ببلدة من البلاد أكثر من بيت المقدس"⁽⁶⁾ .

واشتد الوباء مرة أخرى في سنة 897هـ/1492م حيث انتشر في القدس وأباد عدداً كبيراً من السكان فكان عدد من يموت في القاهرة كل يوم عشرين ألفاً و بدمشق ثلاثة آلاف و بحلب ألف وخمسمائة و بغزة أربعمائة وبالرملة نحو المائة عشرة واستمر في القدس أكثر من البلاد الأخرى⁽⁷⁾.

(1) المقرئزي ، السلوك، ج7، ص80 ابن حجر ، إنباء ، ج3 ، ص435

(2) المقرئزي ، السلوك ، ج7 ، ص204

(3) المقرئزي ، السلوك، ج7 ، ص204 ، ص205 . غوانمة ، نيابة ، ص118 ،

(4) المقرئزي ، السلوك ، ج4 ، ص82—83

(5) المقرئزي ، السلوك ، ج7 ، ص338 . ابن حجر، إنباء ، ج4، ص70. زكار، فلسطين ، ص579

(6) العلمي ، ج2 ، ص318—863

(7) العلمي ، الأئسن ، ج2 ، ص363

و يؤكد لنا ما تقدم من نصوص تاريخية الآثار التي ترتبت على الطاعون الذي أنتشر في فلسطين خلال العهد المملوكي و أهم هذه الآثار تناقص عدد السكان في المدن الفلسطينية الذي أباد منهم الآلاف و دفعهم لترك أراضيهم و يشير أن فلسطين في هذا العهد كانت تتمتع بكثافة سكانية كبيرة جداً و ربما كان له أثار اجتماعية أخرى لأن معظم من مات في هذا الطاعون من النساء و الأطفال و الشباب و بالتالي انعكس على حياة الناس اليومية فغلاء الأسعار في بعض الأحيان و رخصها في الأحيان الأخرى بسبب قلة السكان و لم يؤثر الطاعون على الكثافة السكانية فقط بل تأثرت بفعل القحط و الحروب التي سبق الحديث عنها؛ لأن السكان تركوا القرى بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية و الزراعية و استمرار الحملات العسكرية التي شنها تيمورلنك على بلاد الشام و التي استمرت على شكل موجات كان أولها هجوم هولوكو وهزيمته في معركة عين جالوت 658هـ /

الفصل الثاني

الأوضاع المعيشية للفلسطينيين في العهد المملوكي

الزراعة

الصناعة

التجارة

الأسعار

الأسواق

التنظيمات الاقتصادية

الزراعة

الزراعة من أول الأنشطة التي مارسها سكان فلسطين خلال العهد المملوكي و يتضح هذا عند الحديث عن القرى (سكانها و عددها) التي انتشرت في فلسطين عند سيطرة المماليك عليها، هذا إلى جانب توفر مقومات الزراعة في فلسطين حيث تتنوع الأقاليم بين سواحل و جبال غنية بالقرى والعيون والمزارع، ومن المدن التي اشتهرت بالزراعة بيت جبريل و إيليا و نابلس و اللجون و قدس والأغوار و التي وصفت بأنها ذات قرى و أنهار، وهي غنية بالنخل و المزارع الكثيرة، وهذه المدن فيها الجبال العالية المعتدلة والباردة⁽¹⁾ و من العوامل الطبيعية التي ساعدت على انتشار الزراعة في فلسطين، تنوع الأقاليم ووفرة المياه و تنوع المناخ و خصوبة التربة، وقد تطرق بعض الجغرافيين لتضاريس المنطقة وهي شئ مهم في الزراعة، فعندما ذُكرت المناطق الساحلية في فلسطين، خاصة غزة و ما "جاورها سهلاً ووعراً و ذكر أنها معتدلة الهواء كما تتوفر فيها المياه، مياه من الآبار أو مياه الأمطار التي تتجمع في فصل الشتاء، وبها فواكه "كثيرة، وهي غنية بالثروة الحيوانية،" فهي موضع زرع و ماشية و مجمع حاضرة و بادية وقرارية⁽²⁾، ومعظم مصادر المياه في فلسطين تأتي من الأردن، وبعضها من فلسطين نفسها، ومياه الأمطار و تعتبر مدينة نابلس من أغني المدن بالماء الجاري⁽³⁾.

وفي القدس عيون مياه جارية، ومن أخصب أراضي فلسطين مدينة بيت لحم التي تقع بين الجبال وأكثر جبال فلسطين بها زيتون و تين وجميز وكافة الفواكه⁽⁴⁾.

و كان للسلطين المماليك اهتمام كبير جدا بالزراعة؛ لأن الزراعة في تلك العصور كانت تشكل الحرفة الأولى لغالب السكان، وهي المورد الأول الذي عاش عليه معظم الأهالي ولاسيما أن معظم أراضي فلسطين تم توزيعها إلى إقطاعات على المماليك كما فعل السلطان الظاهر بيبرس سنة 663هـ/1264م عندما فتح قيسارية ووزع الإقطاعات على الأمراء والمجاهدين، وكتب بذلك مكتوباً جامعاً بالتمليك⁽⁵⁾ وكما حدث في سنة 661هـ/1262م عندما رحل السلطان الظاهر بيبرس إلى القدس وأمر بتعمير الأوقاف فيها و " نادي بالقدس ألا ينزل أحد في زرع "⁽⁶⁾، ومن أشكال هذا الاهتمام

(1) المقدسي، التقاسيم، ج1، ص172

(2) ربما أنه يقصد بها القرى التي تقوم فيها الزراعة والقرار في المكان الاستقرار، ينظر: العمري، مسالك، ج3، ص235. الرازي، مختار، ج1، ص221.

(3) العمري، مسالك، ج3، ص319 ص235. أبو الفداء، تقويم، ص339. ابن حوقل، صورة الأرض، ص157، ص158

(4) ابن حوقل، صورة الأرض ص158. القلقشندی، صبح، ج4، ص92

(5) لمزيد ينظر: المقرئزي، السلوك، ج2، ص21، ص22، ص23، ص24. عاشور، العصر، ص283

(6) المقرئزي، السلوك، ج1، ص556

ما وقع سنة 666هـ/1267م عندما توجه بيبرس من مخيمه إلى غزة بَلَّغَهُ بأن مجموعة من المماليك تعرضوا للزرع فقطع أنوفهم، وبلَّغَهُ عن الأمير علم الدين سنجر الحموي أنه ساق في زرع فأنزله عن فرسه وأعطى ما عليه من سرج و لجام لصاحب الزرع ثم رحل إلى العوجاء (1).

ومن صور هذا الاهتمام أيضاً أنه في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون 676هـ/1277م بنى الكثير من الجسور في الساحل والغور، وخاصة جسر دامية، وأوقف عليه الأوقاف (2)، وقد أكد الرحالة ابن بطوطة على خصوبة أرض فلسطين وغناها بالزراعة ووفرة المياه فيها (3)، فوصف مدينة الرملة بأنها كثيرة الخيرات، ومدينة نابلس كثيرة الأشجار والأنهار وأكثر أشجارها الزيتون، ومنها يُصدر إلى مصر، (3) وإنّ طبرية (الغور) غنية بالمياه حيث تتحدر إليها كافة مياه الشام وتصب فيها، مثل: نهر اليرموك وأنهار بيسان ومدينة أريحا وصفت بأنها أجمل بقاع الغور، وأكثر الغلات في الغور هي النيل (4)، وأهل الغور سمر بل هم إلى السواد أقرب (5)، ومن موارد المياه في فلسطين الأمطار والسيول.

وعندما تحدث أبو الفداء عن مدن فلسطين تطرق إلى الزراعة فيها بشكل واضح، فتحدث عن مدينة صفد فوصفها بكثرة بسايتها التي تقع في الوادي أسفل المدينة (6)، وقدم لنا ناصر خسرو وصفاً لجمال مدينة قيسارية مشيراً إلى مائها وأشجار نخيلها وألوان الحمضيات فيها مثل: النارج والترنج، كما وصف تضاريسها من سهول وجبال وأشجارها المتنوعة من التين وزيتون. وتحدث كذلك عن كفر سابا (كفر سلام) وعن طريقة تخزين أهل الرملة للمياه (7)، ومما تقدم تبرز أهمية فلسطين الاقتصادية وخاصة في مجال الزراعة التي كان لها انعكاس على حياة السكان وارتفاع مستوى معيشتهم، وقد ذكر الرحالة فابري الذي زار فلسطين مرتين في سنة 880هـ/1480م—883هـ/1483م عندما تحدث عن مدينة بيت لحم أنه تفحص المدينة فوجد فيها القرى والأنهار ووجدها مكتظة بالسكان الذين يعتمدون في معيشتهم على الزراعة في القرى وما حولها؛ لخصوبة تربتها وملاءمتها لزراعة القمح والكروم والزيتون وبها المراعي. وقال: "توجد في قرية الرب يقصد بيت لحم حياة ريفية مضمونة

(1) المقرئزي ، السلوك ، ج2 ، ص48

(2) الصفدي ، الوافي ، ج10 ، ص213—214

(3) رحلة ، ج1 ، ص80

(4) نبات يستخدم في صناعة النسيج وتلوينه باللون الأزرق، ينظر: المقدسي، التقاسيم، ج1، ص163. الإدريسي، نزهة

، ج1، ص356 هايد، تاريخ، ج4، ص130—132. غوانمة، التاريخ، ص110.

(5) الإدريسي، نزهة، ج1، ص356. أبو الفداء، تقويم، ص341—343

(6) أبو الفداء ، تقويم ، ص339. الأعشى، صبح، ج4، ص154—155

(7) سفرنامه ج1 ، ص54

بالهدوء... والفلاحون... يعملون في الكرمة ويقلمون الأشجار بالسكينة المثلمة" (1) وقد أكدت إحدى الوثائق المملوكية التي صدرت في عهد السلطان جقمق سنة 851هـ/1447م أن سكان قرية بيت لحم معظمهم من الفلاحين (2)

و هنا لا بد لنا من ملاحظة وهي: أن الرحالة ركزوا على مقومات الزراعة و هي خصوبة التربة و العدد الكبير للفلاحين، وطريقة العمل في الكروم و تقليم الأشجار الذي يدل على اهتمام الفلاحين بالزراعة؛ لأنها مصدر هام من مصادر رزقهم، ولأنها من أهم الحرف التي انتشرت في فلسطين خلال العهد المملوكي، وكانت تمثل مصدراً هاماً من المصادر الاقتصادية في دولتهم و الإنفاق على مماليتهم وإعمار مدنهم و الإنفاق على مؤسساتهم الدينية والمدنية مثل: الجوامع والمدارس و الزوايا والخانقاهات وغيرها من المؤسسات .

و قدم الرحالة اليهودي عوبديا الذي زار فلسطين خلال القرن الخامس عشر الميلادي إشارات تدل على غنى المدن الفلسطينية بالزراعة والبساتين وتشابه كرمات العنب في هذه الجهات مع مثيلاتها في رومانيا، وأشجار العنب فيها قصيرة و كثيفة العنب ووصفه بأنه كبير الحجم (3).

وتحدث أيضاً عن مدينة القدس وذكر فيها أنواعاً من الفواكه و خاصة أشجار الموز. وأشار إلي تقلب مناخها (4) وعندما تطرق للأقاليم الأخرى في فلسطين، مثل: الجليل قدم معلومات جغرافية في غاية الأهمية عندما ذكر منطقة البحر الميت وبما فيها من بساتين رائعة (5).

كما أشار ابن شداد إلي شهرة سهولها الداخلية والساحلية بزراعة القمح والشعير والتين والزبيب والفسق والسماق (6). وفي ضوء ما تقدم من نصوص يتضح لنا ميل المجتمع الفلسطيني للزراعة خلال العهد المملوكي حيث لم تبق مزرعة في جبل ولا واد إلا و فيها سكان ولها مغل" (7)

و معظم الفلاحين الذين كانوا يعملون في القرى الفلسطينية خلال العهد المملوكي كانوا من المسلمين حتى في المناطق التي كان يسيطر عليها الفرنج، ويبدو أنهم كانوا يتعرضون لبعض الجور

(1) رحلة ، ج41 ، ق2

(2) العسلي ، وثائق ، ص63. ينظر ملحق(3)

(3) Obadiah ، op.cit .p185 نقلا عن السيد ، اليهود ، ص21

(4) Obadiah ، op.cit .p185 نقلا عن السيد ، اليهود ، ص20-21

(5) Obadiah ، op.cit .p185 نقلا عن السيد ، اليهود ، ص20-21

(6) الأعلاق ، ج1، ص54، الشاملة

(7) ابن العديم ، زبد الحلب، ج2، ص341

من الفرنج، فعندما فتحت مدينة نابلس كان معظم أهلها من المسلمين " وكانوا في شدة عظيمة من الإفرنج " (1)، ومما يؤكد أن أغلب سكان فلسطين كانوا يمارسون حرفة الزراعة خلال العهد المملوكي ما ذكره ابن شاهين عن كثرة انتشار القرى حيث كان في صفد وحدها ألف ومائتي قرية (2).

و تجدر الإشارة هنا إلي أن الفلاحين في العهد المملوكي كانوا يعيشون حياة قاسية في فلسطين؛ بسبب نظام الإقطاع الذي ساد البلاد ولما ارتبط بهذا النظام من ظلم وعسف واستغلال، وكانوا يعملون في القرى على شكل عبيد، حيث ذكرت بعض المصادر مدى ما آلت إليه أحوالهم و هو الأمر الذي أكدته السبكي بإلزام الفلاحين في الشام بالفلاحة في الإقطاعات "وقد جرت عادة الشام بأن من نزع من دون ثلاث سنين يلزم و يعاد إلى القرية قهراً ويلزم بشد الفلاحة " (3)

و من أشكال العنف الذي تعرض له الفلاحون ما ذكره لنا المؤرخ المقرئ في حوادث سنة 824هـ/1420م في عهد السلطان الظاهر ططر⁽⁴⁾ أن السلطان " مر في طريقه بمدينة القدس، فرفع إليه أن من عادة نائبها أن يجبي كل سنة من فلاحي الضياع نحو أربعة آلاف دينار، وبسبب ذلك خربت معامل القدس، فعوض النائب عن ذلك ونادي بإبطال هذه المغارم، ونقشه على حجر بالمسجد فتباشر الناس بأيامه ورجوا أن يزيل الله عنهم به ما هم فيه من الجور (5).

و قد أشارت الوثائق المملوكية أن معظم سكان القرى كانوا من الفلاحين، في عهد السلطان خشقدم⁽⁶⁾، وفي معرض الحديث عن النشاط الزراعي فقد ثبت أنه كان يشكل أهمية كبيرة سواء

(1) العلمي، الأنس، ج1، ص324

(2) زبدة كشف الممالك، ص44

(3) السبكي، معيد النعم، ص34. علي، القدس، ص196. بولياك، الاقطاعية، ص191. العزة، نابلس، ص115. لمزيد

ينظر: ناصر، الحياة الاقتصادية، ص113-126.

(4) السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو الفتح ططر تسلطن بعد خلع السلطان الملك المظفر أحمد ابن الملك المؤيد شيخ في يوم الجمعة تاسع عشرين شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة بقلعة دمشق وهو من أصل جركسي واستمر بالقلعة إلى أن نقل إلى الإسكندرية فنوفي بها مطعوناً في السنة المذكورة وكانت مدة سلطنته سبعة أشهر وعشرين يوماً ونقل إلى الجامع المؤيدي داخل باب زويله رحمه الله تعالى وكان ططر من مماليك الظاهر برقوق أعتقه وقدمه و ترقى إلى أن صار عند المؤيد رأس نوبة ثم أمير مجلس ثم تسلطن وتلقب بالملك الظاهر لقب ،ينظر: المقرئ، السلوك ، ج7 ، ص39-40. ابن تغري، النجوم ، ج14، ص198. المكي، سمط ج4، ص47

(5) المقرئ، السلوك ، ج7 ، ص41

(6) هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم بن عبد الله الناصري المؤيدي وهو السلطان الثامن والثلاثون من ملوك الترك والأول من الأروام بعد أن تسلطن من الجراكسة وأولادهم ثلاثة عشر ملكاً من أول دولة الظاهر برقوق وهو القائم بدولة الجراكسة ابتداءً وأما من سلف من ملوك الترك الجراكسة والأروام ففيهم اختلاف كثير

للسلاطين أو العامة من سكان القرى والمدن؛ لأنه مصدر اقتصادي رئيس. وكان لحالة التدهور الاقتصادي التي تعرضت لها دولة المماليك الجراكسة آثار كبيرة على حياة الفلاحين وخاصة الأزمات الاقتصادية خلال القرن الخامس عشر الميلادي في عهد الظاهر برقوق و ما تعرض له الفلاحون من عقوبات لعدم استيفائهم المتأخرات الإيجارية، وذلك في نهاية حكم السلالة الشركسية حيث تحولت معظم الإقطاعات إلى نظام للإيجار، باستثناء الأراضي التي تعتمد على الري، فقد كانت تشكل ملكية فردية تحت إشراف السلطان العام، وكانت الغالبية العظمى من الفلاحين تقع تحت سيطرة النظام الإقطاعي⁽¹⁾.

وذكر الرحالة بورشارد الذي زار فلسطين خلال فترة المماليك أن الأرض المقدسة خصبة وغنية بالقمح الذي يزرع و ينمو دون أدنى جهد، كما تجود الأرض بالعديد من الأعشاب الطبية والعطرية والشومر والمرمرية والسذاب⁽²⁾ التي تنمو في كل الأراضي المنبسطة التي تلائمها⁽³⁾ و تزخر أرض فلسطين بأنواع المنتجات الزراعية المختلفة التي ذكرها القلقشندي بالتفصيل، ففيها من الحبوب الشعير والذرة والأرز والباقلاء والبسلة والجلبان واللوبيا والحلبة والسمسم والقرطم، وذكر أنواعاً أخرى من الخضروات مثل: البطيخ و القثاء و القلقاس والملوخيا والباذنجان⁽⁴⁾

ومن أهم مناطق زراعة الحبوب، مثل: القمح رفح وغزة و بيت جبريل وبينا، وأما الشعير فيزرع في رفح وغزة وبيت جبريل⁽⁵⁾، واشتهرت منطقة الأغوار في فلسطين بزراعة الحبوب وخاصة القمح حيث يزرع في مدينة طبرية بسبب توفر المياه فيها من الأنهار والأمطار. ولاسيما أن القمح الجيد يزرع في التربة الثقيلة من المناطق الساحلية، كما انتشرت مزارع القمح أيضاً في الجزء الجنوبي الغربي من فلسطين في المنطقة الواقعة بين الساحل وسلاسل الجبال في القدس،⁽⁶⁾ وكانت، الزراعة البعلية التي تنمو على الأمطار في فلسطين، وذكر نمطاً آخر من الزراعة وهي الزراعة المروية وذلك

لعدم ضبط المؤرخين هذا المعنى فأول الجراكسة برقوق وأول الأروام خشقدم هذا وبينهما إحدى وثمانون سنة لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً لأن كلا منهما تسلطن في تاسع عشر شهر رمضان فذاك أعني برقوقاً في سنة أربع وثمانين وسبعمئة وخشقدم هذا في سنة خمس وستين وثمانمئة تسلطن يوم خلع الملك المؤيد أبو الفتح أحمد، ينظر: ابن تغري، النجوم، ج16، ص253. ينظر: العسلي، وثائق، ص64. ينظر الملحق(3)

(1) ل. 1. سيمينوفا، صلاح الدين و المماليك، ص197-198

(2) السذاب: وهو نوع من البقول وينبت برياً وعلو الجبال وفي الصحراء ويكثر في قرية العنب وهي من قري الرملة، ينظر: ناصر خسرو، سفرنامه، ج1، ص55. السمعاني، الأنساب، ج3، ص240

(3) بورشارد، وصف، ص167-178

(4) القلقشندي، صبح، ج4، ص90

(5) عطا الله، نياية، ص97-98

(6) براور، الاستيطان، ص428

عندما ذكر الجغرافيون مدينة نابلس وقالوا بأن فلسطين تسقى من مياه المطر " وليس بفلسطين بلدة فيها ماء جار سواها " المقصود نابلس (1)

والأرز من المحاصيل التي زرعت في بيسان وتعتبر ضمن الحبوب التي مارس زراعتها سكان الغور، وقد أشارت نتائج المسح العثماني الأول إلي وجود زراعته في قرיתי سعسع ويانوحية في عكا⁽²⁾، وكذلك وجدت الفواكه علي اختلاف أنواعها زرعت في المناطق التي تتوفر فيها المياه والظروف الملائمة لنموها (3).

وتطرق البعض لطرق اهتمام أهل الغور بالكروم والفواكه حيث كانوا يستخرجون شيئاً من بحيرة طبرية يسمى الحمر يلقحون به الكروم وأشجار التين وزعموا أنه للشجر كالتلقيح للنخل⁽⁴⁾.

ومن المحاصيل التي وجدت خلال العهد المملوكي محصول القطن، حيث ذكره الرحالة بورشارد، وكان يزرع في مناطق معينة ولعله يقصد المناطق التي تتوفر فيها المياه وبلغ طول الشجرة طول ركبة الإنسان، وأوراقه كانت تشبه أوراق العنب ولكنها أصغر والقطن كان يزرع طوأل فترة المماليك، وذكر الرحالة كازولا أن الحجاج توجهوا من يافا إلى بيت المقدس وشاهدوا كثيراً من أشجار القطن وهي مزهرة بالقطن والذي كان قد تم نضجه في ذلك الوقت. ولعل أهم سبب في انتشار زراعة القطن في فلسطين خلال عصر السلاطين المماليك هو إقبال الحجاج على شراء المنسوجات القطنية أثناء توجههم للمدن المقدسة، مثل: القدس وبيت لحم⁽⁵⁾، وبالتالي كان لرواج مثل هذه الصناعة دور في التأثير على المجتمع وتوجهاته المعيشية وأنماط الزراعة في فلسطين.

ومن المحاصيل التي زرعت في فلسطين محصول قصب السكر، فقد ذكر الحموي أن منطقة الغور الفلسطيني كانت تصدر سكر القصب لكل بلاد الشرق، وهو يزرع في قرى كثيرة منها بيسان و أريحا و العوجا، وكان يسقى من الأنهار الموجودة في هذه المنطقة، مثل: نهر الأردن واليرموك⁽⁶⁾.

وفي سياق الاهتمام بمحصول القصب نشير إلي أنه كان عندما ينضج ويتم قطعه وعصره يذهب نائب دمشق ينوب عن السلطان و يقيم كل فترة عصر القصب في الغور الفلسطيني فقد أقام النائب تتم⁽⁷⁾ فترة في الغور بسبب عصر القصب في عمّا

(1) القلقشندي ، صبح ج 4 ، ص 107. ابن حوقل ، صورة ، ص 158. بورشارد ، وصف ، ص 167.

(2) المقدسي ، التقاسيم ، ج 1 ، ص 163. القلقشندي ، صبح ، ج 4 ، ص 90. الطراونة ، مملكة ، ص 165

(3) القلقشندي ، صبح ، ج 4 ، ص 90. بورشارد ، وصف ، ص 169

(4) أبو الفداء ، تقويم ، ص 338

(5) Newwtt: Gasola,s pilgrims p:257-259 نقلاً عن علي ، القدس ص 195. بورشارد ، وصف ، ص 168

(6) معجم البلدان ، ج 1 ، ص 147.

(7) تتم وسمى تنبك نائب دمشق مات سنة اثنتين وثمانمائة، ينظر: السخاوي، الضوء ج 3، ص 45.

و العادلية⁽¹⁾ وذكر بورشارد انه مليء بالمادة النافذة السائلة والرطبة، ووصف طريقة عصره و صناعة السكر منه، وبعض الصناعات الأخرى⁽²⁾، وقد ذكر ابن بطوطة عندما زار مدينة نابلس أنها غنية بالخرّوب الذي تصنع منه الحلوى" وكان يصدر إلى دمشق وحلب ووصف " بطيخها بأنه طيب عجيب " (3) .

أما محصول الزيتون فقد كان يحظى باهتمام كبير من الفلاحين في فلسطين، وكان يزرع في معظم مناطق فلسطين وخاصة على الجبال و الساحل الفلسطيني وفي عسقلان وأرسوف ويافا ونابلس وفي قرية بيت المقدس و خاصة طور زيتا و قرية العازرية⁽⁴⁾، ولشدة اهتمام الفلاحين بأرضهم تمسكوا بها، وكانوا يعملون بالفلاحة بالقرب من المدن التي سيطر عليها الصليبيون، ففي سنة 664هـ/1265م أمسك الفرنج أربعة من المسلمين يعملون في حقل قرب عكا أسمه شيحا و قتلوهم⁽⁵⁾ وزرع في فلسطين - وخاصة في نيابة صفا - العدس والحمص والكرسنة حيث أشارت نتائج المسح العثماني الأول الذي أجرى في بلاد الشام سنة 932 هـ/ 1525م وهي الأقرب إلي العهد المملوكي أن هذه المزروعات كانت تتوفر بكثرة في القرى والمزارع الصيفية، أما السمسم فقد زرع في ولاية عكا وبر صفا بالقرب من طبرية⁽⁶⁾، وكانت جبال فلسطين غنية بالغابات، والأشجار التي تكسوها، مثل: البلوط، الصنوبر، السدر، البطم⁽⁷⁾، العرارة⁽⁸⁾، والطلح⁽⁹⁾.

ومما يؤكد ذلك إصابة فلسطين بالوباء سنة 749هـ/1348م الذي أباد أهل الغور وبيسان والكثير من النواحي الأخرى حيث وجدت الأسود والذئب والأرانب وحمير الوحش، والخنزير وبعض الوحوش ميتة⁽¹⁰⁾، وهذه الأصناف من الحيوانات البرية لا تعيش إلا في الغابات الكثيفة بعيدة عن الناس حتى تجد سبيلاً لعيشها وتحصل من الغابات على ما تحتاج له من الطعام، وقبل هذا التاريخ

(1) العيني ، السلطات برقوق ، ص482

(2) المقدسي، التقاسيم، ج1، ص150. العيني، السلطان، ص482. بورشارد ، وصف ، ص168.

(3) رحلة ، ج 1 ، ص80

(4) الإدريسي، نزهة، ج1، ص357. العلمي ، الإنس ، ج2 ، ص75

(5) المقرزي ، السلوك ، ج2، ص36

(6) الطراونة ، مملكة، ص165

(7) البطم: شجر الحبة الخضراء، مفردتها بَطْمَةٌ، ويقال بالتشديد، وأهل اليمن يسمونها الضَّرْو، ينظر: ابن منظور، لسان، ج12، ص51.

(8) هو شجر عظيم جبلي أخضر يسمى السرو، ينظر: ابن منظور، لسان، ج4، ص560 .

(9) غوانمة، التاريخ، ص80. الطَّلْحُ بوزن الطلع شجر عظيم والطلع في القرآن الموز، ينظر: الرازي، مختار، ج1، ص166.

(10) المقرزي ، السلوك ، ج 4 ، ص 89 .

تعرضت المدن الفلسطينية في العهد المملوكي لأمطار وسيول سنة 692 هـ/1292م وقد وجد في السيول أحد عشر أسداً ميتاً⁽¹⁾. أما الآلات الزراعية التي استخدمها الفلاحون خلال العهد المملوكي فهي المحراث الذي ذكر عندما بدأ الوباء ببنياية غزة سنة 749هـ/1348م " أن الرجل يوجد ميتاً والمحراث في يده " (2)

و هذا الإشارة التاريخية تؤكد لنا وجود مثل هذه الآلة الزراعية، المصنوعة من الخشب التي كان يستخدمها المزارعون إبان هذا العصر وتُجرُّ هذه الآلة عن طريق المواشي⁽³⁾.

أما عن تسميد الأرض فقد استخدم الفلاح الفلسطيني طريقة الحرث؛ لأنها تزيد من إنتاج الأرض، والأرض الخصبة لا تحتاج لسماد كثير والرديئة منها تحتاج له؛ لأنه يقويها ويصلحها، أما المعتدلة فإنها تحتاج إلى سماد أقل، والأسمدة تعتبر بمثابة الأدوية في ذلك الزمان للأشجار، ومما يشير أن الفلاحين في فلسطين صنعوا السماد ما ذكرناه عند تلقيح الكروم في الغور حيث أن سكان طبرية استخرجوا من بحيرة طبرية ما يسمى الحمر وكانوا يلحقون به الكروم⁽⁴⁾

ويبدو أنه كان يقصد بالتلقيح عملية صناعة السماد ولا سيما أن بحيرة طبرية غنية بالسبخات التي كانت تصنع منها أجود أنواع السماد، وطريقة صناعته كانت تتم عن طريق حفر عميقة في الأرض كلما كانت أوسع وأعمق كانت أجود ثم تجمع فيها أنواع الأربال والسبخات والطور ويضاف إليها ورق الكرم و يخلط بالخشب كل يوم حتى تخرج منه رائحة منتنة ثم يجفف ويمد به الكروم⁽⁵⁾.

وتأثر نظام فلاحية الأرض في فلسطين كبقية بلاد الشام بالنظام الروماني الذي ينتهج فيه نظام الحقلين بمعنى أنه يزرع الحقلين ثم يتم تبديلهما في السنة التالية وذلك تجنباً لإجهاد الأرض وتحسيناً للإنتاج، وكانت الطريقة التقليدية هي المتبعة في عهد المماليك في فلاحية الأرض⁽⁶⁾، وهذا يشير إلى تقدم الفلاح الفلسطيني وإدراكه ما يفيد أرضه أو يضرها، ويأتي هذا الاهتمام في إطار أن الزراعة تشكل المصدر الرئيس في معيشة الفلاح.

(1) المقرئزي، السلوك، ج2، ص239، ص240.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص82، ص83.

(3) المصدر نفسه، ج4، ص82، ص83. علي، القدس، ص197.

(4) أبو الفداء، تقويم، ص337. عدوان، التاريخ، ص89.

(5) أبو الفداء، تقويم، ص337. عدوان، التاريخ، ص89.

(6) غوانمة، التاريخ، ص81. الطراونة، مملكة، ص168، عطا الله، نيابة، ص98.

والشق الثاني من الزراعة هو الثروة الحيوانية حيث يعتمد الفلاح عليها ،وقد ذكر بعض أصنافها مثل الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير⁽¹⁾.

وعندما غزا التتار المدن الفلسطينية – غزة والخليل – أخذوا الكثير من الأبقار والأغنام والمواشي⁽²⁾، ففي معركة ألبستان سنة 675هـ/1277م و التي نجح فيها الظاهر بيبرس في دفع خطر المغول عن مصر و رحيل أباقا⁽³⁾ عن قيسارية فقد ذكر هلاك المواشي وبسبب قلة العلف و صعوبة الطريق و برودة الشتاء⁽⁴⁾. وأثناء قتال الظاهر بيبرس للفرنج في فلسطين سنة 663هـ/1264م عند فتح عتليت وقيسارية أباح السلطان مدينة قيسارية للناس فمن جملة ما غنموه الكثير من البغال و الخيول التي كانت للفرنج⁽⁵⁾.

وعندما ذكر المقرئزي الوباء الذي أصاب غزة سنة 749هـ/1348م تطرق في حديثه إلي الثروة الحيوانية التي كانت تستخدم في الحقول لأغراض الزراعة والحرب في قوله: " وماتت أبقارهم " ⁽⁶⁾. وفي سنة 841هـ/1437م أشار الرحالة فابري إلى وجود العديد من الحيوانات المختلفة و خاصة عندما زار فلسطين ونزل في مدينة غزة حيث كان المماليك يأتون إلي المدينة و يستولون على البضائع دون ثمن قال: " و أبقى شعب غزة دوابهم ...في بيوتهم و كذلك حميرهم و أبقارهم و ماعزهم " ⁽⁷⁾

ويلاحظ من المعارك التي دارت بين السلطان الظاهر والفرنج و خاصة في الساحل الفلسطيني أن معظم تربية المواشي من أبقار و جواميس وغيرها كانت في الساحل، و في ذلك ذكر " و كثرت المغانم بأيديهم حتى لم يجدوا من يشتري البقر والجاموس " ⁽⁸⁾. ويتضح من هذا النص أن الثروة الحيوانية في فلسطين زادت بسبب ما حصل عليه المسلمون من أيدي الفرنج أثناء المعارك، لتحريرهم المدن لدرجة أنهم لم يجدوا من يشتري هذه المواشي، و يؤكد لنا هذا شيئاً آخر

(1) الفلقشندی ، صبح ، ج 4 ، ص 91

(2) ابن تغرى ، النجوم، ج 7 ، ص 77. السيوطي ، تاريخ، ج 1، ص 471

(3) أبغا ويقال أباقا بن هولكو ملك التتار وصاحب العراق والجزيرة وخراسان وأذربيجان مات بنواحي همذان سنة ثمانين وست مائة وله نحو خمسين سنة كان مقداما شجاعا عالي الهمة وهو على دين التتار لم يسلم وكان ذا رأي وخبرة بالحروب لما توجه أخوه منكوتر إلى الشام بالعساكر لم يكن ذلك بتحريضه بل أشير عليه فوافق وكان سفاكا قتل في الروم خلقا كثيرا لكونهم دخلوا في طاعة الملك الظاهر بيبرس، ينظر:الصفدي، الوافي ، ج 6، ص 119

(4)الصفدي، الوافي ، ج 6، ص 119. سرور ، دولة بني قلاوون ، ص 161

(5) المقرئزي ، السلوك ، ج 2 ، ص 20 ، ص 21

(6) المصدر نفسه، ج 4 ، ص 82، ص 83

(7) رحلة ، ق 4 ، ج 38 ، ص 1249 ، ص 1250

(8) المقرئزي ، السلوك ، ج 2 ، ص 33 ، الطراونة ، مملكة ، ص 169

وهو أن أهل القرى المجاورة شاركوا في عمليات تحرير المدن، وكان السلطان يسمح لهم بالحصول على الغنائم التي من بينها الحيوانات المختلفة كما يؤكد وجود تربية الجاموس في فلسطين حيث ذكر الرحالة بورشارد عدداً من حيوانات الأرض المقدسة (1)

و تجدر الإشارة إلي أن الإبل كانت تربي في فلسطين وخاصة في القبائل البدوية التي وجدت في أطراف المدن، يُستدل من أخبار الموقعة التي جرت بين متيرك بن قاسم بن متيريك رئيس قبيلة حارثة و دقماق المحمدي نائب صفد سنة 803هـ /1401م أنها كانت بأعداد كبيرة، فعندما تغلب دقماق على متيريك استولى على ستة آلاف بعير (2)، و مما يؤكد أن أعدادها كانت كبيرة في فلسطين قول بورشارد: " هناك أعداد غير محددة من الجمال...العربية وحيدة السنام" (3).

ونستدل مما تقدم على أن سكان فلسطين من البدو كانوا يمتلكون أعداداً كبيرة جداً من الإبل، وربما هي عادة؛ لأن العشائر البدوية تتباهى أمام العشائر الأخرى بالأعداد الكبيرة من قطعان الحيوانات، وترجع أهمية الجمال إلى أنها استخدمت في التنقل لمسافات بعيدة، وخاصة بين مصر وفلسطين، وهو الأمر الذي ذكره الرحالة اليهودي عوبديا عندما أراد أن ينتقل من القاهرة إلي فلسطين بقوله: " البرية بين مصر وفلسطين ليست واسعة وبها محطات للجمال بين كل منها مسيرة يوم واحد " (4)، وأما الطيور التي تربي في فلسطين فمنها الأوز والدجاج والحمام وأنواع أخرى من الطيور المختلفة، وأشار في معرض حديثه إلى مزارع الدجاج وتقريخها بقوله: " ولا تكون الفراريج فيها إلا بحضانة " (5)، و مما يؤكد وجود الدجاج في فلسطين في هذه الفترة ما ذكره المقرئزي في حوادث سنة 821هـ/1418م أن الهروي عندما كان ناظراً للخليل شكاه للناس للسلطان على ما أخذه منهم من أموال و فرضه عليهم بيضاً وألزمهم أن يحمل بعده دجاجاً (6).

وكما عرفت فلسطين بتربية النحل وإنتاج العسل خلال العهد المملوكي وخاصة في منطقة الكرمل؛ بسبب كثرة البساتين والكروم والزهور والرياحين التي توجد فيها. إضافة للثروة السمكية التي شكلت المصدر الرئيس لسكان السواحل الفلسطينية وخاصة مدينة عكا وعلى الشاطئ الشمالي لبحيرة طبرية وشواطئ الحولة ونهر النعامين ونهر الليطاني (7)، وقد أكد القلقشندى على وجود العسل في بلاد

(1) بورشارد ، وصف ، ص171. الطراونة ، مملكة ، ص170

(2) المقرئزي ، السلوك ، ج6 ، ص64-65. الطراونة ، مملكة ، ص170

(3) بوشارد ، وصف ، ص171

(4) Obadiah ، op.cit .p227.229 نقلا عن السيد،اليهود ، ص18

(5) القلقشندى ، صبح ، ج4 ، ص91

(6) المقرئزي ، السلوك ، ج6 ، ص468

(7) المقدسي،التقاسيم،ج1،ص171.القلقشندىج4،ص91،ص92.الطراونة،مملكة،ص122.170.عدوان،التاريخ،ص109.

الشام بقدر متوسط⁽¹⁾، وقد أشار الرحالة بورشارد إلي وجود العسل في فلسطين في معرض حديثه عن المدينة المقدسة فقال: "كثير في الأراضي المقدسة... العسل"⁽²⁾.

وبعد الحديث عن أنواع المزروعات التي حوتها فلسطين خلال العهد المملوكي يجب أن نذكر طرق زراعة بعض المحاصيل، فزراعة الحبوب مثلاً كانت تتطلب شق الأرض بالمحراث خطوطاً غائرة ويقوم ببذر الحبوب فيها ثم يقوم بحرثها مرة أخرى بما عليها من الحبوب فتصبح التقاوي مغطاة بالتربة وغالباً ما تتبع هذه الطريقة في زراعة القمح والشعير، وهناك طريقة أخرى لزراعة الخضراوات مثل البصل والثوم والكرات يزرع إما نثراً أو في حفائر ولكنها كانت تنقل إلى مكان آخر بعد نموها، كذلك البطيخ يزرع في حفائر أما الباذنجان فهو يزرع في حفائر أو نثراً وتتبع نفس هاتين الطريقتين في كثير من المحاصيل الزراعية المملوكية⁽³⁾. ومما يؤكد أن هذه الطريقة من الزراعة وجدت في المدن الفلسطينية إبان الفترة المملوكية ما ذكره المقريزي في أحداث سنة 749هـ / 1348م عندما تحدث عن الوباء في مدينة غزة فقد ذكر أنه وجد بعض المزارعين "قد مات وفي يده ما يبذره"⁽⁴⁾.

ومن طرق الزراعة الجديرة بالذكر طريقة زراعة قصب السكر حيث كان يتم اختيار الأرض الجيدة التي تتوفر فيها المياه وقد زرع في منطقة الأغوار⁽⁵⁾، فقد كانت الأرض تنظف ثم يتم تسويتها وتجرف حتى تمهد فإذا صلحت وطابت تشق عند ذلك ويرمى القصب فيها قطعتين قطعة مثناه وقطعة مفردة وتكون في أحواض تصل إليها المياه في قنوات، وبعد أن يتعدى نمو القصب الشقوق يقوم الفلاح بإعادة التراب عليه ويسقى جيداً⁽⁶⁾. وأشار الرحالة بورشارد الذي زار فلسطين إبان الحقبة المملوكية لطرق زراعة قصب السكر حيث يقوم "صانعو السكر بنقطيع القصب إلى عدة قطع يبلغ طول القطعة أصبع الإنسان وذلك من أجل الحصول على عقدة في وسط كل قطعة حيث يتكون العديد من القطع في أرض رطبة خلال فصل الربيع وتنمو من هذه العقد قصبات جديدة... وهكذا تتم طريقة زراعة قصب السكر"⁽⁷⁾.

(1) القلقشندي، صبح، ج4، ص91

(2) بورشارد، وصف، ص171

(3) عدوان، التاريخ، ص91

(4) السلوك، ج4، ص82، ص83

(5) المقدسي، التقاسيم، ج1، ص171

(6) بورشارد، وصف، ص167. عدوان، التاريخ، ص91

(7) بورشارد، وصف، ص168، ص169

ومن العمليات المهمة التي تم إتباعها في فلسطين خلال العهد المملوكي التطعيم وكانت متقدمة في الشام أكثر من مصر بدليل أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون عندما أنشأ القصر الأبلق في سنة 713 هـ / 1313م أقام بستانا وأحضر إليه سائر أصناف الزراعات واستدعى حولة⁽¹⁾ الشام والمطعمين فباشروه حتى صار من أعظم البساتين، وعرف أهل جزيرة الفيل من ذلك اليوم التطعيم للشجر" ⁽²⁾

ونستدل من هذا النص التاريخي على تقدم الزراعة في بعض جوانبها في فلسطين وبلاد الشام عنها في مصر بدليل أن عملية تطعيم الأشجار انتقلت إلى مصر من بلاد الشام.

أما فيما يتعلق بالموثرات على الزراعة فهي كثيرة وسبق التطرق إليها في أثناء الحديث عن الحروب والكوارث الطبيعية والأوبئة والمجاعات التي تأثرت بها فلسطين بشكل مباشر، وانعكس أثرها على السكان وبالتالي على الزراعة . وتمثل تأثيره على السكان في الهجرات وتدمير الزرع نتيجة السيول والأمطار الغزيرة وموجات الجراد وعمليات السلب والنهب التي تعرضت لها القرى في فلسطين إما من الأعداء ، الفرنجة الذين قتلوا بعض الفلاحين الذين يسكنون القرى المجاورة للأراضي التي يسيطرون عليها أو الهجمات الخارجية مثل التتار الذين هاجموا بلاد الشام ومنها فلسطين على شكل موجات لم تتوقف في معظم الفترات سواء في عهد الدولة المملوكية الأولى أو الثانية التي ظهرت في عهدها الأزمات الاقتصادية بشكل واضح مع أن هذه الأزمات بدأت منذ قيام دولة المماليك، ولكن قوة الدولة التي كانت في طور شبابها واستطاعت أن تتغلب على هذه العوامل أو تكبته إلى حين بفضل قدرات بعض السلاطين الأقوياء، وكان من نتائج هذه الأزمات وتلك العوامل أن أصاب الدولة التفكك والضعف حيث كانت لقمة سائغة أستطاع العثمانيون أن يسيطروا عليها سنة 922هـ / 1517م⁽³⁾.

الصناعة:

كان للنشاط الزراعي الذي سبق لنا الحديث عنه دور كبير في ظهور العديد من الصناعات التي تعتمد على الزراعة وأهمها الصناعات الغذائية، مثل: قصب السكر الذي اشتهرت بزراعته منطقة الغور الفلسطيني في زمن الدولة المملوكية . وكثرت مزارع القصب في مدينة طبرية وبيسان وأريحا⁽⁴⁾، ومن شدة اهتمام السلاطين المماليك بهذه الصناعة أقيمت لذلك معاصر السكر و مطابخه في جميع أنحاء الغور، وأصبحت الأغوار أملاكاً سلطانية خاصة وصار السلطان يعين لهذه المطابخ

(1) يقصد المزارعين والحوّل: الأخدود الذي تُغرس فيه النخل، ينظر: ابن منظور، لسان، ج11، ص192.

(2) ابن تغري، بردي النجوم، ج9، ص37. عدوان، التاريخ ص93

(3) ينظر: الفصل الأول من هذه الدراسة. قاسم، عصر السلاطين، ص342

(4) الحموي، معجم، ج4، ص217

شاداً خاصاً يشرف عليها و يجمع ما يتحصل من قنود و أعمال السكر ،وقد أظهرت نتائج البحوث الأثرية في منطقة الأغوار عن كشف مئات المعاصر وأعداد هائلة من الأواني الفخارية التي كانت تستعمل لتجفيف عصير القصب (1).

و تعتبر صناعة السكر من الصناعات الهامة في العهد المملوكي، لأنها تدر أموالاً طائلة للخزانة السلطانية وقد لقيت اهتماماً من السلاطين لكثرة استعمالهم السكر في مطابخهم، وربما لاستعمالهم السكر علاجاً للأوبئة استمرت صناعته مزدهرة حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي ظلت الدولة المملوكية قادرة على تصدير السكر إلى البلاد الأوربية (2)،

ولاهتمام السلاطين المماليك بصناعة السكر فقد خضعت هذه الصناعة للإشراف المباشر من نائب دمشق، فكان يخرج بنفسه حتى يتم عصر الأقباص، وكانت فترة إقامته تطول أو تقصر بحسب الموسم حتى أنه في سنة 779هـ / 1377م أقام مدة شهرين وسبعة عشر يوماً، أما في سنة 801هـ / 1398م فقد مكث هناك ما يقرب من " خمسة أشهر في عمل السكر، وكان قصب السكر في هذا العام كثيراً جداً يتجاوز الحد " (3) و قد قدم لنا الرحالة بورشارد وصفاً لصناعة السكر بقوله " و هو يشبه القصب العادي المجوف من الداخل لكنه أكبر منه و قصب السكر مليء بالمادة النافذة السائلة و الرطبة جداً والتي تشبه تلك التي يجدها المرء في عيدان الخشب القديم و يتم تجميع القصب ويقطع طولياً، كل قطعة بحجم نصف النخلة، وبعد ذلك تعصر القطع بالمعصرة و ينزل العصير في وعاء نحاسي (معد لذلك) ثم يوضع على النار حتى يصل إلى درجة التكاثر و يجمع في سلاسل مصنوعة من عصيات رفيعة، و بعد فترة يصبح السكر، جافاً و قاسياً و بهذه الطريقة يصنع السكر و قبل أن يجفف يتم ترشيح المادة السائلة منه التي تدعى عسل السكر" (4).

و قد ألغى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ما كان مقرراً على معاصر القصب ومزارعه و من يعمل فيها من الضرائب (5)، ووصل السكر الذي كان ينتج في مدن الغور إلى أوروبا ووجد السكر في أسواق فلورنسا بين السلع الشرقية المعروفة بين عامي 709 هـ / 1310م / 740هـ / 1340م (6) و قد احتكر السلاطين المماليك صناعة السكر و تجارته مما أدى إلى رفع أسعاره بسبب التحكم في تسويقه مما أثار مشاعر السخط و التذمر عند أهالي دمشق، ومما يدل على تقدم هذه

(1) القلقشندي، صبح، ج4، ص9. غوانمة ، التاريخ ، ص107 – 108

(2) ضومط ، الدولة المملوكية ، ص162

(3) ابن قاضي ،الإعلام بتاريخ أهل الإسلام ، نقلاً عن غوانمة ، التاريخ ، ص108

(4) بورشارد ، وصف ، ص168

(5) ابن تغري ، النجوم ، ج9 ، ص47

(6) غوانمة ، التاريخ ، ص108. ضومط ، الدولة المملوكية ، ص162

الصناعة خلال هذه الفترة خاصة في سنة 731هـ/1330م في حفل زفاف السلطان الناصر محمد بن قلاوون صنع ما يزيد على 18 ألف قنطار من السكر على شكل مشروب⁽¹⁾.

وبرغم المبالغة في الأرقام التي أشارت لها هذه الرواية إلا أننا نستدل منها على الكميات الكبيرة التي كانت تنتج من السكر في العهد المملوكي، ومن الصناعات التي قامت على السكر صناعة غسل القصب التي وجدت في زمن الصليبيين وصناعة عصير الفواكه و الحلويات وخاصة الحلواء المصنوعة من الخروب التي ذكرها ابن بطوطة عندما زار مدينة نابلس وكانت تصدر إلى دمشق وغيرها من البلاد و تحدث أيضاً عن طريقة صناعتها حيث كان الخروب يطبخ ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء، "وكان يصدر لمصر كذلك"⁽²⁾. ومن الصناعات التي قامت على السكر صناعة الزلابية و هي أكلة شتوية وجدت في فلسطين⁽³⁾.

كما انتشرت صناعة الخمر خلال هذا العصر، ومن الأسباب التي أدت إلى ظهور مثل هذه الصناعة وجود كروم العنب بشكل كبير في معظم فلسطين على عصر المماليك، و لكثرة هذا المحصول فقد سميت قرية من قرى الرملة باسم العنب⁽⁴⁾ وكان يصنع منه الزبيب من كثرته⁽⁵⁾ وأما مدينة القدس فالكروم وغيرها من الفواكه. تحيط بها من جميع الجهات⁽⁶⁾

و مدينة الخليل غنية جداً ومشهورة بكثرة كروم العنب و هذا ما أكده ناصر خسرو " به قرى كثيرة وزرع وحدائق وشجر بري لا يحصى من عنب وتين وزيتون وسماق "⁽⁷⁾، وما تقدم من معلومات يفسر سبب صناعة الخمر في فلسطين إبان فترة العصور الوسطى والنبيذ أيضاً، وكانت هذه الخمر تصنع في قرية بظاهر مدينة القدس تسمى شفرلات (شرفات)، وكان بها قليل من النصارى يعصرون الخمر و يبيعونها للفساق من المسلمين⁽⁸⁾. ومن المؤكد أن هذه العادة انتشرت في المجتمع الفلسطيني بشكل كبير إبان فترة سيطرة الفرنجة عليها إذ

(1) ابن تغري، النجوم، ج 9، ص 102. غوانمة، التاريخ، ص 108، ص 109

(2) رحلة، ج 1، ص 80. براور الاستيطان، ص 433، ص 434

(3) المقدسي، التقاسيم، ج 1، ص 167

(4) خسرو، سفرنامه، ج 1، ص 55

(5) المقدسي، التقاسيم، ج 1، ص 164

(6) العليمي، الأنس، ج 2، ص 59، ص 81

(7) سفرنامه، ج 1، ص 70

(8) العليمي، الأنس، ج 2، ص 147

سمحوا بتناولها في حانات خاصة مقابل ضريبة معينة. ومن الصناعات الغذائية الهامة صناعة عصر الزيت، و أكثر المدن الفلسطينية إنتاجاً له هي مدينة نابلس حيث كان يصدر لمصر و دمشق⁽¹⁾.

و في سياق الحديث عن صناعة الزيت فقد ظهر في فلسطين سنة 896هـ/1490م وظيفة يباشر صاحبها عملية بيع الزيت و ترتيبه و يقضي ببيع الزيت المتحصل من جبل نابلس على أهل القدس من المسلمين واليهود و النصارى، وبلغ سعر كل قنطار من الزيت خمسة عشر ديناراً ذهباً والسبب في ضبط عملية بيع الزيت أن مجموعة من أهل السوق سنة 890هـ/1484م تلاعبوا بأسعاره فسار يضبط و يوزع على التجار في مدينة القدس والرملة والخليل⁽²⁾، وبلغ من جودة الزيت الذي ينتج في بلاد الشام و منها فلسطين أن المماليك كانوا يقدمونه على شكل هدايا كما فعل السلطان جقمق إلى ملك الحبشة سنة 847 هـ/ 1443م قدم له زلعتين من الزيت الطيب⁽³⁾.

والزيوت لم تستخرج فقط من الزيتون، فقد صنعت أيضاً من السمسم الذي زرع في فلسطين و الكتان الذي كان يستخرج منه الزيت الحار و لكثرة إنتاجه كان يصدر إلى مصر لسد العجز الحاصل عندها في هذه الصناعة ، و يلاحظ أن سياسة الاحتكار السلطانية أثرت على هذه الصناعة وأدت إلى تأخرها و خراب معاصرها في مصر والشام على السواء و بدأ الاعتماد على أوروبا في استيراد كميات كبيرة من أسبانيا و فرنسا حيث كان التجار البنادقية و الجنوبييون يجلبونه بكميات كبيرة إلى الشرق⁽⁴⁾.

و من الصناعات التي قامت على الزيت صناعة الصابون حيث عمل عدد كبير من السكان بهذه الصناعة، وكانت تصدر إلى المدن المجاورة، مثل: يافا التي كان بها تجارة كبيرة للصابون حيث كان يرد إليها من مدينة القدس ومنها يصدر إلى مصر والبلاد المختلفة⁽⁵⁾ مع العلم أن صناعة الصابون كانت بحاجة ماسة إلى مادة " البوتاس " التي تستخدم في تلك الصناعة وقد أطلق عليها البعض مادة الصودا الكاوية و قد اندهش الرحالة بيركهارت " عندما وجد نساء البدو داخل الخيام فقط ولكنه أخبر أن الرجال قد ذهبوا ليبيعوا " رصاد الصابون" الذي يجمعه هؤلاء البدو من الجبال في الصحراء و كان هؤلاء البدو يبيعون ما يحصلون عليه في كل من القدس وغزة والرملة، ومن المرجح أنه كان لأهل الرملة خبرة في صناعة الصابون حيث كان يستعين بهم أهل بيت المقدس،

(1) ابن بطوطة، رحلة، ج1، ص80. الطراونة، ص172، ص173

(2)العلمي، الأوس، ج2، ص356 – ص358

(3)السخاوي،التبر، ص71. ينظر: غوانمة، التاريخ، ص110

(4) القلقشندى، صبح، ج4، ص90. ضومط، الدولة المملوكية، ص167—168

(5)العلمي، الأوس، ج2، ص365،356،54. علي، القدس، ص199

وهذا يدل على أن المدينة كثرت فيها مصانع الصابون التي استوعبت كل الأيدي العاملة⁽¹⁾، و قد ظل أهل الأردن حتى عهد قريب يرسلون الفائض من الصودا إلى أسواق نابلس و غزة لاستخدامه في صناعة الصابون⁽²⁾، ومما يؤكد تقدم صناعة الصابون في مدينة الرملة ما ذكره المؤرخ العلمي " يضبط الزيت و يرمى على أربابه و هم التجار الذين يصنعون الصابون بالقدس الشريف و مدينة الرملة " ⁽³⁾، و قد ذكر المقدسي الصابون من بين السلع التي كانت تصدر من فلسطين و غيرها حيث قال: " يرتفع من فلسطين الزيت و القطين و الزبيب و الخروب و الملاحم و الصابون و الفوط و من بيت المقدس الجبن و القطن و الزبيب و التفاح ... و القناديل و الإبر من أريحا ... و من بيسان النيل و التمر " ⁽⁴⁾ فهو بهذا الوصف قدم لبعض الصناعات التي أنتجت في فلسطين و كانت تصدر للمناطق المجاورة و من الصناعات الغذائية طحن الغلال و السبب في تقدمها انتشار زراعة الحبوب في فلسطين بشكل كبير، و هو الأمر الذي سبقت الإشارة إليه ببناء العديد منها في المدن الفلسطينية أثناء إعادة إعمارها وهي تمثل صورة من صور الاهتمام بالحياة العامة للسكان من قبل المماليك ففي سنة 662هـ/1263م قام السلطان الظاهر بيبرس ببناء طاحون وفرن في مدينة القدس و خان و أوقف عليه أوقافا للاهتمام بمن ينزل في هذا الخان⁽⁵⁾ و كانت الطواحين عبارة عن الحجر الذي يدور بالماء و تقع على ضفاف الأنهار و الوديان و قد أشارت نتائج المسح العثماني إلى وجود 92 طاحونة في صفد⁽⁶⁾ وهي على النحو التالي:

الناحية	عد الطواحين
الجيرة	39
عكا	14
الشقيف	16
تبنين	80
طبرية	15

ونستدل من هذا على أن المماليك اهتموا بهذه الصناعة منذ قيام دولتهم حتى أنهم أنشأوا الطواحين والفرانات التي تعمل لخدمة المسافرين، وأوقفوا عليها الأوقاف، مما يشير إلى عمل الخير الذي حاول السلاطين التقرب به من السكان .

(1) رحلات، بيركهارت، ج2 ص 81، 82، 127. نقلا عن: علي، القدس، ص199

(2) رحلات، بيركهارت، ج2 ص 81، 82، 127. نقلا عن: غوانمة، التاريخ، ص110

(3) الأنس، ج2، ص356

(4) التقاسيم، ج1، ص163

(5) ابن كثير، البداية، ج13 ص. 242، ابن تغري، النجوم، ج7، ص121

(6) ينظر: الطراونة، مملكة، ص 173

ومن الصناعات التي سادت فلسطين في هذه الحقبة صناعة النيل، وهو الذي أشار له المقدسي، وكان يُزرع في أريحا وبيسان⁽¹⁾، وكان من المواد الأساسية التي تستخدم في صناعة النسيج وتلوينه باللون الأزرق فترة العصور الوسطى فلذلك زاد الطلب عليه وراجت تجارته في الأسواق المجاورة لفلسطين والأسواق الأوروبية⁽²⁾، وكثر عدد المشتغلين به وأقيمت المعامل في زغر لاستخراجه، وظلت زراعته منتشرة حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي حيث كان ينقل إلى القدس و الخليل و يذكر أن سعره كان يزيد عن نيل مصر بنحو 20%⁽³⁾.

و ظهرت في فلسطين صناعة البلسم⁽⁴⁾ التي تقوم على شجر البلسان، وكان يسمى دهن البلسان و كان شجر البلسان يتميز بساقه الناعم و أوراقه الصغيرة و طريقة استخراج عصارة البلسان لا تختلف عن طريقة استخراج المطاط و ذلك بشق ساق الشجرة و تلقي العصارة السائلة في وعاء بعد ذلك يعمدون إلى سد الشقوق حتى لا تنزف العصارة و تموت الشجرة ثم توضع العصارة في إناء واسع و تعرض لأشعة الشمس وترسب الشوائب في قاع الإناء، أما الزيت فيؤخذ ويُغلي على النار فيكتسب لوناً أحمر ورائحة عطرية، وهو أرقى أنواع البلسم وأغلاها⁽⁵⁾، وترجع أهمية هذه الصناعة إلى أنها ربما كانت تباع بكميات كبيرة للنصارى حيث استخدمت في طقوسهم الدينية و كانوا يقنعون الجهلة منهم بأن هذه المادة نزلت من السماء، بل هي مصنوعة من دهن البلسان وكانوا يستخدمونها في كنيسة القيامة بالقدس منذ عهد الدولة الفاطمية في عهد الحاكم بأمر الله 398هـ/1007م، وهو الأمر الذي دفعه لهدم كنيسة القيامة نتيجة لتعدييات هؤلاء النصارى الدينية في أعيادهم⁽⁶⁾.

وكان هذا المنتج يقدم كهدايا للسلطين والملوك، فقد قدم السلطان صلاح الدين الأيوبي هدية مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان وعشرين رطلاً من العود وستمائة مثقال من المسك والعنبر

(1) التقاسيم ، ج 1 ، ص 163

(2) المقدسي، التقاسيم، ج 1، ص 163. هايد، تاريخ، ج 4، ص 130-132. غوانمة ، التاريخ ، ص 109.

(3) رحلات، بيركهارت، ج 2 ص 2، ص 114. نقلاً عن غوانمة، التاريخ ، ص 109

(4) هو عبارة عن زيت يستخرج من نبات البلسان (ويسمى دهن البلسان) ويستخدم في إنارة القناديل والأغراض الطبية وهو مقدس عند المسيحيين، ينظر: الإدريسي، نزهة، ج 1، ص 326. المقدسي، التقاسيم، ج 1،

ص 186. الذهبي، سير، ج 14، ص 333. هايد، تاريخ، ج 4، ص 73. غوانمة ، التاريخ، ص 110-111

(5) هايد، تاريخ، ج 4، ص 74-75. غوانمة ، التاريخ، ص 110

(6) ابن كثير، البداية ، ج 11، ص 339. هايد، تاريخ، ج 4، ص 74. غوانمة، التاريخ، ص 110، ص 111

للمنصور في المغرب أهده أيضاً أقواساً عربية⁽¹⁾، وقدم السلطان الناصر محمد بن قلاوون للشيخ محمد بن إبراهيم الأبلبي⁽²⁾ كوبيين من البلسان⁽³⁾.

مما سبق تبرز أهمية هذه الصناعة لدرجة أنها كانت تقدم على شكل هدايا وفي طيات النصوص السابقة بعض الصناعات التي وجدت وخاصة العسكرية منها، مثل: الأقواس وسروج الخيل. كما ووجدت صناعة الحصر في مدينة بيسان والسبب في تقدم هذه الصناعة نمو نبات السامان الذي يصنع منه الحصر السامانية " ولا يوجد نباته البتة إلا بها "، وفي مدينة طبرية تصنع نفس الحصر " و قليلاً ما يصنع مثلها في بلد من البلاد المعروفة " ⁽⁴⁾، ويعتقد بعض الباحثين أن نبات السمان هو نبات الحلفا الذي ينمو في مدن الغور بشكل كبير، وهو نبات يتجاوز ارتفاعه الذراع، وساقه وزهره أبيض وكان ينقل إلى دمشق لتصنع منه القفف والسرايح، وكانت القفف ضرورية للفلاح يستخدمها في أعمال البناء ونقل التراب والفاكهة وغيرها ⁽⁵⁾، وقد تطرق الرحالة ابن بطوطة لهذه الصناعة عندما زار مدن الشام وخاصة طبرية و دمشق و بيروت حيث وجدت هذه السلعة في الأسواق الشامية ⁽⁶⁾، وكانت تصبغ هذه الحصر بالألوان المختلفة، والواضح أن من كان يقوم بهذا العمل هم اليهود حيث ذكر الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي عندما زار مدينة بيت لحم أن بها " أحد عشر يهودياً يحترفون الصباغة " ⁽⁷⁾، ومما يشير إلي تقدم هذه الصناعة أنه وجد لها سوق و حارة خاصة بها في مدينة القدس ⁽⁸⁾.

ونبات الحلفا ينبت أيضاً في منطقة بحيرة الحولة، وقد صنع منه السكان الحصر والحبال. ولا بد لنا هنا من ذكر صناعة تعتبر من الصناعات الهامة في مدن فلسطين في العهد المملوكي وهي صناعة القماش والمنسوجات، وربما يرجع سبب الاهتمام بهذه الصناعة؛ لأن طبقة المماليك كان

(1) ابن خلدون، تاريخ، ج6، ص331. هايد، تاريخ، ج4، ص74.

(2) الأبلبي محمد بن إبراهيم الأبلبي المغربي شيخ أهل المغرب في أصول الفقه وهو الذي ادخل شرح ابن الحاجب وغيره من مصنفات العجم لتلك البلاد واخذ عنه جماعة من شيوخنا منهم أبو عبد الله ابن عرفة وأبو زيد بن خلدون، ينظر: إكمال الكمال

(3) ابن خلدون، ج6، ص331

(4) الإدريسي، نزهة، ج1، ص356، ص363

(5) غوانمة، التاريخ، ص112. الطراونة، مملكة، ص174

(6) رحلة، ج1، ص82

(7) التطيلي، رحلة، ص104

(8) العلمي، الأنس، ج2، ص53، ص79

معظمها من العسكر ولهم زيهم الخاص بهم الذي يميزهم عن غيرهم من عامة الشعب، و من ذلك ما أورده ناصر خسرو "أنه كان للسلطان صناع مختصون بنسج ملابس السلطان" (1)

ومن صور الاهتمام بهذه الصناعة وجود سوق خاص لبيع القماش في القدس (2)، وقد ازدهرت صناعة الأقمشة والمنسوجات والحرف المتصلة بالملابس ازدهاراً كبيراً في هذا العصر، واشتهرت المدن الفلسطينية بصناعة المنسوجات وخاصة في نيابة صفد، حيث كانت تصنع فيها المنسوجات الحريرية منذ العهد البيزنطي، وكانت تربي في الشام دودة القز وقد بلغت هذه الصناعة درجة رفيعة أيام الفرنج حيث كانت المنسوجات الحريرية المصبوغة والأرجوان السوري تصدر إلى أوروبا، وتأتي مدينة عكا بعد مدينة صور في هذه الصناعة واشتهرت أيضاً بصنع قماش حرير سميك يعرف بالحرير المقصب، حيث كانوا يدخلون في حياكته خيطان مفضضة ومذهبة (3). وكانت تعتمد المنسوجات على الأصواف التي توفرها قطعان الماشية من إبل وبقر وجاموس وقطعان الماعز والأغنام التي تربي و سبق الحديث عنها في الثروة الحيوانية.

و قد عرفت هذه الحرفة باسم "القزازين" (4) في مصطلح العصر المملوكي، وانقسم العمال في هذه الحرفة إلى قسمين ، بعضهم يعمل بالأجرة لدى غيره من أصحاب المصانع ، والآخر يعمل لحسابه، وهذه تنقسم إلى فئتين: منهم من يأخذ الغزل من الناس و ينسجه لهم مقابل أجر معلوم وتعرف هذه العملية (بالقبالة)، وفئة تشتري الغزل وتنسجه وتبيعه أثواباً جاهزة، وصناع الحرير أطلق عليهم اسم "الحريريين"، وهم الذين يقومون بنسج الحرير، وتدل كثرة الأسواق المرتبطة بهذه الحرفة على تقدمها في هذا الفترة (5)، وذكر صاحب الأناضول أن شيخ الطائفة الوفائية كان يعمل بالحيآكة في سوق التجارة بالقدس (6)

وتدل أنواع الملابس التي وجدت في هذا العهد على طبقات المجتمع؛ لأن كل طائفة من طوائف المجتمع تتميز عن الطائفة الأخرى بملابسها، فالقضاة لهم ملابسهم والأعيان وعامة السكان والمماليك لهم، وأهل الذمة لهم ملابس خاصة بهم، وترجع أهمية دراسة هذه الحرفة إلى الدور الاجتماعي الذي لعبته في المجتمع، ولأهمية هذه الحرفة عمل بها العلماء ورؤساء الطوائف

(1) سفرنامه ، ج1 ، ص77

(2) العليمي ، الأناضول ، ج2 ، ص50

(3) هايد، تاريخ، ج4، ص185-186. الطراونة ، مملكة ، ص171-172. قاسم ، عصر السلاطين ، ص322.

(4) هم الحياك الذين يصنعون الملابس، ينظر، ابن تغري، النجوم، ج15، ص38.

(5) ابن كثير ، البداية، ج13، ص335. السخاوي، الضوء، ج5، ص278. قاسم، عصر السلاطين، ص323، ص324

(6) العليمي ، ج2، ص211-212

وكانت تعتمد صناعة المنسوجات على الكتان الذي ينمو في جبال الجليل أو على الكتان الذي يرد من مصر إلى بلاد الشام مما أدى إلى نشاط صناعة المنسوجات في العهد المملوكي في فلسطين، وبسبب هجرة أعداد كبيرة من اليهود أثر سقوط غرناطة في أيدي المسيحيين من أسبانيا سنة 897هـ/1492م⁽¹⁾، وكان اليهود متمرسين في صناعة الأقمشة و المنسوجات، و مما يؤكد ذلك أن الرحالة بنيامين التطيلي عندما زار بيت المقدس وجد جماعة من اليهود في القدس يعملون في معمل للصبغة يستأجرونه من ملك القدس⁽²⁾، وهذا يدل على أن اليهود مارسوا هذه الصنعة زمن الفرنج ويشير إلى براعتهم فيها.

وكان للوباء دوره في التأثير على الصناعات وخاصة الأقمشة، فقد أورد المقرئزي في حوادث سنة 749هـ/1348م ما يشير إلى ذلك بقوله: "تعطلت أكثر الصنائع وعمل كثير من أرباب الصنائع في أشغال الموتى وتعدى كثير منهم للنداء على الأمتعة وانحط سعر القماش ونحوه حتى بيع بخمس ثمنه وأقل ولم يجد من يشتريه"⁽³⁾، ويبدو أن هذه الصناعة كانت منتشرة في الأرياف أكثر من المدن، وكانت النساء يقمن بمثل هذا العمل فقد كان في بدايته عملاً يدوياً بسيطاً⁽⁴⁾، ومن الذين مارسوا مهنة الحياكة الشاعر الغزي ابن زقاعة — الذي ولد في غزة سنة 724هـ/1323م وتوفى سنة 816هـ/1413م منذ نعومة أظفاره⁽⁵⁾، وما سبق يؤكد أن هذه المهنة كانت موجودة في غزة في العهد المملوكي .

كما اهتم السلاطين المماليك بالصناعات العسكرية وخاصة صناعة السفن وغيرها من الآلات، ومما شجع هذه الصناعة وجود الغابات الغنية بالأشجار وخاصة في أرسوف و قيسارية، فقد لاحظ الظاهر بيبرس في سنة 663هـ/1264م أثناء رحلات الصيد الأخشاب التي تصلح لصناعة المنجنيقات وأحضرت بصحبته زردخاناه⁽⁶⁾ فأمر بإنشاء عدة منجنيقات و شارك السلطان في صناعتها مع الصناع فتم إنشاء "أربعة منجنيقات كبار سوى الصغار" وصنعوا الكثير من السلاالم و أرسل في طلب الصناع و الحجارين ثم نزل السلطان بالقرب من عيون الأساور من وادي عارة⁽⁷⁾

(1) المقدسي، التقاسيم، ج1، ص185. الطراونة، مملكة، ص172

(2) رحلة، ص99

(3) السلوك، ج4، ص90

(4) غوانمة، التاريخ، ص113

(5) مخطوط ديوان ابن زقاعة. www.oppc.pna.net/mag/mag3/p13-3.htm.

(6) ومعناها بيت السلاح، و قيل الزردخاناه ومعناها بيت الزرد لما فيها من الدروع الزرد؛ وتشتمل على أنواع السلاح:

من السيوف، والقسي العربية، والنشاب، والرماح، والدروع المتخذة من الزرد المانع، ينظر: القلقشندى، ج4، ص11

(7) تقع إلى الجنوب من حيفا قضاء جنين ويحدها من الشمال قرية كفر قرع، ويقع إلى الشمال الغربي منها تل الأساور، ووادي عار الذي يصل بين مرج بن عامر والسهل الساحلي. الدباغ، بلادنا، ج2، ص8، ص638-639.

وعرعره⁽¹⁾. وفيما يتعلق بصناعة السفن فقد كانت تصنع في فلسطين وخاصة في حيفا، وعندما زارها الرحالة ناصر خسرو أورد ما يؤكد صناعة نوع من أنواع السفن في قوله: " و هناك عمال يصنعون السفن البحرية المسماة بالوجودي"⁽²⁾، وأورد المقرئزي في حوادث سنة 670هـ/1271م نصوصاً تؤكد وجود صناعة السفن العسكرية في فلسطين ووجود دور لصناعاتها، فقد ذكر نزول الظاهر بيبرس لحصار مدينة عكا بعد فصل الربيع بقوله: "ولازم النزول إلى الصناعة في كل يوم حتى تتجز الشواني والسلطان في الصناعة جالس بين الأخشاب والصناع والأمرء يحملون بأنفسهم آلات الشواني"⁽³⁾ وهي تمد فراعهم ماشاهدوه " (4)، وهذا يدل على الاهتمام بالجهاد ضد الفرنج وغيرهم من أعداء الإسلام و يعتبر بداية لإنشاء أسطول في الدولة المملوكية، كما يؤكد غنى فلسطين بالغابات والأخشاب الأمر الذي أدى إلى بروز هذه الصناعة كغيرها من الصناعات وهي محاولة من السلاطين المماليك لتثبيت أركان حكمهم، ويبدو أن قطاعاً كبيراً من السكان عمل في هذه الصناعة وخاصة في عملية قطع الأخشاب ووصل الأمر بأن الأمرء والسلطان أنفسهم قد شاركوا في هذا الجهد. ومن الصناعات التي اشتهرت بها مدن الأغوار وبيت جبريل معدن الكبريت الذي تم استخدامه لإغراض عسكرية في صناعة النفط الذي يستخدم في المعارك، وكانت تستخرج من بحيرة طبرية مادة الحمر⁽⁵⁾ الذي سبق الحديث عنها عندما ذكرنا تسميد الأرض فالبعض ذكر أنها مادة (الإسفلت) التي تستخدم في صناعة قوارير النفط المحرقة التي قذفت بها الأعداء⁽⁶⁾.

و من المرجح أنه تم خلط مادة الكبريت التي كانت تستخرج من نفس المنطقة بمادة الحمر (الإسفلت) حتى يزيد من اشتعالها، وربما لأنّ مادة الحمر كانت مادة ملتصقة تساعد في حرق سفن العدو، وكثرت صناعة الأحجار في فلسطين ووجد فيها المحاجر و الكثير من مواد البناء، وخاصة الطين الذي يوضع على أسطح المنازل، ومما ساعد على نشاط هذه الصناعة وجود الجبال التي توفرت فيها كل مواد البناء، و يبدو أنهم صنعوا مادة من الجبال قريبة من الأسمنت الذي يصنع في

(1) المقرئزي ، السلوك ج2 ، ص18 ، ص19

(2) سفرنامه ، ج1 ، ص53

(3) سفن حربية تستخدم في الأسطول، ينظر: العليمي، الأئس، ج1، ص361.

(4) المقرئزي ، السلوك ، ج2 ، ص75 ، ص77

(5) يلاحظ من استخدام هذه المادة أنها احد المواد الكيماوية أو الأملاح المعدنية التي تستخدم في الأسلحة أو التسميد، ينظر: أبو الفداء، تقويم، ص338.

(6) المقدسي، التقاسيم، ج1، ص167. أبو الفداء، تقويم، ص337. غوانمة، التاريخ، ص115

هذه الأيام، وما يؤكد ذلك ما ذكره المقدسي وفيها جبال حمر تسمى السمقة⁽¹⁾، وهو تراب رخو وجبال بيض تسمى الحواره أدنى صلابة يبيض به السقوف ببيت جبريل " (2) .

يشير هذا النص وجود صناعة الرخام التي تزين بها البيوت، ونوع آخر و هو الطلاء الذي يبيض به السقف. ومما يؤكد لنا تقدم هذه الصناعة ما قام به السلاطين المماليك من نهضة عمرانية لبناء المؤسسات الاجتماعية والمدنية في المدن الفلسطينية، مثل: الخانات والفنادق والمدارس والجوامع والبيمارستان و قنوات المياه و بناء القلاع للأغراض العسكرية وغيرها من المؤسسات .

فقد بدأ هذا النشاط العمراني بشكل واضح منذ أن سيطر المماليك على سدة الحكم ووقعت فلسطين تحت سيطرتهم فقد قام نائب الشام الأمير تنكز ببناء العديد من المؤسسات في القدس، مثل: الربط و قنوات المياه و الحمامات وقيسارية وبيمارستان⁽³⁾، ومن النشاطات العمرانية التي تؤكد تقدم صناعة البناء وقطع الحجارة من الجبال ما ذكره صاحب النجوم من إصلاحات في مدينة القدس على يد السلطان الظاهر بيبرس وفي مدينة الخليل حيث قام ببناء القبة في الخليل وأصلح أبواب الحرم و بيضه و زاد في راتبه و بني في القدس ما تهدم من قبة الصخرة و قبة السلسلة وزخرفها و بنى خانا للسبيل⁽⁴⁾.

ووجود معدن الحديد أدى إلى ظهور العديد من الصناعات، مثل: صناعة السيوف و صناعة الأقواس التي اشتهرت به مدينة زغر⁽⁵⁾، والسهام واشتهرت به قرية عمّا⁽⁶⁾ بغور أبي عبيدة كما اشتهرت بصناعة نوع من النبال يتميز بقوته وصلابته، ويبدو أنهم كانوا يطلون الحديد الذي صنع منه السلاح بمادة صمغ مصنوعة من الصنوبر و الخشب و الزفت⁽⁷⁾، ومما يؤكد وجود مثل هذه المعادن في الشام المرسوم الذي صدر في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سنة 702هـ/1302م بإعفاء مدينة

(1) هو نوع من أنواع التراب الذي يستخدم في طلاء الجدران والسقوف داخل المنازل وخارجها، ينظر المقدسي، التقاسيم، ج1، ص167

(2) أحسن التقاسيم، ج1، ص167

(3) الصفدي، الوافي، ج10، ص262. الكتبي، فوات، ج1، ص263. النعيمي، الدارس، ج1، ص93

(4) ابن تغري، ج7، ص194. الكتبي، فوات، ج10، ص213

(5) وهي بحيرة زغر ويقال لها المقلوبة أيضا وهي غربي الأردن قرب أريحا وهي بحيرة ملعونة لا ينتفع بها في شيء ولا يتولد فيها حيوان ورائحتها في غاية النتن وقد تهيج في بعض الأعوام فيهلك كل ما يقاربها من الحيوان الإنسي وغيره حتى تخلو القرى المجاورة لها، ينظر: الحموي معجم، ج1، ص352

(6) عمّا قرية بالأردن بها قبر أبي عبيد بن الجراح رضي الله عنه ويقال هو بطبرية وبها يعمل النبل الفائقة وهي في وسط الغور اثنا عشر فرسخا ومنها إلى مدينة طبرية اثنا عشر فرسخا، ينظر: الحموي معجم، ج1، ص153.

(7) الحموي، معجم، ج1، ص153. المقدسي، التقاسيم، ج1، ص167. غوانمة، التاريخ، ص115—117. عدوان التاريخ،

دمشق من الضرائب المتأخرة عليهم حيث ذكر " ومن الفولاذ ستمائة وثمانية أرطال، ومن الزيت ألفان وثلاثمائة رطل، ومن حب الرمان ألف وستمائة رطل"، إلا أن كميات الحديد التي كانت تنتج في بلاد الشام لم تصدر بسبب حاجات الممالك لها؛ لاستخدامها في الأسلحة وفي مواد البناء، ومن الصعب تحديد الكميات التي كانت تستخرج في بلاد الشام من الحديد⁽¹⁾، ومن المعادن التي استخرجت وشكلت جزءاً من المنتجات المملوكية النحاس، وكان يستخرج من وادي عربة جنوب البحر الميت، ومما يشير إلي الاهتمام باستخراج المعادن كثرة ما عثر عليه في مدن الأغوار نتيجة الأبحاث الأثرية من وجود أفران ومسالك لصهر هذه المعادن⁽²⁾.

و تعتبر الصناعات الزجاجية من أهم الصناعات التي وجدت في العصور الوسطى، وفي مدينة صور التي اشتهر زجاجها في أوروبا، وكان لليهود خبرة في هذه الصناعة حيث صورة مريم العذراء على الأواني الزجاجية مثل الأكواب وغيرها من الأواني⁽³⁾، وما يؤكد وجود هذه الصناعة في فلسطين خلال الحقبة المملوكية وجود حارة الزجاجيين⁽⁴⁾؛ ويشير لتطور هذه الصناعة كثرة المشكاوات الباقية من العصر المملوكي المدهونة باللون الأحمر و الأزرق والأخضر والأبيض و فيها الكثير من الكتابات و آيات القرآن و حول هذه الكتابات توجد الزخارف من أشكال نباتية و أشكال هندسية⁽⁵⁾، وإلى جانب صناعة الزجاج وجدت المشغولات الذهبية وصناعة السلال من سعف النخيل⁽⁶⁾ وصناعة القيشاني يقال: إنها كانت من ضمن صادرات الفرنج والبعض يقول: إنها كانت من ضمن وارداتها⁽⁷⁾.

ومن الصناعات الجديرة بالذكر صناعة الورق في مدينة نابلس⁽⁸⁾، وأطلق عليه الورق الشامي الذي ينسب إلى بلاد الشام⁽⁹⁾. وقد أشار ابن بطوطة لوجود هذه الصناعة في بلاد الشام عندما زار دمشق فقال: " من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد⁽¹⁰⁾

(1) القلقشندى، صبح، ج13، ص30. براور ، الاستيطان ، ص471

(2) غوانمة ، التاريخ ، ص122

(3) براور ، الاستيطان ، ص47 . سالم ، دراسات ، ص413

(4) العلمي ، الأنس ، ج2 ، ص78 ، ص79

(5) wiet: lampes en veers emaille. Pp. 67-100 نقلا عن عاشور، العصر ، ص401

(6) هايد، تاريخ، ج4، ص187-188. علي، القدس ، ص199-200

(7) براور ، الاستيطان ، ص470

(8) غوانمة ، نيابة ، ص59

(9) سحر، السيد عبد العزيز سالم : دراسات ، ص413

(10) المقصود بالكاغد الورق الأسمر غير المسطر ثم أطلق على كل الورق ومن يصنعه أو يبيعه، ينظر ابن

منظور، لسان، ج1، ص15. دهمان، معجم، ص128

والأفلام"⁽¹⁾ أما فيما يتعلق بالصناعات الفنية فكان لفلسطين دور بارز في نشاط هذه الصناعة خلال الفترة المملوكية التي تتمثل في فن الحفر على الخشب والصياغة والتكفيت – يعني تطعيم المعدن بمادة ثمينة كتطعيم النحاس بالفضة أو الذهب و تحفر على سطح الأبنية أو الحلية المراد زخرفتها حفرًا عميقاً توضع فيها المادة الثمينة –⁽²⁾، وصناعة التحف الخزفية، وقد أشارت الكثير من النصوص على النقوش التي تمت داخل المساجد والقصور والعمارات والخانات إبان العهد المملوكي في فلسطين⁽³⁾.

و كانت هذه الإشارات غير مباشرة و لكنها تدل على الزخرفة التي تمت في المدن ولاسيما المؤسسات، مثل: الخانات و المساجد، فقد ذكر المقدسي في حديثه عن مدينة الرملة " حسنة ليس في الإسلام أبهى من جامعها ... ذات فنادق رشيقة و حمامات أنيقة " ⁽⁴⁾ وقد أكد تطور الصناعات الفنية بشكل أكثر، الرحالة ناصر خسرو وخاصة زخرفة البيوت عندما زار فلسطين في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) في حديثه عن تزيين البيوت "،وقد زينت معظم السرايات والبيوت بالرخام المنقوش الكثير الزينة حيث ويقطع الرخام بمنشار لا أسنان له...و يعملون المنشار على أعمدة الرخام بالطول لا بالعرض فيخرجون منه ألواحاً كألواح الخشب " وقال: ورأيت هناك أنواعاً وألواناً من الرخام من الملمع والأخضر والأحمر والأسود والأبيض ومن كل لون ⁽⁵⁾ فهذا وصف تفصيلي عن الصناعات الفنية و الزخرفية التي وجدت خلال فترة العصور الوسطى و صناعة الصياغة وجدت في فلسطين خلال العصور الوسطى، و مما يؤكد هذا القول حديث الرحالة ناصر خسرو عندما زار حيفا وجد في طريقه الكثير من الرمل الذي يستخدمه صياغ العجم ⁽⁶⁾ وكانت الزخارف تحفر على الخشب بأشكال مختلفة منها هندسية نجمية ذات تراكيب متداخلة و أشكالاً هندسية شطرنجية داخل نجوم مثمثة الرؤوس وأشكالاً مستطيلة بداخلها مثلثات تصغر كلما انتهت إلى المركز و هو نفس الطراز الزخرفي الذي شاع استعماله في مصر و الشام في تزيين التحف الخشبية والنحاسية و سقائف البيوت في العصر المملوكي. وخاصة على خشب الزيتون حيث كانت تصنع أشكال متنوعة، وكانوا يصنعون الكثير من أدوات الكتابة ولعب الأطفال وأدوات الزينة والهدايا ذات

(1) رحلة، ج 1 ص 107

(2) خسرو، سفرنامه، ج 1، ص 58. غوانمة، التاريخ، ص 118. سحر، دراسات، ص 413. عاشور، العصر، ص 406

(3) خسرو، سفرنامه، ج 1، ص 58. المكي، سمط، ج 4، ص 95. غوانمة، التاريخ، ص 117، 120. سحر، دراسات، ص 413.

(4) التقاسيم، ج 1، ص 151

(5) سفرنامه، ج 1، ص 54، ص 55

(6) خسرو، سفرنامه، ج 1، ص 53

الرموز الدينية⁽¹⁾، و تمثل قلعة برقوق في خان يونس والجامع الكبير في غزة رمزاً من رموز الزخرفة و النشاط العمراني المملوكي في فلسطين والتي ما تزال موجودة إلى الآن .

و لم تقتصر عملية الزخرفة على المعادن والعمائر فقط و إنما شملت الخزف والمنسوجات والتحف المعدنية والزجاج والبلور، هذا فضلاً عن أغلفة الكتب وقد بلغت هذه الصناعة شأنًا كبيراً في مصر والشام على حد سواء، ويدل على ذلك كثرة الأواني التي لدينا والتي تمتاز برسوم الحيوانات والطيور والرسوم النباتية والأشكال الهندسية سابقة الذكر، أما زخرفة النسيج فكانت أكثر روعة، وهذا ما أكده وجود قطع محفوظة بدار الآثار العربية التي ترجع للعصر المملوكي⁽²⁾، ومن الصناعات التي كان لها دور في الحياة الاجتماعية صناعة الشمع الذي كان يصنع بكميات كبيرة؛ لأنه مرغوب لدى الأجانب في فترة الأعياد، وعند زيارة الحجاج المسيحيين؛ لأنه يوقد كثير من الشموع داخل كنيسة القيامة في الأعياد المسيحية المختلفة، وكانت تحمل الشموع تبركاً بأنها صنعت في بيت المقدس أو لاشغالها في كنائسهم في الغرب الأوروبي عقب عودتهم⁽³⁾، وعرفت فلسطين وخاصة مدينة القدس في عصر المماليك صناعة المشغولات الفضية التي يقول عنها ابن شاهين: " القدس مدينة شريفة عظيمة يعمل فيها فضة مينا تجلب منها إلى سائر البلاد و أوصافها كثيرة و فضائلها جمة و هذا على وجه الاختصار " (4).

وقد أثبتت المعلومات السابقة أنه انتشرت مجموعة كبيرة من الصناعات والحرف المختلفة في فلسطين، وكان لمكانة فلسطين الدينية دور كبير في ظهور العديد من هذه الحرف التي تستخدم هذا الجانب، كما أكدت على تقدم وتطور المجتمع في العهد المملوكي، وكان للنظام الإقطاعي الذي انتشر في العهد المملوكي دور سلبي وإيجابي في التأثير على بعض الصناعات كما أوضحنا عند الحديث عن صناعة السكر واحتكار السلاطين لها. وبعض الصناعات ارتبطت بالحرفة العمرانية التي قام بها السلاطين المماليك في المدن الفلسطينية مما أدى إلى نشاط حرفة البناء، والجوانب الجهادية أدت إلى نشاط الكثير من الصناعات العسكرية في فلسطين، مثل: السفن والشواني والكبريت .

و ربما وجد في المدن الفلسطينية كما في مصر بسبب وجود طائفة كبيرة من العمال والصناع و أصحاب المهن نظام النقابات السائد بين أفراد كل حرفة؛ فأهل الحرفة الواحدة يكونون نقابة لها نظام ثابت يحدد عددهم و معاملتهم فيما بينهم وبين غيرهم من الجمهور، وكان لهم رئيس أو شيخ يرأسهم و يفض مشاكلهم و يرجعون إليه في كل معاملاتهم لاسيما فيما بينهم و بين الحكومة، وقد

(1) فابري، رحلة، ق2، ج466، 522، غوانمة، التاريخ، ص117. عاشور، العصر، ص404. علي، القدس، ص199

(2) عاشور، العصر، ص365-396

(3) فابري، رحلة، ق2، ج38، ص466. علي، القدس، ص199

(4) ابن شاهين، زبد كشف الممالك، ص23. علي، القدس، ص199

وصف الرحالة ناصر خسرو الصناعة في فلسطين و خاصة في بيت المقدس إبان رحلته حيث ذكر: إن "في المدينة صناعاتاً كثيرين لكل جماعة منهم سوق خاص" (1) وهذا يشير إلى نشاط في الحركة الصناعية لدرجة أن كل أصحاب حرفة لهم سوق.

التجارة :

لعب موقع فلسطين الجغرافي دوراً بارزاً في النشاط التجاري بين الشرق و الغرب سواء أكان ذلك في فترة سيطرة الفرنج أو بعد سيطرة الدولة المملوكية على فلسطين بعد معركة عين جالوت/ 659هـ/1260م، ومن مميزات هذا الموقع أنها تطل على البحر المتوسط الذي يربطها مع أوروبا و البحر الأحمر الذي يربطها مع أفريقيا و غيرها من الدول الآسيوية الأخرى التي كانت تشكل مركز التجارة العالمية في العصور الوسطى و هي: الهند و الصين مركز تجارة التوابل .

إن فترة سيطرة الفرنج على فلسطين كانت فترة نشاط تجاري؛ لأنها تعتبر مقدمة لسيطرة المماليك على بلاد الشام، وقد لعب التجار الإيطاليون دوراً بارزاً في هذا النشاط، مثل: تجار (بيزا البندقية، جنوة)، وهو الأمر الذي علق عليه صلاح الدين بقوله: " و من هؤلاء الجيوش البنادقية والبياشنة⁽²⁾ والجنوبية، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضدهم ولا تطفأ شرارة شرهم، و تارة يكونون سفاراً يحتكمون إلى الإسلام في الأموال المجلوبة وتقتصر عنهم يد الأحكام المرهوبة و ما منهم الآن إلا من يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله " (3) .

و مما يؤكد اهتمام سلاطين المماليك بالتجارة في فلسطين وكل بلاد الإسلام أن السلطان المنصور قلاوون عندما وقع هدنة عكا مع الفرنج سنة 682هـ/ 1283م نصت على حماية التجار ومن ذلك " على جميع التجار و السفار والمتردددين في البر والبحر والسهل والجبل و في الليل والنهار أن يكونوا آمنين مطمئنين في حالتهم وورودهم وورودهم على أنفسهم و أموالهم وأولادهم وحریمهم وبضائعهم وغلماهم وأتباعهم ومواشيهم ودوابهم وعلى جميع ما يتعلق بهم وعلى كل ما تحوي أيديهم من سائر الأشياء على اختلافها من الحكام بمملكة عكا" (4) .

وهذا يدل بشكل واضح على اهتمام السلاطين المماليك بالتجارة؛ لأنها تشكل أحد أعمدة اقتصاد الدولة إلى جانب الزراعة والصناعة، ولم يترك هذا البند شيئاً إلا و تطرق له حتى الدواب والمواشي، والسير أصبح آمناً في الليل و النهار وهذه إحدى خطوات تشجيع السلطان قلاوون للتجار

(1) سفرنامه، ج1، ص56. عاشور، المجتمع، ص43

(2) يبدو انه يقصد سكان مدينة بيزا الإيطالية.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص364

(4) المقرئزي، السلوك، ج2، ص167. ينظر الملاحق(8)

لإدراكه أهمية التجارة كأحد مرتكزات الدولة الاقتصادية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن السبب المباشر في فتح مدينة عكا هو اعتداء الفرنج على من عندهم من التجار المسلمين " فقتلهم و أخذوا أموالهم "(1)، ومما يدل على اهتمام السلاطين المماليك الكبير بالتجارة ما قام به الأشرف خليل بن قلاوون حيث قام بعمل عسكري كبير جداً لطرد الفرنج من بلاد الشام نهائياً. وكان لهذا الطرد انعكاس على التجارة الفرنجية في سواحل الشام حيث أصابها شلل تام وذلك بسبب هدم وتخريب الموانئ التي كانت تتم فيها عملية التبادل التجاري خوفاً من عودة الفرنجة إليها مرة أخرى (2)

و لم ينطبق الأمر على مدينة عكا فقط بل دمرت معظم المدن الساحلية في فلسطين، وهذا أيضاً كان له أكبر الأثر على التجارة ليس في فلسطين فقط بل في بلاد الشام بشكل عام، فمدينة عسقلان خربت و قيسارية وأرسوف إلى آخره من المدن التي خربت في الساحل الفلسطيني (3).

و مما يؤكد أهمية فلسطين في التجارة ما ذكره بعض الرحالة عن موانئها التي كانت ترد إليها البضائع و التجار، فقد ذكر أبو الفداء أن " مدينة يافا مدينة صغيرة على الساحل وهي كثيرة الرخاء، وفيها أكثر الأسواق العامرة ووكلاء البحار وميناء كبير ومرسى المراكب الواردة إلى فلسطين و المقلعة منها " (4)، ويبدو أنها بحكم قرب موقعها من الرملة كانت بضائعها تنقل إليها عبر البحر (5)، والمهم في الأمر أن صاحب التقويم لم يذكر مدينة يافا إلى جانب المدن الساحلية الفلسطينية التي خربت مما يؤكد أنها احتفظت بأهميتها الاقتصادية و خاصة في جانب التجارة وقد أكد الرحالة فابري على وجود هذا الميناء ولكنه قدم صورة قاتمة عن هذا الميناء بأن أصابه الدمار والخراب حتى قال: " لا أعتقد بوجود ميناء آخر بهذا السوء في جميع إطار البحر حتى أن السفن الكبيرة التي قدمت اضطرت للوقوف في خارج الميناء حتى يتم قياس الأعماق بسبب وجود الصخور والأماكن الضحلة، وتحدث عن أوضاع الحجاج السيئة وكيف كانوا يتجمعون في أماكن شبيهة بالسجن، وكان يتم توقيف أسمائهم و بعد التأكد من أسم كل حاج كانوا ينقلون الحجاج على الحمير (6).

وبذلك يقدم لنا فابري صورة عن تراجع ميناء يافا في الفترة التي زار فيها أراضي فلسطين في العهد المملوكي، و لكن هذا لا يمنع وصول الحجاج المسيحيين الذين ساعدوا على النشاط التجاري في المجتمع الفلسطيني، فكان السكان هم الذين يستفيدون من هذه الرحلات، فعندما يقوم الحجاج بزيارة

(1) ابن كثير ، البداية ، ج13 ، ص320

(2) ينظر: الفصل الأول من هذه الدراسة ص87. الطراونة ، مملكة ، ص175

(3) أبو الفداء ، تقويم ، ص339

(4) أبو الفداء ، تقويم ، ص339

(5) المصدر نفسه ، ص339

(6) فابري، رحلة ، ق1 ج38 ص350

الأراضي الفلسطينية المقدسة كانوا يشكلون مصدراً من مصادر رزق السكان، حيث يذكر الرحالة فابري " أن أهل القرى كانوا يحملون الحجاج على حميرهم وقد حرص كل واحد من أصحاب الحمير علي جذب الحجاج إلى حميره، فكان كل واحد منهم يجلب سبعة حمير أو ثمانية من نوع واحد حتى بلغ عدد الحمير أكثر من عدد الحجاج حتى إذا كان عدد الحجاج مائتين كان عدد الحمير أربعمائة" (1)

وبهذا لفت فابري النظر لشريحة في المجتمع الفلسطيني أبان هذا العهد و هم سائقو الحمير الذين كان معظمهم من سكان القرى، و كان هؤلاء الحجاج يشكلون مصدراً اقتصادياً هاماً لهذه الشريحة. كما كانت المدن الساحلية في فلسطين تتمتع بأهمية اقتصادية كبيرة جداً ومما أكدته الرحالة الإدريسي سنة 560هـ/1164م وجود المواني في كل من حيفا وعكا حيث ترسوا الأساطيل في هذه المواني على حد قوله (2).

ونستطيع مما تقدم أن نستخلص التأثيرات المباشرة للحروب على التجارة في فلسطين بعد أن دمرت معظم هذه المواني خوفاً من رجوع الفرنج إليها مرة أخرى، فرغم هذا الدمار في المواني إلا أن التجارة لم تتوقف بشكل نهائي بين الغرب و الشرق وخاصة في فلسطين. ومن الجدير ذكره عودة الصلاة التجارية مع الغرب بعد استقرار النظام المملوكي وتحسن العلاقات التجارية مع هؤلاء التجار وخاصة مع المدن الايطالية في مواني الشام، مثل: بيروت و طرابلس و يافا وعكا وصور كما أخذوا يتغلغلون في المدن الداخلية أيضاً، وبلغ هذا النشاط حداً كبيراً في القرن الخامس عشر (3).

و قد أكد ناصر خسرو بأن الحجاج قد لعبوا دوراً كبيراً في الحركة التجارية، وقد زار مدينة القدس في هذه الفترة أكثر من عشرين ألف شخص " و كان يأتي إليها الكثير من النصارى و اليهود بهدف زيارة الكنيس، ويذكر أن بها الكثير من الخيرات الرخيصة" (4) و بالفعل كان لهؤلاء التجار دور في تنشيط التجارة و رواج السلع؛ لأن الحجاج المسيحيين يقدمون بشكل كبير على شراء حاجيات بيت المقدس لما لها من قدسية عندهم، فكانوا يشترون الكثير من الحاجات التذكارية و يصطحبونها معهم إلى الغرب وهذا العدد من الحجاج بحاجة إلى الكثير من الخدمات و السلع وبالتالي كانت له آثار إيجابية على الاقتصاد الفلسطيني .

و يبدو أن ميناء عكا كان ميناءً استراتيجياً واسعاً و كبيراً جداً، و يذكر الرحالة لابروكير الذي زار عكا سنة 835هـ/1432م أن ميناءها كان عميقاً و لطيفاً وحسن السياج، و يذكر انه أقام فيها علاقة

(1) فابري، رحلة، ق1 ج38ص351

(2) نزهه، ج1، ص365

(3) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص195—197. خسرو، سفرنامه، ج1، ص50. ابن جبیر، رحلة، ج1، ص212. ابن

بطوطة، ج1، ص81. فابري، رحلة، ق1 ج38ص122. ضومط، الدولة المملوكية، ص191 — 192

(4) سفرنامه، ج1، ص55

مع تاجر من البندقية يدعى أوبرت فرانك وأن هذا التاجر قدم له إرشادات أفادته في زيارته للناصره (1)، و قدم الرحالة بورشارد الذي زار فلسطين سنة 861 هـ / 1283م زمن السلطان المنصور قلاوون أنها كانت على شكل مثلث مثل الحاجب أو الترس حيث يواجه جانباً منها البحر المتوسط أما جانبها السهل فيواجه المحيط ويبلغ اتساعها أكثر من فرسخين في بعض أجزائه (2).

و من المدن الساحلية التي لها علاقة بالتجارة في فلسطين و لها مواني علي شاطئ البحر مدينة غزة، حيث يذكر ابن زقاعة في ديوانه مواني هذه المدينة بقوله :

إن هو يعتقني أقوم من ذي الزاوية

أصلي الصبح فيها والعصر في ميماس

و أمشي على صدور تيدا محاريب النقا

وعسقلان والمشهد نعم وعجز الرأس (3)

و بهذه الأبيات الشعرية استطاع ابن زقاعة إزالة الشك من تعدد أسماء ميناء غزة (تيدون – تيدا – ميماس) (4)، ونلفت النظر هنا إلى أن ابن زقاعة الغزي ولد في غزة في سنة 724 هـ / 1323م و كانت وفاته سنة 816 هـ / 1414م .

و يلاحظ انتشار المواني على امتداد الشاطئ اللبناني الفلسطيني، مثل: صيدا وصور وعكا ويافا، ولكنها كانت أقل أهمية من بيروت وطرابلس بالرغم من أنها كانت تحوى فنادق لإقامة الأجانب (5). ومما يؤكد وجود أكثر من ميناء في غزة ما ذكره الإدريسي بأن مدينة غزة عامرة، ومرسى (ميناء)... غزة تيدا، ومن ميماس إلى عسقلان شرقاً عشرون ميلاً (6) و هذا القول يؤكد بأن غزة فيها أكثر من ميناء بسبب أهمية موقعها على الطريق المؤدي إلى مصر سواء أكان البحري أو البري وتعتبر البوابة للدخول إلى قارة أفريقيا بكاملها، و من هنا تأتي أهميتها التجارية.

(1) La Brocquier, in Wright, Early Travels, p.292,298 نقلاً عن الطراونة، مملكة، ص176، ص177

(2) وصف ، ص39 ، ص40

(3) مخطوطة ديوان ابن زقاعة، منشورة على الانترنت توثيق-13p\mag3\mag\www.oppc.pna.net
3htm

(4) المصدر نفسه

(5) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص195-197. خسرو، سفرنامه، ج1، ص50. ابن جببر، رحلة، ج1، ص212. ابن بطوطة،

رحلة ج1، ص81. فابر، رحلة، ق1 ج38 ص122. ضومط، الدولة المملوكية، ص192

(6) نزهه، ج1، ص356، ص357

ومما يجعلها (أي غزة) هامة تجارياً أيضاً خصوبة أرضها وغناها بجميع أنواع الفواكه من تين وعنب وغيرها⁽¹⁾، وقد أشار بعض الرحالة الذين زاروا فلسطين و مروا من مدينة غزة إلى أهمية هذه المدينة و منهم فابري الذي وصف رحلته عندما نزل هذه المدينة و كيف ساروا حولها لشراء ما يحتاجون و نزلوا في خان أعد للمسافرين⁽²⁾، ووصفها الرحالة اليهودي عوبديا " بأنها بلدة متسعة وجميلة في حجمها حجم القدس " ⁽³⁾ .

وهذا الوصف يؤكد لنا أهمية تلك المنطقة في التجارة، ويرجع السبب في اتساع هذه المدينة إلى أهميتها التجارية والاقتصادية في عهد المماليك وقد تميزت غزة بكثرة موانئها وأسواقها وخاناتها، وهذا ما يؤكد الرحالة فابري حيث ذكر " أن الحوانيت لم تفتح أبوابها يوم الجمعة لما لها من قداسة عند المسلمين " ⁽⁴⁾.

و أشار فابري لبعض المؤسسات الاقتصادية و الاجتماعية التي أقيمت من أجل إقامة الحجاج، ولكن هذا الرحالة أشار إلى شيء في غاية الأهمية فعندما ذهب لشراء الحاجات الخاصة بالسفر وجد الحوانيت والأكشاك وبيوت التجار ومحلات اللحامين مغلقة؛ لأن المماليك يستولون على كل ما يعجبهم " و يأخذونه دون دفع ثمن و ما من إنسان يتجرأ أن يقول لهم لا " ⁽⁵⁾، وهذا يدل على النشاط التجاري و لكن ما اثير على حركة التجارة في بعض الأحيان طبقة المماليك التي اغتصبت بعض السلع من التجار دون مقابل، ولكن المهم في الأمر الإشارة إلى كثرة المؤسسات التي تتعلق بالتجار و أماكن إقامتهم، وفي نفس الوقت شكلت هذه المؤسسات مراكز اجتماعية يتجمع فيها جميع طوائف السكان.

وأما الخان فكان من المؤسسات التي ارتبطت بالأسواق وهو مبنى ضخم يتوسطه فناء على هيئة رواق مغطى حيث يحفظ التجار بضائعهم ويجدون في الخان المأوى لهم ولدوابهم خلال رحلتهم، وحتى القرن الخامس عشر الميلادي تعددت تلك الخانات وكثرت وأصبحت من أهم المؤسسات التجارية الداخلية والخارجية، ويلاحظ اهتمام السلاطين المماليك بالخانات وتزويدها بالمقومات الاجتماعية من فرانات وطواحين ومساجد ويوزع فيه أصناف الطعام والخبز وإصلاح حال النازلين به وأكلهم⁽⁶⁾، وأشار صاحب الأناضول إلى الخانات في مدينة القدس فذكر خان الفحم ويسمى خط داود— وهو عند الشارع الأعظم يبدأ من باب المسجد الأقصى المعروف باب السلسلة إلى باب الحرير وكان

(1) العمري، مسالك، ج3، ص335. أبو الفداء، تقويم، ص339

(2) رحلة، ق4، ج38، ص1236، ص1240

(3) Obadiah, op.cit. p232. نقلاً عن السيد، اليهود، ص19

(4) رحلة، ق4، ج38، ص1250

(5) فابري، رحلة، ق4، ج38، ص1249

(6) العلمي، الأناضول، ج2، ص87. فابري، رحلة، ق4، ج38، ص1233. ينظر: علي، القدس، ص205

يعرف باب الخليل – وخان الصرف ويعرف بسوق العملات المختلفة التي ترد مع الحجاج المسيحيين من أنحاء الغرب وكذلك مع الدول المحيطة ببلاد الشام و يقع عند التقاء شارع داود بشارع باب المحراب وكان يطلق عليه أيضاً شارع المعبد (1).

و كانت هذه المؤسسات المتعلقة بالتجارة منتشرة في أغلب المدن الفلسطينية و بدأ بناؤها منذ بداية سيطرة المماليك على فلسطين بعد معركة عين جالوت سنة 659هـ / 1260م و خير دليل على ذلك ما قام به علم الدين الجاولي من تعمير الخان "للسبيل بغزة و بنى خاناً عظيماً في قاقون" إلى جانب الكثير من المؤسسات التجارية (2).

و بنى الأمير طاجار خاناً سنة 679هـ / 1280م في جنين وبنى فيه حوضاً للسبيل وأنشأ به حماماً و عدة حوانيت و يباع فيه ما يحتاج إليه المسافرون و كثر النفع به (3)، ووجد في بيت المقدس خان عظيم يعرف بخط الوكالة و كان موقوفاً على المسجد الأقصى و كان يؤجر في السنة بـ 400 دينار " و يباع فيه أصناف البضائع " (4).

ويتضح من الأحداث التي ذكرها المقرئزي سنة 749هـ/1348م على الوباء الذي شمل المدن الفلسطينية وخاصة أهل الغور وسواحل عكا و صدد وبلاد القدس و نابلس و الكرك و جنين و لد و الرملة بها الكثير من الخانات التي انتشرت فيها جثث الموتى و كثير من الحوانيت و الأسواق (5)، و من السلاطين الذين اهتموا ببناء الخانات السلطان الظاهر بيبرس الذي بنى الخان سنة 661هـ/1262م في بيت المقدس، و يبدو أن هذا الخان كان كبيراً جداً لما ذكر من انه خان هائل، نقل به باب قصر الخلفاء الفاطميين من مصر، و بنى في داخله طاحون وفرن (6).

وقد لعبت الحوانيت دوراً في تنشيط التجارة الداخلية وخاصة تلك التي انتشرت على الطريق الرئيس التي أعدت للتجار و المسافرين بين دمشق و القاهرة، و قد وجدت هذه الخانات عند جسر يعقوب عند المدخل الشمالي الشرقي للمملكة الصفدية و في جب يوسف الأعلى (7) إلى الشمال من صفد، و في قرية المنية على ساحل بحيرة طبرية الشمالي مراكز للتمكيس في كل

(1) العلمي، الأنس، ج 2 ص 52 – 53

(2) الصفدي، الوافي، ج 15، ص 293

(3) المقرئزي، السلوك، ج 3، ص 277. الصفدي، الوافي، ج 16، ص 218

(4) العلمي، الأنس، ج 2، ص 52. الدباغ، بلادنا، ج 3، ق 2، ص 35

(5) السلوك، ج 4، ص 82، ص 83.

(6) ابن كثير، البداية، ج 13، ص 275، 276. الصفدي، الوافي، 10، ص 213، ص 214. ابن تغري، النجوم، ج 7، ص 193

(7) يقع في سنجل بليدة من نواحي فلسطين، ينظر: الحموي، معجم، ج 3، ص 264.

من عكا وصور والشقيف⁽¹⁾، وفي أيام الظاهر برقوق أقيم خان يونس وأوقف عليه قريتي " حميل الخليل " من أعمال غزة - " و دير سينا " من أعمال نابلس⁽²⁾.

والجدير بالذكر أيضاً أن السلطان قانصوه الغوري أنشأ في سنة 914هـ/1508م عدة خانات على طرق الحجاج بين مصر والشام ومنها خان في العقبة لراحة الحجاج⁽³⁾.

وقد استمر اهتمام المماليك بهذه المؤسسات و الوكالات التجارية إلى آخر دولتهم، ومن المؤسسات التجارية التي كان لها تأثير على الحياة الاقتصادية والاجتماعية العامة القيسارية والتي انتشرت في المدن الفلسطينية خلال العهد المملوكي وقامت بدور تجاري، فعندما ذكر الصفي أعمال الأمير تتكز في الشام و مصر في مجموعة من المدن الفلسطينية التي بنيت فيها المؤسسات التجارية، مثل: صفد والقدس و نابلس و الرملة و جلجولية حيث عمّر قياسية وخانات في كل من جلجولية و الرملة⁽⁴⁾، وكانت القيسارية غنية جداً بالبضائع التجارية و فيها دار الطعم (وكالة الأجانب)، وفيها المصابغ والفرارين ومسلخ المعز والضأن، وكانت القياسر بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية في البيع والشراء تقوم مقام الخانات، فكان ينزلها التجار ويخزنون بضائعهم فيها، والقياسر من المنشآت التي يبنيتها الأمراء المماليك للكسب واستثمار الأموال أو لتدفق على أعمال الخير مثل قيسارية الأمير سيف الدين بكتمر وقيسارية الأمير تتكز نائب دمشق التي أوقفها على البيمارستان في صفد، وكانت هذه القياسر في العادة مسقوفة وتعلوها الرباع يستأجرها التجار أو العامة، وكما كانت تضم مصانعاً صغيرة كما وكانت مكاناً تعرض فيه السلع للبيع بالجملة،

وكان للقياسر مداخل خاصة تقفل ليلاً و يوضع فيها حارس لحفظ ما بداخل القيسارية من بضائع و سلع⁽⁵⁾، ومن المنشآت التي تتعلق بالتجارة وطبقة التجار الفنادق، ومدينة الرملة غنية بها⁽⁶⁾ وقد أكدت المصادر أن هذه الفنادق أعدت لاستقبال الغرباء وقبل النزول بها كان كل واحد منهم يأخذ من المحتسب خاتم المطران حجة معه⁽⁷⁾، ويبدو أن المقصود بالغرباء هم الأجانب الذين زاروا فلسطين أو غيرها من بلاد الشام، مما يؤكد أنها لعبت دوراً اجتماعياً كأماكن لنقل الأخبار و بعض العادات.

(1) الصفي، الوافي، ج13، ص288، ج15، ص293، ج16، ص21. ابن تغري، النجوم، ج10، ص197، ج11، ص384. ابن

حجر، الدرر، ج6، ص264. ينظر: الطراونة، مملكة، ص177، ص178

(2) ينظر: الدباغ، بلادنا، ج5، ق2، ص91

(3) ابن العماد، شذرات، ج8، ص1135. الصيرفي، إنباء، ص196-197. الدباغ، بلادنا، ج5، ق2، ص96

(4) الوافي، ج10، ص266

(5) المقرئ، الخطط، ج3، ص144-148. غوانمة، التاريخ، ص83، ص84

(6) المقدسي، التقاسيم، ج1، ص151

(7) الحموي، معجم، ج5، ص6. العلمي، الأنس، ج2، ص87.

ولاسيما أن المماليك كانوا يهتمون ويرحبون بالتجار الأجانب وقد عقدوا معهم المعاهدات التجارية التي كانت تضمن حريتهم وحق إقامتهم كقناصل دائمين لهم في المواني، وهذا دفعهم للحضور إلى الديار المصرية والشامية، ويلاحظ أن المماليك عاملوا الجميع على قدم المساواة ليزيدوا من تنافسهم التجاري⁽¹⁾، ويأتي هذا الاهتمام في سياق عملية التشجيع التجاري لهؤلاء التجار بالقدوم إلى أراضي الدولة المملوكية، وتشكل التجارة مصدراً هاماً بالنسبة للمماليك لدرجة أنها تأتي على رأس الهرم الاقتصادي في الدولة المملوكية .

أما عن الأسبلة فكانت من المنشآت الاجتماعية غير الخاصة بالتجار والمسافرين حيث كان الغرض منها تيسير الحصول على ماء الشرب؛ لذلك اهتم سلاطين المماليك بإنشاء أسبلة للناس في أغلب الأماكن، وكانت الأسبلة تلحق بالمساجد، وتمتعت هذه الأسبلة بأوقاف للإنفاق عليها، وأقيمت أسبلة خاصة بالحيوانات قرب أسوار المدن و خارج تلك الأسوار⁽²⁾، ومن الأمور الجديرة بالذكر في النشاط التجاري وأثاره على السكان العديد من المنتجات الزراعية والصناعية وما تمتعت به الأراضي الفلسطينية بالاستقرار خاصة في فترة الدولة المملوكية الأولى وهي تختلف عن فترة حكم دولة المماليك الجراكسة⁽³⁾ .

وقد لوحظ أن مرحلة الدولة المملوكية البحرية الأولى كانت تتميز بالنشاط العمراني، فقد كثر فيها بناء المؤسسات الدينية و المدنية، مثل: المدارس والزوايا والمساجد والخانقوات والكثير من المؤسسات الخيرية، كالخانات التي أعدت للسبيل والخانات التجارية والفنادق وقد أوقفوا عليها الأوقاف، وبالفعل كان لهذه المؤسسات دورها حيث كانت مورداً من الموارد الاقتصادية الهامة في المدن مما كان له أكبر الأثر على انتعاش الأحوال الاقتصادية، و نتيجة لهذا الرواج الاقتصادي ظهر الكثير من الصناعات واتسعت حركة البناء والإعمار وقطع الأحجار من المحاجر، هذا بالإضافة إلى أن الأحوال الزراعية كانت مشجعة بشكل كبير مما أدى إلى ازدهار التجارة وخاصة تجارة الزيتون وصناعة الصابون والسكر والقطن وغيرها من الحاصلات الزراعية، وكانت حالات انحباس المطر قليلة جداً بخلاف دولة الجراكسة التي كثرت فيها الأزمات الاقتصادية المختلفة الأمر الذي انعكس على التجارة⁽⁴⁾، وهذا ما ساعد الانتعاش الاقتصادي في فلسطين، فقد قدم المقدسي وصفاً للبضائع و الأصناف من المنتجات المختلفة في قوله " و التجارات ... مفيدة يرتفع من فلسطين " الزيت والقطن

(1) المقدسي، التقاسيم، ج1، ص151. الحموي، معجم، ج5، ص6. فابري، رحلة، ق1، ج38، ص4، ج1258324. ضومط، الدولة المملوكية، ص229

(2) الصفي، الوافي، ج10، ص213. العلمي، الأنس، ج2، ص99، 92. ابن حجر، الدرر، ج2، ص317، ص102-103

(3) علي، القدس، ص200

(4) ينظر: الفصل الأول من هذه الدراسة، ص137-141، علي، القدس، ص200

والزبيب والخروب والملاحم والصابون والقوط، ومن مدينة القدس الجبن والزبيب والتفاح وقضم قريش" الذي لا نظير له " والمرايا و قدور القناديل والنيل والتمور من طبرية، والعسل والكاغد والحبال والسكر والخرز والزجاج المخروطة والمعمولات واللوز والرز والدهن و البنفسج⁽¹⁾، وهذا يشير إلى نشاط التجارة الداخلية و الخارجية على حد سواء حيث أن هذه السلع تلقى رواجاً في الأسواق المحلية و العالمية و يدل أيضاً على الاهتمام بمختلف المجالات الاقتصادية من السكان سواء أكانت الزراعة أو الصناعة أو التجارة .

هذا من جانب و من جانب آخر فقد استوردت الكثير من السلع التجارية من الهند و الصين عن طريق تجار القوافل الذين مروا بالبلاد في فترة الممالك وخاصة في منطقة العقبة التي بنيت فيها الخانات لهذا الغرض و أقيمت فيها الأسواق الكبيرة، وكانت البضائع فيها متعددة من خيل و أبل و غنم و دقيق و شعير و علف و أنواع المآكل و المشارب و المحامل و الرحال و السلاح و القماش و الفرش و غيرها و خاصة في موسم الحج، أما السلع الشرقية فكانت التوابل : كالفلفل و البهار و الزنجبيل و جوز الطيب و العطور : كالمسك و العنبر و الكافور و خشب الصندل و القرنفل و الأحجار الكريمة كاللؤلؤ و الألماس و الفيروز و العقيق اليماني و المرجان و الصمغ العربي و الورق و النيلة و الحرير الصيني و الحديد و النحاس و الرصاص و القصدير و الذهب و العاج و كانت هذه القوافل تحمل أثناء عودتها سلع الشرق مثل التحف و المنسوجات المصرية و الدمشقية بأنواعها و التحف المكلفة بالفضة و أحذية السمور و أخشاب الصنوبر و الخيول العربية التي كانت تجد سوقاً رائجاً في الهند و الصين⁽²⁾.

و قد سبق في الحديث عن الصناعة أن معظم هذه المنتجات كانت تصنع في فلسطين، وكان لاهتمام السلاطين المماليك بالطرق التجارية الدور الأكبر في تنشيط التجارة الداخلية و الخارجية و توفير الحراسات للطرق من قبل القبائل البدوية لنشر الأمان فيها.

و بدأ هذا منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس الذي كلف العديد من القبائل درك البلاد و حراسة طرقها لحماية القوافل التجارية من اللصوص و قطاع الطرق، وكان يدفع لهم مبلغاً من المال مقابل هذه الأعمال، وأهم الأعمال التي تولوا منها الحراسة الطريق ما بين مصر و الحجاز إلى حدود غزة⁽³⁾ .

ولم يقتصر أثر الحركة التجارية في أراضي الدولة المملوكية على الناحية الاقتصادية فقط، بل كان لها آثار حضارية و ثقافية، فالطرق التجارية عبارة عن قنوات تُنقل الحضارة من خلالها بين

(1)التقاسيم ، ج1، ص163

(2). فابري، رحلة، ق1، ج38، ص337. ينظر: هايد، تاريخ، ج4، ص85 — 204. الطراونة، مملكة، ص89. ضومط، الدولة ص184، ص185—187

(3)القلقشندي، قلاند، ص65. علي، تاريخ ، ص134

شعوب العالم فقد نقل من خلالها الكثير من الأمور التي تتعلق بالدين، و كان للأسواق دور في معرفة العادات والتقاليد المختلفة، وقد شكلت أراض فلسطين زمن المماليك البوتقة التي اختلطت فيها الشعوب والحضارات لما لها من أهمية دينية عند معظم الديانات المختلفة، حيث كانت بمثابة ملتقى لهذه الحضارات منذ أقدم العصور .

و لا يغيب عن بالنا أهمية طبقة التجار (إحدى أهم الطبقات) التي تشكل المجتمع في العهد المملوكي لما لهم من دور في النشاط التجاري بين الشرق و الغرب مما أدى إلى ثرائهم و جعلهم طبقة ممتازة إلى حد بعيد، و قد أدرك المماليك هذه الحقيقة مما جعل لهم مكانة كبيرة جداً عند سلاطين المماليك فأنعموا عليهم بإمرة طبلخاناه، وتمتع التجار باحترام كبير ومكانة بارزة في جميع المدن⁽¹⁾ حتى أن العلماء في المدن الفلسطينية زمن المماليك عملوا في التجارة إلى جانب العلوم المختلفة وخاصة في الخليل وكانوا يحبون عمل الخير⁽²⁾ وهذا يؤكد بشكل كبير دور التجارة في نشر المعرفة والعلم، وقد كان لطبقة التجار نصيب في هذا الجانب⁽³⁾

وقد كانت مهنة التجارة من المهن المتوارثة عن الآباء فكان التاجر خير إبراهيم العجلوني المقدسي و هو شافعي المذهب قد نزل في القاهرة من أجل التجارة، وكان يتاجر في البر ويمتلك بعض حوانيت القدس وله أخ اسمه حسن يعمل في العطاره و التجارة وكان يجالس مع علماء القدس⁽⁴⁾ وهذا يدل أيضاً على كثرة الحوانيت في بيت المقدس الأمر الذي انعكس على حركة التجارة والنشاط التجاري، وهنا لا بد من ذكر شيء هام وهو ظهور بعض العائلات في المدن التي اشتهرت بالتجارة وعملية التواصل الثقافي بين أقطار المسلمين بمعنى أن الأحوال الاقتصادية انعكست على الجوانب الاجتماعية والثقافية في الوقت نفسه .

و لم يشترك المسلمون فقط في التجارة في العصر المملوكي فقد حوت طبقة التجار أهل الذمة من النصارى و اليهود سواء السكان أو الذين يأتون للحج، و قد أقيمت لهم الأسواق الموسمية في الأعياد والمواسم و التي عادت على الأهالي بالشراء⁽⁵⁾.

ومن أهم وحدات الأوزان التي استخدمت في العهد المملوكي في فلسطين الدرهم هي نفسها التي استخدمت في بلاد الشام بشكل عام ومضاعفاته كالأوقية و الرطل و القنطار، وكان الدرهم يعادل 60

(1)المقريزي، السلوك، ج2، ص38. الفلقشندى، صبح، ج4، ص13. عاشور، المجتمع، ص41 — 42

(2) ابن حجر ، الدور، ج5، ص413 — 414

(3) الاصبهاني ، معجم السفر، ج1، ص11

(4) السخاوي ، الضوء ، ج1، ص11

(5)ابن الأثير، الكامل، ج10، ص158. ابن بطوطة، رحلة، ج1، ص41. فابري، رحلة، ق1، ج1، ص327. غوانمة، نيابة، ص118

حبة شعير و يعادل في النظام المتري 3,898غم و الأوقية تعادل 12 درهماً والرطل يعادل 12 أوقية و يتألف القنطار من 100 رطل (1) .

ومن الجغرافيين الذين ذكروا الأوزان التي استخدمت في المدن الفلسطينية بأسمائها المقدسي، فقد قال: عن أوزان الرملة القفيز والويبة والمكوك و الكيلجة و هي نحو صاع ونصف والمكوك ثلاث كيالج والويبة مكوكان والقفيز أربع وبيات، وأهل القدس (إيليا) يستخدمون المدى وهو ثلثا القفيز وبالقب و هو ربع المدى، وذكر في معرض " رطل عكا " (2) واستخدم رطل عكا في المنطقة منذ السيطرة الفرنجية عليها و هو من الأوزان التي استخدمت في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي و يقدر له هنتس وزناً محتملاً يعادل 2,2كغم (3)، أما الذراع فهو المقياس الذي استخدم في قياس القماش والأرض و الدور تقاس بذراع العمل وهو الذي استخدم في مصر والبلاد الشامية، أما الأراضي الزراعية فكانت تقاس (بالفدان الإسلامي و الفدان الرومي) (4).

و كذلك بـ (القصبه) التي تساوي 7,5 ذراع جديد (5) .ونخلص مما تقدم من أنشطة اقتصادية أن المستوى المعيشي للسكان كان مرتفعاً و خاصة في فترة الدولة المملوكية الأولى (البحرية) والتي كانت شبه خالية من الأزمات التي تؤثر على السكان وحياتهم الاقتصادية و يتضح هذا من كثرة المؤسسات والوكالات التجارية و الاجتماعية التي انتشرت في المدن الفلسطينية خلال العهد المملوكي ومن اهتمام السلاطين بالزراعة و التجارة و الصناعة الذي أدى إلى ارتفاع المستوى، المعيشي وكذلك فترة الاستقرار التي تمتعت بها الدولة المملوكية أثرت على الأوضاع المعيشية للسكان وساهم في زيادة الكثافة السكانية في المدن والقرى .

وقد كان لاهتمام السلاطين المماليك بالحركة العمرانية في مدن فلسطين آثار ايجابية على حياتهم و الأنفاق و الأوقاف،أما في عهد دولة المماليك الجراكسة الثانية فقد كثرت الأزمات التي أثرت على الأوضاع المعيشية للسكان، و كان من أهمها الصراعات الداخلية، مثل: العسكر.والأوبئة التي فتكت بالسكان وأصعب هذه الموجات كان في سنة 749هـ/1348م حيث أباد الوباء أهل الغور و سواحل عكا وصفد والقدس ونابلس والكرك والبدو وسكان الجبال والقرى وجنين والرملة وغزة، وفي

(1) الطراونة، مملكة، ص187. غوانمة، التاريخ — ص95. عطا الله، نيابة، ص104

(2) التقاسيم ، ج1، ص164

(3) الطراونة، مملكة ، ص187

(4) القلقشندي، صبح، ج4، ص240، 243. غوانمة، ص96، 97. الطراونة، مملكة، ص187. غوانمة، نيابة، ص104 — 105

(5) الطراونة، مملكة ، ص188. غوانمة، نيابة، ص97

مدينة غزة صارت الخانات مليئة بجثث الموتى والأسواق، وكذلك شمل المزارعين من أهل الضياع في أوان الحرث و البذر (1).

و يلاحظ من هذا الوصف أن تأثير الوباء الاقتصادي على السكان كان شديد الفتك وقد امتد أثره على أوضاع الناس المعيشية إلى جانب القحط الذي أصاب فلسطين في فترات قريبة من هذا التاريخ، كل هذه العوامل أثرت على أوضاع الناس المختلفة. وكان للموقع الجغرافي دور ايجابي على الأوضاع المعيشية وكذلك اعتدال المناخ و وفرة المياه و خصوبة التربة، والأهمية الدينية لفلسطين تأتي في المقام الأول في التأثير على أوضاع السكان؛ لأن الحج شكّل مصدر رزق للسكان وهو الشيء الذي سبق الحديث عنه.

الأسعار :

بالنسبة للأسعار فقد ذكرت المصادر ارتفاعها و انخفاضها، ولكنها ربطتها ببعض الظواهر الطبيعية، مثل: انحباس الأمطار و موجات الجراد و الحروب و انخفاضها بسبب موجات الوباء التي اجتاحت البلاد أكثر من مرة و الثورات الداخلية، فهذه العوامل مجتمعة هي التي أثرت على الأسعار. وارتفعت الأسعار سنة 656هـ/1257م و بيع مكوك القمح بمائة درهم والشعير بستين درهماً والبطيخة الخضراء بثلاثين درهماً و رطل التمر الهندي بستين درهماً وكان السبب في هذا الغلاء حروب التتار والوباء الذي أنتشر في بلاد الشام (2) و في سنة 659هـ/1260م أصاب الغلاء بلاد الشام وكان هذا الغلاء شديداً جداً لدرجة أن بيعت الغرارة من القمح والشعير بمائتين وخمسين ديناراً أما رطل اللحم فتَمَّ بيعه بستة أو سبعة دنانير وكان السبب في هذا الغلاء اجتياح التتار للمدن في الشام حتى وصلوا إلى نابلس و نهبوا و اتجهوا إلى غزة (3).

و في العام 695هـ / 1296م أنتشر غلاء الأسعار و الأمراض و أقحطت بلاد القدس والساحل ومدن الشام إلى حلب فبلغ سعر القمح كل غرارة مائتين وعشرين درهماً و الشعير بالنصف من ذلك وكل رطل لحم يباع بعشرة دراهم و الفاكهة ارتفع سعرها في هذا العام (4)، ومن شدة القحط الذي أصاب بلاد الشام في هذا العام جفت المياه و كانت الدابة تسقى بدرهم شربة واحدة و يشرب الرجل بربع درهم شربة واحدة و لم يبق عشب (5)، أما عن العامل الذي أدى إلى غلاء الأسعار في هذا العام فهو عامل طبيعي يرتبط بقلة سقوط الأمطار و جفاف الأراضي الزراعية، وكان للأوضاع

(1) المقرئزي ، السلوك ، ج4، ص82، ص83

(2) المقرئزي ، السلوك ، ج1، ص498

(3) ابن كثير، البداية، ج13، ص220—235. المقرئزي، السلوك، ج1، ص538. الذهبي، العبر، ج5، ص242

(4) المقرئزي ، إغاثة ، ص28—29

(5) المقرئزي ، السلوك ، ج2 ، ص268

الداخلية في الدولة المملوكية نصيب في ارتفاع الأسعار، ففي عهد الوزير صاحب فخر الدين الخليلي أشتد الأمر على التجار بسبب رفع أسعار البضائع عليهم، وكثرت الصادرات، وارتفعت الأسعار في كل من نابلس ودمشق وبعلبك والباق و انتشرت الأمراض وزاد الظلم⁽¹⁾، وفي سلطنة العادل كتبغا سنة 696هـ / 1297م وقع قحط في مصر وبلاد الشام وجفت أعين الماء و تأخر المطر في القدس والساحل وجفت عين سلوان الواقعة بالقدس و جفت الآبار وزادت الأسعار فبلغت غراره القمح 22 ديناراً والشعير 60 درهماً والفلو خمسين درهماً ورطل اللحم ثلاثة دراهم والفاكهة أربعة أضعاف ذلك⁽²⁾.

وسلطنة الناصر محمد بن قلاوون كان لها نصيب من موجات الغلاء ففي سنة 700هـ / 1300م وعندما بدأت هجمات غازان على بلاد الشام أمر السلطان القوات المملوكية التوجه إلى غزة وعند وصولهم إلى العوجاء اشتد عليهم سقوط الأمطار الذي استمر 41 يوماً واشتد في هذه الفترة الغلاء حيث بلغ حمل التبن 40 درهماً و العليقة "الشعير" 3 دراهم و كل 3 أرغفة خبز بدرهم و رطل اللحم 3 دراهم⁽³⁾ وبعد بضعة سنوات و في عام 705 هـ / 1305م أجذبت بلاد الشام فخرت منطقة مرج ابن عامر وُصِعتُ الزروع وكان فعلها قليلاً في ذلك العام⁽⁴⁾ وفي سنة 724هـ / 1323م حدث في بلاد الشام قحط شديد صاحبه ارتفاع في الأسعار وبلغت غرارة القمح 200 درهماً أي (20) ديناراً فأمر السلطان أمراءه بنقل الغلات وخاصة القمح من مصر إلى الشام و الغي مكس الغلة بالشام وهو على كل غرارة ثلاثة دراهم⁽⁵⁾

و في سنة 740 هـ / 1339م حدث غلاء في الشام بسبب الصراع بين الناصر أحمد بن قلاوون وأخوه الصالح إسماعيل بن قلاوون حتى أن مقدم المماليك عنبر السحرتي نقل المماليك السلطانية من الخليل بسبب غلاء الأسعار في المدينة و لكن المصادر لم تذكر الأصناف التي شملها الغلاء⁽⁶⁾ وسبب الجراد الذي اجتاح بلاد الشام سنة 742هـ / 1341م غلاء الأسعار؛ لأنه أكل المزروعات⁽⁷⁾ والعام 748هـ / 1347م شهد ارتفاعاً في الأسعار وخاصة القمح من أربعين درهماً

(1) المقرئزي ، إغاثة ، ص32

(2) المقرئزي ، إغاثة ، ص26 ، ص27

(3) المقرئزي السلوك ، ج2، ص266. الطراونة، مملكة ، ص336

(4) المقرئزي السلوك ، ج2، ص391-392. الطراونة ، مملكة ، ص189

(5) ابن كثير، البداية، ج14، ص111. المقرئزي، السلوك ، ج3، ص72. الطراونة، مملكة، ص189

(6) ابن تغري، النجوم، ج10، ص68. ابن العماد، شذرات، ج6، ص137. المكي، سمط، ج4، ص30. العليمي ، الأئس، ج2، ص93. الذهبي،

ذيول العبر، ج6، ص231

(7) المقرئزي ، السلوك ، ج3 ، ص346. الطراونة ، مملكة، ص189

للإردب إلى خمسين وغلاء اللحم ومعظم الأصناف المأكولة و قلت الغلال وكثر الفساد وانتشر قطاع الطرق في القدس ونابلس وكثرة فتن العشير بين بعضهم البعض⁽¹⁾

وعندما قدم الخبر بأن تيمورلنك توجه إلى بلاد الشام ارتفعت الأسعار سنة 790هـ/ 1388م وكان الغلاء شديداً في بلاد الشام و بيعت غرارة القمح في الرملة بثلاثمائة درهم فضة أي 12 دينار و قل الماء في مدينة القدس⁽²⁾ و في أول سنة 797هـ/1394م وجد الغلاء حيث بلغ سعر القمح فبلغ سبعين ثم انحط إلى ستة و ستين درهماً وكان السلطان متوجهاً من الرملة لزيارة القدس في هذه السنة وانتشر فيها الوباء وقل الكسب⁽³⁾،

أما العام 807هـ/1404م ارتفعت فيه الأسعار في غزة و حلب و غيرها من مدن الشام و كان الأمراء قد نزلوا غزة لأخذ ما يحتاجه السلطان في سفره وكانت قد بلغت وبيبة⁽⁴⁾، القمح مائة وعشرون درهماً وكان السلطان يستعد في هذه السنة لحرب تيمورلنك⁽⁵⁾ .

و بعد هذه السنة أي في سنة 809 هـ/1406م ارتفعت أجرة الأرض و قد أكد المقرئزي هذا الارتفاع بقوله: و أما الأجراء و أصحاب الصنائع فإن أجرهم تزايد، فكل من كانت أجرته درهماً لا يأخذ إلا خمسة فما فوقها و كذلك التجار زاد ربحهم في بضائعهم و أما أرباب الاقتطاعات فإنهم جعلوا كل فدان بستة أمثال ما كان⁽⁶⁾

و في سنة 827هـ / 1424م ظهر الفأر في الشام بأعداد كبيرة فبيعت غرارة القمح — 20 ديناراً في ذلك العام⁽⁷⁾ وفي العام 873هـ / 1469م أصيبت بلاد الشام بقحط شديد بلغت خلاله غرارة القمح 20 دينار ثم ارتفعت إلى 36 ديناراً وبلغت غرارة الشعير أكثر من عشرة دنانير وبيع رطل الخبز بخمسة دراهم⁽⁸⁾ .

و كانت أسوأ الفترات في عهد السلطان الظاهر يلبي بسبب زيادة الأجلاب وكثرة الفساد وزيادة قطاع الطرق بين مصر والشام والفتن في الأرياف و تعطلت مصالح الناس ولا سيما الواردين

(1) المقرئزي ، السلوك ، ج4 ، ص55

(2) المقرئزي ، السلوك ، ج5 ، ص205. ابن حجر، إنباء، ج1، ص349. الطراونة ، مملكة ، ص190

(3) المقرئزي ، السلوك ، ج5 ، ص366 ، ص367. ابن حجر، إنباء ، ج1 ، ص468

(4) الويبة تساوي (34)كغ، فالتر هنتسالمكايل والاوزان الاسلامية، ص11.

(5) المقرئزي ، السلوك ج6 ، ص129 . ابن حجر إنباء ، ج2 ، ص296 — 297

(6) المقرئزي ، السلوك ، ج6 ، ص170 . المقرئزي ، إغائنة ن ص40

(7) المقرئزي ، السلوك ، ج7 ، ص96 . الطراونة ، مملكة ، ص190

(8) العليمي ، الأنس، ج2، ص285. الطراونة ، مملكة ، ص190

إلى الأقطار و ارتفعت الأسعار في جميع المأكولات⁽¹⁾، و في سياق الحديث عن غلاء الأسعار فعام 892هـ كان قد فشا الغلاء في معظم الدولة المملوكية و اشتد الأمر في بيت المقدس بسبب احتباس الأمطار ووقوع الجذب و زاد في هذا العام ظلم النائب⁽²⁾، و إضافة إلى الأسباب التي ذكرناها عن ارتفاع الأسعار فأن المقريري يرجع الأسباب إلى عوامل أخرى غير العوامل الطبيعية مثل احتكار الدولة للأقوات ووجود موظفين يتولون مناصب بالرشوة كالمحتسب الذي تقع عليه مسؤولية مراقبة الأسعار و غلاء الأطيان و رواج الفلوس و العملة الرديئة⁽³⁾.

الأسواق:

نشطت في فلسطين خلال عصر السلاطين المماليك مجموعة كبيرة جداً من الأسواق المتخصصة، و كل سوق منها سمي باسم الحرفة و البضائع التي تباع فيه، و منها ماكان موجود في فترة سابقة على سيطرة المماليك، و منها ما قام المماليك أنفسهم ببنائه، و هذا ما يؤكد الحديث عن المدن في الفصل السابق عندما بدأت حركة العمران و البناء في المدن الفلسطينية، بعد ما تعرضت للهدم و النهب و التخريب الناجم عن حروب الفرنج و التتار و بعض الكوارث الطبيعية التي تعرضت لها البلاد، و كثرة الأسواق مؤشر على النشاط الاقتصادي الذي ظهر في فلسطين بعد الاستقرار الذي تمتعت به خلال سيطرة الدولة المملوكية. و قد تنوعت الأسواق بحيث كانت ثلاثة أنواع: محلية، موسمية، سنوية، فالأسواق الموسمية كانت تقام في فترة ورود التوابل من الشرق الأقصى وارتبطت بهبوب الرياح الموسمية لذلك لم تتغير مواعيد انعقادها من سنة إلى أخرى و كانت السفن الأوروبية تصل إليها في الفترة ذاتها للتزود من السلع الشرقية، أما الأسواق السنوية فكانت تعقد إجمالاً في مناسبات الأعياد الدينية أو عند زيارة الحجاج النصارى، و عندما زاد الطلب في أوروبا على السلع الشرقية و لم يكن توقيت الأعياد الإسلامية ثابتاً لخضوعها للتقويم الهجري، إضافة إلى عدم ملائمتهم توقيت انعقاد الأسواق (لارتباطها بالمناسبات) للأوروبيين بسبب رداءة الطقس و عدم صلاحيته للملاحة، تطورت الأسواق و غدت تعقد فصلية أو نصف سنوية في أوقات شبه محدودة⁽⁴⁾.

(1) ابن تغري، النجوم، ج16، ص370

(2) العليمي، الأنس، ج2، ص337

(3) المقريري، إغاثة، ص38-42

(4) الإدريسي، نزهة، ج1، ص251. فابري، رحلة، ق1، ج38، ص336، ص337. ضومط، الدولة المملوكية، ص212.

براور، الاستيطان، ص487

أما الأسواق المحلية فقد كانت دائمة و كانت تنتشر في أغلب المدن الفلسطينية وخاصة في القدس وغزة و الرملة و نابلس وصفد⁽¹⁾، وتميزت المدن الفلسطينية في العهد المملوكي بكثرة الأسواق فعندما زار ابن بطوطة غزة قال عنها: " كثيرة العمارة حسنة الأسواق "⁽²⁾، ويبدو أن الأسواق في غزة كان لها يوم مخصوص تقام فيه⁽³⁾.

و قد ذكر العمري أن مدينة القدس بها الكثير من العمائر التي بناها قلاوون وانشأ بها الأسواق⁽⁴⁾، ومدينة الرملة غنية بالأسواق، بها الكثير من الخيرات والتجارات الرائجة، ومملوءة بالسلع و البضائع المختلفة لدرجة أن ابن بطوطة وصفها بأنها فلسطين، و ذكر مدينة نابلس وأنها غنية بأشجار الزيتون، وتصنع بها نوع من أنواع الحلوى من الخروب تُصَدَّر إلى دمشق، وعند مروره بمدن الغور ذكر أسواقها الكثيرة و خاصة مدينة عجلون⁽⁵⁾. أما مدينة الرملة التي تراجعت في العصر المملوكي وقل سكانها، مع ذلك فلم تفقد أهميتها التجارية و أسواقها كانت معمورة، فكانت " مقصودة للبيع و الشراء و لا تخلو من بركة في معيشتها "⁽⁶⁾. ووصف لنا الرحالة اليهودي (عوبديا) أسواق القدس بأنها غنية جداً بأصناف البضائع، و بها جميع ضروريات الحياة من اللحم و النبيذ و الزيتون وزيت السمسم بأسعار رخيصة، وكانت أسواقها تعج بعديد من صنوف الفواكه الجيدة و العسل و القمح و الشعير⁽⁷⁾.

ومما يؤكد رخص الأسعار و استقرار الأوضاع في مدينة القدس عودة مجموعة من اليهود الذين تركوها إليها حيث قدر عددهم سنة 900هـ/1495م بـ 200 أسرة⁽⁸⁾ و ذكر المقرئ في حوادث 665هـ/1266م أن الظاهر ببيرس عمر قلعة قاقون بدلاً من قيسارية وأرسوف وحول الكنيسة بها إلى جامع "وسكن هناك جماعة فصارت بلدة عامرة بالأسواق"⁽⁹⁾.

و في سياق الحديث عن الأسواق فقد حرص السلاطين المماليك على بنائها في المناطق المأهولة بالسكان والتي يسكنها الأسرى والأجانب الذين يقومون بالأعمال العمرانية، وثمة حقيقة هامة

(1) الإدريسي، نزهة، ج1، ص251. العلمي، الأنس، ج2، ص68. غوانمة، نيابة، ص59-60. الطراونة، مملكة، ص178. براور، الاستيطان، ص487

(2) رحلة، ج1، ص74

(3) الإدريسي، نزهة، ج1، ص251

(4) مسالك الأبصار، ج3، ص332

(5) الإدريسي، ج1، ص356. ابن بطوطة، ج1، ص80

(6) العلمي، الأنس، ج2، ص69

(7) Obadiah، op.cit. p237-238، نقلاً عن السيد، اليهود، ص128

(8) السيد، اليهود، ص128، ص129

(9) السلوك، ج2، ص43

تتعلق بنظام الأسواق و تخطيطها في عصر المماليك، فقد كان يراعى في الأسواق أن يكون السوق متعدد المنافذ والمسالك من أجل الدخول إلى الأسواق و الخروج منها (1). ومما يؤكد هذا القول ما ذكره صاحب الأُنس عندما عدّد أسواق مدينة القدس مشيراً أن لها " أربعة أسواق متصلة من أربعة أبواب " (2)، وعندما وصف المقدسي مدينة الرملة قال عن أسواقها: أنها تمتد " من الدرب إلى الدرب " أي أنه يقع على طريقين (3) .

و يبدو من تخطيط هذه الأسواق أنها كانت عبارة عن مجموعة من الشوارع الطويلة المتوازية ثقّل بأبواب في مداخلها كما كانت مسقوفة إما بال عقود الحجرية أو الأسقف الأخرى التي تتخللها النوافذ لينفذ منها الضوء، وكانت تلك العقود والأسقف تحمي المارة و أهل السوق من حرارة الشمس والأمطار والتي يستطيع أي شخص أن يستخدمها كمقعد إذا شاء الجلوس، وربما استخدمها الباعة لعرض بضائعهم عليها، كما أن شوارع الأسواق كان لها أسقف من القماش بحيث يسهل تحريكها تبعاً لفصول السنة كما وبعض هذه الأسواق كانت مسقوفة بالألواح خشبية من النخيل، ومن الملاحظ أن تلك الأسقف الخشبية كانت غالباً ما تستبدل بالعقود الحجرية (4)، ويؤكد ما سبق ذكره في حديثه عن سوق الطباخين بالقدس والذي تم ترميمه في سنة 878هـ / 1473م على عهد السلطان الأشرف قايتباي حيث قال: " وكان قبل ذلك يسقف على الحوانيت بالقواصر ويحصل من ذلك مشقة في الشتاء من الوحل و سقوط الماء " (5) .

ومما يشير إلى اهتمام السلاطين المماليك بالأسواق بناء سقوف لها لحماية الناس في الشتاء من سقوط المياه وهذا ما نلاحظه من قول صاحب الأُنس " فحصل الرفق للناس بذلك في زمن الشتاء " (6) .

و قد وصف الرحالة (كازولا) الأسواق بقوله: " ومما أدهشني حقاً مشاهدة تلك الأسواق، عبارة عن شوارع طويلة مسقوفة تمتد إلى مسافات بعيدة، وعلى جانبيها الدكاكين المليئة بالمتاجر والبضائع المختلفة التي يقبل الناس على شرائها، وقد شكلت الدكاكين مراكز للمبادلات التجارية وأعمال البيع والشراء، هذا بالإضافة إلى أنها استُخدمت أيضاً كمحلات للعمل ومراكز الصناعة حيث وجدت فيها مراكز للغزاليين والدباغين والصبغة، ووجد بداخل الأسواق محلات لصابغي الأحذية أو الخياطين

(1) المقرئزي، السلوك، ج2، ص43. العليمي، الأُنس، ج2، ص50-68. قاسم، أسواق، ص17

(2) العليمي، ج2، ص68

(3) التقاسيم، ج1، ص50

(4) العليمي، الأُنس، ج2، ص304. فابري، رحلة، ق4، ج38، ص1251. علي، القدس، ص213-214

(5) العليمي، الأُنس، ج2، ص304

(6) المصدر نفسه، ج2، ص304

الذين يخيطنون الملابس ويبيعونها جاهزة ،هذا بالإضافة إلى الصاغة، وكان الكثير من هؤلاء الصاغة من النصارى المحليين الذين يقومون بعرض ما تم صناعته من مصوغات في محلاتهم⁽¹⁾ .

ووصف الرحالة (فابري) الأسواق في غزة عندما ذهب هو و الحجاج ليتزودوا بما يحتاجونه فوجدها مغلقة يوم الجمعة وذهبا إليها في اليوم التالي فقال: " و ذهبنا معاً خلال الشوارع و الأرقعة و السوق و الحوانيت و اشترينا أشياء كثيرة كنا بحاجة إليها " ⁽²⁾.

و من السلع التي ذكر توفرها في الأسواق الخبز و السلال و الكثير من جرار الخمر والروايا لحمل الماء و قدور الطبخ و أدوات القلي و مناصب و أدوات شوي و أقفاص الدجاج و الطيور و الزجاج و الصحون و الأطباق و الجبن و اللحم الجاف و الزبدة و الزيت و الخل و القمح المجروش الذي تصنع منه الحلوى و البصل و اللوز و نوع من اللحم المملح و الأطعمة المحفوظة المنوعة و أدوية للمرض و الشموع و أحذية و البيض و الشعير " و قال: هكذا زدنا أنفسنا في ذلك اليوم من غزة بجميع الأشياء التي نسينا أن نحصل عليها من القدس " ⁽³⁾،و يضيف هذا الرحالة معلومات تتعلق بأشكال الأسواق والبضائع وأشكال شوارعها، وأشارت لنا كثرة البضائع إلى النشاط الاقتصادي الذي تمتعت به الأسواق في المدن الفلسطينية في العصر المملوكي لدرجة أن الحجاج أخذوا من هذه الأسواق كل ما يحتاجونه في سفرهم .

و قد تميزت الأسواق في العهد المملوكي في المدن و خاصة مدينة القدس بتعدد الأنشطة الاقتصادية حيث كان كل سوق يسمى باسم النشاط الذي يمارس فيه، فعندما ذكر صاحب كتاب الأئس " الأسواق الثلاثة المجاورة بالقرب من باب المحراب المعروف بباب الخليل، وهو من بناء الروم... ومن بعضها إلى بعض منافذ فالأول منها و هو الغربي سوق العطارين وقفه صلاح الدين على مدرسته الصلاحية و الذي يليه هو الأوسط لبيع الخضروات و الذي يليه لجهة الشرق لبيع القماش و هما وقف على مصالح الأقصى الشريف، و قد ذكر المسافرون أنهم لم يروا مثل الأسواق الثلاثة في الترتيب و البناء في بلدة من البلدان " ⁽⁴⁾.

و قد ذكر هذه الأسواق الرحالة اليهودي (عوبديا) أنها أربعة : " طويلة من أجمل ما رأيت وكأنما لم أرَ أبداً بهاء يماثل بهاءها من قبل ... و تضم بضائع من شتى الأنواع، وهي مقسمة إلى

(1) Newwtt: Gasola,s pilgrims p:251 نقلاً عن علي،القدس ص204

(2) رحلة ،ق4،ج38 ص1251

(3)فابري،رحلة،ق4،ج38 ص1251—1252

(4) العلمي ، ج2 ، ص50 .ابن شاهين،زبدة كشف الممالك،ص23

محلات بيع مختلفة حيث الدكاكين الخاصة بالتجار و دكاكين التوابل و أسواق بيع الخضار و في إحدى هذه الأسواق كان الطعام مطهياً و كذلك يباع الخبز " (1).

و بذلك نستطيع أن نكون صورة واضحة عن حياة الناس في الأسواق و عملية البيع و الشراء و أنواع البضائع و أشكال الأسواق و يُلاحظ اهتمام السلاطين بها بشكل كبير لدرجة أنها كانت محل مدح الرحالة و المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة .وتعدد الأسواق لم يكن فقط في مدينة القدس، بل كان أيضاً في غزة و غيرها من المدن الفلسطينية وهو ما أكده ابن بطوطة كما سبق القول، و أكده المقرئ في حوادث سنة 749هـ/1348م عندما تحدث عن الوباء الذي أصاب غزة وأشار إلي كثرة من مات و خلت أسواقها (2) .

و تجدر الإشارة هنا إلي أن مصادر تاريخ الممالك تحفل بأسماء الأسواق الكثيرة و المتخصصة لبيع السلع المختلفة. سواء كانت للمواد الغذائية أو الملابس، و عرفت أيضاً الأسواق التي تخصصت في لوازم الجنود من أسلحة و معدات الركوب، و الأسواق التي تقام من أجل الحجاج و المسافرين مثل سوق المرحلين، إضافة إلى هذه الأسواق و جدت الأسواق التي تباع فيها حاجات الناس في حياتهم اليومية (3) و من هذه الأسواق و التي سميت باسم السلعة التي تباع فيها أسواق مدينة القدس سابقة الذكر، و كانت متخصصة لكل سوق سلعة معينة و الحوانيت على جوانبها الأسواق (4) و من أسواقها أيضاً سوق الحريرية و يعرف بخط عرصة الغلال، و سوق الفحم، و سوق الطباخين و يعرف بخط الوكالة و سوقة باب القطانين و سوق القماش و سوق الخضار و سوق العطارين و سوق الزيت و سوق الفخر نسبة لفخر الدين صاحب المدرسة الفخارية و به المصابين (5).

و من الأسواق الشهيرة في مدينة بيت المقدس سوق السمك حيث كانت الأسماك من أهم السلع التي يستوردها سكان بيت المقدس من قديم الزمان، و كان أهل صور يُصدرون إليها الأسماك و هناك أحد أبواب المدينة يسمى "باب السمك" وهي إلى الشمال من سور المدينة و عندها يقع سوق السمك (6)، و يدل ما ذكره المقدسي عن بحيرة طبرية أنها غنية بالأسماك، و تسير فيها سفن، وهي خفيفة الماء (7)، و قد وصف الرحالة فابري عندما زار مدينة يافا الثروة السمكية في شواطئ فلسطين بقوله: "

(1) Obadiah، op.cit .p236-237، نقلاً عن السيد ، اليهود ، ص120

(2) رحلة ، ج1 ، ص74 . السلوك ، ج4 ، ص82 ، ص83

(3) العلمي ، الأنس ، ج2، ص50 . قاسم ، أسواق ص9 — 13. قاسم، عصر، ص222

(4) العلمي ، الأنس ، ج2 ، ص52 — 54. فابري ، رحلة ، ق4 ، ج38 ص1249. غوانمة ، نيابة ، ص127

(5) العلمي ، الأنس ، ج2 ، ص52 — 54

(6) فابري، رحلة ، ق1، ج38 ص394. علي ، القدس ، ص208

(7) التقاسيم ، ج1 ، ص151

وعندما أشرقت الشمس ... قامت الأسماك بالسباحة على وجه البحر... و قد رأينا هناك أسماكاً رائعة حيث كان بعضها كبيراً و مستديراً مثل مروحة الغربلية و كان لبعضها رؤوس مثل رؤوس الكلاب " (1).

و ذكر الرحالة (فابري) أيضاً فيما يتعلق بالأسواق الموسمية عندما نزل مدينة يافا كيف نزل إليهم بعض المسلمين فقال: قدم إلينا بعض المسلمين و كانوا من الفقراء " قد جمعوا بعض الأعشاب و بعض أغصان الأشجار و باعوها لنا و قد غطينا الأرض المبللة بها وجعلناها فرشاً لنا"، وفي حديثه قال أيضاً: قدم تجار من الرملة و من القدس و دخلوا إلى أماكن إقامتنا و معهم سلع طيبة الرائحة و عملوا أسواقاً هناك و قد جلبوا ماء الورد من دمشق في أوعية زجاجية و كان ثميناً جداً حيث باعوها إلى البنادقة كل قطعة ببنس، و كان مع بعضهم بلسمٌ و مع بعضهم الآخر مسكٌ، و جلب بعضهم صابوناً و بعضهم أحجاراً كريمة و بعضهم شققاً من الموصلين الناصع البياض و قلانس و أشياء أخرى ثمينة (2)، و بهذا الوصف قدم لنا الشكل الصحيح للأسواق الموسمية و أنواع البضائع التي تباع فيها، و كيف كانت تقام بشكل سريع في مكان وجود الحجاج المسيحيين حيث كان التجار يأتون من معظم بلاد الشام و خاصة من دمشق . و ربما كانت تصدر لبقية المدن الفلسطينية الأسماك و خاصة المدن الكبرى منها مثل القدس و صفد و غزة و الرملة و غيرها، إضافة إلى أن سواحل البحر المتوسط غنية بها، و كان يتم استيرادها من مصر حيث عرف المصريون تجفيف السمك و كان من أرخص الأطعمة حيث كان سعره أرخص من القمح، و قد لقي السمك المجفف إقبالاً من الحجاج المسيحيين و الرحالة، و كان لزيادة عدد الزوار للمدن الفلسطينية المقدسة دور في نشاط هذه السلعة و تطور أسواقها (3).

و قد وصفت أيضاً الأسواق الموسمية التي عرفتها المدن في عصر السلاطين المماليك، و هي مرتبطة بقدم الحجاج المسيحيين حيث يكثر وجودهم عند مجيء عيد الفصح و الحج، كما ذكر أنه يوجد أمام الباب الرئيس لكنيسة القيامة فناء كبير يقام فيه سوق موسمي عند قدوم الحجاج المسيحيين تباع فيه الحلوى و المسابح و الصور الخاصة بالقديسين و التحف الشرقية، و كان في سنة 839هـ/1436م يدخل المسيحيون المحليون و بخاصة الروم كنيسة القيامة و يبيعون الأطعمة للحجاج المسيحيين، و كذلك فإن الكثير من المسلمين و المسيحيين يسمح لهم بدخول الكنيسة بعد انتهاء القداس لعرض بضائعهم على هؤلاء الحجاج حيث يبتاعون منهم بعض الهدايا و التحف الشرقية (4) .

(1) فابري، رحلة، ق1، ج38 ص328،

(2) فابري، رحلة، ق1، ج38 ص336-337

(3) علي، القدس، ص208

(4) فابري، رحلة، ق2، ج38 ص462. علي، القدس، ص209. براور، الاستيطان، ص487

و قد وصف الرحالة (فابري) الأسواق وصفاً مفصلاً بقوله: و حيث يكون الحجاج يتجمع حولهم التجار، فلما كنا في كنيسة القيامة جاء التجار من المسيحيين الشرقيين ودخلوا معنا، فلما أقلت الأبواب عمد بعضنا إلى المساومة وقضوا في ذلك شطراً من الليل إن لم يكن الليل كله ... ولم تقتصر مشترياتهم ومساومتهم على المسابح و الحجارة الكريمة ولكن تعدتها إلى القماش الدمشقي والحريير، وعُرف بعض النبلاء الذين كانوا يمتنعون عن المساومة في أسواق بلادهم؛ لأن ذلك دون مستواهم الاجتماعي، لكنهم لم يتحرجوا من المساومة والشراء في مثل هذا المكان المقدس، ولم تكن غاية الجميع أن يشتروا أشياء لأنفسهم، ولكنهم كانوا يفكرون في نقلها إلى بلادهم للتجار بها والربح (1).

و كان يقام في مدينة القدس أسواق موسمية في آخر القرن الحادي عشر الميلادي حيث يقد إليها الكثير من الغرب الأوروبي، كما كانت ترد إليها التجارة من آسيا بواسطة التجار الفرنسيين والإيطاليين حيث يقام سوق سنوي في الخامس عشر من شهر سبتمبر يأتي إليها التجار من بيزا والبندقية وجنوه ومرسيليا؛ ليقوموا بشراء القرنفل وجوز الطيب والتوابل المحلوبة من الهند والقفال والبهار والبخور من عدن، والحريير من الصين، والكتان من مصر والزئبق والمرجان والمعادن والزجاج من صور، واللوز والملابس الثمينة والأسلحة من دمشق، ومن المرجح أن هذه الأسواق استمرت في العهد المملوكي، و كذلك عرفت المدن الأسواق الدورية التي كانت تقام كل أسبوع فيقصدتها أهل الريف والمدينة يبيعون فيها محصولاتهم و يشترون ما يحتاجونه من الغذاء والكساء، ولا تزال هذه الأسواق موجودة إلى اليوم كسوق الجمعة في القدس ويافا والخليل، وكان الكثير من البدو من خارج المدينة يأتون إليها لبيع منتجاتهم و شراء ما يلزمهم من سلع (2).

وذكر أن هذه الأسواق تباع فيها حاجات الناس التي تلزمهم في حياتهم اليومية، وكانوا يشترون منها الصناديق و الخزائن و الأسرة و غيرها من المصنوعات الخشبية التي تستخدم في البيوت، كما وجدت هذه الأسواق في الشام بشكل عام فكان سوق الخشابين (3).

و من المؤكد أن هذه الأسواق كانت تقام في مناطق واسعة حيث تسهل عملية التبادل التجاري فيها بسبب كثرة الناس المتدفقين إليها من الأرياف و سكان البادية، وهذه الأسواق تعكس جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية في المدن الفلسطينية خلال العصر المملوكي وموعدها يظهر عملية النشاط الاقتصادي في مواسم الحج و الأعياد، وربما أخذ السكان يستعدون إليها ويحضرون بضائعهم المختلفة .

(1) فابري، رحلة، ق2، ج38 ص462. علي، القدس، ص209.

(2) ينظر: هايد، تاريخ، ج4، ص117-111-179. علي، القدس، ص210. بر اور، الاستيطان، ص487

(3) الشافعي، تاريخ، ج2، ص295. قاسم، الأسواق، ص12

وذكر ناصر خسرو عندما وصف مدينة القدس أن بها الكثير من الصنّاع، لكل جماعة منهم سوق خاص⁽¹⁾، وهو ما يؤكد كثرة هذه المؤسسات والنشاط الاقتصادي والصناعي في المدن في فترة العصور الوسطى. وأغنى المدن الفلسطينية في الأسواق مدينة الرملة، ومن الأسواق المتخصصة التي وجدت فيها سوق القماحين ويظهر من اسمه أنه متخصص في بيع الحبوب وخاصة القمح، وسوق البصاليين وهو متصل بسوق القماحين، وسوق القطنين لبيع القطن وسوق المشاطين لبيع الكتان و سوق العطارين و يتصل بالمسجد الجامع و يتصل به سوق الحبابين من باب يازور، وسوق الخرازين ثم البقالين إلى المسجد الجامع ويتصل بأحد أبوابه سوق الصياقلة ثم سوق السراجين، وكان بها أربعة آلاف ضيعة وقد هدم قلعتها السلطان صلاح الدين الأيوبي و من السلاطين المماليك الذين اهتموا بها و بنوا فيها مؤسسات اقتصادية واجتماعية الظاهر ببيرس والسلطان الناصر محمد بن قلاوون⁽²⁾ .

و يشير هذا العدد من الأسواق إلى كثافة السكان المتنامية في المدن الفلسطينية وإلي عدد الرحالة و التجار الذين يأتون إلى هذه المدن أما للتجارة أو للزيارة الدينية أو العلاجية ومن يأتون إلى المدن الفلسطينية لتوفر العيون المائية المعدنية، فيها كما نلاحظ اهتمام السلاطين المماليك بالمؤسسات التي تتعلق بالحياة العامة و تعتبر جزءاً من الأسواق مثل: الخانات و القياسر و الفنادق و يلاحظ أن أبناء كل طائفة من الحرفيين كانوا يسكنون حارة أو حيّاً يعرف باسمهم، كما نلاحظ المجموعة الكبيرة من الحارات التي انتشرت في المدن و الأزقة حيث وجدت الأسواق في داخل هذه الحارات، في القدس و غزة و الرملة و مدينة صفد، ومن هذه الحارات حارة النصارى و حارة الرحبة و حارة الجواققة و بها خط وادي الطواحين، و حارة باب القطنين وهو مكان يتجمع فيه التجار الذين يبيعون القطن و حارة باب الحديد و الكثير من الحارات التي سميت بأسماء الطوائف الحرفية فيها⁽³⁾ .

و الواقع أن ما تقدم من حديث يعكس جانبا مهما وهو الأسواق المتخصصة لدرجة أن هذه الحارات كانت مقسمة بين الطوائف الحرفية بشكل منتظم .

أما الطيور والدواجن فكان لها أسواق خاصة بها تسمى " سوق الدجاجين "، و فيه كميات كبيرة من الدجاج والأوز، وتباع فيه طيور الزينة، و هذا ما يؤكد حديث الرحالة فابري عندما دخل أسواق مدينة غزة و تزود هو ومن معه من الحجاج ببعض الحاجات من بينها الطيور وخاصة الدجاج وهو ما سبق ذكره⁽⁴⁾ . وكان سوق الدجاج يمثل القسم الأهم من أقسام السوق، وبياع فيه جميع أنواع الطيور والبيض و الجبن، ومن زار فلسطين من الرحالة خلال العهد المملوكي تطرق إلى الحديث عن

(1) سفرنامه، ج1، ص56

(2) العلمي، الإنس، ج2، ص68. غوانمة، نيابة، ص61

(3) العلمي، الإنس، ج2، ص53-54. قاسم، الأسواق، ص222. غوانمة، نيابة، ص127. الطراونة، مملكة، ص170-177

(4) فابري، رحلة، ج38، ص1251. قاسم، عصر، ص223

الدجاج الذي كان يشكل أهم المأكولات عند المواطنين في الأراضي المقدسة، و كانوا يصنعون المخللات لأكلها مع الدجاج (1)، وقد سبق الحديث عن أسواق الخضر و تجدر الإشارة إلى وجود أسواق الفواكه التي كانت تصدر إلى مصر بسبب كثرتها، ومدينة الخليل انتشرت فيها القرى الغنية بالكروم والعنب والتفاح من كل جانب (2) .

وقد أشار المقرئزي في حوادث سنة 823هـ/1419م وجود سوق للجزارين في غزة، كانت تذب فيه الذبائح و خاصة الجمال (3). وتعتبر هذه الأسواق إحدى أهم أسواق المواد الغذائية المنتشرة في المدن و لاسيما أن الرحالة تطرقوا لوجود المواشي و خاصة الأبقار والأغنام والماعز (4) .

وإلى جانب هذه الأسواق سابقة الذكر فقد عُرف الباعة الجائلين الذين كان أكثرهم يفتشون الأرض في الأسواق ببضائعهم على حين كان بعضهم الآخر يتجولون بما يحملون من سلع وبضائع في سواريح المدن و حاراتها، و كان الباعة الجائلون يبيعون مختلف البضائع من المأكولات والمشروبات و الفواكه و الخضروات بالإضافة إلى الحلوي و تصفهم المراجع بأنهم كانوا يجلسون خلف أكوام القرنبيط والليمون والبصل والبرتقال والفواكه الأخرى على أمل أن يحضر إليهم الزبائن للشراء، وفي مكان آخر تجد باعة الخبز يعرضون الخبز طازجاً وساخنًا على ألواح خشبية كبيرة مرتفعة عن سطح الأرض، وكذلك تشاهدون السفائين يحملون قراب الماء إلى المنازل بحيث يقومون بنقريغ ما معهم من مياه في أنية خاصة، و أحياناً يصبون الماء من خلال فتحة في حائط المبنى؛ لأنه جرت العادة أن يُسمح لهم بدخول المنازل و رؤية من بها من النساء (5) .

و كانت الأسواق تشكل مراكز إعلامية يتم فيها تناقل الأخبار و المعلومات و تبادل الحديث وخاصة التي تتعلق بالحياة اليومية والعائلية فضلاً عن أنها كانت تشكل مركزاً من مراكز المناداة التي شاعت في تلك العصر بما يريده السلطان (6)، كما كانت الأسواق في فلسطين إبان هذا العهد لا تخلو من البهارات والأعشاب الطبية حيث كان لها شارع خاص، وهذه السلعة وجدت في الأسواق أبان فترة السيطرة الفرنجية، واستمر وجودها في العهد الملوكي وسمي هذا الشارع بشوارع الأعشاب وشارع البهارات، وكان يتقابل مع سوق الدجاج، ومما أدى إلى نشاط أسواق الأعشاب الطبية وجودها بكثرة

(1) بورشارد ، وصف ، ص169. براور، الاستيطان ، ص488 ،

(2) العليمي ، الإنس ، ج1 ، ص46 . قاسم ، عصر ، ص223 ، ص224

(3) السلوك ، ج7 ، ص17

(4) فابري ، رحلة ، ق4، ج38 ص1250-5472.

(5) علي، القدس، ص210-، ص211

(6) المرجع نفسه ، ص211

في الأراضي المقدسة وهو ما ذكره الرحالة بورشارد" تجود الأرض بالعديد من الأعشاب الطبية أو العطرية و الشومر والمريمية التي تنمو في الأراضي المنبسطة " (1).

و من الأسواق التي أشار لها المؤرخون و الرحالة في العصر المملوكي و سبق أن ذكرناها سوق الطباخين في القدس الذي رَممه الأشرف قايتباي في سنة 878هـ / 1473م (2).

و قد قدم الرحالة كازولا على سبيل المثال وصفاً لهذا السوق حيث الأطعمة تباع مطبوخة وجاهزة للأكل، و قد أعجب بها و بكثرة زوارها لدرجة كبيرة حيث يقول:"إن تلك السوق عبارة عن شارع طويل يمتد إلى مرمى البصر،وعندما مشيت في تلك السوق أخبروني أنه لا أحد من أهل القدس يطهو طعامه في منزله وأنَّ كل ما يشتهيهِ الشخص من طعام يجده في تلك السوق"(3)،وقدم الرحالة فابري وصفاً لهذا السوق الذي زاره في 28 يوليو سنة 1483م وشارع الطباخين "حيث رأيت أشياء كثيرة للبيع وجماعات كبيرة تشتري من المطابخ العديدة؛ لأن القوم لا يطبخون في بيوتهم كما نفعل في بلادنا،بل يبتاعون طعامهم جاهزاً من هذه المطابخ العديدة،والطهاة ماهرون ونظيفون،وفي تلك الأسواق يعرض الطهاة اللحوم بشكل نظيف زائد عن الحد، وبسبب الجفاف يندر وجود الخشب، ولهذا فلا توجد مطابخ في المنازل بسبب الحاجة إلى الوقود أو الأخشاب" (4).

و عندما كان فابري في مدينة غزة ذكر بعض أنواع الأسواق فقال: " إن جميع أكشاك وبيوت التجار وحوانيت الطباخين ومحلات اللحامين كلها مغلقة " (5). و يدل وجود مثل هذا النوع من الأسواق على ارتفاع مستوى المعيشة في المدن، لدرجة أن طعامهم كان من الأسواق والمطاعم أو ما يسمى اليوم بمطاعم الوجبات السريعة التي ربما انتشرت بسبب كثرة الأعمال وانشغال الناس بها .

و لم تكن الأسواق في حالة من الاستقرار والهدوء و السكينة في العصر المملوكي، بل كثيراً ما تأثرت المدن بالعوامل الاقتصادية و السياسية التي أدت إلى زعزعة الحالة في الأسواق وإثارة النفوس مما ترتب عليه تعطيل الحركة و إغلاق الحوانيت بين الحين والآخر (6).

و قد ذكر المقرئزي أهم العوامل التي أدت إلى عدم الاستقرار الاقتصادي في عهده أهمها تولى المناصب المدنية و الدينية بالرشوة، وغلواء الأطيان (أجر الأراضي الزراعية)، وانتشار العملة

(1)بورشارد ،وصف،ص167 –168.براور،الاستيطان،ص488

(2) العليمي ، الأُس ، ج2 ، ص304

(3)Newwtt: Gasola,s pilgrims p:3(3) نقلاً عن السيد،القدس،ص207،ص208.عاشور،المجتمع،ص79، ص207

(4)فابري ، ق4 ، ج38 ص56.عاشور، المجتمع ، ص79 ، ص98

(5)فابري ، ق4 ، ج38 ص1249

(6) عاشور، المجتمع ، ص99

المزيفة وإرغام التجار والأهالي على التعامل بها وفق القيمة التي تحددها الحكومة مما اضطر كثيرين إلى إغلاق حوانيتهم خوفاً من بخس بضائعهم و يصحب هذه الحالة ارتفاع الأسعار و قلة الخبز (1) .

و كان للفتن و الثورات الداخلية دورها الكبير في التأثير على الأسواق سلباً،مما جعلها عرضة للنهب، فعندما تعرضت البلاد لغزو التتار سنة 658هـ/1259م نهبوا بعض المدن الفلسطينية ومنها غزة و بيت جبريل والخليل و بركة وزيري و الصلت "واخذوا ما قدروا عليه" وباعوا المواشي في دمشق (2)، ومثل هذا التصرف يؤدي إلى أزمة اقتصادية في أسواق المدن، و في سنة 680 هـ/1281م قام العشير بثورة و نهبوا نابلس و قتلوا عدداً كبيراً من سكانها(3)،وأثبتت حوادث سنة 750 هـ/1349م أن قبائل العشير والعربان اتسمت بفساد كبير ومارست عمليات القتل والنهب في كل من القدس ونابلس وغزة، وأصبحت الطرقات غير آمنة وخاصة على التجار والمسافرين، ويقصد الطريق الموصل بين مصر والشام،وأصبحت القدس والخليل والرملة واللد شبه خالية ونهبوا ودمروا المصانع وقتلوا عمال المعاصر في الغور(4).

وفي سنة 780هـ/1378م نهب العشير مدينة غزة، و قتلوا عدداً من سكانها قبل أن يرسل لهم السلطان الأمير علاء الدين ايدكين الفخري للقضاء عليهم (5)؛ ولا يمكن أن نخفل مثل هذه الأعمال ودورها في التأثير على الأسواق في المدن، فذكر صاحب الأنس هجوم العشير على مدينة القدس ودخول المسجد والأسلحة في أيدهم يريدون قتل نائب المدينة وكسر باب السجن وإخراج من فيه من المسجونين "وبادر التجار بتوزيع ما في حوانيتهم، وبدأ العشير بقطع الطرقات وأغلقت الأسواق والمنازل خشية النهب" (6). وتكثر الأمثلة من الثورات التي تؤثر على الأسواق وعلى حياة الناس وتؤدي إلى أزمات اقتصادية لدرجة أن التجار وأصحاب الحوانيت فرغوا وكالاتهم من البضائع خوفاً من نهبها من البدو، وخضعت الأسواق للرقابة في العهد المملوكي حيث كان لكل سوق من أسواق المدينة شيخ، وهؤلاء الشيوخ يعينون من قبل السلطنة في المدينة من بيت أعيان التجار، وكانوا مسؤولين عن النظام ومنع الاحتيال، وكذلك الضرائب التي فرضت على أهل السوق، وكان يساعدهم عدد ممن كان يطلق عليهم عرفاء أو أمناء الأسواق وكانوا مساعدين للمحتسب. وكان المحتسب في العصر

(1) المقرئزي ، إغاثة ، ص38 – 42 . عاشور ، المجتمع ، ص99 – 100

(2) المقرئزي ، السلوك ، ج1 ، ص512

(3) المصدر نفسه ، ج2 ، ص151

(4) المقرئزي ، السلوك، ج4 ، ص106

(5) المصدر نفسه ، ج5 ص144

(6) العلمي ، ج2 ، ص324

المملوكي يتدخل في العلاقات بين البائع والمشتري ويراعي حسن العلاقات بين الطرفين ويأمر البائعين بصدق القول في جميع الأحوال⁽¹⁾.

و من قراءة الأحداث السابقة في المدن الفلسطينية في عهد السلاطين المماليك يتبين لنا كثرة المؤسسات التجارية والأسواق التي ظهرت في أغلب المدن وأنواع البضائع التي انتشرت فيها والانتعاش الاقتصادي الذي وصلت إليه حياة الناس في المدن، وأيضاً خضعت الأسواق و نشاطها للأوضاع الداخلية ونشاط الزراعة و الصناعة .ولم تكن الحالة الاقتصادية أيضاً في حالة من الاستقرار، بل كثيراً ما خضعت للأوضاع السياسية وأغلقت الحوانيت والأسواق.

التنظيمات الاقتصادية:

كانت نيابات فلسطين في العهد المملوكي تطبق النظام الاقتصادي السائد في بلاد الشام منذ قيام الدولة حتى السيطرة العثمانية عليها، و تمثلت هذه التنظيمات (الضرائب على اختلاف أنواعها) .وفي ضرائب الأرض تنقسم إلى قسمين: الخراج و العشر ،و يعتبر الخراج من الموارد الشرعية كالزكاة و الجزية و غيرها، أما ما عداها من ضرائب فرضها الحكام على أوجه نشاطات الدولة الأخرى فتعتبر ضرائب غير شرعية ؛لأن القرآن والسنة لم ينصا عليها، ولكن يمكن القول أن الموارد الشرعية تعتبر دورية، ويمكن أن يقال عنها أنها غير دورية لعدم معرفة وقت محدد لجبايتها، بل أيضاً لفرضها⁽²⁾.

والخراج ضريبة سنوية تفرض على الأراضي الزراعية يدفعها الفلاح لصاحب الإقطاع؛ ليدفعها لخزانة الدولة⁽³⁾، وبسبب أهمية الخراج كمورد من موارد الدولة ذكر فيه ابن خلدون "الملك بالجند والجند بالمال والمال بالخراج و الخراج بالعمارة و العمارة بالعدل " ⁽⁴⁾، وكان الخراج يتفاوت وفقاً لدرجة خصوبة الأرض من ناحية وزيادة المحصول ونقصانه من ناحية أخرى⁽⁵⁾، فالقمح مثلاً يزرع في أجود أنواع الأرض وكان يؤخذ عن كل فدان ثلاثة أرباب وكان هذا المبلغ يدفع لخزانة الدولة بعد استقطاع المصروفات، وفي العهد المملوكي انقسم الخراج إلى قسمين: خراج الزراعة و خراج الراتب⁽⁶⁾.

(1) المقرئزي، السلوك، ج3، ص204. علي، القدس، ص211. أبو زيد، سهام ، الحسبة ، ص189

(2) إسماعيل ، النظم ، ص155

(3) النويري ،نهاية الأرب، ج8، ص245. الطراونة، مملكة ، ص179. إسماعيل ، النظم، ص156

(4) مقدمة ، ج1، ص39

(5) عاشور، العصر ، ص310

(6) النويري، نهاية الأرب، ج2، ص444.

أما خراج الزراعة وهو عبارة عن مقدار معين من المال أو الغلة فقد فرض على الأرض ومحاصيلها، لذلك أنقسم إلى قسمين الأول خراج غلة ويؤخذ حسب طبيعة الأرض وتراوح بين 3 أو 6 أرادب عن كل فدان، والثاني خراج نقد وهو مبلغ من المال كان يؤخذ على الأرض، و كان للمستفيد من الأرض حرية تسديد المبلغ إما جملة و إما على أقساط (1).

أما خراج الراتب وهو خراج السواقي والبساتين والنخيل فلا يكون إلا بالنقد، وعلى المنتفع تسديد قيمة الخراج سواء أنتجت أرضه أو لم تنتج (2). وكان يطلق على القسم من المال أو الغلة في الخراج نظام المقاسمة، وقد وصف النويري هذا النظام في الشام بشكل عام فقال: "وعادتها في المقاسمة مناصفة - وذلك في أراضي السقي - ومثالثة ومربعة - وهو في غالب البلاد - و مخامسة ومسادسة وذلك في المزارع و النواحي الخالية من السكان التي يزرعها المستكرون - ومسابعة ومثامنة - وذلك في النواحي المجاورة لسواحل البحر والمتاخمة لأطراف بلاد العدو، فإذا فرغ من توزيعها أخذ المباشرون ما يخص الديوان من التوزيع ثم لعله تأخر من الغلال في عرصات البيادر والاقصال وأعقاب النباتات والعفائر، ويؤخذ منه ما يخص الديوان من نسبة المقاسمة (3).

و لما كانت الأرض بمصر والشام مقطعة ومقسمة بين الأمراء فكثيراً ما تراكم الخراج على هؤلاء الأمراء و عجزوا عن سداد متطلباتها المالية و إيفاء حق الدولة ولكي يخرج السلاطين من هذا المأزق لجأوا إلى " روك (4) " البلاد من جديد فلذلك يعتبر الخراج من أهم أسباب روك البلاد، فكلما تحسنت حالة الأرض عاد السلاطين مسحها من جديد لزيادة الخراج (5).

أما الضريبة المقررة أو المقطوعة التي تحصل قيمتها " زاد المغل أو نقص " فقد كانت معروفة في مملكة صغد، و قد فرضها الظاهر بيبرس على نواحي الشقيف بعد فتحها سنة 666هـ / 1268م بقيمة ألف ألف درهم ثم خفضها إلى أربعمئة ألف درهم بعد أن سأله الناس ذلك (6)، وهذه الضريبة كانت تؤخذ على الأرض التي عرضت للأراضي المفصولة أو المضمنة، وهذا ما ذكره النويري حيث قال: " في بعض الأعمال الشامية نواح مفصولة (7) " و"مضمنة على أربابها بشيء معلوم يؤخذ منهم

(1) النويري، نهاية الأرب ، ج 2 ، ص 444 .

(2) المصدر نفسه ، ج 2، ص 444 .

(3) النويري، نهاية الأرب ، ج 2 ، ص 446

(4) إعادة تقسيم أراضي الأوقاف . الجبرتي، عجائب الآثار 3، ص 455.

(5) ابن تغري، النجوم، ج 9، ص 42-45. إسماعيل ، النظم ، ص 159

(6) النويري، نهاية الأرب، ج 2، ص 446. الصفدي، الوافي، ج 10، ص 215، 216. الطراونة ، مملكة، ص 179، ص 180

(7) أصل هذا اللفظ فرنجي و كان يعرف (بالفصل) حسب النطق العربي ولعل اللفظ يكون فرنسياً واستمر استعمالها في البلاد الساحلية بعد سيطرة المسلمين عليها من أيدي الفرنجة ، ينظر: النويري، نهاية، ج 2، ص 446.

عند إدراك المغل من غير توكيل ولا مقاسمة⁽¹⁾، والأراضي في الساحل الفلسطيني التي خضعت لنظام الفصل أو المضمنة مينا عكا التي كان يُضمّن بخمسين ألف درهم في السنة⁽²⁾.

و العُشر هو الصنف الثاني من الضرائب التي تؤخذ على الأرض، وتعتبر من الضرائب الشرعية و هو ما يدفعه المسلم على محاصيله وثماره على أنها زكاة أو صدقة⁽³⁾، ولا يؤخذ العُشر إلا من النصاب الشرعي و في نواحي الخواص والإقطاعات، ويؤخذ مما بقي للفلاح من كل عشرة أجزاء جزءاً و في بعض الأقاليم لا يؤخذ من المزارعين الذميين، أما النواحي والإقطاعات والأماكن التي أعشروها ديوانية فعليها ضريبة مقررة تؤخذ كل سنة سواء زاد المغل أو نقص⁽⁴⁾ وهذه الضريبة الشرعية كانت تجمع من كل الأراضي التي خضعت للدولة المملوكية .

أما عن الضرائب الأخرى في نيابات فلسطين خلال العهد المملوكي فهي كثيرة جداً، منها المكوس والرسوم و الجوالي و الموارد الحشرية و الرمي أو الطرح و غيرها، و ما يؤكد وجود المكوس ما أورده أبي الفداء في ذكره لحوادث سنة 724هـ / 1323م أن الناصر محمد بن قلاوون قام بأبطال المكوس و الضرائب عن سائر أصناف الغلال بجميع بلاد الشام مما يدل على أنها كانت تؤخذ من سائر الشام بما فيها نيابات فلسطين⁽⁵⁾.

و أشار حديث صاحب الأنس للمكوس قبيل مجيء السلطان جقمق في حديثه عن ناظر الحرمين القدس والخليل الأمير شهاب الدين أحمد بن اليعموري سنة 796هـ / 1393م أنه "أبطل المكوس والمظالم والرسوم التي أحدثها النواب قبله بالقدس الشريف، و نقش بذلك رخامة وألصقت على باب الصخرة"⁽⁶⁾، ويتضح مما سبق شيء هام بالنسبة لطبقة المماليك التي حاولت بشكل دائم التقرب من العامة والظهور بمظهر الأشخاص المتدينين الذين يقومون برفع المظالم عن المسلمين، ومما دفعهم لهذا العمل أصولهم العرقية؛ لأنهم ليسوا من أبناء المنطقة إضافة إلى أنهم كانوا يشكلون طبقة من الرقيق في الدولة الإسلامية جلبت لأغراض عسكرية، فقد ورد عن العليمي أن السلطان الأشرف قايتباي عندما زار مدينة القدس في عام 880هـ / 1475م اشتكى الناس الأمير جارقطي نائب القدس ورفعت فيه القصص بسبب ما تعمدته من الظلم والجور فطلبه السلطان وسمع

(1) النويري، نهاية، ج2، ص446

(2) الطراونة، مملكة، ص180

(3) النويري، نهاية، ج2، ص446. الطراونة، مملكة، ص180، ص181

(4) النويري، نهاية، ج2، ص446. لمزيد ينظر: ناصر، الحياة الاقتصادية، ص113-126.

(5) المختصر، ج4، ص95

(6) العليمي، ج2، ص94، ص95

فيه الشكوى وأنصف الناس منه، وأمره أن يصلح جميع من اشتكى منه فصالحهم، ودفع لكل من أخذ منه شيئاً و أبطل المكس المسمى بالطعمة (1).

ومن المكوس التي أخذت في العهد المملوكي مكس الغلة، وهي الضريبة المفروضة على الغلال، والاتجار فيها ورسوم الولاية التي يجمعها الولاية من عرفاء الأسواق ومقرر الحوائص والبغال ومقرر السجون وهو مبلغ يؤخذ على كل من يسجن ولو لحظة واحدة، ومقرر طرح الفراريح فلا يستطيع أحد من الناس شراء فروجا إلا من الضامن، ومقرر الأقباص والمعاصر وهو ما يجني من مزارع قصب السكر ومن رجال المعاصر، ومقرر المراكب وهو ما يؤخذ من كل مركب، ولا سيما أن الأقباص كانت تزرع في مصر والشام، وتبع فرض المكس عليها مكس آخر على المعاصر والدواليب سُمي زكاة الدولية⁽²⁾، ولا سيما أن المعاصر انتشرت في منطقة الغور سواء معاصر القصب أو الزيت، وهو ما سبق الحديث عنه وقد أكد وجودها المقريري في سنة 750 هـ/1349م عندما ذكر ثورات العشير وقتل عمال المعاصر ونهب محتوياتها⁽³⁾، وكانت تؤخذ هذه الضرائب بشكل عيني، فقد أورد المقريري في حوادث سنة 821 هـ/1418م أن الهروي أخذ من سكان الخليل مالاً وكان ناظر البلاد وفرض عليهم بيضه على كل شخص وألزمهم أن يحمل الناس بعدد البيض دجاج⁽⁴⁾، ويلاحظ على مثل هذه الضرائب أنها كانت تؤخذ بشكل تعسفي من أهالي المدن لدرجة أن السكان اعترضوا وشكوا للسلطان ما فعل هذا الناظر، وأمره أن يعيد الحقوق لأهلها.

و يُفسّر كثرة المكوس في عهد دولة المماليك الجراكسة الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها والأوبئة والحروب، وأخذت المكوس من الأجانب، فقد حصل منهم العديد منها مثل "رسم السفن" نظير دخول السفن الميناء ثم تحصل ضريبة "رسم السماح" حيث يدفع كل تاجر "دوكة" ليسمح له بدخول المدينة ثم "رسم العبور" وكان قيمته دوكتين على الشخص الواحد ثم يدفع كل تاجر 2% على ما يحمله من الأجانب 75%، وأطلق البعض على مثل هذه الضرائب موجب باب الميناء وهو ما يؤخذ من جمارك ورسوم وغيرها عند أبواب الموانئ الموجودة في فلسطين مثل عكا وتشمل رسوم وجمارك على الصادرات والواردات، وقد كان ميناء عكا يُضَمَّن بخمسين ألف درهم في السنة⁽⁵⁾.

ومن الضرائب التي وجدت خلال هذا العهد ما يسمى بالرسم أو الرسوم، وهذا النوع من الضرائب كان يستخدم حيث يصعب تقدير نسبة العشر على الماعز أو أراضي الرعي والمناحل

(1) العليمي، الأُنس، ج2، ص315

(2) المقريري، السلوك، ج2، ص507. النويري، نهاية، ج2، ص450. عاشور، العصر، ص313. إسماعيل، النظم، ص202

(3) المقريري، السلوك، ج4، ص106

(4) المصدر نفسه، ج6، ص468

(5) الطراونة، مملكة، ص184

وكذلك الطواحين والمعاصر ودواب الحمل، فكان على أهل القرى أن يدفعوا ضريبة على الطواحين على أساس عدد الطواحين وإمكانية تشغيل تلك الطواحين طول العام أو أثناء المواسم و الفصول، وفي معظم الحالات فإن الطاحونة التي تعمل طوال العام وبها راحة واحدة كان عليها أن تدفع 60 أقة من جملة ما تطحن، أما الطواحين التي لا تعمل في أيام المطر فعليها ثلاثين أقة، والطواحين التي تدار باليد فكانت معفاة من تلك الرسوم⁽¹⁾ وكان لهذه الطواحين وجود في مدن فلسطين في العهد المملوكي حيث بنى الظاهر بيبرس سنة 662هـ/1263م بالقدس طاحونة وفرنا وأوقف عليها الأوقاف⁽²⁾.

كما كانت الضرائب تجبي على الماعز والجاموس في جميع القرى تحت اسم "رسم الغنم" و "رسم الجاموس" وكانت رسوم الجواميس اثني عشر إقجة ولا يؤخذ من البعض⁽³⁾، من أنواع الرسوم التي عرفت برسوم الولاية وهي عبارة عن مبلغ من المال يقوم بجبايته النواب والخاصكة من عرفاء الأسواق ومن عامة الناس، ويبدو أن تلك الرسوم كانت من الكثرة بحيث تضرر منها كثير من الناس⁽⁴⁾، وقد أكد المقرزي وجود هذا النوع من الضرائب في حوادث سنة 807هـ / 1404م أيام السلطان فرج برقوق حيث ذكر أن نائب القدس فرض على الناس مالا فأبوا عليه فتركهم حتى اجتمعوا في المسجد وأغلقت عليهم الأبواب وألزمهم بالمال فاستغاثوا عليه فليس السلاح وقاتلهم فقتل بينهم بضعة عشر رجلاً وجرح كثير، وفر النائب مهزوماً فلما بلغ الخبر شيخ نائب الشام بعث عوضه إلي القدس⁽⁵⁾.

وذكر صاحب الأناضول في حديثه عن سنة 891هـ / 1486م في عهد السلطان الأشرف قايتباي، فعندما دخل الأمير ماماي الخاصكي إلى القدس الشريف بخلة السلطان والناس في خدمته فرسم على أكابر البلد واخذ منهم مالا، فاخذ من ناظر الحرمين أربعة بغال وحصانا، ومن النائب الأمير جانم مائتي دينار، ومن شيخ الصلاحية ثلاثين ديناراً، ومن القاضي فخر الدين بن نسيبة أربعمئة دينار، ومن القاضي شهاب الدين الجوهري ثلاثمئة دينار، وحصل للناس منه شدة⁽⁶⁾.

ويلاحظ أن هذه الضريبة التي جمعت من الناس في هذا العام كانت بسبب ضعف واضطراب الدولة المملوكية وحروبها الخارجية مع الدولة العثمانية، وربما أن بعض النواب استغل هذه الأحوال واخذ في جمع هذا النوع من الضرائب، ومما يدل على هذا الرأي أنها لم تكن ثابتة فقد أخذ من البعض مالاً ومن البعض الآخر خيولاً وبغالاً رغم أننا في بعض الأحيان لاحظنا أن السلاطين كانوا

(1) المقرزي، السلوك، ج6، ص248. علي، القدس، ص224

(2) ابن كثير، البداية، ج13، ص242—275. ابن تغري، بردي، النجوم، ج7، ص121

(3) علي، القدس، ص224. الطراونة، مملكة، ص184

(4) علي، القدس، ص224

(5) السلوك، ج6، ص125

(6) العليمي، ج2، ص335

بيطلون هذا النوع من الضرائب، أما بخصوص الضرائب التي جمعت في بعض الأحيان لأغراض عسكرية فقد جاء الأمير أقبري الدوادر الكبير من القاهرة إلى جهات نابلس لتجهيز الرجال لقتال بايزيد العثماني وذهب إلى الرملة ونصب خيمة على تل العوجاء وكان يتردد بين قاقون والرملة واللجون ونابلس " ودفع النفقة لهم " (1)، وهذا النوع من الضرائب كان طارئاً لتمويل الحملات العسكرية فبسبب الأحوال الاقتصادية المتردية لجأ بعض النواب لابتراز السكان واخذ الضرائب لحسابهم الخاص وهذا ما دفعهم لتقديم الشكاوى ضد النواب في بعض الأحيان للسلطين .

ومن أنواع الضرائب الفردية التي انتشرت في العهد المملوكي الجوالي، وهو مبلغ من المال يفرض على أهل الذمة، على الرجال فقط دون النساء والأطفال والشيوخ والمرضى والمجانين، والعبيد، وكانت تقدر حسب حالة دافعيها المادية، وتعرف هذه الضريبة بالجزية (2)، تجبى هذه الجوالي عن طريق ناظر خاص عرف بناظر الجوالي فقد ذكر العليمي سنة 882 هـ/1477م وصول الأمير جانم الخاصكي إلى القدس وبصحبه ناظر الجوالي، بعد عودته من المملكة الشامية، وكان مجيئه إلى الشام لكشف الأوقاف، وحضر إلى القدس وجمع من الأوقاف، في القدس الشريف تسعمائة دينار وقيل ألف دينار، ومن أهل الذمة ثلاثمائة ألف دينار، ولم يقبل ما جمع له من الأوقاف وأعاد المبلغ بكامله لمستحقه واخذ ما جمع من أهل الذمة (3). و ما ذكره المقرئزي يؤكد انتشار هذا النوع من الضرائب في أكثر من مدينة مثل " جوالي الذمة بالقدس وبلد الخليل، وبيت لحم وبيت جالا " (4).

وكانت الجوالي تؤدي سنويا وتورد مستقلة بذاتها في حسابات الدواوين (5)، أما عن الأسلوب الذي اتبعه ناظر الجوالي فكان يعد كشوفاً بأسماء أهل الذمة من اليهود ثم يثني بالسامرة ويتلث بالنصارى، وترد الأسماء أبجدياً لتسهيل مهمة ذلك الموظف فإذا أخذت " الجالية " " الجزية " من أحدهم كتب بها " إيصال " وشطب عن اسم من أداها، وإذا عاد احد النازحين إلى البلد ولم يكن قد أدى الجزية أخذت منه، وإذا كان قد سددها واحضر الإيصال الدال على ذلك نقل المبلغ إلى حساب البلد (6).

وكان مباشر الجوالي يحتاج في كل سنة إلى إلزام رئيس اليهود ورئيس السامر وقسيس النصارى أو أسقفهم بكتابة أوراق يسمونها الرقاق بمن عنده من أسماء أبناء الطوائف، وقد عرفوه

(1) العليمي، الأنس، ج2، ص335

(2) القلقشندي، صبح، ج3، ص530. عاشور، العصر، ص311. قاسم، أهل الذمة، ص63—64. إسماعيل، النظم، ص164، الطراونة، مملكة، ص181

(3) الأنس، ج2، ص318

(4) المقرئزي، السلوك، ج2، ص165

(5) المقرئزي، السلوك، ج2، ص506. القلقشندي، صبح، ج3، ص530. النويري، نهاية، ج2، ص440. قاسم، أهل الذمة، ص64

(6) القلقشندي، صبح، ج3، ص530. قاسم، أهل الذمة، ص64

باسم رواتب ما استجد من الطوارئ والنوابت أي الوافدين إلى البلاد والنوابت الصبية الذين لم يبلغوا الحلم، ويعين في آخر الرقاع من اهتدى بالإسلام أو من مات أو من سافر واسم البلد الذي سافر إليها، وكانت الرقاع بمثابة شاهد أو إقرار على من يخل بهذه الأسماء، وكان يقوم بتلك المهمة في بعض الأحيان " مباشر " اليهود " ومباشر " النصارى الذي يعرف بأسماء أهل الذمة الواردين في الديوان (1).

أما عن نسبتها فقد قدرها بعض الباحثين المحدثين بأنها تتراوح بين خمسة وعشرين درهماً وعشرة دراهم على الفرد، أما بالدينار ما بين أربعة دنائير لذوى اليسار ودينارين لمتوسطي الحال، ودينار وجزء من الدينار لمن هم دون الوسط، وكانت تجبى في بداية محرم من كل سنة (2).

وذكر القلقشندي أن الجزية في زمانه على ثلاث طبقات: عليا وهي أربعة دنائير وسدس على كل رأس في كل سنة، ووسطى وهي ديناران وقيراطان، وسفلى وهي دينار واحد أو ثلث وربع دينار أو جزء من دينار وقد أضيف إلى جزية كل شخص درهمان وربع عن رسم الشاد والمباشرين، وذكر أنها نقصت في عهده وهو معاصر للسلطين المماليك حتى صار أعلاها خمسة وعشرين درهماً وأدناها عشرة دراهم، وأصبحت تجبى في شهر رمضان بشكل معجل (3). وفي بداية عهد سلطين المماليك كانت الأموال التي تجبى من هذه الجزية أو الجوالي يدخل بعضها لبيت المال، والبعض الآخر يخصص للإنفاق على بعض القضاة وأهل العلم (4)، واستخدمت في بعض الأحيان في الأعمال العمرانية حيث كان الهدف منها خدمة أهل المدينة، ومثال ذلك ما ذكره المقرئ في حوادث سنة 682 هـ / 1283م من أن السلطان المنصور قلاوون قرر أن تكون جوالي أهل الذمة بالقدس والخليل وبيت لحم وبيت جالا مرصدة لعمارة بركة في بلد الخليل وكانت العادة أن تؤدى في رمضان إخراجها رفقا بالناس (5).

وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون 709 هـ / 1309م وبعد الروك الناصري أصبح دخل الجوالي يضاف إلى الأمير صاحب الإقطاع كل بحسب ما لديه، منهم وقد استمر هذا الوضع في دولة بن قلاوون حتى عهد السلطان برقوق حيث حدثت بعض التعديلات في ذلك النظام ولعلها جرت بذلك مجرى المال الهلالي وخاصة إذا حدث وخرج الإقطاع إلى شخص آخر (6)، كما أن ضريبة

(1) النويري، نهاية، ج2، ص440. القلقشندي، صبح، ج3، ص530. قاسم، أهل الذمة، ص64،

(2) القلقشندي، صبح، ج3، ص530. عاشور، العصر، ص311. الطراونة، مملكة، ص181

(3) صبح، ج3، ص530. إسماعيل، النظم، ص165

(4) السلوك، ج3، ص266. المحبي، خلاصة، ج2، ص325. علي، القدس، ص226

(5) المقرئ، السلوك، ج2، ص165. علي، القدس، ص226—227

(6) المقرئ، السلوك، ج2، ص488. علي، القدس، ص227. إسماعيل، النظم، ص165. العزة، نابلس، ص115.

الجوالي كانت تؤخذ في مملكة صغد بدليل وجود 7% من سكانها من أهل الذمة وبقي معمول بها حتى القرن السادس عشر الميلادي⁽¹⁾.

ومن الممكن أن تكون طبقت في غزة بسبب وجود المسيحيين واليهود بها، حيث ذكر الرحالة اليهودي عوبديا أن بها هذه الأصناف من أهل الذمة أكثر ممن بالقدس⁽²⁾.

وقد فسر الباحثون جمع هذه المبالغ من أهل الذمة وخاصة في عهد دولة المماليك الجراكسة ومصادرة ثرواتهم خاصة وقت الشدة، و لم تشمل أهل الذمة فقط بل شملت جميع طوائف المجتمع المملوكي حتى المسلمين الأثرياء، حيث جمعت الأموال من أجل تجهيز الجيوش لقتال التركمان بقيادة ابن قراييلك، واصر السلطان الأشرف مرسوماً بذلك، وكان المبلغ المطلوب هو ثمانية عشر ألفاً تم توزيعها على الرملة والقدس ونابلس وهوران والبلقاء والمرجين والغوطة وبعلبك وصيدا وبيروت، وتم جمعه وحصل للناس حيف من ذلك⁽³⁾.

ومن أشكال هذا الإنفاق أن السلطان الأشرف قايتباي قد انفق 7065000 دينار في حروبه العديدة، ولكي يغطي تلك التكاليف الهائلة فرضت حكومته ضرائب باهظة على طبقات معينة من الشعب، وعلى الأحياء في المدن، وفرضت الضرائب غير العادية على الممتلكات الخاصة وعلى دور العبادة وعلى الرجال والعلماء والأرامل والأيتام وشملت هذه الضرائب المدن الفلسطينية التي تخضع للحكم المملوكي وخاصة القدس⁽⁴⁾.

وفي سنة 892هـ/1486م شملت الإجراءات فرض رسوم ذكرها ابن طولون في هذه السنة على عهد السلطان قايتباي نفسه من أنه أرسل احد الأمراء ليصادر أهل البلاد الشامية كغزة والقدس وصفد وحماة وطرابلس وحلب وقيل إن السلطان جمع نحو أربعين ألف دينار⁽⁵⁾، وهذا يشير إلي أن الحروب لعبت دوراً هاماً في فرض الضرائب وتفجير المشاكل الاقتصادية التي عانت منها الدولة المملوكية في أواخر عهدها .

هذا ومن الضرائب الهامة التي فرضت خلال الحكم المملوكي في فلسطين ما كان يؤخذ من الحجاج من أهل الذمة حيث كان على الحاج المسيحي الذي يزور المنطقة أن يدفع سبعة دراهم عند دخول عكا واثنى عشر درهماً عند دخول الناصرة وسبعة دراهم عند قطع الجسور⁽⁶⁾، وبين فابري كيف كانت

(1) الطراونة، مملكة، ص181

(2) فابري، رحلة، ق4، ج38، ص1246. السيد، اليهود، ص115

(3) العلمي، الأنس، ج2، ص335. علي، القدس، ص225. السيد، اليهود، ص114. قاسم، عصر، ص264

(4) علي، القدس، ص225

(5) مفاكهة الخلان، ق1، ص78. علي، القدس، ص225

(6) الطراونة، مملكة، ص181

تؤخذ مثل هذه الضرائب، فعندها زار مع الحجاج المسيحيين فلسطين ونزلوا في مدينة يافا قال: " جاء إلينا مسلم شرس حامل السلاح وبيده عكاز واستخرج من كل واحد من الحجاج بنسا بندقيا، وقمنا على كل حال من أجل أن نوفر على أنفسنا المشاكل بدفع بنس، واحد من أجل إقامتنا، وعند ما حل الظلام استأجرنا اثنين من المسلمين ليتوليا حراستنا أثناء الليل عند فم كهفنا ... واعتقد أن الرجل المتقدم الذكر الذي استخرج المال قد صار الآن مالكاً ذلك الكهف وصاحبه، وان هذا قد شجعه لفرض ضريبة علينا بموجب حقه القانوني " (1).

وفي هذا الوصف قدم لنا وصفاً حقيقياً لنوعية الضرائب التي كانت تؤخذ من الحجاج المسيحيين، والمهم في الأمر أن الضرائب كانت تدفع بالعملة التي جلبها الحجاج معهم وخاصة البنس (عملة البندقية)، وهذا يؤكد على وجود مراكز وأسواق الصرافة التي يتم تحويل العملة فيها، وتدل أيضاً على كثرة مثل هذه الضرائب (2).

وفرضت الضرائب على الحجاج في نيابة غزة أثناء مرورهم بها لزيارة دير القديسة كاترينا، وكانوا يقومون بالتسجيل في القدس من أجل السفر إلى هذا المكان، وكانت طريقة التسجيل تتم عبر تنظيم الإجراءات مع كبير المترجمين لدفع ضريبة السلطان وضريبة الترجمان نفسه عن كل فرد ومن يتم الاتصال بالترجمان في غزة بقصد ترتيب أمر المرور مع عرب الصحراء الذين كان لهم حق حراسة الحجاج إلى دير القديسة كاترينا (3).

وقد أكد الرحالة فابري هذا الدخول وكيف أن العربان كانوا يزعمون الحجاج، ولكن السلطان استطاع أن يسوى القضية (4)، وذكر فابري الترجمان الذي سبق الحديث عنه فقال: " أرسلنا بعض القداس خلف ترجماننا ورجوانه أن يفتادنا إلى القفار " (5). وكانت هذه الضرائب من الأمور التي أزعجت الحجاج الأوروبيين؛ لأنها كانت تفرض عليهم في كل مناسبة وباستمرار من قبل موظفي الدولة المملوكية .

وكذلك " ضريبة الملح" وهي ضريبة كانت تفرض على الملح المجلوب إلى مدينة غزة عند بيعه، وقد تظلم سكان غزة من هذه الضريبة، كذلك نراهم عام 853هـ / 1453م يطالبون السلطان الملك الظاهر "أبو سعيد جقمق" بإبطالها، يبدو ذلك من نص نقش على بلاطة بين البابيين في مدخل جامع عثمان، بينما ذكر البعض أن الضرائب على المسافرين والحجاج والتجار في القرن السادس

(1) فابري ، رحلة ، ق 1، ج 38 ص 337 – 338

(2) المصدر نفسه ، ق 1، ج 38 ص 338

(3) فابري ، رحلة ، ق 1، ج 38 ص 339 . عطا الله ، نيابة ، ص 101

(4) فابري ، رحلة ، ق 1 ، ج 38 ص 339

(5) المصدر نفسه ، ق 4 ، ج 38 ص 1242

عشر الميلادي كانت تجبي في المراكز التالية: غزة ،خانيونس،سدود⁽¹⁾. وفرضت ضريبة على اليهود حيث أشارت نتائج المسح العثماني الأول إلي وجود ضريبة باسم (رسوم الزيارة) كان يدفعها اليهود عن زيارة قرية ميرون في ولاية بر صفا وعند زيارة طبرية وكانت قيمتها أربع أقباج لكل زائر، وقد تكون قيمتها في العهد المملوكي قريبة من هذه القيمة⁽²⁾، ولم تقتصر على الحجاج النصارى واليهود فقط، فقد فرض أمراء مكة على الحجاج المسلمين المصريين والشاميين مكوساً مما جعل السلاطين المماليك يلجأون إلى تعويض هؤلاء الأمراء بإقطاعات لهم في مصر مقابل أن يرفعوا أيديهم عن الحجاج ففي سنة 780 هـ / 1379م دفع السلطان الأشرف شعبان أمير مكة مائة وسبعين ألف درهم لكي يكف عن المكوس التي تجبى بمكة من الحجاج، ومنذ سنة 681هـ / 1282م كان يجبى عن كل جمل بركبة الحجاج عشرون درهما يدفع من حصيلتهما مبلغ عشرة آلاف درهم للعربان كي لا يتعرضوا للحجاج والباقي كان يدفع لفقراء الحجاز⁽³⁾، ولذلك لجأ سلاطين المماليك منذ سنة 780 هـ/1465م إلى فرض ضرائب ومكوس على الحجاج وإلزامهم أن يحضروا أوراق مكس الجمال التي معهم، ومن لم يحضر ورقة ألزم بإعادة المكس فتضرر بذلك الحجاج ضرراً كبيراً⁽⁴⁾، وفي سلطنة برسباى سنة 829 هـ/1425م أخذ مكس على كل حاج قدره عشرة دراهم، وكذلك أخذت ضريبة على ما معهم من هدايا⁽⁵⁾، ومما تقدم من تواريخ يتضح لنا أن مثل هذه الضرائب استمرت حتى فترة متأخرة من الدولة المملوكية وتم إلغاء مثل هذه الضرائب في بلاد الشام حيث كان آخر مرسوم صدر بإبطالها عام 878هـ/1474م على يد السلطان قايتباي⁽⁶⁾.

وأما عن ضرائب الممتلكات في العهد المملوكي فضريبتان تؤدي على الممتلكات هما: التصقيع والتقويم، فالتصقيع هي أخذ أجره شهرين على الأملاك في كل سنة، أما التقويم فهو أن يقدر ثمن الدار ويؤخذ على كل دينار درهم، وكانت هذه الضريبة سارية في بلاد الشام⁽⁷⁾.

أما الضرائب الهلالية وهي التي تجبى شهريا حسب التقويم القمري. فكانت مقروضة على الأملاك المسقفة من الدور والحوانيت والحمامات والأفران وأرحية الطواحين الدائرة بالأبقار، كما تشمل ضرائب على مصائد الأسماك والحشائش ومزارع قصب السكر⁽⁸⁾، وذكر أن السنة الهلالية

(1) عطا الله ، نيابة ، ص101 ، ص102

(2) الطراونة ، مملكة ، ص181 ، ص182

(3) إسماعيل النظم ، ص204

(4) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج1، ص177. إسماعيل، النظم، ص204

(5) المقرئزي، السلوك، ج7، ص128-129. إسماعيل النظم ، ص204

(6) المقرئزي، السلوك ، ص204

(7) الطراونة ، مملكة ، ص182

(8) النويري ، نهاية ، ج2 ، ص437. الطراونة، مملكة، ص182. ينظر: بولياك، الإقطاعية، ص182-183

"أربعة وخمسون وثلاثمائة وكسر ومازالت الأمم السالفة تكبس زيادات السنين على اختلاف مذاهبها"⁽¹⁾، وذكر النووي أن هذا النوع من الضرائب كان مطبقاً في بلاد الشام وشمل مصائد السمك في بحيرة طبرية وأقصاب السكر العكاوية وكانت تدفع المال الهلالي في بلاد لشام⁽²⁾، ومن مصادر المال الهامة التي وجدت إبان هذا العصر المواريث الحشرية "وهو مال من يموت وليس له وارث خاص بقرابة أو نكاح أو ولاء أو الباقي بعد الفرض من مال من يموت وله وارث أو فرض لا يستغرق جميع ماله ولا عاصب له"⁽³⁾.

فيكون هذا المال من موارد الدولة التي تضاف إلى بيت المال، ولعله كان تحت إشراف بيت المقدس ناظر ديوان المواريث يعاونه كاتب لكتابة أسماء المتوفين وما يتعلق بهم وشهود وشاهد ومشرف لتحصيل الإرث⁽⁴⁾، وذكر المقرئ في حوادث سنة 803هـ/1404م استقرار الشهاب أحمد اليعموري حاجباً بقلعة دمشق حيث أُلزم بعمارته واستخدام في العمارة ضرائب أريحا من الغور وأموال المواريث الحشرية بدمشق وأعمالها والرملة والمسالك والقدس وغزة ونابلس واستخدم أيضاً نصف ما تحصله كنيسة قمامة ودار الضرائب من القدس وربع العشر وربع الزكاة وربع ما يتحصل من دار الوكالة⁽⁵⁾.

وهو لم يشر فقط إلى المواريث الحشرية، بل أشار إلى كيفية استخدامها وإنفاقها في المصالح العامة التي يستخدمها السكان إضافة إلى نوع آخر من الضرائب التي فرضت على المؤسسات الدينية التي تخص النصارى مثل الكنائس، وأشار إلى العشر والزكاة والتي تعتبر من الموارد الشرعية في دولة المماليك، وتجدر الإشارة إلى أن ديوان المواريث الحشرية جمع أموالاً كثيرة جداً، ويرجع السبب في هذا الجمع لكثرة الطواعين والأوبئة التي انتشرت خاصة في عهد دولة المماليك الجراكسة حيث خلفت ورائها عدداً كبيراً من الأموال والتركات.

وكذلك موجة الوباء التي عمت المدن الفلسطينية سنة 749هـ/1348م وأبادت سكانها عن آخرهم، مثل أهل الغور وسواحل عكا وصفد وبلاد القدس ونابلس وجنين التي لم يبق من سكانها سوى عجوز خرجت فارة، ومدينة لد والرملة لم يبق منها أحد، ومات في غزة اثنين وعشرين ألف إنسان⁽⁶⁾، فهؤلاء السكان الذين ماتوا في الوباء آلت ممتلكاتهم إلى ديوان المواريث، وتم استغلالها في

(1) ابن تغري، النجوم، ج3، ص331

(2) نهاية، ج2، ص447. الطراونة، مملكة، ص182

(3) القلقشندي، صبح، ج3، ص532

(4) القلقشندي، صبح، ج3، ص460. علي، القدس، ص227

(5) السلوك، ج6، ص64

(6) المقرئ، السلوك، ج4، ص82. ابن تغري، النجوم، ج16-135

الصالح العام وبناء المؤسسات، وتكررت هذه الموجات وهو ما سبق الحديث عنه في الفصل السابق. أما ما سبق ذكره في النص من المسابك ودور ضرب العملة فكانت مورداً هاماً من موارد المال في الدولة الإسلامية وخاصة في العهد المملوكي؛ وذلك لأن العملة كانت تضرب في هذه الدور وهي سلعة تباع وتشتري، وكانت الدولة تعهد لبعض الناس أمر سك النقود في مقابل دفع مبلغ للدولة فعلى المتعهد الحصول على الذهب والفضة ليسكه نقوداً صحيحة وبييعها بسعر العملة الرسمية ويكسب الفرق⁽¹⁾، ولجأ الممالك إلى سياسة الرمي أو الطرح؛ لأنهم لم يقنعوا بما فرضوه من ضرائب مباشرة على السلع والمشتريات أو تلك التي كانت تفرض على الأسواق والتجارة أو المقررات التي فرضت على كثير من أوجه الحياة، بل إنهم عمدوا إلى احتكار بعض السلع وفرض شرائها بالأسعار التي يحدونها على أتباعهم في البلاد التي خضعت لهم وهو ما يسمى بنظام الطرح أو الرمي⁽²⁾، ومن ذلك ما أورده صاحب النجوم في حديثه عن سنة 803 هـ / 1399م أيام السلطان الناصر فرج بن برقوق عن ابن الطبلوي متحدثاً في أمور الدولة فأخذ ابن الطبلوي هذا في الإفحاش في أمر الشاميين وطرح عليهم السكر الواصل من الغور بحيث انه طرحه على الناس حتى على الفقهاء و نقيب القضاة⁽³⁾، وما ذكره المقرئ في حديثه عن سنة 821 هـ / 1418م أيام السلطان المؤيد شيخ حيث وقفت طائفة من بلد الخليل عليه السلام للسلطان وشكوا الهروي على مال أخذه منهم في أيام نظره على بلد الخليل، عن طريق الطرح⁽⁴⁾، وذكر العليمي في قوله عن سنة 896 هـ / 1490م في عهد السلطان الأشرف قايتباي أنه حضر إلى القدس الشريف السيفي قانصوه ويحمل مرسوم الأمير أقبري الداودار في الزيت المتحصل من جبل نابلس على التجار المعتادين بعمل الصابون، كل قنطار بخمسة عشر ديناراً ذهباً وشمل هذا المرسوم الخاصة والعامة، ورمى على اليهود والنصارى وكان الزيت الذي ورد فيه المرسوم على أهل القدس وبلد الخليل ألف وخمسمائة قنطار، ورمى على أهل غزة ألف قنطار، ورمى على أهل الرملة جزءاً من الزيت وضيق عليهم بالضرب والحبس ومن لم يجدهم احضر نساءهم وضربهن وألزمهم بشراء الزيت، وتكررت هذه الحادثة في عهد السلطان نفسه سنة 899 هـ / 1493 ووقعت بسببها فتنة بين نائب القدس وغزة⁽⁵⁾ فلا شك أن مثل هذه السياسة تدل على حالة الانحلال الاقتصادي التي عاشت فيها الدولة المملوكية في أواخر عهدها .

(1) إسماعيل النظم ، ص177

(2) علي ، القدس ، ص227

(3) ابن نخري ، ج12 ، ص181 ، ص182

(4) السلوك ، ج6 ، ص468

(5) الأوس ، ج2 ، ص365 ، ص366 ، ص374

ومن الضرائب التي قد تكون طبقت في فلسطين إبان هذا العهد في النيابات المختلفة ما يعرف بـ"مقرر السجون "؛ لأن المصادر المتوفرة لم تورد إشارات تؤكد وجود مثل هذه الضرائب، وهذه الضريبة مبلغ يدفعه السجين للسجان وتبلغ ستة دراهم غير ما يغرمه حتى ولوتم الإفراج عنه بعد ساعة من سجنه⁽¹⁾، ووجود السجون في نيابة فلسطين قد يكون من الأسباب التي تشير بطريقة غير مباشرة لتطبيق مثل هذه الضريبة، فقد أورد الحنبلي إشارة لوجود سجن الشرطة عند كنيسة قمامة⁽²⁾، وأشار أيضاً ابن تغرى بردى إلى وجود سجن في صفد عندما ذكر الأمير سيف الدين جان بك الأشرفي المعروف بالظريف انه كان محبوساً بقلعة صفد في سنة 870 هـ/1465م وقد جاوز الكهولة وكان من ممالك الملك الأشرف برسباي، وُذكر أنه مات في السجن⁽³⁾، مع أن الإشارة الواضحة لوجود هذه الضريبة في بلاد الشام كانت تؤخذ من طرابلس وبلغت جملتها سنويا عشرة آلاف درهم بالإضافة إلى ثلاثة آلاف درهم ويقال ألفان كانت تحصل سنويا كرسوم "سجن الأقباب" من الأشخاص الذين لا يريدون العمل في أراضي القصب التابعة للسلطان، وقد أبطل جميع ذلك في عام 717 هـ / 1317م⁽⁴⁾. خلاصة القول أن كثرة الضرائب في الدولة المملوكية يشير إلى حالة الضعف وسوء الأحوال الاقتصادية التي عانت منها الدولة المملوكية وانعكست على السكان وأدت إلى تدهور الكثير من المهن والحرف، وترك أصحابها لها، ومن الملاحظ على تلك المكوس والضرائب أنها كانت غير ثابتة فكثيراً ما لجأ السلاطين إلى إلغائها بعد اعتراض السكان عليها .

(1) علي، القدس، ص226. إسماعيل، النظم، ص197-198

(2) الأنس، ج2، ص46، ص49، ص389

(3) النجوم، ج16، ص344، ص345

(4) إسماعيل، النظم، ص198

الفصل الثالث

العادات و التقاليد في المجتمع الفلسطيني

الملابس

الأفراح

الاحتفالات و الأعياد

الطعام

عرفت نيابات فلسطين في العهد المملوكي كثيرا من العادات و التقاليد التي انتقلت من جيل إلى جيل، وكان انتشارها بين طوائف المجتمع المختلفة سواء المسلمين أو النصار أو اليهود، وفي هذا الفصل نذكر أهم العادات و التقاليد التي انتشرت في العهد المملوكي .

فمن العادات التي انتشرت في هذه الفترة حرصهم على النظافة، حيث كثر انتشار الحمامات في أغلب المدن الفلسطينية، فقد قال الرحالة ناصر خسرو عندما زار مدينة طبرية أنها تقع على وادٍ في آخره بحر تصرف فيه كل مياه الحمامات وبنى فيها حمام ماؤه ساخن، فلا يستطيع مستحم أن يصبه على جسده دون مزجه بماء بارد⁽¹⁾، وهذه المنشآت التي ارتبطت بعادة النظافة أكد على وجودها الكثير من الرحالة المعاصرين للعصر المملوكي، فقد ذكر ابن بطوطة عن نفس المدينة أن بها " الحمامات العجيبة ولها بيتان أحدهما للرجال والثاني للنساء وماؤها شديدة الحرارة " ⁽²⁾.

وبالتالي فإن هذه العادة كانت منتشرة بين الرجال والنساء على السواء، وقد أثبتت المصادر والوثائق المملوكية الاهتمام ببناء الحمامات وقد قام بهذا النشاط الأمير تتكز الذي يعتبر من أكبر المعماريين حيث بنى في القدس حمامان وأوصل إليهما الماء عن طريق قناة⁽³⁾.

ومن العادات الطريفة التي ظلت إلى وقت قريب والتي اشتركت فيها جميع الطوائف من مسلمين ومسيحيين ويهود عادة إخفاء بعض النقود في أوان فخارية خشية سطوا اللصوص عليهم⁽⁴⁾. كما انتشرت عادة اتهام النساء واستمرت حتى أواخر عصر السلاطين المماليك وما يؤكد وجود هذه العادة ما ذكره صاحب الأُنس " عن المقذوفات " وهي تقع بظاهر القدس عند عين سلوان وهي معروفة منذ زمن بني إسرائيل وكانت المرأة إذا قذفت أثوابها إليها فشربت منها فإن كانت بريئة لم يضرها، وإن كانت غير بريئة قضت فماتت، فلما حملت السيدة مريم عليها السلام واتهموها بعدم النقاء فقد قبلت هذا الاختبار وشربت من هذا الماء وبرهنت على طهرها ومنذ ذلك الحين وهذا النبع يحمل اسمها⁽⁵⁾.

ومن عاداتهم الإيمان بالحسد حيث كانت غالبية فلسطين بما فيها القدس بكافة طوائفها تؤمنون بالحسد " عين الحسود " ويعتقدون أنها تسبب المرض والحزن والموت وأنها تهدم منازل وتوقف الحرث وتقتل الحيوانات والمزروعات كما، أنهم يعتقدون أن أصحاب العيون الزرقاء هم الأكثر تأثراً من حيث الحسد، وللوقاية من " عين الحسود " فإنهم كانوا يأخذون قطعة من ملابس الشخص الذي يُعتقد أنه يحسد غيره ويحرقونها تحت الشخص المحسود ، كما كانت هناك طرق أخرى للتخلص من أثر " عين الحسود " سواء لدى المسلمين أو المسيحيين⁽⁶⁾، وأشارت بعض المصادر إلي اعتقاد تعقب الجن

(1) سفرنامه ، ج 1، 52،

(2) رحلة، ج 1، 82،

(3) الصفيدي، الوافي، ج 10، ص 262. الكنتي، فوات، ج 1، ص 263. النعيمي، الدارس، ج 1، ص 93. العسلي، وثائق، ص 109-110. ينظر ملحق (4)

(4) علي ، القدس ، ص 260 ، ص 261 .

(5) العليمي ، ج 2، ص 57 . علي ، القدس ، ص 261

(6) علي ، القدس ، ص 261 . العزة، نابلس في العهد المملوكي، ص 105.

للناس فتحدث السخاوي عن هذه العادة في قوله "تعقبت به تابعة من الجان عجز الأكابر عن خلاصه منها"⁽¹⁾

ومن العادات التي لفتت أنظار المؤرخين والرحالة الأوربيين أن سكان الشام بشكل عام وفلسطين بشكل خاص كانوا يخرجون في الصباح الباكر وفي المساء وعندما تقل درجة حرارة الشمس يخرجون إلى البساتين ويتمشون حول أسوار المدينة وإلى المنتزهات⁽²⁾. ومنها أيضاً زيارة قبور ومقامات الأولياء فقد أشار العليمي إلي وجود هذه العادة في أغلب مدن فلسطين في العهد المملوكي، وذكر أنه مارس هذه العادة بنفسه عندما زار قبر الشيخ أبي عبد الله البطائحي صالح⁽³⁾.

ومما سبق نستنتج أن العلماء أنفسهم كانوا يمارسون مثل هذه العادات والتي ما تزال منتشرة حتى اليوم، ومن العادات التي شاعت في المجتمع عمل الخير والاهتمام بالغرباء وخاصة الذين أتوا لزيارة بيت المقدس حيث كانوا يصطحبونهم إلى بيوتهم ويقدمون لهم أنواع الطعام والاحترام⁽⁴⁾.

الملايس :

سبقت الإشارة إلى وجود صناعة الأقمشة في المدن الفلسطينية خلال العهد المملوكي سواء ما كان ينتج أو يستورد من مصر والمدن الشامية الأخرى وخاصة دمشق وبعليك وحلب⁽⁵⁾. وتجدر الإشارة إلي أن الملايس في فلسطين إبان هذه الفترة لم تختلف كثيراً عن بقية أجزاء الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام، كما أن الملايس كانت تميز الطبقات الاجتماعية المختلفة فكان لكل طبقة اجتماعية ملابسها الخاصة، فالوزراء لهم ملابسهم والقضاة والعربان⁽⁶⁾ والمحتسب، بل وجد ملابس للرجال وأخرى للنساء وملابس للسلطان وأخرى لطبقة المماليك التي شكلت طبقة عسكرية، وكان للتجار ملابسهم الخاصة بهم أيضاً وسبقت الإشارة إلى الملايس التي تخص أهل الذمة من النصارى واليهود والسامرة⁽⁷⁾.

وقد أجمع المؤرخون في حديثهم عن الطبقات الاجتماعية المختلفة على اختلاف الأزياء من طبقة إلى أخرى، حيث أورد صاحب النجوم تميز العربان (البدو) في ملابسهم عن غيرهم من السكان

(1) الضوء، ج1، ص114.

(2) البدرى، نزهه، ص45 - 50. فابري، رحلة، ق3، ج38، ص830 - 857. علي القدس، ص261

(3) الأوس، ج2، ص7.

(4) الشافعي، تاريخ، ج43، ص224.

(5) ينظر: الفصل الثاني الصناعة في فلسطين في العهد المملوكي.

(6) المقصود البدو وقد ميزت المصادر بينهم وبين العشير مما يشير إلي أنهم إحدى طوائف البدو التي سكنت الشام:

ينظر، المقرئزي، السلوك، ج2، ص151. القلقشندي، صبح، ج4، ص68. الذهبي، من ذبول العبر، ج6، ص317

(7) ابن كثير، البداية، ج14، ص305. الذهبي، العبر، ج3، ص107. ابن حجر، الدرر، ج1، ص405-406.

العمرى، مسالك، ج3، ص272

عند حديثه عن السلطان الملك الناصر أحمد فقال: " قدومه في زي العربان واختصاصه بالكركيين "(1). وفي نفس السياق ذكر سجن الأمير طشتمر الساقى(2) والأمير قطلوبغا الفخري(3) وكانا قد أودعا السجن واستطاعا أن يخرجوا بعد كسر باب السجن وأخذ سيف الحارس فأحس بهما وأخذ يصيح فامسك بهم الحراس، وكان السلطان في رحلة صيد فعندما علم قدم في ملابس البدو وعندما ذكر عودة السلطان الملك الناصر أحمد نزل عن فرسه " ولبس ثياب العربان وهي كاملية مفرجة وعمامة بلثامين "(4)، وفي سنة 713هـ/1313م توجه السلطان من الكرك إلى الحجاز في مجموعة من الأمراء يريد الحج ثم عاد إلى دمشق وكان يركب ناقاة وعليه " بشت(5) من ملابس العرب بلثام ويده حربة "(6). ومما تقدم يتضح أنه كان للعربان ملابسهم الخاصة التي تميزهم عن غيرهم من طبقات السكان والتي تتلاءم مع بيئتهم الصحراوية في بعض الأحيان فهي واسعة بسبب ارتفاع درجات الحرارة، وهم بحاجة دائمة للثام بسبب الغبار الذي ينبعث في بعض الأحيان من الصحراء نتيجة العواصف، فالببئة لها علاقة بتصميم بعض الملابس ويلاحظ أن السلاطين المماليك أنفسهم كانوا يلبسون ملابس العربان خاصة عندما يذهبون للصيد، أما الفقراء فكانت لهم ملابسهم الخاصة بهم فقد جاء في البريد الذي قدم من دمشق بان علاء الدين بن الطبلوي ترك لبس الأمراء " وتزي بزى الفقراء "(7)

(1) المقرئزي، السلوك، ج3، ص362. ابن تغري، النجوم، ج10، ص60. المقصود سكان الكرك. ينظر: السيد، تاريخ القبائل، ص225-228.

(2) طشتمر البدرى الساقى الناصري أخضر لأنه كان يحب أكله فلقب به وكان الناصر اشتراه صغيرا فرباه وحظي عنده ثم قبض عليه وعلى جماعة اتهموا بإثارة فتنة ثم أفرج عنه لما ظهرت له براءته فأطلقه وحج وعاد فأعطاه ألفي دينار وأوسع عليه في الخلع والملابس واستقر من الأمراء الخاصكية وكان قطلوبغا الفخري يدعوه أخى فاتفق أن الناصر أمسكهما معا في سنة 727 فشفع فيهما تتكز نائب الشام فقال له خذ الفخري معك إلى الشام ودع طشتمر عندي ثم لما حج الناصر سنة 732 كان طشتمر ممن أقام بالقاهرة ثم أخرجه إلى صفد وأسر إليه أن يمسك تتكز في وقت معلوم ففعل ثم ولاه نيابة حلب في سنة 41 فأقام بها وباشرها مباشرة قوية إلى أن حوصر الناصر أحمد بالكرك ففر هو إلى الروم وحصلت له مشقة عظيمة ولما انتظم أمر أحمد رجع وتوجه مع الفخري إلى الناصر أحمد فدخلوا إلى مصر: ينظر، ابن حجر، الدرر، ج2، ص380؛ الصفدي، الوافي، ج16، ص251

(3) كان كافل الشام في عهد السلطان الناصر أحمد يولي النيابات الكبار لمن يختار نائبا: ينظر، الصفدي، الوافي ج24، ص194 .

(4) ابن تغري، النجوم، ج10، ص67.

(5) البشت أو التبشت، والجمع أبشات وبشوت هو العبادة من الصوف بلونها الطبيعي: ينظر المقرئزي، الذهب، ص130.

(6) ابن تغري، النجوم، ج9، ص35 . المقرئزي ، الذهب المسبوك ، ص130.

(7) ابن تغري ، النجوم ، ج12، ص17. السخاوي ، الضوء ، ص252، ص253

وكثيراً ما تصف المصادر أن فلانا " تزي بزي الفقراء " (1)، وذكر العمري عن ملابس التجار وعامة الناس والفقراء فقال " تختلف أحوالهم في الملابس والزي حتى أن الفقراء وإن جمعهم زي الفقر ... وضمهم لباس التصوف فإنهم تتباين حالاتهم في الملابس وأطوارهم في التشكيلات" (2)، وهذا القول يؤكد وجود ملابس مستقلة للتجار والفقراء وعامة الناس واختلاف كل نوع من الملابس عن الأخرى يستطيع الإنسان من خلال الملابس في ذلك العصر أن يميز بين طوائف المجتمع والعمل التي تقوم به سواء كان تاجراً أو موظفاً أو من عامة الناس .

و قال بعضهم عن الفقراء والصوفية: "ملبسهم الاقتصاد" (3)، وأكد ابن خلدون أن سبب تسمية الصوفية بهذا الاسم مشتق من التقشف وملابس الصوف والبعد عن رغد الحياة وقال: " وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف " (4).

وامتاز الصوفية بلبس المرقعات الملونة من قطع قماش حمر وخضر وصفر وسود وأردية من ليف وخص (5) وخلفاء (6) منزوعة الشعر ووضعوا على رؤوسهم القحوف (7).

وكان للعوام من الناس ملابس تميزهم عن غيرهم من طبقات السكان، وهذا ما أشارت إليه المصادر بطريقة غير مباشرة فعندما اجتاحت التتار بلاد الشام ذكر ابن كثير: "قال وتساويتم أنتم والعامة في الملابس" (8)، وهو بهذا النص يذكر أن الجند تساواوا والعامة في الملابس مما يؤكد لنا وجود ملابس تخص العامة وتميزهم عن الطبقات الأخرى في المجتمع. كما كان أيضاً لأهل السوق ملابس خاصة فقد ذكر ابن تغري بردي أنه " استقر المعلم محمد البباوي احد معاملي اللحم ناظر الدولة دفعة واحدة وترك زي الزفورية (9) السوق ولبس زي المباشرين الكتاب ولبس خفا ومهمازا (1)، وركب فرسا وهو أمي لا يحسن القراءة ولا الكتابة" (2).

(1) ابن حجر، الدرر، ج5، ص77

(2) مسالك، ج3، ص272

(3) الصفدي، الوافي، ج5، ص40. عاشور، المجتمع، ص236

(4) ابن خلدون، مقدمة، ج1، ص467، ص46

(5) وهو ورق النخيل، ينظر: ابن منظور، لسان، ج7، ص33.

(6) المقصود الحقيبية، ينظر: ابن منظور، لسان، ج9، ص93.

(7) الشافعي، تاريخ، ج45، ص62. المكي، سمط، ج4، ص42. عاشور، المجتمع، ص236، ص237. القحف يصنع من الخشب ويوضع على الرأس، ينظر: ابن منظور، لسان، ج9، ص276.

(8) البداية، ج13، ص215

(9) يلاحظ من النص أن المقصود هو نوع من أنواع الملابس التي تخص الأشخاص الذين يعملون في السوق ولكن لم يرد وصف لها: ينظر، ابن تغري، النجوم، ج16، ص278،

وهذه الإشارة التي وردت عند ابن تغري بردي تدل على وجود أزياء خاصة بأهل السوق، والأهم من ذلك أن هذه الملابس تدل على الوظائف والأعمال المختلفة في الدولة المملوكية بشكل عام، ويشير إلى وجود زي خاص بالكتاب، وذكر صاحب النجوم في بعض الإشارات عندما تحدث عن " ابن أبي الفرج وهو على زي الكتاب ولهذا لم نذكره في الأمراء "(3).

أما الطباقون فكان لهم ملابس خاصة فقد تحدث القرمانى عندما ذكر السلطان الملك الظاهر أبا سعيد جقمق(4) 842هـ/ 1438م وذكر اختفاء العزيز من القلعة فقال: "فلما كان وقت الإفطار والناس على أسمطتهم ألبسه الطباخ ثيابه وحمل على رأسه قدرا وأخرجه... وصار مع مملوكه أردمر ينتكر في كل يوم في زي حتى دخل في زي نساء "(5)، وبهذا يتضح لنا اختلاف الأزياء والملابس في المجتمع الإسلامي للدولة المملوكية سواء كان ذلك في مصر أو بلاد الشام بحيث أن العزيز سابق الذكر كان يلبس كل يوم زياً مختلفاً عن الزي الذي سبق له أن لبسه، وذكر المقدسي عن سكان بيت المقدس " لهم تجمل يلبسون الأردية،(6)، كل عالم وجاهل ولا يتخففون في الصيف إنما هي نعال الطاق "(7)، أشار هنا إلى أهل بيت المقدس لا يخففون ملابسهم في فصل الصيف كما يتساوى الجميع من عالم وجاهل في لبس ما يسمى بالأردية وأشار إلى لبس النعال ولباس الرأس الطاق، ويبدو أن العلماء في بيت المقدس كانوا يتزهدون في الملابس، ومن ذلك عندما زار بيت المقدس عباد الأرسوفي قال "رأيت... شيخاً كأنه

(1)المهماز وهو آلة من حديد تكون في رجل الفارس، فوق كعبه، فوق الخف وما في معناه، ومؤخره إصبع محدد الرأس إذا أصاب جانب الفرس تحركت وأسرعت في المشي أو جدت في العدو، وهو تارة يكون من ذهب محض، وتارة يكون من فضة، وتارة يكون من حديد مطلي بالذهب أو الفضة؛ وقد اعتاد القضاة والعلماء في زماننا تركه. ينظر، الفلقشندى، صبح، ج12، ص144.

(2) النجوم، ج16، ص278

(3) ابن تغرى، النجوم، ج15، ص415

(4) كان جار كسى الجنس وأخذ من بلاده صغيراً وجلبه خوارجاً تاجر إلى الديار المصرية فابنتاعه من الأتابك إينال اليوسفي ورباه عنده وأرسله مع والدته إلى الحج ثم عاد جقمق إلى القاهرة وأقام بها مدة يسيرة وتعارف = على الملك الظاهر برفوقا الذي أخذه وقد اختلفت الأقوال في أمر عتقه فمن الناس من قال إن أمير على كان أعتقه قبل أن يطلبه الملك الظاهر منه فلما طلبه الملك الظاهر سكت أمير على عن عتقه لتتال جقمق السعادة بأن يكون من جملة مشتروات الملك الظاهر وكان كذلك وهذا القول هو الأقوى والمتواتر بين الناس مما مهد لوصوله إلي الحكم: ينظر، ابن تغري، النجوم ج15، ص258-263.

(5) أخبار الدول، ج22، ص310، ص311. ابن تغرى، النجوم، ج166، ص327.

(6) الرداء بالمد ما يرتدي به القوم وقال أبو البقاء الرداء في الأصل ثوب يجعل على الكتفين والمنكبين ومجتمع العنق وذلك يفعله ذوو الشرف وقد تجوز به عن التعظيم بالكبير: ينظر، المناوي، التعاريف ج1، ص361. ابن منظور، لسان ج14، ص318.

(7) التقاسيم، ج1، ص16. لم أعتز علي وصف لهذه الملابس.

محترق بنار عليه مدرع سوداء و عمامة سوداء⁽¹⁾، ويلاحظ أن المقصود "عليه مدرع" هي الدراعة والتي انتشر استخدامها ولبسها في القرى وأطلق عليه أحيانا اسم الجبة أو الفرجية⁽²⁾، حيث أكد ذلك المقدسي في قوله: "ولا يتدرع إلا أهل القرى والكتبة ولباس القرياتيين برستاق إيليا"⁽³⁾، وهذا يظهر لنا أن سكان القرى في فلسطين خلال فترة العصور الوسطى كانوا يلبسون هذا اللباس سابق الذكر والذي استمر وجوده خلال الفترة المملوكية كما تبين لنا المعلومات التي قدمها صاحب كتاب الأنس عن زهد العلماء. وبما أن معظم سكان القرى من الفلاحين فقد ذكر أن ملابسهم من الثياب الزرقاء والبدو يلبسون الصوف على رؤوسهم⁽⁴⁾، ومن الملابس التي شاع لبسها في المجتمع الفلسطيني، السروال⁽⁵⁾ وذكر أن سكان مدينة نابلس كانوا متشابهين في الملبس "كساء واحد حسب بلا سراويل"⁽⁶⁾، وكبار رجال الدولة وأمراؤها ورجال القضاء والفقهاء يرتدون السراويل، ولم يكن ارتداء السراويل، قاصرا على الرجال دون النساء، بل كانت النساء يرتدين السراويل وكانت السراويل بالنسبة للمرأة من الملابس الخارجية ومن المعروف أن النساء يمكنهن في بيوتهن بدون سراويل⁽⁷⁾.

وشاع استخدام النساء في العصر المملوكي لنوع من السراويل الطويلة، ومما يؤكد ذلك أنه عندما قتلت شجرة الدر أولى سلاطين الدولة المملوكية عثر عليها في أحد الخنادق أسفل القلعة وليس عليها سوى سروال شد إلى وسطها بواسطة تكة، وقد أكد هذا المقرئ في عندما قتلت في حوادث سنة 655 هـ/1256م و أقوها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سراويل وقميص وأخذ بعض أراذل العامة تكتة⁽⁸⁾ سراويلها⁽⁹⁾، وهو بذلك أشار إلى أنواع السراويل النسائية التي كانت تلبسها النساء في العصر المملوكي. بمعنى أن هذه إشارة إلى بعض أنواع الملابس في المدن الفلسطينية ولو أن سكان مدينة نابلس كان لبسهم متشابهاً بلا سراويل ولكن ربما أن مثل هذه الملابس كانت منتشرة في غيرها من المدن أخرى .

(1) العليمي، الأنس، ج2، ص28

(2) العليمي، الأنس، ج1، ص288. غوانمة، التاريخ، ص151

(3) التقاسيم، ج1، ص166، المقصود بالرستاق السواد يعني الحقول، ينظر: ابن منظور، لسان، ج10، ص116.

(4) ابن خلدون، مقدمة، ج1، ص404-411. ص475 عاشور المجتمع، ص239

(5). وتتكون السراويل عموماً من غطاء وسط الجسم وامتداداً إلى نهاية الساقين وكانت في شكلها العام ملائمة لحركة الجسم أثناء المسير والجلوس في حين كانت ألوانها تتماشى مع الملابس الأخرى مما جعل مرتديها أكثر أناقة وقبولاً في الوسط الاجتماعي؛ ينظر، إبراهيم، الحياة، ص90

(6) التقاسيم، ج1، ص167

(7) المقرئ، السلوك، ج1، ص487. السيد، تاريخ، ص194

(8) حزام السراويل

(9) المقرئ، السلوك، ج1، ص494. عبد الرزاق، المرأة المملوكية، ص174.

ولا سيما أن مثل هذه الملابس كان لها انتشار في العصر المملوكي فقد ذكر المقرئزي في حوادث سنة 659 هـ/1260م أن السلطان الظاهر بيبرس ركب هو والخليفة وصليا صلاة العيد وحضر الخليفة إلى خيمة السلطان وألبسه " سراويل الفتوة" (1)، مما يشير إلى وجود مثل هذه الملابس خلال العهد المملوكي.

وأغطية الرأس كانت موجودة من ضمن الملابس إبان عصر السلاطين المماليك وهي العمام البيضاء والتي يلبسها اليهود والنصارى على السواء (2)، وقد أكد فابري خصائص بعض الألبسة وخاصة غطاء الرأس عندما زار الأماكن المقدسة في بيت المقدس فقال: " أخذ السادة المسلمون الذين لهم علاقة بفتح الكنيسة أماكنهم ... كانوا رجالا نوى حضور جيد وقد تقدموا بالسنيين يتسمون بالوسامة لهم لحى طويلة وأخلاق جادة ويرتدون ملابس من الكتان ورؤوسهم ملفوفة بعدد لا يحصى من اللفات بقماش كتانى رفيع" (3).

وهو بذلك يقدم الشكل الصحيح لهذه العمامة والمادة التي صنعت منها وهو الكتان الرفيع بخلاف الكتان الذي تصنع منه الملابس العادية .

أما الأب سوريانو الذي عاش في مدينة القدس فترة من الزمن فقد قارن بين بعض العادات التي توجد في بيت المقدس والعادات التي وجدت في أوروبا، فقال: نحن نخلع غطاء الرأس عند التحية لكنهم يخلعون الأحذية، عند التحية، ونحن نربط الأحزمة فوق الملابس وهم يربطونها تحتها، وهم يرتدون الكتان ونحن نرتدي الصوف (4)، ويبدو من حديث العليمي أنه كان لكل من مصر والشام طريقة في لبس العمامة، فقد ذكر في سنة 880 هـ/1475م أن الأمير تغرى بردى ولي النيابة في القدس "وكان يقال له أبو القرون وسبب ذلك انه كان يلبس العمامة على طريقة أمراء مصر ولم يعهد ذلك قبله ببيت المقدس فظهر هذا اللقب عليه" (5)، ومن أغطية الرأس التي شاعت في الشام في فترة العصور الوسطى القلنسوة (6) ويبلغ طولها شبرين إذ كان اللباس المميز للقضاة آنذاك، حيث تضى على القاضي جانبا من الهيئة الاجتماعية ذات الصلة بمكانته الاجتماعية وقدم العمري وصف لملابس

(1) المقرئزي، السلوك، ج2 ص535. سراويل الفتوة بنظولونات خاصة يلبسها من يصطاد الحمام بالبندق، ينظر: دهمان، معجم، ص89.

(2) المقرئزي، السلوك، ج2، ص337، ابن تغرى، النجوم، ج9، ص70، 71. السيوطي، تاريخ، ج1، ص485.

(3) رحلة ، ق 2 ، ج 38 ص 462 .

(4) Treatise on the holy land, p-203- 204، نقلا، عن ،علي، القدس، ص262

(5) الأوس ، ج 2 ، ص 280

(6) القلنسوة و القلنسية و القلنساء و القلنيسة من ملابس الرؤوس معروف وجمع القلنسوة و القلنسية و القلنساء

قلانس: ينظر ، لسان ، ج6، ص181

القضاة بالتفصيل حتى التي يلبسوها وقت ركوب الخيل⁽¹⁾، ويرجع انتشار هذا النوع من الأغطية إلى العهد العباسي وكان السبب في لبس الناس للقلانس أن الخليفة العباسي المنصور سنة 153 هـ/769م "ألزم الناس بلباس القلانس المفرطة الطول وتسمى بالدنية لشبهها بالدين، وكانت تعمل من كاغد ونحوه على قصب ويعمل عليه السواد شبه من الشربوش"⁽²⁾، وفي سياق الحديث عن أغطية الرأس كجزء من الملابس التي انتشرت في العهد المملوكي فقد ظهر الشربوش الذي تميزت به طبقة الأمراء، والشربوش مثل شئ يشبه التاج⁽³⁾، ويبدو أن هذا النوع من الملابس قديم يرجع إلى فترة الدولة العباسية حيث أورد ابن كثير في حديثه عن الشعار العباسي - وهو السواد الذي يلبسونه في الأعياد والمناسبات - فقال: "وكان جندهم لا بد من أن يكون على أحدهم شئ من السواد، ومن ذلك الشربوش الذي يلبسه الأمراء إذا خلع عليهم"⁽⁴⁾، وذكرت المصادر وجود مثل هذه النوع في العهد المملوكي، ومن الإشارات التي دلت على وجوده أمر الملك الكامل بن الملك السعيد بن العادل "بطلب خاناه، ولبس الشربوش ودخل القلعة ودقت له الكوسات على بابها ثم خرج السلطان العادل كتبغا بالعساكر إلى دمشق"⁽⁵⁾، وذكر ابن العديم أن المنزر كان يلبس فوق الشربوش⁽⁶⁾ إلى عهده⁽⁷⁾. فقد ذكر أن فخر الدين ابن شيخ الحمودي الجويني كان أميراً جليلاً فاضلاً متأدباً وكان أخو الكامل الأيوبي في الرضاة حيث كان في أول أمره معمماً "فألزمه الكامل أن يلبس الشربوش وزى الجند"⁽⁸⁾.

وذكر المقرئ في حوادث سنة 736 هـ/1335م ما يشير إلى أن مثل هذا النوع من الملابس أختص الأمراء وأن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون "لبس الأمير إبراهيم الشربوش"⁽⁹⁾، وقد وصف المقرئ الشربوش أنه عبارة عن قلنسوة طويلة يلبسها الأمراء بدلاً من العمامة⁽¹⁰⁾.

(1) مسالك، ج3، ص271. إبراهيم، الحياة، ص89

(2) يلبس علي الرأس ويصنع من الكتان وفي بعض الأحيان من الذهب، ابن تغري، النجوم، ج9، ص100. ابن العماد، شذرات، ج1. الذهبي، العبر، ج1، ص219

(3) ابن كثير، البداية، ج10، ص5. المقرئ، السلوك، ج3، ص198. الصفدي، الوافي، ج، ص29، 347. الكتبي، فوات، ج2، ص67. الأشقر، نائب، ص129. فهيم، الفن، ص44، ص45

(4) ابن كثير، البداية، ج10، ص5.

(5) القلقشندي، صبح، ج13، ص347

(6) المقصود الطربوش الذي يوضع على الرأس

(7) بغية الطلب في تاريخ حلب، ج6، ص2910

(8) الصفدي، الوافي، ج، ص29، 347. الكتبي، فوات، ج2، ص67

(9) السلوك، ج3، ص198

(10) المصدر نفسه، ج4، ص221

ومن الملاحظ أن هذه الإشارات التاريخية التي أوردها المقرئزي تدل أن من لبس الشربوش هم الأمراء بحكم عملهم وتقلهم، كانوا في بلاد الشام ومنها فلسطين، وكانوا يشكلون إحدى عناصر طبقات المجتمع التي تميزت عن غيرها بطريقتها الخاصة في الحياة حتى في الملابس، ويبدو أن هذا الشربوش قد انتشر في بلاد الشام ولم يقتصر على فئة معينة⁽¹⁾، فقد شاع بين مختلف الفئات الاجتماعية، وانتشر لبس (الطرحة) في بلاد الشام وهي قطعة من القماش مصنوعة من الشاش الموصلي⁽²⁾

ويبدو أن هذه الطرحة كانت تلبس فوق العمامة لما ذكر أن فلانا عليه الطرحة على عمامته⁽³⁾ وكان استخدامها إما بطرحها على الكتف أو بتدويرها على العمامة تتدلى على الظهر لتشكل زياً اجتماعياً ملائماً⁽⁴⁾، ويلاحظ أن الطرحة انتشرت بين طبقة القضاة أو العلماء فقد ذكر ابن حجر عن ابن التركماني أنه اجتمع بالشاميين والمصريين " في النيابة وكان قد تكلم مع أهل الدولة واستجز توقيعا أن يلبس الطرحة نظير القاضي الشافعي " ⁽⁵⁾، وكذلك ذكر القاضي " مجد الدين قاضي الطور وكان رجلاً فاضلاً يلبس الطرحة ويذكر بها الدرس"⁽⁶⁾ فقد ذكر ابن حجر أن السراج الهندي قاضي الحنفية ساوى قاضي الشافعية في لبس الطرحة⁽⁷⁾، ولم يقتصر لبس الطرحة في العهد المملوكي على الرجال فقط فقد استخدمتها النساء أيضاً ومن ذلك ذكر أن تغرى بردى في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون أنه "استجد النساء في زمانه الطرحة، كل طرحة بعشرة آلاف دينار وما دون ذلك إلى خمسة آلاف والفرجيات⁽⁸⁾ بمثل ذلك⁽⁹⁾، كذلك كانت هناك فوارق واضحة بين المرأة المسلمة وأختها الذمية في عصر السلاطين المماليك، فإذا ارتدت المرأة المسلمة إزاراً أبيضاً كما سبق فإن القبطية ألزمت بان يكون إزارها أزرق اللون⁽¹⁰⁾، وحدث هذا التمييز في الملابس كما سبق الحديث في الفصل الأول عند أهل الذمة في وقت الحروب والأزمات، ففي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث صدر مرسوم " بلبس النصارى

(1) السلوك ، ج 3 ، ص 198. إبراهيم ، الحياة ، ص 89

(2) النعمي ، الدارس ، ج 1 ، ص 428. إبراهيم ، الحياة ، ص 89

(3) الذهبي ، معرفة القراء الكبار ، ج 2 ، ص 537

(4) المقرئزي، السلوك ، ج 4 ، ص 285. إبراهيم ، الحياة ، ص 89 .

(5) الدرر ، ج 4 ، ص 182

(6) النعمي ، الدارس ، ج 1 ، ص 428

(7) إنباء، ج 1، ص 14

(8) الفرجية تصنع من الحرير البنفسجي بطرز ذهب وبدائرها تركيبية زرش بحاشية حرير أزرق خطائي وشاش أسود وقبعا أسود بعذبة ينظر: ابن تغري، النجوم ج 1 ص 149.

(9) النجوم، ج 9، ص 176

(10) عاشور ، المجتمع ، ص 244 .

العمائم الزرق" وتوضع أجراس في أعناقهم" ولا يتزيوا بزّي المسلمين نسائهم وأولادهم⁽¹⁾، وألبست اليهود العمائم الصفرة⁽²⁾. ويلاحظ من أنواع الملابس التي ذكرها القلقشندي عند الحديث تمييز أهل الذمة من اليهود والنصارى فقد لبسوا نفس أنواع ملابس المسلمين و لكن بألوان مختلفة فقال " تكون عمائمهم عشرة أذرع بغير زيادة و أن يلبسوا الفراجي الزرق ... و أن لا تدخل نسائهم الحمامات مع المسلمات و أن تكون خفاها لونين و أن يكون إزار النصرانية أزرق و إزار اليهود أصفر و كتب بذلك إلى سائر الممالك ليجبروهم على ذلك"⁽³⁾، فالفراجي والإزار⁽⁴⁾ والخف هي أنواع ملابس كان يلبسها المسلمون ولكن تم تمييزها لأهل الذمة و يلاحظ أنه تم تعميم هذا المرسوم على أرجاء الدولة المملوكية في مصر و الشام بشكل عام و من المؤكد أنها شملت فلسطين بسبب وجود هذه الطوائف كأحد تركيبات المجتمع الفلسطيني خلال العهد المملوكي .

و قد ذكر المقرئزي في حوادث سنة 793هـ/1390م " تشبه عوام النساء في اللبس بنساء الملوك و الأعيان "⁽⁵⁾. و توضح لنا هذه النصوص أن الدولة كانت تتدخل في أنواع الملابس عندما ترى أنها غير لائقة بالأخلاق العامة و تفرض في بعض الأحيان أنواعاً معينة من الملابس كما فعل كمشبيغا⁽⁶⁾، و الإشارة الأهم وصف ملابس بعض الطبقات الاجتماعية أثناء الحديث عن هذا النوع من الملابس فقد تطرق المؤرخون إلى شكل ملابس البدويات أنها كانت واسعة الأكمام، و إلى جانب القمصان الواسعة الطويلة عرفت نساء العصر المملوكي نوعاً آخر من القمصان القصيرة الضيقة التي أطلق عليها اسم القنادير⁽⁷⁾، و قد تطرق المقرئزي في سنة 774هـ/1372م إلى هذا النوع من الملابس عندما ذكر هدية الأمير منجك نائب الشام أنه في القود⁽⁸⁾ الذي قدمه " ثلاث قباقيب نسويه من

(1) ابن تغري ، النجوم ، ج9 ، ص71 ، الذهبي ، من ذبول ، ج6 ، ص181 .

(2) ابن حجر ، الدرر ، ج5 ، ص406 .

(3) مآثر الأناقة ، ج2 ، ص158 .

(4) هو ثوب من الحرير يغطي كل الجسم وقد كانت النساء يلبسنه عموماً ، ينظر: ماجد، نظم، ص85

(5) السلوك ، ج5 ، ص312 .

(6) سمى نسبة إلى نائب السلطنة المملوكية في القاهرة كمشبيغا في سنة 793 هـ/1390م وكان يشبه قمصان العريان، ينظر: السلوك ، ج5 ، ص312 . النجوم ، ج12 ، ص30.

(7) وهي ملابس نسائية مصنوعة من الحرير ومرصعة بالجواهر لم يتم وصفها بشكل دقيق، ينظر: المقرئزي، السلوك ج4 ، ص351 – 352 . أحمد، المرأة، ص179 .

(8) القود ما يبعث به قبائل العرب إلى السلطان من الهدايا من الخيل والإبل والحيوانات، ينظر: دهمان، معجم ص126.

ذهب ... و عدة قنادير من حرير مزركش بتراكيب و مرصعة من الجواهر من ملابس النساء و عدة كنايش⁽¹⁾.

و يلاحظ مما تقدم أن هذا النوع من الملابس صنع في بلاد الشام و من الطبيعي أن ينتشر في فلسطين خلال العهد المملوكي، ويشير أيضاً أن ملابس النساء كانت تتغير طبقاً لما يسمى بالموضة اليوم .

و قد أشار المؤرخون إلى نوع من أنواع القمصان الذي يستخدم في العصر المملوكي خاصة بعد أن نادى ألا تلبس امرأة قميصاً واسع الأكمام وألا يزيد تفصيل القميص على أكثر من أربعة عشر ذراعاً وكانت النساء يبالغن في سعة القمصان حتى كان يُفصل القميص الواحد من اثنين وسبعين ذراعاً من القماش و فصلوا قميصاً سموها كشيغاوية وقال: " ورأيت القمصان الكشيغاوية المذكورة أكمامها مثل أكمام قمصان العربان " و كان هذا في عهد السلطان الملك الظاهر برقوق و كان قد فرض الإجراءات النائب كمشيغا أثناء غياب السلطان في الشام⁽²⁾. ويلاحظ أن القميص لم يقتصر لبسه على الرجال فقط بل كان إحدى لباس النساء في بلاد الشام فقد تطرق المقريزي لأوصاف هذا النوع من الملابس في حوادث سنة 705 هـ/1305م أنه " تحدثت منجك مع قاضي القضاة بدار العدل يوم الخدمة بحضرة السلطان و الأمراء فيما أحدثه النساء من القمصان ... وأن القميص منها مبلغ مصروفه ألف درهم و أنهن أبطلن لبس الإزار البغدادي و أحدثن الإزار الحرير بألف درهم و أن خف المرأة و سرموزتها بخمسائة درهم"⁽³⁾، وأصدرت فتوى بتحريم مثل هذه الأنواع من الملابس و يظهر من قول المقريزي أن القميص كان طويلاً جداً تخب أذيالها على الأرض بأكمام سعة الكم ثلاثة أذرع فإذا أرخته غطى رجليها و عرف القميص بالبهطلة، و مبلغ مصروفه ألف درهم فما فوق⁽⁴⁾. ولبس العرب في عهد السلطان محمد بن قلاوون في الشام بشكل عام الحرير الأطلسي المعدني بالطرز الزركشي⁽⁵⁾ والشاشات المرقومة⁽⁶⁾ بالطرز ولبسوا القرضيات⁽¹⁾ والداير⁽²⁾ المطرز بالذهب⁽³⁾.

(1) الكنبوش وهو ما يستتر به مؤخر ظهر الفرس وكفله؛ وهو تارة يكون من الذهب الزركش، وتارة يكون من المخايش، وهي الضة الملبسة بالذهب، وتارة يكون من الصوف المرقوم؛ وبه يركب القضاة وأهل العلم. =ومنها: العباءة بالمد وهي التي تقوم مقام الكنبوش، ينظر: . الفلقشندی، صبح، ج4، ص13. السلوك ، ج4 ، ص351 – 352 .

(2) المقريزي، السلوك ، ج5 ، ص312. النجوم ، ج12 ، ص30 . أحمد ، المرأة ، ص178 ، ص179 . (3) السلوك ، ج4 ، ص111 .

(4) السلوك ، ج4 ، ص110–111 . عبد الرازق ، المرأة ، ص176–177 .

(5) طرز الثوب من حواشيه بخيوط الذهب، وزركش الثوب أي زخرفته وقد تكون لجمع الثوب، ينظر: دهمان، معجم، ص86 .

(6) القماش المزخرف بالذهب والألوان المختلفة، ينظر: دهمان، معجم، ص95 .

وكان لبس عرب الشام قبل عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث الطراير (4) الحمر من تحت العمائم الشامية من القطن و كانت خلعهم إما مسمط (5) أو كنجي (6)

وأول من لبس (طرد و حش) الأمير مهنا بن عيسى" في أيام المنصور لاجين لمودة بينهما " وهو نوع من قماش حرير منقوش بمناظر الصيد و الطرد كانت تصنع منه الهدايا السلطانية و الطرد و حش وصف بأنه ثاني الأطلسين(7).و قد ذكر بعض المؤرخين من أمثال المقرئزي كيفية تغير الملابس من فترة لأخرى و في بعض الأحيان كان للهدايا التي يقدمها السلطان دور في انتقال شريحة من شرائح المجتمع من زى لآخر، فقد تعرض السلطان الناصر محمد لبعض اللوم من العرب وخاصة عندما قدم لهم الكثير من الهدايا و الملابس لنسائهم فقال له " صفرة بن سليمان بن مهنا: (لقد أفستد علينا نسواننا) ... لكثرة ما غمرهن السلطان بالمال و قال له مرة بن مهنا مع قاصده يقول له: " خف الله في المسلمين و بيت المال فإنك تغرقه على العرب و نسائهم و صغارهم فكيف يحل لك ذلك ومتى سمعت عن بدوية أنها تلبس غير الثوب من القطن والبرقع المصبوغ و في يدها سوار الحديد ... فو الله لقد أفستد حال العرب و حال نسائهم" (8).

و مما سبق يمكن لنا معرفة تغير الملابس والأزياء من الملابس البسيطة والحلي الرخيصة و استبدالها بالحرير الأطلس و الطرح المزركشة والحلي المذهبة

إضافة إلى أن هذه المعلومات التاريخية تشير إلى نوعية الملابس التي انتشرت بين شريحة من شرائح المجتمع الفلسطيني البدوي و هو الثوب البسيط الذي لا يزال وجوده إلى اليوم كأحد معالم التراث الفلسطيني، أما الأشراف – و هم سلالة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من فاطمة الزهراء(9).حيث أنه في سنة 773هـ/1371م رسم السلطان الأشرف أن الأشراف بالديار المصرية و البلاد الشامية أن يلبسوا عمائمهم بعلامة خضراء بارزة للخاصة والعامّة إجلالاً لحقهم و تعظيماً

(1)لم اعثر على تعريف لها .

(2)ملابس مطرزا بالذهب تلبسها النساء،ينظر:المقرئزي،السلوك ،ج3 ، ص305 .

(3)المقرئزي ، السلوك ، ج3 ، ص305 .

(4)والطرطور قلنسوة للأعراب طويلة الرأس : ينظر،ابن منظور، لسان ج4،ص501

(5)المسمط : هو القماش من الحرير الأصفر و الأحمر مزين بنقش بارز: ينظر السيد ، تاريخ ، ص196 .

(6)الكنجي : بغير ضبط و هو قماش منسوج من قطن و حرير: ينظر، المقرئزي السلوك ج3 ، ص305 .السيد تاريخ ، ص196 .

(7)المقرئزي السلوك ج3 ، ص305 . السيد تاريخ ، ص196 – 197

(8)المقرئزي، السلوك ج3 ، ص305 . السيد تاريخ ، ص199 .

(9)القلقشندی ، صبح ، ج11 . ص161 .

لقد رهم ليقابلوا بالقبول والإقبال ويمتازوا عن غيرهم من المسلمين . وقال فيها الأديب شمس الدين محمد بن إبراهيم المزين :

أطراف تيجان أنت من سندس خضر كأعلام على الأشراف
و الأشراف السلطان خصصهم شرفا لنعرفهم من الأطراف⁽¹⁾

ومن الملابس التي عرفها العرب في بلاد الشام و فلسطين في العهد المملوكي أيضاً النقاب والذي لبسه الرجال، و عرف باللثام الذي سبق الحديث عنه؛ ليقبهم من لفح الحر وانتشر اللثام كزي لدى عامة النساء العرب بعد الإسلام وخاصة بعد أن جعله النبي صلي الله عليه وسلم لزوجاتهم، فسارت النساء المسلمات على نفس المنهج، وقد أكد فابري عندما زار غزة علي وجود مثل هذا النوع من الملابس حيث قال: "قدم...إلي ساحتنا بعض العقيلات المسلمات مع خادماتهن، ووجوههن مغطاة كما هي عادتتهن... ولم نستطع رؤية ووجوههن بسبب حجبهن"⁽²⁾. وذكر أن النساء في بلاد الشام لا تخرج بدون إزار ويلبس على وجوههن المناديل حتى لا يراهن أحد⁽³⁾.

و قد أكده المقرئ في قوله: النساء تشبهت بالرجال في لبس بعض الملابس و خاصة العمامة فقد قال: " إن امرأة لا تتعمم بعمامة ولا تتزيا بزي الرجال ومن فعلت ذلك بعد ثلاثة أيام سلبت ما عليها من الكسوة"⁽⁴⁾.

وتطرق البعض للسبب الذي دفع النساء للتشبه بالرجال في الملابس و خاصة لباس الرأس وهو ما نزل بالناس من الفقر مع أنه ذكر رأي يتناقض مع هذا الرأي و هو أن النساء بالغت في زخرفة هذه الطواقي بالذهب و الحرير والمرجح أن النساء تجملن بملابس الرجال بسبب ما انتشر في هذا العصر من ترف و من صور هذا الترف في الملابس ما أكد عليه البعض من أن النساء في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون واستجدت "الخلاخيل"⁽⁵⁾ الذهب والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة والقباقيب المرصعة بالذهب والأزر الحرير وغير ذلك"⁽⁶⁾.

(1) ابن تغري ، النجوم ، ج11 ، ص56 .عاشور ،المجتمع ، ص235. السيد، تاريخ ، ص197 .

(2) رحلة، ق4، ص1250. السيد ، تاريخ ، ص198 .

(3) السيد ، تاريخ ، ص198 .

(4) السلوك ، ج2 ، ص3.

(5) الخلاخل لغة في الخلاخل أو مقصور منه واحد خلاخيل النساء و المخلخل موضع الخلاخل من الساق و الخلاخل الذي

تلبسه المرأة و تخلخلت المرأة لبست الخلاخل: ينظر، ابن منظور، لسان، ج11، ص221

(6) ابن تغري ، النجوم ، ج9، ص176.عاشور،المجتمع ، ص241 .

ووصف الرحالة فابري عندما زار غزة نوعاً من الملابس التي ارتدتها النساء على الوجه، وربما كان يقصد به البرقع⁽¹⁾ سابق الذكر حيث قال: " قدم إلى ساحتنا بعض العقيلات المسلمات و خادماتهن ووجوههن مغطاة كما هي عاداتهن "⁽²⁾، إضافة إلى أن هذا الرحالة قد أشار إلى نوع من أنواع الملابس فإنه أكد لنا الاحتشام الذي تميزت به المرأة و التي لم تحاول إظهار جمالها ومفاتها بحيث تلفت أنظار الناس إليها، ولكن ربما أن الاحتشام انتشر بين بعض الطبقات البدوية والدينية، أما سكان المدن فكانوا يتأثرون بتطور الأزياء.

و قد ذكر رحالة آخر و هو كازولا أن المرأة في بيت المقدس كانت تلبس هذا النوع من الملابس على الوجه فقال: وفي بيت المقدس لم أستطع أن أرى امرأة جميلة لأنهن يمشين ووجوههن مغطاة بحجاب سميك ويرتدين فوق رؤوسهن شيئاً يشبه الصندوق. ومن الممكن أنه كان يقصد بالصندوق القبعة التي كنَّ يقمن بصنعها يدوياً لتغطي الرأس و يتدلى منها عصابةتان من القماش الأبيض الطويل ويتدليان لأسفل⁽³⁾.

و ربما كان من بين الأسباب التي دفعت النساء خلال العهد المملوكي المبالغة في التجميل بالملابس أن النساء كانت تتشبه بنساء السلاطين و الأمراء، فقد ذكر المقرئ في حوادث سنة 793 هـ/1390م " تشبه عوام النساء في اللبس بنساء الملوك و الأعيان "⁽⁴⁾.

و مما سبق يتضح لنا أن الملابس لم تستمر على شكل واحد بل كانت تتغير من فترة إلى أخرى و كثيراً ما تدخل السلطان في الأزياء و الملابس التي انتشرت بين الرجال والنساء فكما لاحظنا سابقاً كان السلطان إذا رأى منكراً في الملابس تدخل و منع النساء من لبس بعض الملابس التي لا تليق بالأخلاق العامة و يتضح لنا من أوصاف الملابس التي قدمها المؤرخون في بعض الأحيان أنها كانت واسعة جداً إلى درجة المبالغة، وفي بعض الأحيان كانت ضيقة جداً لدرجة لا تطاق مما دفع السلطان إلى التدخل و استخدام أساليب التهيب لمنع بعض الأنواع من الملابس . أما ملابس المماليك و التي شكلت جزءاً هاماً من ملابس المجتمع أبان العهد المملوكي فقد اختلفت من جيل إلى جيل، وكثيراً ما أدخل السلاطين التغييرات و التحسينات المختلفة على ملابس الجند و الأمراء⁽⁵⁾ .

(1) البرقوق لغة في البرقع قال الليث جمع البرقع البراقع قال وتلبسها الدواب وتلبسها نساء الأعراب وفيه خرقان للعينين: ينظر، ابن منظور، لسان، ج8، ص9

(2) رحلة، ج31، ص1250

(3) Newwt: Gasola, s pilgrims p:237، نقلاً عن، علي، القدس، ص273 .

(4) السلوك، ج5، ص312. عاشور، المجتمع، ص243

(5) العمري، مسالك، ج3، ص282-287. عاشور، المجتمع، ص232، فهميم، الفن، ص43 .

وكثيراً ما تأثرت ملابس المماليك بمؤثرات خارجية فقد خضعت تلك الملابس للتأثيرات الفرنجية و المغولية ففي سنة 664هـ/1265م عندما فتح الظاهر بيبرس قلعة صغد " فرق على الأمراء العدد الفرنجية و الجوارى و المماليك " (1)،ومن التأثيرات المغولية ما ذكر أن السلطان الملك الناصر عندما حضر من الكرك كان يلبس " زي أمراء المغل في لبس الكنبك(2)، والطرز بين كتفيه و ركوب الأكاديش " (3)

ونلاحظ التطورات التي شملت الملابس المملوكية وخاصة العسكرية منها خلال العهد المملوكي ومن خلال استخدام المعاطف أو الأقبية التنزيرية التي غلب عليها أسماء تنزيرية مغولية أو تركية مثل الكمخا(4)والكنجي(5)،ومن التأثيرات الأخرى ذكر أن ابن العادل أبا بكر بن أيوب صاحب الصببية(6)وبانياس حبس بقلعة المنيرة فلما جاء التتار كان معهم وأسر في معركة عين جالوت وأحضر إلى السلطان المظفر قطز " فضرب عنقه؛ لأنه كان قد لبس سرقوج(7)التتار " (8).وتعددت ملابس المماليك باختلاف المواقف والمناسبات فهناك الثياب الخاصة بالخدمة السلطانية، وأخرى بالسفر وثالث بالسرحدات والصيد(9)،

وتجدر الإشارة إلى أن المماليك قد حافظوا على لباس الرأس وهو الذي كانوا يلبسونه في الدولة الأيوبية وهو عبارة عن كلوتات صفر بغير عمائم (10)مضربة بكلبندات(11) بغير شاشات(1).

(1)المقريزي، السلوك، ج2، ص 35 .

(2)لم أعثر على تعريف واضح له ولكن يبدو أنها ملابس تتعلق بالأمراء من المغل

(3)الكديش الحصان الكبير السن ويستعمل للجر أو الركوب: ينظر، دهمان، معجم، ص129. الصفدي، الوافي، ج24، ص196.

(4)الكمخا وهي ثياب حرير وتصنع ببغداد وتبريز ونيسابور وبالصين: ينظر، ابن بطوطة، رحلة ج1، ص334.

(5) ابن تغري،النجوم، ج9، ص61. سحر، دراسات، ص398، يبدو أن الكنجي نوع من أنواع الملابس التنزيرية كان يلبسها المماليك من التتار، ينظر: الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص182 .

(6)أنشأها الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل شقيق الملك المعظم وكان صاحب بانياس تقع بين بانياس وتبسين وهونين: ينظر، بدران، منادمة، ج1، ص183.

(7)أما السرقوج فهو أحد أغطية الرأس الخاصة بالعسكريين في العهد المملوكي وكان ضمن ملابس بركة خان زعيم القبيلة الذهبية نفسه: ينظر، سحر، دراسات، ص398. عاشور، المجتمع، ص232. فهيم، الفن، ص43 .

(8)ابن كثير، البداية، ج13، ص225 .

(9)العمرى، مسالك، ج3، ص282-287. عاشور، المجتمع، ص232. فهيم، الفن، ص43. ص44 .

(10)القلقشندى، صبح، ج4، ص41. فهيم، الفن، ص44 .

(11)الكلبندات هي عبارة عن لباس للرقبة تشد الكلوتة التي فوق الشعر وتمنعها من السقوط أو الحركة، ينظر: المقريزي، الخطط، ج2، ص217. فهيم، الفن، ص43 .

وكانت "شعورهم مصفورة" (2) دبابق (3) في أكياس حرير ملونة، وكان في خواصرهم موضع الحوائص (4) بنود ملونة أو بعلبكية، وأكمام أقبية ضيقة على زي ملابس الفرنج، وأخفافهم برغالي (5) أو سقامين (6)، ومن فوق قماشهم كمرات بحلق وإبزيم، وصوالقهم (7) كبار يسع كل صولق نصف وبية أو أكثر، ومنديلهم كبير طوله ثلاث أذرع، فأبطل المنصور ذلك كله بأحسن منه. وكانت الخلع للأمرء (8). وفي عهد الأشرف خليل بن قلاوون غير لون العمامة من الأصفر إلى الأحمر وأمر بالعمامة من فوقها و بقيت كذلك حتى حج الملك الناصر وحلق شعره فقلده الجميع وكانت عمامته صغيرة فزيد في قدرها في عهد السلطان شعبان بن حسين (9).

أما ثياب المماليك التي تلبس على أبدانهم فيلبسون الأقبية التتيرية والتكلاوات فوقها ثم القباء (10) الإسلامي فوق ذلك يشد السيف من جهة اليسار والصولق من جهة اليمين (11). أما الأمرء والمقدمون وأعيان الجند فيلبسون أقبية أقصر من القباء التحتاني بلا تفاوت

(1) ابن تغري، النجوم، ج 7، ص 330. الشاش قماش يوضع للجروح أو على العمائم وتجع شاشات، وقد تطلق على قماش الحطة واستعمل أيضاً كنوع من الزينة الحرير يوضع على الرأس ويزخرف بالذهب واللؤلؤ وقد شاع استخدامها حوالي سنة 780 هـ/1378م، ويبلغ في الإنفاق عليه، ينظر: دهمان، معجم، ص 95

(2) ضفر الضفر نسج الشعر وغيره عريضا والتضفير مثله والضفيرة العقبيصة وقد ضفر الشعر ونحوه ويضفره ضفراً نسج بعضه على بعض والضفر الفتل وأنضفر الحبلان إذا التويا معاً، ينظر: ابن منظور، لسان، ج 4، ص 489.

(3) الدببقي: من دق ثياب مصر معروفة تنسب إلى دببق، ينظر: ابن منظور، لسان، ج 4، ص 489.

(4) الحياصة: ويعبر عنها بالمنطقة، ويقال فيها: الحواصة: وهو ما يشد في الوسط وهي من الآلات القديمة، يلبسها الملك الأمرء عند لباسهم الخلع والتشريف، وتختلف بحسب اختلاف الرتب فمنها ما يكون من ذهب مرصع بالفصوص، ومنها ما ليس كذلك، ينظر: القلقشندي، صبح، ج 4، ص 57. العمري، مسالك، ج 3، ص 282 — 283. دهمان، معجم، ص 65.

(5) المقصود أخفاف مصنوعة من جلد بلغاري اسود، ينظر: العريني، المماليك، ص 223.

(6) هو خف آخر يلبس فوق الخف الأول، ينظر: العريني، المماليك، ص 223.

(7) جمعها: صوالق. الصولق عبارة عن حقيبة كبيرة يعلقها المملوك في الجانب الأيمن من حياصته التي يشدها على وسطه ويثبت فيها منديل: ينظر حواشي القلقشندي، صبح، ج 2، ص 140. ينظر، عاشور، المجتمع، ص 223.

(8) ابن تغري، النجوم، ج 7، ص 331. القلقشندي، صبح، ج 4، ص 43. العريني، المماليك، ص 223

(9) القلقشندي، صبح، ج 4، ص 41، العريني، المماليك، ص 223. ولد الأشرف في سنة 754 هـ / 1375م بقلعة الجبل وعندما ثبت قواعده بويج للملك الأشرف شعبان بن حسين الناصر بن المنصور قلاوون، وله من العمر قريب العشرين، في سنة 777 هـ / 1375م فدقت البشائر بالقلعة. ابن كثير، البداية ج 14، ص 302. ابن تغري، النجوم ج 11، ص 24

(10) القباء: ثوب طويل يغلق من مقدمه بزراير ومفتوح حول الرقبة فتحة مستديرة و امتاز في عصر المماليك بالأكمام الضيقة ويفهم من عبارة "القباء الإسلامي" المذكورة بعد ذلك نوع من الأقبية على الطراز العربي خلاف الأقبية التتيرية: ينظر، عاشور، المجتمع ص 233.

(11) القلقشندي، صبح، ج 4، ص 41

كبير في قصر الكم و طوله من سعة الكم القصير وضيق الأكمام الطويلة و في وقت الصيف كانت معظم الملابس من اللون الأبيض وكانت تشد فوق القباء المنطقة وهي الحياصة (1)، وما وصف " بالفوقاني "من الملابس هو ما ذكر اسمه بالسلاري نسبة إلى الأمير سلاار في أيام الناصر الذي أوجده وقبل ذلك وكان يسمى " بعلوطاق" (2)، وكانت تزدان باللؤلؤ والجوهر كذلك يكون الحزام " المنطقه أو الحياصة " من الذهب أو الفضة مرصعة بفصوص الجوهر، أما المهماز فتارة يكون من ذهب أو من فضة محضة أو من حديد مطلي بالذهب أو الفضة (3)، أما عن ملابس القتال أو ما يعرف باسم الهيئة الميدانية حالياً فلقد كان إذا دُعي الجنود إلى القتال لبسوا ملابس الحرب و هي بخلاف الملابس العادية للجنود في الأوقات العادية مثل الخدمة والاستعراض وخلافه على أن أهم ما يستدعي النظر في عهد المماليك البحرية تلك العناية الفائقة بالملابس التي كانت تحاط وتزين بجوانب بواسطة الخياطين الرسميين والخُلعيين الذين يصنعون الخلع المملوكية وقد نهض المماليك بصناعة المنسوجات التي تصنع منها ملابسهم وملابس الجند (4).

أما ملابس المماليك في الشتاء فكانت عبارة عن الفوقانيات وهو رداء يلبس فوق الملابس يشبه العباءة (5)، وكانت عبارة عن ملابس ملونة من الصوف النفيس و الحرير الجيد وتحتها فراء السنجاب، ويلبس أكابر الأمراء السمور (6) والوشق (7)، ويبدو أن الأمراء والمماليك كانوا يتبعون سلطانهم في موعد تغير الملابس الصيفية والشتوية (8)، وما يدل على ما سبق ما ذكره صاحب النجوم في قوله: " لبس السلطان القماش والصوف الملون و ألبس الأمراء على العادة في كل سنة " (9)، وما يؤكد تشابه الملابس في مصر والشام و خاصة في فلسطين ما ورد في سنة 881 هـ/1476م أنه

(1) القلقشندي، صبح، ج4، ص42. عاشور المجتمع، ص233. ماجد نظم، ص75.

(2) لفظ فارسي يعني الثوب بدون أكمام أو بأكمام قصيرة، وهو يغطي الصدر فقط (بغل=إبط)، (طاق=ثياب) يلبس تحت الفرجية مفتوح الصدر، وكان يصنع من القطن البعلبكي الأبيض أو من جلد السنجاب أو من الحرير اللامع، كثيراً ما يزين بالجواهر: ينظر، دهمان، معجم، ص65.

(3) القلقشندي، صبح، ج4، ص42-43. ماجد، نظم، ص75. عاشور، المجتمع، ص234.

(4) ابن تغري، النجوم، ج2، ص298. ابن أجا، العراك، ص97. فهيم، الفن الحربي، ص43. الجزائر، النظام، ص66-71.

(5) القلقشندي، صبح، ج4، ص42. عاشور، المجتمع، ص234، العريني، المماليك، ص224.

(6) السَّمُورُ دابة معروفة تسوّى من جلودها فِرَاءً غالبية الأثمان، ينظر: ابن منظور، لسان، ج4، ص380.

(7) القلقشندي، صبح، ج4، ص42. نوع من الملابس الخفيفة: ينظر، ابن منظور، لسان، ج10، ص381.

(8) عاشور، المجتمع، ص232.

(9) ابن تغري، ج16، ص135.

ولى " الأمير ناصر الدين بن أيوب نيابة بيت المقدس الشريف وهو بغزة عوضاً عن جار قطلبي وألبسه كاملية⁽¹⁾ خضراء بفرو سمور ودخل إلى القدس نهار الجمعة " ⁽²⁾.

فهذه إشارة إلى أن ملابس الأمراء و الأعيان و الموظفين سابقة الذكر كانت نفس الملابس، وما انعكس على مصر خضعت له بلاد الشام . و قد ذكر المقرئزي في حوادث سنة 740 هـ/1339م أن السلطان أنعم على الطبعغا نائب غزة من مال دمشق بخمسين ألف درهم و ألف غرارة من غلة و حمل إليه ألف دينار و تعبئة قماش و تشريف كامل⁽³⁾.

ويلاحظ على الأمراء من المماليك أنه لا يحق لهم لبس الشاش و الكلوته وغيرها من ملابس التشريف إلا إذا كان متمتعاً برضاء السلطان، فإذا أصبح بطالاً⁽⁴⁾ و زال عنه إقطاعه أو صار مغضوباً عليه من السلطان فإنه في هذه الحالة لا يتشج بالحرير و إنما يلبس كاملية ويشد وسطه ويتوشح ويتعمم بتخفيفه وكلها من ملابس الأمراء المغضوب عليهم⁽⁵⁾.

وقد أكد المقرئزي ذلك في حوادث سنة 709 هـ/1309م عندما ذكر أن الأمراء عندما نزل السلطان قبلوا الأرض بين يديه وكان يلبس كاملية وشد وسطه وتوشح بنصفيه يعني بأنه حضر بهيئة البطل من الإمرة وكفنه تحت إبطه⁽⁶⁾، ومن المؤكد أن هذا النوع من الملابس كثر استخدامه في القدس من قبل الأمراء المماليك؛ لأن مدينة القدس في العهد المملوكي اتخذت عبارة عن منفي يرسل إليها الأمراء المماليك الذين غضب عليهم السلطان وكثيراً ما وردت في المصادر التاريخية " بطالا بالقدس " ⁽⁷⁾.

و يلاحظ من حديث محمد بن تقي الدين (ت 617هـ / 1220م) جمال ملابس المماليك لدرجة أنها كانت تلفت أنظار العامة حيث كانوا يسيرون في الشوارع وعليهم ملابس الزركش والثياب الطلس وكان الناس يتفرجون على المماليك⁽⁸⁾.

(1)الكاملية:نوع من أنواع الملابس الخارجية و لعلها ما أحدثه الملك الكامل الأيوبي ،ينظر: دهمان،معجم، ص128

(2)العليمي ، الأنس ، ج 2 ، ص319

(3)السلوك ، ج3 ، ص279 .

(4)يبدو من اللفظ أنه يطلق علي من أصبح بدون عمل من الأمراء المماليك.

(5)ابن تغري ،النجوم، ج14، ص41-42.السخاوي،الضوء،ج10،ص346.عاشور،المجتمع ، ص234 .

(6)السلوك ،ج2 ، ص440

(7)ابن تغري،النجوم ،ج10،ص326،ج11، ص15،ص32،ص162،ص164،ص210،ص212،ص304 ، ص388 ،

ص67 ، ص89 . ابن حجر ، الدرر ، ج 1 ، ص420.البطل مصطلح للدلالة على الأمير الذي يزول عنه إقطاعه

بعزله عن وظيفته ونفيه،ينظر،المقرئزي،السلوك،ج3،ص279.النقرة ،القوي الفاعلة ،ص116.

(8)مضمار الحقائق و سر الخلائق ، ج 1 ، ص188 .ابن تغري،النجوم،ج8،ص144

ومن شدة الاهتمام بالملابس والتجمل في لبسها فقد ذكر في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية أنه خلع على الأمراء والمقدمين، وكان عدة ما خلع أربع مائة وعشرين خلعة " فلما حضر الأمراء قدام السلطان بالخلع السنية وتلك الهيئة الجميلة الحسنة أذهل عقول الرسل مما رأوا من حسن زي عسكر الديار المصرية بخلاف زي التتار"⁽¹⁾.

إلى جانب الدلالة الواضحة على جمال الملابس المملوكية وخاصة زي السلطان والأمراء والعسكر أشار النص إلى التغيرات التي حدثت على ملابس الجند والتي اشرنا سابقا إلى تأثرها بالملابس المغولية ويلاحظ أن التطور على الملابس حدثت في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون .

ولا سيما أن هذه الملابس اختلفت في أنواعها حسب الموقف فكان السلطان يلبس ما يسمى بالكفتاة⁽²⁾ في المواقب الرسمية والاحتفالات وكثير توزيع الخلع على الأمراء ومنهم أمراء نيابات غزة وغيرها من النيابات⁽³⁾.

ومن المؤكد أن الخلع لم تلبس فقط عند تولى النيابة بل إن الأمراء كانوا يلبسون مثل هذه الملابس في الأعياد، وهو ما أكده قول صاحب النجوم: " ويستدل على ذلك من خلعهم في الأعياد "⁽⁴⁾. وكان زي الأمراء ومقدموا الحلقة وأعيان الجند يتميز عن زي بقية العساكر وكثيرا ما وردت في المصادر لفظة في (زي جندي) ما يؤكد هذا الاختلاف فقد ذكر في عهد السلطان الملك الظاهر جقمق أن الأمير ناصر الدين محمد الحلبي الحاجب⁽⁵⁾ " ترقى حتى لبس زي الجند "⁽⁶⁾، وذكر ابن حجر أن خليل بن كيكلي العلائي⁽⁷⁾ " كان بزي الجند ثم لبس زي الفقهاء

(1) ابن تغرى ، النجوم ، ج8 ، ص144

(2) غطاء للرأس يلبس وحده أو بعمامة، وتجمع الكلمة على كلفات أو كلافات. وتسمى في عصرنا (الكلاه) وهي ما يلبسه الدراويش، ينظر: المقريزي، السلوك، ج2، ص445-448. دهمان ، معجم ، ص128.

(3) ابن تغرى ، النجوم ، ج12 ، ص70.

(4) ابن تغرى ، النجوم، ج15 ، ص451 ، ج16 ، ص6 . فهيم ، الفن ، ص43.

(5) الأمير ناصر الدين محمد الحلبي الحاجب الثاني بحلب المعروف بابن ألتغا بالقاهرة وكان أصله من بعض قرى حلب وترقى في الخدم حتى لبس زي الجند وخدم عند بعض أعيان حلب وتمول وترقى بالبذل حتى صار حاجبا بحلب وهو لا يعرف كلمة اللغة التركية ويتلفظ في كلامه بألفاظ فلاحى القرى، ينظر: ابن تغرى، النجوم ج16، ص6.

(6) ابن تغرى، النجوم ، ج16، ص6 . فهيم ، الفن ، ص43 ج2، ص213.

(7) خليل بن كيكلي العلائي صلاح الدين أبو سعيد ولد بدمشق في ربيع الأول سنة 694 هـ / 1294م وأول سماعه الحديث في سنة 703 هـ / 1303م سمع فيها صحيح مسلم و البخاري واشتغل في الفقه والعربية والحديث من سنة 711 هـ / 1311م، ينظر: ابن حجر، الدرر ج2، ص213.

وكان يسكن القدس بعد أن رحل إليها من دمشق⁽¹⁾، وهذا يعني أن المصادر التاريخية ميزت في الملابس بين الأمراء والأعيان والجند وأن فخامة الملابس والأزياء على حسب؛ الدرجة حتى وصف السلطان الملك الأشرف برسباي أنه كان متجملاً في ملبسه هو ومماليكه " وفيه مكارم وحسب للعظمة "وهو أول من "لبس التخافيف⁽²⁾ الكبار الغالية من الأمراء وتداول الناس ذلك من بعده حتى خرجوا عن الحد و صارت التخفيفة الآن تلف شبه الكفتاه حتى تصير كالطبق"⁽³⁾.ومما سبق يتضح لنا أنه ليس الأمراء والمماليك فقط من تأثروا بالسلطان بل عامة الناس تشبهوا بملابس الأمراء والسلطان .

أما عن ملابس المعممين وأرباب الوظائف الدينية من القضاة و العلماء فكان القضاة والعلماء منهم يلبسون العمام الكبار من الشاش وكانت كبيرة جدا يرسل منها بين كتفيه ذؤابة طويلة كانت تصل إلى سرج فرسه إذا ركب، ومنهم من يلبس الطيلسان الفائق ويلبس فوق ثيابه دلقا، وهو عبارة عن ملابس من الصوف تلبسه الصوفية ويكون هذا الدلق واسعاً وطويل الأكمام ومفتوحة فوق كتفيه بغير تفريج سابلا على قدميه⁽⁴⁾.

ويتميز قاضي القضاة الشافعي و الحنفي بلبس طرحة تستر عمامته تستدل على ظهره والبعض تكون عمامته ألطف، ويلبسون الدلق الفرجية وهي مفتوحة من الأمام من أعلاها إلى أسفلها مزررة بالأزرار ولا يلبس أحد منهم الحرير، ويلبسون في الشتاء " الفوقاني " من الصوف الأبيض المطلي ولا يلبسون الملون إلا في بيوتهم وربما الطائفي بغير مهاميز⁽⁵⁾.

ويلاحظ مما ذكره ابن كثير أن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون استدعى القاضي بدر الدين ابن جماعة من القدس الشريف، وهو حاكم وخطيب فيه، إلى مصر، وتولى قاضي القضاة " وركب في الخلعة و الطرحة⁽⁶⁾ ورسم لبقية القضاة أن يستمروا بلبس الطرحات "⁽⁷⁾ وهذا يؤكد أن هذا النوع من الملابس بدأ القضاة في استخدامها منذ عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على يد ابن جماعة حاكم القدس وخطيبه.

(1) الدرر، ج2، ص214 .

(2) عمام توضع على الرأس وتكون خفيفة ولطيفة على وجه السرعة، ينظر، دهمان، معجم، ص43 .

(3) ابن تغري ، النجوم ، ج15 ، ص135 . ص180 ، ماجد ، نظم ص75

(4) القلقشندي ، صبح ، ج4 ، ص4443 . العمري ، مسالك ، ج3 ، ص271.

(5) القلقشندي ، صبح، ج4 ، ص44 . العمري ، مسالك ، ج3 ، ص271 . ابن حجر ، إنباء ، ج1 ، ص14

(6) ألبسة كان يتميز بها قضاة القضاة الشافعية والحنفية، فتستر العمامة وتتسدل على ظهر القاضي، ينظر: دهمان، معجم ص128.

(7) البداية ، ج13 ، ص349

أما ملابس الوزراء و الكتاب فهي عبارة عن الفرجيات من الصوف، ولبسوا الجباب⁽¹⁾ المفرجة من ورائها والنصافي⁽²⁾ والبياض ويعمل أكبر هذه الطائفة الباذهنجات⁽³⁾، وتعمل هذه الطائفة بمصر أقل مما هو عليه بالشام في زيهم وملبوسهم ومركوبهم⁽⁴⁾

وأجمل ملابسهم الخلع التي تتكون من كنجي أبيض مطرز برقم حرير ساذج وسنجاب وقندس وبيطن القندس بالسنجاب وتملاً الأكمام به وتحتة كنجي لونه أخضر " بقيار"⁽⁵⁾ كتان مرقوم، وطرحه أما ما هم دون رتبة الوزير فكانوا يلبسون نفس الملابس ولكن دون تطبيق القندس⁽⁶⁾ وفروا السنجاب، والفئة من هم أقل من الفئة سابقة الذكر بدون الطرحه و دونها يكون التحتاني محرما و دون هذه يكون الفوقاني محرما غير أبيض ثم تحتة عتابي طرح أو ما يجرى مجراه⁽⁷⁾، ويلاحظ مما سبق أن مثل هذا الزي كان لكبار رجال الدواوين وحتى صغارهم ويشير لرئاسة الوزير للدواوين ولم يعد يقلد الوزير بالسيف كما كان الحال أيام الفاطميين؛ لأنه لم يعد له نفوذ على أرباب السيوف⁽⁸⁾، وهو ما أكدته القلقشندی فقد ذكر ملابس أرباب الدواوين بنفس الأوصاف التي سبق الحديث عنها فقد قال: "وقد صار ذلك الآن قاصراً على ما يلبسونه من التشاريف ومن دون هؤلاء يلبسون الفرجيات المفرجة من وراءها"⁽⁹⁾. وملابس أرباب السيوف كانت عبارة عن خلع حسب المراتب، منهم أمراء المثني يلبسون الأطلس⁽¹⁰⁾ الأحمر الرومي وتحتة الأطلس الأصفر الرومي و على " الفوقاني" طرز زركش ذهب و تحتة سنجاب وله سجف⁽¹¹⁾ من ظاهره مع الغشاء قندس⁽¹²⁾ و كلوته⁽¹⁾ زركش مذهب وكلايب⁽²⁾

(1) هي ملابس تتكون من أكثر من جزء، ينظر: دهمان، معجم ص 51

(2) النصافي هي الثياب القطنية وقيل أنها ثياب قطن رديئة وهي نوع من أنواع القباء وذكر أنه من الحرير أو الكتان، ينظر: المقرئزي، السلوك، ج 5، ص 80، الصفي، الوافي، ج 9، ص 271. الحموي، معجم ج 2، ص 256.

(3) هي عبارة عن نافذة أو فتحة للتهوية، ينظر: القلقشندی، ج 4، ص 45. العمري، مسالك، ج 3، ص 271، ص 272.

(4) العمري، مسالك، ج 3، ص 271، ص 272

(5) كلمة فارسية معناها السجاد الأسود المصنوع من وبر الجمل ومعناها أيضاً نوع من العمائم الكبار يلبسها الوزراء وأصحاب القلم، ينظر: دهمان، معجم ص 51

(6) حيوان يؤخذ منه الجلود، ينظر: أبوشامة، الروضتين، ج 3، ص 167.

(7) العمري، مسالك، ج 3، ص 282، ص 283، ماجد، نظم، ص 79-80

(8) ماجد، نظم، ص 80.

(9) القلقشندی، صبح، ج 4، ص 45.

(10) هو نوع من أنواع القماش المصنوع من الحرير بألوان مختلفة يصنع منه ثياب وخاصة الفرجيات للمماليك، ينظر: ابن تغري، النجوم ج 6، ص 225. ج 8، ص 234.

(11) سجفٌ والجمع أسجاف سُجُوف وربما قالوا السَّجَافَ السَّجْفَ وَأَسْجَفْتُ السُّرَّ أَي أَرْسَلْتُهُ وَأَسْبَلْتُهُ قَالَ وَقِيلَ لَا يَسْمَى سَجْفًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَشْقُوقَ الْوَسْطِ، ينظر: ابن منظور، لسان، ج 9، ص 144.

(12) يقصد به الجلد، ينظر: أبوشامة، الروضتين، ج 3، ص 167.

ذهب و شاش رفيع موصول في طرفيه حرير أبيض مرقوم⁽³⁾ بألقاب السلطان مع نقوش باهرة مع الحرير الملون مع منطقة ذهب، و كانت أعلى هذه الملابس مرتبة يعمل بين عُمدها بواكر أوسط ومُجَنَّبَتين مرصعة بالبلخش⁽⁴⁾ و الزمرد واللؤلؤ ثم كان ببيكارية⁽⁵⁾ واحدة من غير ترصيع و تولى ولاية كبيرة كان يتشح سيفاً محلي بذهب و فرساً مسرجاً بكنبوش مذهب وصاحب حماة خلعتة من أعلى هذه الخلع و بدل الشاش اللانس⁽⁶⁾ بشاش يعمل بالإسكندرية ومن الحرير شبيهه بالطول مرصع بالذهب يُعرف بالثمر ويعطى فرسان أحدهما سبق الحديث عنه و الآخر يوضع عليه زناري⁽⁷⁾ أطلس أحمر و من هو أقل مرتبة كان يلبس خلعة سبق الحديث عنها عندما تطرقنا للسلطان الناصر محمد بن قلاوون و هي الطرد وحش⁽⁸⁾ وهي عبارة عن خلعة صيد عليها قباء مسنجباً⁽⁹⁾ بما يناسب خلعة مثله للكبير الكبيرة و للصغير صغيرة كل واحد على قدره⁽¹⁰⁾.

أما الخطباء فكانت ملابسهم من " السواد للشعار العباسي وهي دلق مدور— كما سبق الحديث عنه عندما ذكرنا ملابس العلماء— و شاش أسود و طرحة سوداء و يذهب على المنبر علمان أسودان مكتوبان بأبيض أو بذهب "⁽¹¹⁾.

-
- (1) هو لباس للرأس وتسمى أيضاً كلفة كانت تلبس منذ عهد بني أيوب، ينظر: القلقشندى ، صبح ، ج4 ، ص3.
 - (2) والجمع الكلاليب، ويسمى المَهْمَاز، وهو الحديدة التي على خف الرئاض (وهي المشابك المستخدمة في تحلية الكلوتة)، ينظر: ابن منظور، لسان، ج1 ، ص725. عاشور، العصر، ص466 .
 - (3) مرقوم أي قد بينت حروفه بعلاماتها من التنقيط وقوله عز وجل كتاب مرقوم كتاب مكتوب وأنشد سأرقم في الماء القراح إليكم على بعدكم إن كان للماء راقم أي سأكتب وقولهم هو يرقم في الماء أي بلغ من حذقه بالأمر أن يرقم حيث لا يثبت الرقم ، ينظر: ابن منظور، لسان، ج12، ص248.
 - (4) البلخش: ويسمى اللعل، وهو من الأحجار الحمر (الياقوت) ومعدن البلخش الذي يتكون فيه بنواحي بلخشان. والعجم تقول: بذخشان بـذال معجمة وهي من بلاد التترك (أفغانستان) تتاخم الصين، ينظر: القلقشندى، صبح، ج2، ص111. دهمان، معجم ص37.
 - (5) قطع معدنية هندسية توضع في حزام الثياب، ينظر: ماجد، نظم، ص77.
 - (6) يبدو أنه يقصد به نوع من القماش الخفيف الذي يستخدم في صناعة الثياب، ينظر: القلقشندى، صبح ، ج4، ص41.
 - (7) زنر القربة والإناء ملأه تَزَنَّرَ الشيء دَقَّ الزنار والزنارة ما على وسط المَجُوسِي والنصرانيّ وفي التهذيب ما يلبسه الذمي يشده على وسطه الزنير لغة فيه؛ قال بعض الأغفال تحزم فوق الصوب وكذلك (الزناري من الجوخ، وهو شبيه بالعباءة)، ينظر: ابن منظور، لسان، ج4، ص330. القلقشندى، صبح، ج4، ص44 .
 - (8) طرد وحش: وهي عبارة عن خلعة صيد مكتوبة عليه ألقاب السلطان، وصور وحوش أو طيور صغار، وصور ملونة مموجة بقصب مذهب، وعليه نقوش، وعليه السنجاب، ينظر: القلقشندى ، صبح ، ج4 ، ص54 .
 - (9) وضع عليه فرو السنجاب، ينظر: القلقشندى ، صبح ، ج4 ، ص54 .
 - (10) العمري ، مسالك ، ج3 ، ص282—285 . القلقشندى ، صبح ، ج4 ، ص41 .
 - (11) العمري ، مسالك ، ج3 ، ص284 . عاشور المجتمع ، ص235 .

و لبس السلطان الأشرف خليل بن المنصور عندما تولى السلطنة خلعة سوداء وخطب الناس بالخطبة التي أنشأها الشيخ شرف الدين المقدسي، و هذا يدل على أن السلاطين إذا أرادوا أن يخطبوا في الناس – و كان ذلك في سنة 660هـ/1261م – لبسوا نفس الزي الذي يلبسه الخطباء (1).ومن أهم أنواع الأزياء التي انتشرت في العهد المملوكي أزياء تتعلق بالسفر، كان يلبسها المماليك و السلطان أثناء سفرهم، فقد ذكر أن كمشبغا نائب دمشق لبس قباء السفر وسار في تجمل عظيم (2)، و يبدو أن مثل هذا النوع من الملابس كان يستخدم في الهدايا فقد بعض الرسل على السلطان الناصر محمد بن قلاوون وأعطوه جواباً و خلع عليهم السفر وأعطى لكل واحد من الرسل عشرة آلاف درهم و قماش (3)

وفي عهد السلطان المنصور حاجي كان نواب البلاد الشامية في القاهرة و تم النداء عليهم أنه من " تأخر بعد النداء حل ماله و دمه للسلطان ثم نوذي بذلك من الغد ثانياً...برز النواب إلى الريدانية للسفر بعد أن أخلع الناصري(4)، على الجميع خلع السفر" (5).

إن مثل هذه الأنواع من الملابس كانت تمثل جزءاً من الأزياء التي انتشرت في الدولة المملوكية. وفي سياق الحديث عن ملابس السلطان كانت له ملابس تخص كل مناسبة من المناسبات الرسمية حتى عندما كان يخرج في مواكب كان لكل موكب هيئة خاصة به(6)، و سبق أن تحدثنا عن السلطان محمد بن قلاوون الذي لبس قميص قمجون أو بدن من صوف جوخ وهو ثوب قصير من غير بطانة من تحته و لا غشاء من فوقه وكان أول الناس لبسه وذاع في أوروبا بحيث أن الفرنجة اجتلبوا منه شيئاً كثيراً فكان السلطان إذا خرج في موكب رسمي يلبس زي الحرب مثل بقية الأمراء، وكان السلطان إذا خلع رداءه مرة لا يلبسه مرة أخرى مطلقاً حيث توزع ملابسه المستعملة في مكان خاص وقد ينعم بها على أمرائه وخاصته(7)، وقد ذكر المقرئ في سنة 671 هـ/1272م أن السلطان الظاهر بيبرس كان يلبس زردية مستبلة (8)، و يبدو أنه قصد بها نوعاً من أنواع ملابس

(1) ابن كثير ، البداية ، ج 13 ن ص 322 .

(2) المقرئ في ، السلوك ، ج 5 ، ص 324 .

(3) ابن تغري ، النجوم ، ج 8 ، ص 142

(4) يلبغا الناصري نسبة لجالبه الظاهري برقوق الأتابكي أصله من أعيان خاصكية أستاذة ثم قدمه الناصر ولده ثم ولاه الحجوبية الكبرى ولما تجرد إلى البلاد الشامية جعله نائبه بالقاهرة ، ينظر: السخاوي، الضوء ج 10، ص 290

(5) ابن تغري ، النجوم ، ج 11 ، ص 329 .

(6) القلقشندی ، صبح ، ج 4 ، ص 45-49 .

(7) ماجد ، نظم ، ص 70 .

(8) السلوك ، ج 2 ، ص 82 .

الحرب التي ارتداها السلاطين ولا سيما فترة هذا السلطان حيث لم تكن الدولة المملوكية قد استتبت بشكلها النهائي في مصر والشام وكانت فترة حروب وصراعات .

و لعل ما سبق ذكره من أن السلطان كان يوزع ملابسه أحد الأسباب التي دفعت الناس والأمراء و بعض أبناء الطبقات الاجتماعية المختلفة التشبه في ملابسهم ببعض السلاطين، ولا سيما أنه لما أسلفنا الحديث من أن السلطان كان يتدخل في بعض الأحيان في ملابس الناس سواء كان في مصر أو الشام بشكل عام .ولعل أهم ملابس السلطان ما يسمى بالخلعة وهو الذي يلبسه عند توليه السلطنة ⁽¹⁾، وسميت بالخلعة الخليفية أو التشريف الخليفية وكان لونها أسود⁽²⁾. ويلاحظ أن لبسها كان من عادة السلاطين عند تولي السلطنة فقد ذكر ابن تغري بري أن شجرة الدر خطب لها على المنابر بمصر و القاهرة " و لكنها لم تلبس خلعة السلطنة الخليفية على العادة "⁽³⁾. وذكر أن الخليفة العباسي أمر " بتفصيل خلعة سوداء وبعمل طوق ذهب و قيد ذهب وكتابة تقليد بالسلطنة للملك الظاهر بيبرس ... فألبسه الخليفة ... خلعة السلطنة بيده "⁽⁴⁾، ويبدو من حديث المؤرخين أن هذه الخلعة كانت تختلف من سلطان لآخر فقد ذكر أوصاف خلعه السلطان المنصور علي بأوصاف تختلف عما تقدم فذكر " وألبسوه السواد، خلعة السلطنة، وكانت فرجية حريير بنفسجي بطرز ذهب، وبدائرها تركيبة زركش بحاشية حريير أزرق خطائي وشاش أسود خليفتي، وقبعاً أسود بعذبة خليفتيّاً زركش "⁽⁵⁾.

ومن الواضح أن السلاطين المماليك حرصوا على أن تكون الخلعة سوداء أي تأثراً بالشعار العباسي؛ لأنهم يستمدون شرعيتهم في الحكم من الخليفة في القاهرة وكثيراً ما ورد لفظ "خلعة السلطنة وهي خلعة سوداء خليفية على العادة "⁽⁶⁾، وفي تطور آخر ذكر أن خلعة السلطان الملك الصالح محمد بن ططر لبس خلعة السلطنة الجبة السوداء الخليفية⁽⁷⁾، هذا يعني أنه أضيف إلى الخلع

(1) ماجد ، نظم ، ص 71 .

(2) ابن تغري ، النجوم ، ج 7 ، ص 102 ، ج 11 ، ص 3 ، ماجد نظم ، ص 71 .

(3) ابن تغري ، النجوم ، ج 6 ، ص 373 .

(4) المصدر نفسه ، ج 7 ، ص 111 .

(5) المصدر نفسه ، ج 11 ، ص 149 .

(6) ابن تغري ، النجوم ، ج 11 ، ص 221 .

(7) ابن تغري ، النجوم ، ج 14 ، ص 211 .

السلطانية في دولة المماليك الثانية الجبة، وأضيف أيضاً للملابس السلطانية العمامة السوداء وكانت تصنع من حرير وهذا في سلطنة المؤيد أبي الفتح (1).

و ذكر الصفدي أوصاف ملابس السلطان الملك الناصر محمد عندما دخل دمشق " وعليه فرجية سوداء مطرزة وعمامة كبيرة بيضاء بعذبة طويلة وهو متقلد سيفاً عربياً محلياً" (2)، وتجدر الإشارة أنه عندما تولى السلطنة الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير عندما توجه الملك الناصر إلى الكرك " ألبسه خلعة السلطنة فرجية سوداء و مدورة " (3).

ومن الملاحظ في نهاية الحديث عن الملابس في العهد المملوكي وخاصة في فلسطين التي تعتبر جزءاً هاماً من بلاد الشام و الذي يعتبر جزءاً من الدولة المملوكية أن الزي لم يختلف كثيراً عن الزي في مصر، والسبب في ذلك يرجع إلي تدخل السلاطين في فرض بعض أنواع الملابس وتشبه العمامة في كثير من الأوقات بملابس السلاطين والأمراء والأعيان في الدولة، ومعظم ما صدر في مصر من أوامر سلطانية بخصوص الزي كان يصدر منها في بلاد الشام ويلزم الجميع بالتنفيذ ومن يخالف يعاقب (4).

الأفراح :

رغم قلة المعلومات المتعلقة بالأفراح في فلسطين خلال العهد المملوكي إلا أن الباحث في هذا الموضوع يستطيع أن يستنبط بعض الأمور المتعلقة بعبادات الزواج في هذه الفترة والتي ربما أن لا يختلف التغيير فيها كثيراً من عصر إلى عصر، ولكن من الواضح أن الأوضاع الاقتصادية لعبت دوراً هاماً في شكل الأفراح والإنفاق عليها بشكل كبير. لدرجة أن الشخص كان يبيع ثيابه ويقترض الأموال بالربا ليتباهى أمام الناس، ويقال طعام فلان أكثر من فلان (5)، ولا سيما أن الأفراح كانت من الصفات البارزة التي اتصفت بها الحياة الاجتماعية في عصر السلاطين المماليك سواء لدى المسلمين أم أهل الذمة (6).

و لا يغيب عنا في هذا الجانب أن نذكر أن ما قام به المجتمع في العهد المملوكي وخاصة في جانب المبالغة في الإنفاق و الإسراف على الأفراح ما هو سوى صورة مصغرة لما قام به السلاطين

(1) المصدر نفسه ، ج16 ، ص 219 .

(2) الوافي ، ج15 ، ص 216 .

(3) الصفدي، الوافي ، ج15 ، ص 216 .

(4) السلوك، ج3، ص305، ج4، ص110-111. العمري، مسالك، ج3، ص271-272. السيد، تاريخ، ص200.

(5) عاشور ، المجتمع ، ص131. علي، القدس ، ص268.

(6) المقرئزي ، السلوك ، ج3 ، ص154-155. ابن حجر ، إنباء ، ج1 ، ص273. علي ، القدس ، ص268.

المماليك في ذلك العصر، فقد ذكر المؤرخون فرح الأمير آنوك⁽¹⁾ ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون و أشكال البذخ والإسراف في هذا الفرع في سنة 732هـ/1331م فقال: "في أول شعبان قدم تتكز نائب الشام لحضور عرس الأمير آنوك... وفيه رسم بإحضار جميع من بالقاهرة و مصر من أرباب الملهى إلى الدور السلطانية ووقع الشروع في العمل الإخوان فأقام المهم سبعة أيام بلياليهن و استدعى السلطان حريم جميع الأمراء إليه فكان أمراً عظيماً... فلما كان السابع منه : جلس السلطان على باب القصر و تقدم الأمراء، على قدر مراتبهم واحداً بعد الآخر ومعه الشموع فإذا قدم الواحد ما أحضره من الشمع قبل الأرض وتأخر، وما زال السلطان بمجلسه حتى أنقضت تقادهم فكانت عدتها ثلاثة آلاف وثلاثون شمعة زنتها ثلاثة وستون قنطاراً فيها ما عنى به و نقش نقشاً بديعاً تتوع في تحسينه فكان أبهجها وأحسنها شمع الأمير علم الدين سنجر الجاولي، فإنه اعتنى بأمرها و بعث إلى عملها بدمشق فجاءت من أبداع شيء... وفي ليلة العرس جلس السلطان على باب اقصر وأشعلت الشموع كلها و جلس أبنة الأمير آنوك بالقرب منها و أقبل الأمراء و كل أمير يحمل شمعة وخلفه مماليكه تحمل شموعاً فتقدموا وقبلوا الأرض واحداً بعد الآخر طول ليلة العرس إلى آخره ثم نهض السلطان و ذهب إلى المكان الذي وجدت فيه النساء فقامت نساء الأمراء بأسرهن وقبلن الأرض واحدة بعد الأخرى وهي تقدم ما أحضرته من التحف الفاخرة والنقوش حتى أنقضت تقادهم، وأمر السلطان برقصهن فرقصن جميعاً واحدة بعد الأخرى... المغاني تضربن بدفوفهن وأنواع الأموال من الذهب و الفضة و شقف الحرير يلقي على المغنيات ثم زفت العروس. ثم خلع السلطان على جميع الأمراء و أرباب الوظائف وأكابر الأمراء وأعطى لكل امرأة من نساء الأمراء عبيبة قماش على قدر منزلة زوجها و خلع على الأمير تتكز نائب الشام وجهاز خلع لأمراء الشام . فكان هذا العرس من الأعراس المذكورة، ذبح فيه الغنم والبقر والخيل والإوز والدجاج ما يزيد عن عشرين ألفاً وصنع فيه من السكر والحلوى والمشروب ثمانية عشر ألف قنطار؟ وبلغ ما حمله الأمير بكتمر الساقى⁽²⁾ مع ابنته من الثورة

(1) آنوك بن محمد بن قلاوون سيف الدين ابن الناصر ابن المنصور ولد في رجب سنة 723 هـ /1332م ونشأ جميلاً إلى الغاية فأمره أبوه وقدمه على إخوته ومات في ربيع الأول سنة 740 هـ/1339م ووجد عليه أبوه وجدا عظيماً واستمرت أمه تعمل على قبره في كل ليلة جمعة ختمة بالناصرية بين القصرين ووجد له ،ينظر: ابن حجر، الدرر ج1، ص497. السخاوي، الضوء، ج245، 9.

(2) بكتمر الساقى كان من مماليك المظفر بيبرس فلما استقر الناصر في السلطنة بعد الكرك دخل في مماليكه وتنتقل إلى أن صار خصيصاً بالناصر ولما أمسك طغاي الكبير وكان تتكز يعتمد عليه عند الناصر أرسل إليه الناصر بكتمر يكون بدلاً لك من طغاي وعظم قدر بكتمر جدا وكان الناصر لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً إما أن يكون في بيت بكتمر أو بكتمر عنده وزوجه جاريتة وهي أم ولده أحمد وكان جميع رؤساء المماليك يهادونه ويبالغون في التقرب لخطره بكل ممكن وكان ظريف الشكل حلو الكلام أشقر أسود اللحية وكان في داره مائة خادم توفي في أوائل سنة 736هـ/1335م، ينظر: ابن حجر، الدرر ج2، ص21-23.

ألف دينار...⁽¹⁾، هذا الوصف رغم أن فيه بعض المبالغة إلا أنه يعكس الصورة الحقيقية للأفراح في العهد المملوكي في المجتمعات الإسلامية بأسرها سواء في مصر والشام، ولاسيما أن نائب الشام كان من بين أهم الأمراء الذين ذهبوا إلى هذا الفرع وحصل على أفضل الهدايا له ولأمراء الشام. ويجب أن نذكر أن مثل هذه الأنواع من الأفراح كان لها تأثير على المجتمع الفلسطيني فنواب الشام من المؤكد أنهم حملوا مثل هذه العادات. ومن المؤكد أن الخاطبة قد لعبت دوراً كبيراً خلال العهد المملوكي في إتمام عملية الخطوبة مثلما كان الحال في كثير من المدن التي خضعت لسلطنة المماليك باعتبار أنها كانت يتاح لها دخول البيوت والاطلاع على أسرار الحريم فتستطيع بذلك أن تأتي للعريس بالعروس التي تتفق مع رغباته و مطالبه⁽²⁾

و قد صور هذا الدور بوضوح ابن دانيال الموصللي في بابه " طيف الخيال "، فوصف كيف يقصد راغب الزواج الخاطبة؛ لأنها " تعرف كل حرة و عاهرة و كل مليحة "؛ لأنها كانت تتظاهر ببيع الطيب والبخور وغير ذلك من لوازم النساء، وبذلك يتاح لها الاطلاع على أسرار الحريم⁽³⁾، ومن المؤكد أن الفتاة لم يكن لها رأي لدى المسلمين في اختيار شريك حياتها بل ظل الرأي الأول والأخير لوالدها وربما شاركتة في ذلك أمها⁽⁴⁾، أما بعد دور الخطوبة يأتي الدور الثاني و هو عقد القران، فقد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو ابنته أو أحد من الأمراء الأكابر أو أعيان الدولة أن تكتب له خطبة صداق، ويكون الطول والقصر حسب المكانة، فتكون للملوك طويلة و تقصر لمن دونه بحسب الحال⁽⁵⁾، وكثيراً ما كان المهر والصداق موضوع مساومات بين الطرفين، وكثيراً ما كان العريس يتنمر من الصداق وإرتفاعه⁽⁶⁾ .

و قد جرت العادة أن يدفع جزء من المهر مقدماً قبل عقد القران، أما باقي المهر الذي يسمى "مؤخر الصداق" فكان يسدد على أقساط مؤجلة مما يدل على ذلك ما وصل من عقود الزواج التي كتبت في ذلك العصر⁽⁷⁾، ويفهم من بعض المؤرخين الذين تحدثوا عن تلك الفترة إنفاق طبقة المماليك مبالغ هائلة على الأفراح، وسبق الحديث عن هذا عند وصف عرس الأمير آنوك، ولا نعلم على وجه التحديد هل كان يتم عقد القران داخل المنزل أم أن بعض الناس كانوا يفضلون عقدها في المساجد

(1) السلوك ، ج3 ، ص154-155. عاشور المجتمع ، ص132 . قاسم، نظرات ، ص111-113 .

(2) المقرئزي السلوك ، ج3 ، ص154-155. علي ، القدس ، ص268 .

(3) ابن دانيال ، طيف ، ص39 - 49. نقلاً عن عاشور، المجتمع، ص133. عبد الرازق ، المرأة ، ص66 .

(4) السخاوي، التبر، ص391 . عاشور، المجتمع، ص133. علي، القدس، ص268، ص269. عبد الرازق، المرأة، ص67

(5) ابن تغري، النجوم، ج9، ص100. المقرئزي، السلوك، ج2، ص95. الفلقشندي، صبح، ج14، ص341. عاشور،

المجتمع، ص133. عبد الرازق ، المرأة ص72 .

(6) عبد الرازق ، المرأة ص72 .

(7) المقرئزي، السلوك ، ج2 ، ص95. ابن تغري، النجوم ، ج9، ص100. عبد الرازق ، المرأة ص73 .

ومعه المباخر المفضضة التي يحرقون فيها البخور، و بعد الانتهاء من كتابة العقد ينصرفون في حفل كبير (1).

أما الخطوة الثالثة بعد القران فهي إعداد الشوار (2) ونقله إلى منزل العريس و يبدو أن العادة جرت بأن ينقل هذا الشوار أو الجهاز في حفل يشترك فيه الأقارب والمعارف وربما اشترك فيه بعض الأمراء والمماليك بحسب مكانة العريس أو والد العريس، وكانت تصاحبه الموسيقى و يتقدمه الراقصون بالسيوف، وتسبق ليلة الزفاف ما عرفت بليلة النقش أي نقش قدمي العروس و يديها بالحناء و يتم إحياء هذه الليلة أيضاً بالموسيقى و الغناء، و في هذه الليلة يستكمل العريس زينته في منزل أحد الأقارب أو شبابين من رفاقه مع أنغام الموسيقى وعلى ضوء المصابيح الضخمة يتقدم المنشدون الموكب حتى منزل العروس التي يأخذ زوجها يدها ويدخلان إلى غرفتهما (3). وفي صبيحة يوم الزفاف يتوجه الزوج إلى الحمام العام يرافقه أصدقائه وعلى مدى عدة أيام يكون ضيف موائد أصدقائه، وعرفت هذه العادة في العهد المملوكي باسم " الصباحيات "، وبعد أسبوعين من الزواج يقيم أهل الزوجة وليمة فاخرة (4) وقد أكد لنا الرحالة ابن بطوطة أوصاف هذا الجهاز حيث أنه نزل عند رجل فقال: " وكان عنده جملة أولاد منهم بنت قد آن بناء زواجها... ومن عوائدهم في تلك البلاد أن البنات يجهزها أبوها ويكون معظم الجهاز من أواني النحاس وبه يتفاخرون وبه يتبايعون " (5).

وبعد الحديث عن الشوار وأوصافه يجب أن نتحدث عن ليلة الزفاف، فمن المرجح أنه كانت تقام فيها وليمة كبيرة للأهل والأصدقاء تسمى " وليمة العرس " وهما وليمتان إحداها للنساء وكانت توجه إلى بيت العروس في موكب يحف به الأهل والأصدقاء متجهين إلى منزل العروس والأخرى للرجال وتقام في بعض الأحيان الوليمنتان في بيت العريس، وكان يتم إحياء العرس الذي قد تحيه عدة جوق من المغاني فيختلط فيه الغناء بضرب الدفوف وزغاريد النساء وقد تقام هذه الليلة في منزل الزوجية أو في منزل العريس حيث يقوم المدعون بتقديم الهدايا إلى أصحاب العرس (6) وكانت النساء المدعوات إلى

(1) المقرئزي، السلوك ، ج3، ص154-155. ابن تغري، النجوم، ج9، ص102-100. ابن حجر، الدرر ج1، ص497.

السخاوي، الضوء، ج245، 9. علي، القدس ، ص269 ، عاشور ، المجتمع ، ص133. عبد الرازق، المرأة ، ص66 .

(2) الشوارُ بالفتح متاع البيت والشارةُ اللباس والهيئةُ، ينظر: ابن منظور، لسان، ج4، ص436. المناوي، التعاريف ج1، ص441. الرازي، مختار ج1، ص147

(3) ابن تغري ، النجوم، ج7، ص166. إبراهيم، الحياة، ص185-188. الأغا ، الأوضاع ، ص234.

(4) ابن تغري ، النجوم ، ج7، ص166. الأغا ، الأوضاع ، ص234 .

(5) رحلة ، ج1 ، ص83 .

(6) المقرئزي ، السلوك ، ج6 ، ص257. ابن تغري ، النجوم، ج7، ص166، ج9، ص102. علي ، القدس ، ص269 . عبد

الرازق ، المرأة ، ص80-81 . عاشور ، المجتمع ، ص134-135 . المقرئزي ، السلوك ، ج3 ، ص152-155

الفرح يحرصن على ارتداء الملابس الفاخرة والحلي بالمجوهرات الثمينة⁽¹⁾، وكانت الهدايا التي تقدم في الأعراس تعتبر عبارة عن ضريبة أودين لا بد من دفعه لأن أمراء الممالك تضايقوا من هذه الهدايا بسبب كثرة الأفراس و قالوا " هذه مصادرة " ⁽²⁾. أما العروس فكانت تتصدر ذلك الحفل بعد أن تستكمل زينتها وتجميلها، إذ تقوم الماشطة وبعض أهلها بتكحيلها وتمشيطها وتحفيفها ثم إلباسها أفخر الثياب المطرزة وغالباً ما يوضع على رأسها الشربوش الذي سبق الحديث عنه وهو يشبه التاج⁽³⁾.

و العادات الغربية التي انتشرت في القرن التاسع الهجري في الدولة المملوكية أن يلبسوا العرائس لباس الرجال من جندٍ وقاضٍ، ثم في نهاية الاحتفال اعتاد العريس أن يأخذ عروسه من يدها وعندئذ تقبل العروس يد زوجها⁽⁴⁾. ومن العادات التي ذكرتها بعض المصادر المملوكية أن العريس كان يعلق على شربوش العروس بعض الدنانير⁽⁵⁾.

و تجدر الإشارة هنا لذكر شكل الأفراس في الأرياف فإن مظاهر الاحتفال كانت تتوضع عنها في المدينة، كما كان على الخاطب أن يقدم المهر إلى صهره قبل عقد القران و بعد عقد القران كان أهل القرية يسارعون بتقديم الألفاظ (النقوط) والعروسين أو إلى والديهما، وفي أثناء موكب العروس في دروب القرية يلقي عليهما الزهور .ومن الجدير ذكره أن القرويين من المسلمين و المسيحيين في بلاد الشام كانوا يتضامنون في مثل هذه المناسبات، حيث كان يجتهد كل طرف لتقديم الخدمات للطرف الآخر وعند الوصول إلى منزل العروس يقام حفل صاخب يشترك فيه أصحاب الرباب و النساء يزغردن وينثرن الملح على العروس خوفاً عليها من الحسد و بعد ذلك يجلسونها على شيء مرتفع عال يأتي عليها الطبال وينشدون الأشعار مما هو مناسب لها ثم يتم إعطاء النقوط كل واحد حسب قدرته⁽⁶⁾. أما بالنسبة للبدو كان الزواج وسيلة لراحة الرجل حيث يذكر الدكتور قاسم من أن ثراء البدو في بلاد الشام يحسب بعدد الزوجات وبناتهم اللواتي يتولين رعي الغنم و الجمال و جمع الأحطاب و زراعة الأرض في بعض الأحيان فضلاً عن الأعمال المنزلية و نسج ملابس العائلة⁽⁷⁾.

(1)المقريزي ، السلوك ، ج3 ، ص154-155 .

(2)ابن تغري ، النجوم ، ج9 ، ص212 .الصفدي ، الوافي ، ج4 ، ص262 .عاشور المجتمع ، ص135.عبد الرازق، ص85.

(3)المقريزي ، السلوك، ج2، ص13.ابن تغري، النجوم ، ج9 ، ص100—101.عاشور المجتمع ، ص135.عبد الرازق، المرأة، ص85.

(4)عاشور المجتمع ، ص135 ، عبد الرازق، المراقص 85.

(5)المقريزي ، السلوك، ج3، ص153 . ابن تغري ، النجوم ، ج11، ص352.ابن حجر ، إنباء ، ج1 ، ص371

(6)الأغا ، الأوضاع ، ص235 . عاشور ، المجتمع ، ص136 . عبد الرازق ، المرأة ، ص87

(7)قاسم ، بعض المظاهر ، ص388

و بعض المراجع ذكرت أن الجارية كانت ترقص وسط جموع الرجال، ثم تطوف عليهم و في يدها الرق لتجمع عوايدها من العرب (1)، هذا عن أشكال الزواج عند المسلمين. أما عن الزواج عند أهل الذمة فقد ذكر ابن حجر أنه سمح لهم في عهد المماليك بإقامة أفراحهم بالملاهي و المغاني على عاداتهم (2).

و تفصيلاً لهذا الموضوع نذكر الزواج عند اليهود، حيث لم ترد إشارات في المراجع والمصادر التي بين أيدينا عن أفراحهم، ويرجع بعض الباحثين هذا لعدم اختلافهم عن غيرهم، وربما لقلّة أعدادهم في ذلك العصر (3).

أما عن المسيحيين المحليين في فلسطين خلال العهد المملوكي و خاصة في مدينة القدس، فقد جرت العادة أن يجري الزواج على النحو الذي كان معروفاً في الشرق فتبدأ الخطوة الأولى بالخطوبة، أي اختيار العروس بواسطة والدي العريس الراغب في الزواج أو بعض أقاربه أو بعض الوسطاء، فإذا تم ذلك فإنهم كانوا يصفونها لهم، كذلك لعبت الخاطبة دوراً هاماً في اختيار العروس، وبعد ذلك يتصل أهل العريس بأهل العروس و كانت أم العريس هي التي تقوم بهذا الدور و معها بعض صديقاتها أو قريباتها أو يقوم أحد القساوسة مع من ينوب عن العريس بالتوجه إلى منزل العروس و يتفق الطرفان على الخطوبة بعد أن يسأل القسيس المخطوبة في قبول هذا العريس زوجاً لها وعندما توافق يقدم لها قطعة من الحلوى مرسلّة من العريس (4)

وبعد أن يكون القسيس قد تأكد من درجة القرابة إذا وجدت بين الطرفين؛ لأن لكل طائفة درجات للقرابة يمنع الزواج بين أفرادها ثم تتم الخطوبة، ويقدم العريس هدية لمخطوبته، وعادة كان يلبس كل من العريس والعروس الخواتم الذهبية، وبعد أن يعلن القسيس صيغة الخطوبة ثلاث مرات على كل من العريس والعروس بحيث يلمس جبهة كل منهما بتلك الخواتم على شكل صليب ثم يدفع العريس جزءاً من المهر المتفق عليه أو المهر كله، وكان يختلف المهر تبعاً لجمال العروس وعمرها ومكانتها وعادة ما تطول فترة الخطوبة بقصد اختبار كل طرف للآخر ولذلك حرصت كثير من الأسر على حفظ الزواج بين أفرادها تبعاً لمكانتها، وبعد الخطوبة بيوم أو أكثر تذهب قريبات الخطيب لزيارة الخطيبة وتقديم بعض الهدايا لها وقد تكون مبلغاً من المال أو حلياً من الذهب، وتسمى هذه الزيارة " الشوفة "، كما يقدم الخطيب بعض الهدايا لمخطوبته في المواسم والأعياد بحسب مقدرته (5)

(1) عاشور ، المجتمع ، ص 136 . عبد الرازق ، المرأة ، ص 88.

(2) إنباء ، ج 1 ، ص 273.

(3) علي، القدس ، ص 269 .

(4) المرجع نفسه ، ص 269 .

(5) علي، القدس، ص 269—270

وبعد ذلك يأتي حفل الإكليل فيذهب أهل العريس للإتفاق على موعد وإعداد الترتيبات اللازمة ومتى يتقرر الأمر تبدأ الدعوات من الطرفين، وتذهب العروس مع بعض صديقاتها إلى الحمام ومعهن الصابون والطيب والطور وتقوم الماشطة بإعداد العروس وإظهار جمالها، كذلك يذهب العريس مع بعض أصدقائه من الشبان إلى الحمام لنفس الأمر ثم يقوم أهل العريس من النساء بزيارة العروس حاملين لها ثياباً بالمشاعل والأغاني ومعهن الحناء فيحنين العروس ثم يذهبن بها يوم السبت إلى الحمام ويقمن بغسلها وتزينها، وفي ليلة الأحد تذبح الذبائح وبعد اليوم الثاني وهو يوم الزفاف، وعادة ما يكون يوم أحد حيث يرتدى الجميع الملابس الفاخرة ويذهب جمع من الرجال والنساء من أهل العريس لإحضار العروس، وكثيراً ما كان يقدم العريس إلى أم العروس هدية تسمى خلعة الأم وهي في الغالب عبارة عن عباءة وتكون جميع ملابس العروس بيضاء، ثم ينتقل الموكب إلى الكنيسة لتكليلها من يد القساوسة على عريستها، وقد يتم ذلك في بيت العريس أو العروس، ويمسك كل منهما الشموع ويقرا القسيس بعض التراتيل الخاصة بالزواج وكذلك يردد المنشدون بعضها ثم يتأكد القسيس عن طريق بعض الأسئلة أنها ليست مخطوبة لأحد⁽¹⁾، ويعقب التأكد من عدم الخطوبة بعض الصلوات، ثم يقوم القسيس بتتويج العروسين، وبعد أن تنتهي التراتيل الخاصة يأخذ كأساً من النبيذ وبياركهما ثم يطلب منها أن يرشف كل منهما ثلاث رشقات ثم يدور بهما وسط المدعوين مع بعض الأناشيد الدينية ثم يباركهما ويدعو لهما بالسعادة والتوفيق ثم يخرجون بعد ذلك إلى البلدة والناس ترشقهم بالزهور و الحلوى وماء الورد ثم يتوجهون إلى منزل العريس حيث تستقبل أم العريس العروس بالبخور والزغاريد وتكثر عبارات التهاني مع عزف الموسيقى والرقص، ثم في منتصف الليل يذهب العريس بعروسه إلى حجرة معدة لهما وينصرف المدعوون ولا يبقى منهم إلا من هم أشد قرباً لهما، وفي صباح الإفطار يتطلق الحاضرون حول العروسين ويقومون بالرقص والغناء إلا أنه لم يكن يسمح للرجال بالرقص مع النساء ثم ينصرفون⁽²⁾.

ويلاحظ من العرض السابق أن أفراح النصارى لا تختلف كثيراً عن أفراح المسلمين إلا في بعض الطقوس الدينية الخاصة بهم والتي تتم في الكنيسة .

الاحتفالات والأعياد (الدينية) :

تميز العهد المملوكي بكثرة الاحتفالات و المواسم والأعياد و يرجع السبب في كثرة الاحتفالات إلى الثراء و ارتفاع المستوى المعيشي كما سبق أن تحدثنا في عهد الدولة المملوكية الأولى وبداية

(1)المرجع نفسه ،ص270.

(2)علي ،القدس ،ص270.

الدولة المملوكية الثانية سواء أكان ذلك في مصر أو الشام بجميع نياباته بما فيها نيابات فلسطين، ومن الأسباب الأخرى لانتشار تلك المناسبات و المواسم النواحي الدينية، ويبدو أن من أسبابها وخاصة في فلسطين صبغ المدن بالطابع الإسلامي بعد أن حولها الصليبيون في فترة سيطرتهم وصبغوها بالصبغة المسيحية .

فمن الاحتفالات العائلية التي كان لها أهمية كبرى في عصر السلاطين المماليك الولادة حيث جرت العادة أن تختار كل امرأة قابلة معينة كان يطلق عليها أيضاً اسم " الداية "، و كانت الأم تتفق مع القابلة على أجرة معلومة وكان لها كرسي مخصوص تصحبه معها عند اللزوم، فإذا كان المولود ذكراً صلت على النبي وإذا كانت بنتاً ترضت على فاطمة الزهراء، ثم يتناول الطفل إحدى أقربائه المشهود لهم بالتدين والتقوى لكي يؤذن في أذنه الأذان الشرعي ويعقب ذلك اختيار اسم المولود، وإذا كان ذكراً تضاعف فرح أهله به ⁽¹⁾، أما عند المسحيين فإذا كان المولود ذكراً قالت القابلة للأم " محبة بالمسيح و إذا كان أنثى قالت " محبة بالعذراء " و كذلك كانوا يحضرون أحد الرجال القساوسة يوم الولادة ليصلي على باب المنزل تبركاً، و يعلق للطفل التمامم والتعاويذ و يضعون خرزة زرقاء للوقاية من الحسد و يقومون بوضع الكحل للطفل من يوم ولادته كما يلفونه بقماط لكي يقي جسمه من البرد أو الاهتزاز ⁽²⁾.

كذلك جرت العادة أن تقوم القابلة في الأيام الثلاثة الأولى بتلميح الطفل إما بغسله بماء الملح أو وضع الملح الناعم على جسده، وبالنسبة للطوائف المسيحية يأتي أحد رجال الدين في اليوم الثالث من الولادة و يسمي الطفل باسم أحد أفراد العائلة إلا ما ندر و هو في الغالب اسم نبي أو قديس مفضل لدى أفراد الطائفة، وفي اليوم الثالث يقوم بدهنه بالزيت ⁽³⁾.

ومن المرجح أن كثيراً من النساء قد اعتدن الاحتفال بيوم السبوع احتفالاً كبيراً حيث تلبس أم المولود الثياب الجديدة الجميلة و تطوف أنحاء الدار في موكب كبير تحيط به الشموع و القابلة أمامها تحمل المولود و أمام القابلة امرأة أخرى معها طبق به شيء من الملح تنشره في البيت يميناً و شمالاً، هذا بالإضافة إلى إحراق نوع من البخور المخصص لهذا الاحتفال كما يرجح بحمل ألوان معينة من الطعام و تقريقتها على الأهل و الجيران و المعارف، و غالباً ما يكون المطربون يقدمون أغانيهم للرجال في مكان خاص بهم حيث تقوم المغنيات والراقصات بتقديم فنونهن في المكان المخصص للنساء، وقد جرت العادة على تقديم الألفاظ (النقوط) لوالدي الطفل وهي متنوعة ما بين الملابس و

(1) ابن حجر ، الدرر ، ج 5 ، ص 405 . عاشور، المجتمع، ص 136 . علي ، القدس، ص 171 . الأغا ، الأوضاع، ص 235 . زعور، الحياة ، ص 276-277.

(2) علي ، القدس ، ص 271 .

(3) المرجع نفسه ، ص 271 .

الحلي الذهبية و المأكولات ومع نهاية مدة النفاس تتوجه الأم بصحبة عدد من النساء المقربات حيث تغتسل و ترتدي الملابس المعينة الخاصة بهذه المناسبة⁽¹⁾، وتجر الإشارة أن ولادة الطفل كانت من أهم الأحداث في القرى بمدينة بيت المقدس خاصة وما يحيط بها من مدن فعندما يحين موعد الولادة يترك الأب منزله إلى الحدائق أو إلى الحقل تاركاً أحد الأقارب في منزله لكي يحمل النبأ السار بالولادة، فإن كان المولود صبياً فإنه يجري خلال التلال وعلى وجهه علامات البشر والسرور ملوحاً بيده وصارخاً بأعلى صوته مباركاً ومبشراً الأب بولده ثم يسرع إلى منزله لكي يسمي ابنه ويقوم الأب وليمة لأصدقائه الذين يحضرون معهم بعض الهدايا كل بحسب مقدرته، أما إذا كانت أنثى فإن الرسول الذي ينتظره الأب يمشي بطريقة تدل على الحزن وعندئذ يدرك الأب أن كارثة قد حلت بمنزله⁽²⁾ .

و في اليوم السابع أيضاً يتم ختان الطفل في بعض الأحيان، ولكن بعض الناس كانوا يؤجلون الختان إلى سن الخامسة تقريباً و يدعي إلى الحفل الناس و الأصدقاء و الأقارب الذين تمد لهم مائدة خاصة و تتم زفة الطفل على حصان صغير الحجم سريع الحركة (برذون) ويرتدي الطفل ثياباً جميلة ووراءه على نفس الدابة شخص هو العريف و يطوف الموكب الذي يضم بعض الصوفية و الذي يتناسب حجمه مع مقتضى الحال إلى شوارع الحي في المدينة أو دروب القرية و في النهاية يعودون إلى منزل الطفل حيث يقوم أحد المنشدين بإنشاد قصة المولد النبوي، وعندئذ يتم الختان ويقدم المدعون نقوطهم من السمن والأرز والطيور والغلال والأغنام⁽³⁾

أما عند المسيحيين فقد جرت العادة بعد انقضاء أربعين يوماً أن تذهب الأم بطفلها للكنيسة ليصلي أحد رجال الدين على رأسه، و في أول الربيع و عند ظهور الأزهار فإنهم يسقونه الزهورات، وهي عصارة بعض الأزهار وخصوصاً الرمان، و يطعمونه من أول الفاكهة و خصوصاً الخيار ولو قطرة من عصير أو أن يدهن به أنفه، كذلك جرت العادة لديهم بضرورة العماد أو المعمودية، فكما يحتفل المسلمون بالختان فعندهم لأبد من تنصير أولادهم وذلك أنهم يغمسون المولود في ماء معطر بالرياحين و ألوان الطيب و يقرؤون عليه من كتابهم، و يزعمون أنه حينئذ ينزل عليه روح القدس و يسمون هذا العمل بالمعمودية، و ربما كان العماد في البيت أو في الكنيسة . حيث كان يسمح به عند

(1) علي ، القدس ، ص 271 . عاشور ، المجتمع ، ص 136 ، الأغا ، الأوضاع ، ص 235 .

(2) علي ، القدس ، ص 271 ،

(3) المقريري، السلوك، ج 7، ص 96. ابن تغري، النجوم، ج 8، ص 16، ج 15، ص 68. علي، القدس، ص 271—272 . الأغا ،

الأوضاع ، ص 235، ص 236. عاشور ، المجتمع ، ص 138

الروم الأرثوذكس في المنازل، كذلك فإن الموارد كانوا يعمدون أطفالهم رش بينما الأرثوذكس والكاثوليك يعمدون أطفالهم تغطيساً ولا يجوز اجتماع الأبوين عند التغطيس بل يخرج أحدهما وقد يولمون الولايم ويهادون الطفل وينقطنون بهذه المناسبة السعيدة لديهم⁽¹⁾.

ومن الاحتفالات الهامة التي أعتاد عليها الناس في العهد المملوكي سفر أحد أفراد الأسرة للحج أو عند عودته من الحجاز فقبل خروج الحجاج لأداء فريضة الحج تخرج بعض قريباته ومعارف الأسرة ليظفن بالطرق والأسواق على هيئة مواكب و يرفعن أصواتهن بنوع من الأناشيد يسمونها " التحنين " أي تشويق الناس للحج و زيارة مقام الرسول صلي الله عليه وسلم و في اليوم المحدد لخروج الحاج يركب جملاً مزيناً بالحلي و الذهب و الفضة و الأساور والقلائد، هذا عدا كسوة حريرية فاخرة يلبسونها للجمل فإذا ما قضى الحجاج خرج أهل الحاج لاستقباله عند عقبة آيلة⁽²⁾ أو بركة الحجاج و صحبتهم أنواع المأكولات و العلف " على العادة " حتى إذا ما عاد الحاج إلى منزله أقيمت الأفراح و الولايم و ضرب على أبوابه بالطبل والأبواق و المزامير ويسمون ذلك " تهنئة الحجاج " ⁽³⁾.

و من المناسبات الجديرة بالذكر في هذا الجانب المأتم و الأحران التي كثرت في بلاد الشام فيلاحظ كثرة الحروب و المنازعات في بلاد الشام بشكل عام حيث أدركت الدولة المملوكية بقايا الإمارات الصليبية وكانت لها حروب معها، هذا إلى جانب اجتياحات التتار وما ترتب عليها من كثرت القتلى في أغلب مدن فلسطين حيث أصبح الموت عندهم كأنه شيء عابر هذا إلى جانب الطاعون والأمراض التي تعرضت لها البلاد وخاصة في عهد الدولة المملوكية الثانية .وقد وصف ابن جبير الذي عاصر الفترة القريية من قيام الدولة المملوكية ترتيب الجنائز وخاصة عند أهل دمشق وغيرها من بلاد الشام في قوله: " ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنائزهم رتبة عجيبة وذلك لأنهم يمشون أمام الجنائز بقرء يقرؤون القرآن بأصوات شجية وتلاحين مبكية تكاد تتخلع لها النفوس شجواً و حناناً يرفعون أصواتهم بها ... و جنائزهم يصلى عليها في الجامع قبالة المقصورة ... فإذا انتهوا

(1)المقدسي،البدء،ج4،ص46.ابن خلدون،تاريخ،ج2،ص158.علي ، القدس ، ص272 .

(2)أيلة بالفتح مدينة على ساحل بحر القلزم(الأحمر) مما يلي الشام وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام واشتقاقها قد ذكر في اشتقاق إيلياء بعده قال أبو زيد أيلة مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير وهي مدينة لليهود الذين حرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت وفيها بئر مالح يبعد أربعون ميلاً ثم إلى مدينة القلزم خمسة وثلاثون ميلاً ثم إلى ماء يعرف ببحر يومان ثم إلى مدينة القلزم خمسة وثلاثون ميلاً ثم إلى ماء يعرف بالكرسي فيه بئر رواء مرحلة ثم إلى رأس عقبة أيلة مرحلة ثم إلى مدينة أيلة مرحلة قال ومدينة أيلة جليلة على لسان من البحر الملح وبها مجتمع حج الفسطاط والشام،ينظر: الحموي، معجم ، ج1،ص292

(3)ابن جبير،رحلة،ج1،ص200.المقريزي،السلوك،ج3،ص229.ابن تغري،النجوم،ج9،ص

59-60.القلقشندى،صبح،ج14،ص431.عاشور،المجتمع ،ص139-140

إلى بابه قطعوا القراءة و دخلوا إلى موضع الصلاة عليها ... و ربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن ... و يجلسون إمامهم ربعات من القرآن يقرءونها و نقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة وأعيانهم ..."⁽¹⁾.

و كان يتم العزاء بعد الدفن في منزل عميد الأسرة و يستمر ثلاثة أيام و في اليوم السابع و في اليوم الأربعين يتم إحياء ذكره الميت بقراءة القرآن و توزيع الصدقات ⁽²⁾، أما في الريف فكانت روح التضامن أكثر وضوحاً ففي الليالي الثلاثة عقب الوفاة يجتمع الرجال في مسجد القرية يكررون كلمة التوحيد و هم يعدون حبات مسبحة كبيرة نظم خمسمائة حبة فإذا اكتملت بدأوا في قراءة القرآن وكذلك كانت مآتم النصارى تتشابه في شكلها الاجتماعي مع مآتم المسلمين على الرغم من اختلاف طقوسها بحكم اختلاف الدين، وفي القرى كان النواح على الميت أمراً ضرورياً ولكنه قاصر على النساء؛ لأن بكاء الرجل كان مسبة و عاراً في تقدير أهل الشام⁽³⁾، أما مآتم المماليك فربما لا تختلف كثيراً عما سبق ذكره فقد وصف ابن تغري السلطان الظاهر بيبرس سنة 677هـ/1278م فقال: "تقرر أن يكون أحد عشر يوماً في مواضع مفرقة و نصبت الخيام العظيمة و صنعت الأطعمة الفاخرة و اجتمع الخاص و العام و حملت الأطعمة على الربط و الزوايا و حضر القراء و الوعّاظ على صلاة الفجر و خلع على جماعة من القراء و الوعّاظ و أجزى بعضهم بالجوائز السنوية "⁽⁴⁾.

و بعد الانتهاء من الاحتفالات العائلية لابد من ذكر المواسم الدينية التي تعتبر من ضمن الاحتفالات الدينية حيث تعددت أشكالها و خاصة في مدينة القدس لما لها من أهمية دينية عند الديانات الثلاثة الرئيسية إضافة إلى قداسة بعض المدن الفلسطينية التي دفن فيها بعض الأنبياء والأولياء التي تقام لهم المواسم . حيث تعددت المواسم و الاحتفالات الدينية في بيت المقدس على عهد المماليك تعدداً واضحاً و ملموساً سواء ما يتعلق منها بالمسلمين أم المسيحيين من سكان المدينة⁽⁵⁾، ومن هذه المواسم ما يسمى حالياً " بالموالد " مثل " موسم النبي، وموسم النبي صالح و موسم الحسين، وموسم أبي عبيدة الجراح و ترجع نشأة المواسم إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي، فعقب موقعة حطين و إزاحة الصليبيين عن معظم مدن فلسطين كانت معظم تلك المدن خالية من السكان وعندئذ اسكنها القبائل العربية ومنها القدس و التي توطن بها كثير من قبائل بني حارث و الذين كانت منازلهم خارج المدينة عند القلعة و قبائل بني مرة الذين قطنوا الجهة الغربية الشمالية وكذلك بنو سعد و الحرامنة الذين كانت لهم حارة في

(1) ابن جبير، رحلة، ج 1، ص 206 .

(2) قاسم، بعض مظاهر، ص 389. الأغا، الأوضاع، ص 236 .

(3) ينظر: إبراهيم، الحياة، ص 86-88. الأغا، الأوضاع، ص 236 .

(4) الصفدي، الوافي، ج 10، ص 211 .

(5) العلمي، الأنس، ج 1، ص 24، 234، 296، ج 2، ص 71، 63، 72، 76. علي، القدس، ص 263، 264 .

سوق القطانين، وكان الهدف من تلك المواسم التي أنشأها صلاح الدين أن تكون موافقة لموسم عيد الفصح والذي يأتي فيه عدد كبير من الحجاج المسيحيين وبخاصة من الأوروبيين لزيارة القدس ولكن القدس مزدحمة بأهل الخليل ونابلس و المناطق الأخرى المجاورة و بذلك كانت القدس أشبه بتكنة عسكرية متأهبة لرد كل غارة ودفع كل اعتداء بهذا العمل أن يأمن غدر الفرنج⁽¹⁾، ولقد جرت العادة أن يأتي شباب القبائل ومعهم أسلحتهم ويستمر الجميع في مقام النبي موسى أسبوعاً كاملاً يكون الفرنج قد فرغوا من زيارتهم و عقب صلاة الجمعة يزفون أعلامهم في المنطقة التي بين القدس وأريحا⁽²⁾.

و قد ذكر العليمي اختلاف الناس في مكان قبره و أنه شرقي بيت المقدس بينه وبين القدس مرحلة وطريقه صعبه لكثرة الوعر و عليه بناء و داخله مسجد وعلى يمينه قبة معقودة بالحجارة و منها ضريحه و يصنع على قبره في أيام موسم زيارته ستر من حرير أسود وعلى الستر طراز أحمر مزركش دائر على جميع أطرافه الذهب⁽³⁾.

و يلاحظ استمرار مثل هذه المواسم في عهد المماليك، فقد ذكر أن المكان السابق ليس قبره و إنما مر به في ليلة الإسراء وهو قائم يصلي و قبره عند الكتيب الأحمر ويبدو أن الظاهر ببيرس استحس رأي صلاح الدين واهتم بهذه المواسم فهو من قام ببناء قبره عند الكتيب عند عودتهم من الحج و زيارة بيت المقدس سنة 668هـ/1269م وتم توسيعه أكثر من مرة على يد أهل الخير فمنها سنة 875هـ/1470م تم توسيعه داخل المسجد ثم بنى به منارة بعد سنة 880هـ/1475م" و هذا المكان بالقرب من أريحا الغور من أعمال بيت المقدس وأهل بيت المقدس يقصدون زيارته في كل سنة عقب الشتاء و يقيمون عنده سبعة أيام⁽⁴⁾

و الحقيقة أن المعلومات التي تقدم ذكرها تعرضت بعض الشيء لتفاصيل إقامة هذا الموسم و لو أنها بشكل غير مفصل . و من المواسم المشهورة موسم روبيل بن يعقوب عليهما السلام له مشهد بظاهر الرملة من جهة الغرب و هو مكان مأنوس يقصد للزيارة في كل سنة يجتمع الناس فيه من الرملة و غزة و غيرهما يقيمون أياماً و ينفقون أموالاً و يقرأ القرآن العظيم في المولد الشريف⁽⁵⁾

و ذكر صاحب الأئس أن الذي قام ببناء هذا المقام الشيخ شهاب الدين بن رسلان، وهو من الأولياء و لما نزل الظاهر ببيرس يوم فتح يافا و أرسوف زاره و نذر النذور والأوقاف ودعا عند قبره و في كل سنة له موسم في الصيف يقصده الناس من جميع البلاد و يتجمع عدد كبير من الناس

(1)العليمي، الأئس، ج1، ص102، ج2، ص72. علي، القدس، ص، 264 .

(2)العليمي، الأئس، ج2، ص87. علي، القدس، ص، 264 .

(3)الأئس، ج1، ص102 .

(4)العليمي، الأئس، ج1، ص102. علي، القدس، ص246 .

(5)العليمي، الأئس، ج2، ص72 .

في هذا الموسم و ينفقون الأموال الكثيرة و يقرأ عنده المولد الشريف و مما يؤكد استمرار هذا المقام في العهد المملوكي أنه قال: " و في عصرنا ولي النظر عليه شمس الدين أبو العون محمد الغزي الشافعي نزيل جرجوليا و تم بنائه و ترميمه في سنة 880هـ/1475م و ذكر أن " بأرض فلسطين عدد من الأولياء والصالحين والأماكن المقصودة للزيارة " (1). و هذا يؤكد لنا انتشار عادة زيارة الأماكن المقدسة بشكل كبير في العهد المملوكي سواء كان قبور الأنبياء أو الأولياء الصالحين حيث كان الناس يتيمنون خيراً بمثل هذه العادات .

و قد ذكر الدباغ أن عادة الاحتفال بإقامة الموالد و بعض المواسم وراثتها عن الفاطميين إلا أنها تأصلت و ترسخت في البلاد في عهد المماليك و أشار إلى استمرار الاحتفال بهذه المواسم إلى اليوم و منها موسم عاشوراء و رأس السنة الهجرية و حولت المواسم إلى مهرجانات وطنية في العهد المملوكي مثل موسم النبي موسى (2).

كذلك تجدر الإشارة إلي أن المصادر التي توفرت لنا لم تتطرق للاحتفال بيوم عاشوراء الذي يبدو أنه من التقاليد التي دخلت البلاد كما سبق في العهد الفاطمي، ولكن فقهاء المماليك اعتبروه من المواسم الشرعية الرئيسية وكانوا يحتفلون به في الظاهرة و يوزع الأثرياء و التجار الأموال على الفقراء و اليتامى و المساكين و يعد الشهر الذي يصادف فيه من الأشهر المقدسة عند المسلمين و يطبخ فيه الحبوب و تزار فيه القبور و يشتري البخور و تزور النساء المساجد، أما الشيعة فحرصوا في يوم عاشوراء على إقامة عزاء الحسين فينشد شعراؤهم قصائد الرثاء و يناظر شعراء أهل السنة أهل الشيعة (3). ولكن رغم قلة المعلومات عن هذه المناسبة الدينية إلا أنها وجدت في فلسطين خلال العهد المملوكي؛ لأن ما كان يطبق في مصر يطبق في بلاد الشام بحكم أنها مملكة واحدة، وما ذكره الدباغ يؤكد بما يدع مجالاً للشك أن أهل فلسطين مارسوا الاحتفال بيوم عاشوراء. و يبدو أن السبب في قلة المعلومات عن هذه المناسبة في بلاد الشام هو ما قام به صلاح الدين من إنهاء نفوذ الدولة الفاطمية و نجاح فيه في بلاد الشام أكثر من مصر؛ لأن نفوذ الفاطميين في الشام كان أقل حيث أنهم نجحوا في نشر مذهبهم بشكل أفضل في مصر و لا سيما أن الشيعة تواجدوا في بعض المدن و ذكرهم الرحالة ابن بطوطة الذي زار فلسطين في فترة المماليك و تحدث عن مدينة صور التي اعتبرت في هذه الفترة إحدى أهم مدن نيابة صغد و أن معظم أهلها أرفاض (4)، حيث كان في العهد الفاطمي يمد ما يسمى " سماط الحزن " وهي مائدة تتكون من طعام مثل العدس و الملوحة و الفطير و المخللات و العسل

(1)العلمي ، الأوس ، ج2 ، ص72 .

(2)بلاندا ، ج5 ، ق2 ، ص66 .

(3)علي، القدس،ص264.عاشور،المجتمع ، ص196.الزبيدي،موسوعة،ص224.قاسم ،عصر،ص293

(4)رحلة ، ج1 ، ص81 .

و عند الظهر يدخل الناس لتناول الطعام و بعد الفراغ منه يبدأ النواح حتى صلاة العصر، وفي هذا اليوم تعطل الأسواق وتغلق الحوانيت⁽¹⁾، وكان للشيعنة عيد آخر هو " عيد الغدير " الذي يبدأ الاحتفال به في ذي الحجة سنوياً و يتم إحياء الليلة الأولى من هذا العيد بالصلاة، وفي صبيحة العيد يصلي الشيعة ركعتين و يرتدون الملابس الجديدة و يتصدقون و يكثرون من عمل الخير ثم ينحرون عدداً كبيراً من الذبائح⁽²⁾.

أما الاحتفال بالمولد النبوي في شهر ربيع الأول فهو أول الأعياد الدينية العامة في جميع البلاد الإسلامية، وقد حرص المماليك و عامة الشعب على الاحتفال بهذا العيد احتفالاً يفوق الوصف من حيث العظمة و الفخامة، وإذا ما حلت الليلة الكبرى – وهي ثاني عشر ذلك الشهر – أقام السلطان بالحوش السلطاني بالقلعة خيمة ذات أوصاف خاصة سماها المعاصرون خيمة المولد، وأول من صنع هذه الخيمة قايتباي بكفة ثلاثين ألف دينار ووصفت بأنها من عجائب الدنيا وكانت زرقاء اللون وهي قاعة واسعة في وسطها قبة على أربعة أعمدة، وتوضع في أبوابها أحواض مملوءة بالمحلى – وهو الماء والسكر والليمون – ويصب الغلمان من الشربخانة⁽³⁾ للناس لا فرق بين كبير وصغير⁽⁴⁾، وقد ذكر ابن حجر بعض ما جرى من عادات في هذه المناسبة حيث كان يمد فيه السماط بعد صلاة العصر ويفرغ بين العشاءين" وكانت العادة أن يبدأ مع الظهر ويمد السماط المغرب ويفرغ عند ثلث الليل"⁽⁵⁾، وكذلك ليالي الوقود، وهناك عدة ليالي في العام الهجري اعتاد المسلمون أن يحتفلوا بها أهمها أول ليلة من شهر رجب وليلة السابع والعشرين منه وهي ليلة الإسراء والمعراج وليلة النصف من شعبان⁽⁶⁾، ويقام في بيت المقدس احتفالاً عظيماً مهيباً بقبة الصخرة وتقاد فيها المصابيح وتسطع بشكل لا مثيل له في مسجد من المساجد⁽⁷⁾ ولعل مدينة القدس أكثر مدن الشام احتفالاً بهذه المناسبة بوصفها المكان الذي عرج منه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى السماء حيث تعطر الصخرة بالمسك

(1)المقريزي ، الخطط ، ج 2 ، ص 348 ، 349 .

(2)القلقشندي ، صبح ، ج 2 ، ص 445 .

(3)الشراب خاناه. ومعناه بيت الشراب، وتشتمل على أنواع الأشربة المرصدة لخاص السلطان، والمشروب الخاص من السكر والأقسما وغير ذلك، وفيها يكون السكر المخصوص والمشروب، وبها الأواني النفيسة من الصيني الفاخر من اللازوردي وغيره مما تساوي السكرجة الواحدة اللطيفة منه ألف درهم فما حوله، ولها مسؤول يعرف بمهتار الشراب خاناه متسلم لحواصلها، ينظر: القلقشندي، صبح، ج 4، ص 9.

(4)عاشور ، المجتمع ، ص 197. الزيدي ، موسوعة ، ص 224 . علي، القدس، ص 264.

(5)إنباء الغمر ، ج 3 ، ص 365

(6)عاشور، المجتمع ، ص 203. علي، القدس، ص 264. إبراهيم، الحياة، ص 81، ص 82 . قاسم ، عصر، ص 294.

(7)العلمي ، الأئس ، ج 2 ، ص 33 .

والزعفران والبخور قبل يومين من حلول المناسبة⁽¹⁾، وكان المسلمون يحيون هذه الليلة بالصيام وزيارة الاجتماع في المسجد الأقصى والقراءة، ويذكر العليمي أن للمعراج قرآء يقرؤون بهذه المناسبة في بيت المقدس وأيضاً كان يجتمع كل أصحاب الوظائف في هذه الليلة في بيت المقدس من مدرسين ومعيديين وخدم ومؤذنين وقرآء وغيرهم⁽²⁾، وتفرش فيها السجادات في الداخل وتوضع عليها الأواني والأباريق التي تملأ بالمشروبات حيث أعتاد الناس احتساءها في هذا الاحتفال⁽³⁾، كذلك ليلة النصف من شعبان من المناسبات التي احتفل بها الناس في العهد المملوكي وخاصة في المسجد الأقصى، وكان يتصدر هذا الاحتفال الفقهاء والعلماء ويقرؤون القرآن ثم صحيح البخاري ويقوم المداح بالمدح وتكون ليلة مشهورة ويوقد في الجامع الأقصى وقبة الصخرة ما يزيد عن عشرين ألف قنديل، وهي من الليالي المشهورة حيث تعتبر من "عجائب الدنيا"⁽⁴⁾، واعتاد الناس على شراء الحلوى في هذا المناسبة بأشكال مصنوعة من السكر كالخيول والقطط وغيرها ليهديونها للأطفال أو الأقارب والأصهار ولاسيما إذا كانت المصاهرة جديدة⁽⁵⁾، أما فيما يخص شهر رمضان وإحياء لياليه ثم الاحتفال في نهايته بعيد الفطر ثم يأتي بعد هذا العيد بفترة عيد الأضحى المبارك و يبدأ الاحتفال بشهر رمضان باستطلاع الهلال بيد أن إحدى الدارسين ذكر أنه لم يتضح كيف احتفل بطريقة اكتشاف الهلال إلا أن المقريري أورد نصوص تؤكد حدوث الاختلاف في الصيام والإفطار في شهر رمضان ففي حوادث سنة 702 هـ/1302م قال: "بنابلس صام الحنابلة شهر رمضان على عادتهم بالاحتياط واستكمل الشافعية وغيرهم شعبان وصاموا فلما أتم الحنابلة ثلاثين يوماً أفطروا وعيدوا وصلوا صلاة العيد ولم ير الهلال فصام الشافعية والجمهور ذلك النهار وأصبحوا فافطروا وعيدوا وصلوا صلاة العيد فأنكر نائب الشام على متولي نابلس كيف لم يجتمع الناس على يوم واحد ولم يسمع بمثل هذه الواقعة"⁽⁶⁾،

وهذا يوضح أن الاختلاف حدث في أول شهر رمضان وفي آخره على رؤية الهلال مما يؤكد أن طريقة الاستطلاع في فلسطين و بلاد الشام عامة هي نفس الطريقة التي وجدت في مصر، فقد وصف الرحالة ابن بطوطة طريقة الاحتفال في مصر في القرن الثامن الهجري برؤية هلال رمضان في مدينة أبيار "يوم ارتقاب هلال رمضان... عادتهم فيه أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي و يقف على الباب نقيب المتعممين وهو ذو شارة و هيئة حسنة فإذا أتى أحد الوجوه تلقاه ذلك النقيب و مشى بين يديه... فإذا تكاملوا هنالك ركب القاضي

(1) إبراهيم ، الحياة ، ص 82 .

(2) الأنس ، ج 2 ، ص 33 ، ص 316 .

(3) قاسم ، عصر ، ص 294

(4) العليمي ، الأنس ، ج 2 ، ص 33 . علي ، القدس ، ص 265 .

(5) المقريري، الخط، ج 2، ص 96-102. عاشور ، المجتمع ، ص 203-204 . قاسم ، عصر ، ص 294 .

(6) السلوك ، ج 2 ، ص 362 . علي ، القدس ، ص 265 .

و ركب من معه أجمعين و تبعهم جميع من بالمدينة من الرجال و النساء و الصبيان و ينتهوا إلى موضع مرتفع خارج المدينة و هو مرتقب الهلال عندهم...فيرتقبون الهلال ثم يعودون إلى الحوانيت بحوانيتهم الشمع و يصل الناس مع القاضي إلى داره ثم ينصرفون " (1)، هذا يؤكد أن ما ذكره المقرئزي وابن بطوطة عن شكل الاحتفال والاختلاف في هلال شهر رمضان لا يختلف في أنحاء الدولة المملوكية سواء كان في مصر أو الشام مع مراعاة بعض الفروق البسيطة بين القطرين وكانت أشكال الاحتفالات تقام طول شهر رمضان بسبب خصوصيته الدينية وما يؤكد إحياء لياليه إقامة صلاة التراويح في المسجد الأقصى بمدينة القدس وعند أبواب المسجد وكانت توقد فيه المصابيح في كل ليلة وقت العشاء ووقت الصبح، وكان يحضر هذه الصلاة أغلب سكان مدينة القدس وربما المدن المجاورة وخاصة مدينة الخليل حتى أن عدداً كبيراً من الموظفين كانوا لا يقومون بوظيفتهم طول شهر رمضان إلا بعد صلاة التراويح(2)، وقد أشارت إحدى الوثائق المملوكية التي ترجع إلى عهد النائب تنكز أن المسلمين كانوا في القدس والمدن المجاورة يستعدون لاستقبال شهر رمضان و إقامة صلاة التراويح بفرش المساجد بالحصر والبسط و تنظيفها وكنسها وغسلها وإيقاد مصابيحها وظيفها(3) وأيضاً خلال شهر رمضان كانت توقد الشموع الضخمة التي أطلق عليها " الشموع الموكبية "، وربما وصل الواحد منها إلى قنطار حيث تجر على عجلات و يحيط بها الأطفال و يلعبون ويطاف بها شوارع المدن و الطرقات وهم في الطريق إلى صلاة التراويح، وكذلك كان الأطفال يحملون فوانيسهم الصغيرة وهم يغنون ويدقون أبواب المنازل في منطقتهم ليعطيهم الناس الحلوى(4)، وأكدت الوثائق المملوكية استهلاك الشموع سواء في شهر رمضان حيث كان يقرأ القرآن عليها بعد صلاة الصبح و كان يشتريه ناظر الحرمين – القدس والخليل – ويوزعه على المحدثين والقراء وبعض الأوقاف(5) وكانت موائد الناس في شهر رمضان تحفل بأنواع الطعام والحلوى سواء التي تصنع من العسل أو السكر إضافة إلى أنواع الفواكه المختلفة(6)، أما عن طريقة التسحير في مدن فلسطين خلال العهد المملوكي رغم أنه لم ترد إشارات واضحة عنها إلا أنه هذه الطريقة لم تختلف كثيراً عن بقية المدن الإسلامية في تلك الفترة حيث جرت العادة أن يطوف أصحاب الأرباع(7) وغيرهم بالطبلة على البيوت وهم يضربون عليها أما الإسكندرية فكان التسحير بالدق على الأبواب على أصحاب البيوت والمناداة

(1) رحلة ، ج 1 ، ص 46 .

(2) العليمي ، الأنس ، ج 2 ، ص 33 . علي ، القدس ، ص 265 .

(3) ينظر: العسلي ، وثائق ، ص 116 . ينظر الملحق (4)

(4) المقرئزي ، الخطط ، ج 2 ، ص 584 . الأغا ، الأوضاع ، ص 233 .

(5) ينظر: العسلي ، وثائق ص 117 . ينظر ملحق (4)

(6) ابن جبير ، رحلة ، ج 1 ، ص 97 .

(7) الحارات في المدن .

عليهم، وذكر ابن جبير أنه وقت السحور يوجد داعياً " مذكراً ومحرضاً على السحور ومعه أخوان صغيران يجاوبانه و يقاولانه " و كانت تنصب في أعلى الصومعة خشبة طويلة في رأسها عود مثل الذراع و في طرفيه بكرتان صغيرتان يرفع عليها قنديلاً من الزجاج كبير الحجم ويستمران في التسحير حتى الفجر ومجيء وقت الأذان يتم إنزال القنديل (1)، ويبدو أن الحديث السابق عن السحور في الإسكندرية يعدّ النموذج الأقرب إلى بلاد الشام؛ لأن بعض عادات السحور التي وردت في حديث ابن جبير ما تزال موجودة حتى الآن في المدن وهو التذكير عن طريق الأذان، هذا إضافة إلى ما ذكره العليمي أن التسحير كان موجوداً وخاصة في مدينة القدس حيث المصاييح توقد في شهر رمضان في كل ليلة وقت العشاء ووقت الصبح سواء في داخل الجامع أو شوارع المدينة. و في نهاية شهر رمضان يتم الاستعداد لاستقبال عيد الفطر المبارك حيث يستغرق الثلاثة أيام الأولى من شوال(2).

و يستعد الناس لهذا العيد و يسهرون ليلة العيد لتجهيز ملابسهم الجديدة حتى الصباح ويسهر الأتقياء منهم للاستماع إلى القرآن الكريم و الأذكار ومع طلوع النهار يتوجه الرجال لأداء صلاة العيد في موكب كبير وهم يهللون و يكبرون حتى يصلوا إلى المسجد ثم تتبادل البيوت التهنة بالعيد، وكانت عادة صناعة الكعك في آخر شهر رمضان و انتشرت عادة تفضيل أكل السمك المجفف (3) و في أيام العيد يخرج الناس لزيارة القبور و يشكل الاحتفال بعيد الفطر المبارك صورة اجتماعية إيجابية إذا يؤدي المسلمون بمختلف فئاتهم الاجتماعية صلاة العيد ويتبادلون التهاني و من مظاهر العيد احتفال الأطفال بملابسهم و ألعابهم في الطرقات حيث يتلقون الهدايا من أقاربهم احتفاءً بهذه المناسبة (4).

و لم يختلف الاحتفال بالعيدين كثيراً عن هذه الأيام فمظاهر العيد قريبة جداً مما يحدث في وقتنا الراهن من خروج الناس للصلاة وزيارة القبور وهو ما يسمى عند العامة (يوم الوقفة) و فرح الأطفال بهذا اليوم .

أما عن عيد الأضحى المبارك فالاحتفال به لم يختلف كثيراً عن المدن الإسلامية في العهد المملوكي، حيث كان السلطان يصلي ويضحى في عهد السلطان الظاهر بيبرس صلى في قبة الصخرة و عيد بها ونحر الأضحية (5)، وقد أشارت وثيقة تعود للعصر المملوكي إلى مظاهر الاحتفال بعيد

(1) رحلة ، ج 1 ، ص 112 .

(2) الأُنس ، ج 2 ، ص 33.

(3) عاشور ، المجتمع ، ص 209 . قاسم ، عصر ، ص 92 . إبراهيم ، الحياة ، ص 83 .

(4) ابن بطوطة، رحلة، ج 1، ص 41. الجبرتي، عجائب، ج 2، ص 257. قاسم ، عصر ، ص 292 . إبراهيم ، الحياة ، ص 83 .

الأغا ، الأوضاع ، ص 233 . عاشور ، المجتمع ، ص 59 .

(5) العليمي ، الأُنس ، ج 1 ، ص 356 .

الأضحى حيث يبتاع نائب مدينة القدس في عيد الأضحى البقر والكباش والغنم الضأن ويضحى في أيام التضحية ويفرق اللحم على الوقف وعلى صعاليك المسلمين⁽¹⁾، وربما أن ما قام به نائب في مدينة القدس هو نفس تصرف العامة من الناس؛ لأن الوثيقة أشارت إلى أصناف الحيوانات التي يضحى عليها الناس وإلى عادة مهمة وهي توزيع الصدقات على المحتاجين والأوقاف .

أما عن أعياد النصارى فهي متعددة فنذكر أن لها سبعة أعياد كبار وسبعة أعياد صغار⁽²⁾، وأول هذه الأعياد الكبار عيد البشارة و يقصد بشارة جبريل عليه السلام للسيدة مريم بميلاد عيسى⁽³⁾ ويقع حدوثه في 25 مارس إلى 25 ديسمبر و هو ميلاد عيسى عليه السلام⁽⁴⁾، والعيد الثاني هو عيد الزيتون أو أحد السعف أو أحد الشعانين⁽⁵⁾، ويحتفل به في ذكرى دخول السيد المسيح عليه السلام إلى القدس حيث نثر على طريقه سعف النخيل ويسبق عيد الفصح⁽⁶⁾، أما عن طريقة الاحتفال بهذا العيد فقد جرت العادة عند النصارى أن تزين الكنائس بأغصان الزيتون و قلوب النخيل و يفرق منها الناس على سبيل التبرك و كان النصارى في بيت المقدس يحتفلون بهذا العيد بنفس الطريقة و يشقون الشوارع بالقراء والصلوات حاملين الصليب ومرتدين الملابس البيضاء وكان يأتي العيد في الثاني والأربعين من الصوم أي في سابع أحد لصومهم⁽⁷⁾.

أما العيد الثالث فهو عيد الفصح ويعتبر العيد الكبير عندهم، يفطرون فيه و يزعمون أن المسيح عليه السلام قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام و أقام في الأرض أربعين يوماً وكان آخرها يوم الخميس ثم صعد إلى السماء⁽⁸⁾، و يقال: إنه اجتمع مع حواريه وتناول الطعام معهم⁽⁹⁾، ويطلق عليه أيضاً عيد القيامة و يقع هذا العيد في الرابع عشر من شهر أبريل (نيسان) حتى قرب نهاية القرن الثاني الميلادي ولكن في مجمع نيقية المسكوني سنة 325م تقرر أن يكون عيد القيامة و عيد الفصح في يوم الأحد التالي لليوم الرابع عشر من هلال أبريل نيسان الذي يقع في وقت الاعتدال الربيعي، وظل المسيحيون في أنحاء العالم يعيدون معاً في هذا اليوم حتى عام 1268هـ/ 1852م حيث

(1) ينظر: العسلي ، وثائق ، ص 116-117 .

(2) المقريري ، الخطط ، ج 1 ، ص 732

(3) القلقشندى ، صبح ، ج 4 ، ص 454

(4) القلقشندى ، صبح ، ج 4 ، ص 454. السيد ، القدس ، ص 266 .

(5) ويفسر بالعربية التسبيح مأخوذ من السريانية (سعاين) ويقصد بها سعف النخل، ينظر: القلقشندى، صبح، ج 4، ص 454.

(6) المقريري، الخطط، ج 1، ص 733 . قاسم ، أهل الذمة ، ص 113 .

(7) القلقشندى، صبح ، ج 2، ص 454. علي، القدس، ص 266. براور، الاستيطان ، ص 213. الأغا، الأوضاع، ص 237

(8) القلقشندى ، صبح ، ج 2 ، ص 454. المقدس ، البدء ، ج 4 ، ص 47 . قاسم أهل الذمة ص 113.

(9) المقريري ، الخطط ، ج 1 ، ص 733-734 .

حدث الاختلاف نتيجة لاختلاف خطوط الطول بين الشرق والغرب (1) ومن مظاهر الاحتفال بهذا العيد في بلاد الشام و مدته ستة أيام أولها يبدأ يوم الخميس وأخرها يوم الثلاثاء سادس الفصح تتزين فيه النساء و تلبس الملابس الفاخرة و يصبغون فيه البيض ويعملون فيه الأقراص والكحك ويشارك في هذه المظاهر المسلمون أكثر من النصارى و يركبون في المراكب و تغني النساء و ترقصن كما الرجال على الشطوط(2).

و العيد الرابع هو عيد خميس الأربعين و يسمى في الشام (السلاق) ويكون بعد الفطر بـ 42 يوماً و يذكرون أن السيد المسيح عليه السلام تسلق فيه من تلاميذه إلى السماء بعد القيام ووعدهم بإرسال روح القدس (3).

و من مظاهر الاحتفال بهذا العيد الخروج في موكب بهيج يشق طريقه إلى جبل الزيتون ومن ثم يؤدون الصلاة في كنيسة وكان الموكب يشق طريقه إلى كنيسة الصعود حيث كانت بصمات و آثار أقدم المسيح ماثلة للعيان(4). والعيد الخامس هو عيد الخميس أو عيد العنصرة و يعتقد المسيحيون أنه في هذا اليوم حلت روح القدس في تلاميذ السيد المسيح بعد تجلى روح القدس لهم في شبه أسنة من نار وتفرق عليهم أسنة الناس فتكلموا بجميع اللغات وذهب كل منهم إلى البلد التي يعرف لغتها للدعوة إلى دين المسيح (5).

أما العيد السادس فهو عيد ميلاد السيد المسيح عليه السلام و يقال: إنه ولد يوم الاثنين ولذا فإنهم يجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد و يوقدون المصابيح بالكنايس و يزينوها (6). و يوافق هذا اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر (7). وكانت بيت لحم في يوم عيد الميلاد المسيحي أهم المدن التي يحج إليها المسيحيون من أقطار العالم (8).

و العيد السابع من تلك الأعياد هو " عيد الغطاس " الذي يحتفل النصارى به في ذكرى تعميد المسيح على يد يوحنا المعمدان (يحيي بن زكريا عليه السلام) في نهر الأردن والنصارى في هذا العيد كانوا يغمسون أولادهم في الماء رغم شدة البرد اعتقاداً منهم أن ذلك يقيهم شر المرض طول

(1)المقدسي ، البدء ، ج4 ، ص 47 . علي ، القدس ، ص267 ،

(2)ابن شيخ الربوة،ص280.ينظر: الأغا،الأوضاع ص238 .

(3)القلقشندي ، صبح،ج2،ص454—455. قاسم ، عصر ، ص300 . قاسم ، أهل الذمة ،ص113 .

(4)القلقشندي ، صبح ،ج2،ص454—455.براور ، الاستيطان ، ص217 . الأغا ، الأوضاع ، ص238 .

(5)القلقشندي،صبح،ج2،ص455. قاسم،أهل الذمة،ص113،عصر ص300.الأغا،الأوضاع ،ص238 .

(6)القلقشندي ، صبح ، ج 2 ، ص 455 . المقرئزي ، الخطط ، ج 1 ، ص 734—735 .

(7)القلقشندي ، صبح ، ج 2 ، ص 455.علي ، القدس ، ص267—268 .

(8)فابري،رحلة،ق1،ص70—74 . علي ، القدس ، ص267—268 .

السنة⁽¹⁾، أما أعياد النصارى الصغار فكانت سبعة وهي عيد الختان وعيد الأربعين، وخميس العهد وسبت النور وحد الحدود والتجلي وعيد الصليب⁽²⁾، وكان أشهر هذه الأعياد في مدينة بيت المقدس عيد سبت النور " النار المقدسة " و كان النصارى يحتفلون به قبل عيد الفصح بيوم واحد و قد وصفه أحد رحالة القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي كان يحضره أعداد كبيرة جداً سواء من النصارى المقيمين أو الحجاج ويقومون بإشعال المصابيح و يقف رجال الدين و الناس يطالبون أن يساعدهم الرب⁽³⁾. وذكر القلقشندي أيضاً مظاهر الاحتفال بهذا العيد في كنيسة القيامة ببيت المقدس بنفس الأوصاف السابقة⁽⁴⁾، وإلى جانب الأعياد الرئيسية عند النصارى فقد كان لهم أعياد أخرى ومواسم بلغ عددها مائة وثمان وسبعون عيداً أو موسماً موزعة على مختلف شهور السنة⁽⁵⁾.

أما الأعياد اليهودية فهي خمسة أعياد و أول هذه الأعياد " عيد رأس السنة " و اسمه العبري القديم " راش هيشا " و بالعبرية الحديثة " روش هسانا " وهو عيد يقدمون فيه الأضاحي في ذكرى افتداء إسماعيل و يعتبر هذا العيد عيد عتق وحرية عند اليهود؛ لأنه يرتبط بخلاصهم من فرعون و قد سماه المقرئزي عيد البشارة وكان يبدأ في أول يوم من شهر تشرى اليهودي⁽⁶⁾، وهناك اختلاف بين طريقة كل من الربانيين والقرائين في الاحتفال بهذا العيد حيث رصدتها مصادر تلك الفترة إذا كان الربانيون ينفخون الأبواق في معابدهم أثناء الصلاة اعتماداً على تفسيرهم لبعض النصوص المقدسة المتعلقة بهذا الاحتفال على حين اكتفى القراءون بالصلاة والتهليل حمداً و شكراً لله؛ لأنه يوم عتق رقاب بالنسبة لهم⁽⁷⁾. والعيد اليهودي الثاني هو " عيد صوماريا " و يسمونه " الكبور " و هو يوم الغفران و هو يوم صوم عظيم و عقوبة من لا يصوم هذا اليوم القتل⁽⁸⁾. أما عيد المظلة أو عيد الظل فيبدأ الاحتفال به في الخامس عشر من شهر تشرى و يستمر سبعة أيام يعيدون في أولها و اليوم الثامن هو عيد الاعتكاف عند الربانيين و في هذا العيد يحتفل اليهود بذكر الغمام الذي أظلم الله به في التيه و

(1) القلقشندي، صبح، ج2، ص455. قاسم، أهل الذمة، ص114، قاسم، عصر، ص300. الأغا، الأوضاع، ص238-239

(2) القلقشندي، صبح، ج2، ص455-457. المقرئزي، الخط، ج1، ص732.

(3) ثيودريش، وصف، ص68-69.

(4) صبح، ج4، ص456.

(5) القلقشندي، صبح، ج2، ص458-463.

(6) الخط، ج3، ص719. القلقشندي، صبح، ج4، ص463. علي، اليهود، ص191. قاسم، أهل الذمة، ص116، عصر، ص239.

(7) القلقشندي، صبح، ج2، ص463. المقرئزي، الخط، ج3، ص719. قاسم، أهل الذمة، ص11، عصر، ص297-298. السيد، اليهود، ص191.

(8) القلقشندي، صبح، ج2، ص463-464. قاسم، عصر، ص298، أهل الذمة، ص116-117، علي، اليهود، ص191.

يجلسون بهذه المناسبة في ظلال من جريد النخل أو أغصان الزيتون و سائر الشجر دائم الخضرة التي لا يتناثر أوراقها على الأرض⁽¹⁾.

والعيد الرابع هو عيد الفطير الذي يسمى أيضا بعيد الفصح و يتصل بذكريات خروجهم من مصر و يبدأ في 15 نيسان اليهودي و فيه ينظفون بيوتهم من الخبز⁽²⁾ وقد اختلفت الفرق اليهودية حول مدة الاحتفال به فهي سبعة أيام عند القراءين و ثمانية أيام عند الربانيين وستة أيام فقط عند السامرة و يعتبر من أعياد التضحية ومواسم الحج اليهودي و يحج الربانيون والقراءون في هذا العيد إلى بيت المقدس و يضحون على الصخرة المقدسة و يحج السامرة على جبل جرزيم القريب من نابلس في فلسطين و يضحون عليه⁽³⁾ أما العيد الخامس فهو عيد الأسابيع أو عيد العنصرة أو الخطاب و يكون بعد عيد الفطر بسبعة أسابيع و يحتفلون فيه بذكرى الوصايا العشر التي انزلها الله على نبيه موسى عليه السلام و كان اليهود يصنعون القطنف و يتفننون في صنعها لكي يأكلونها في هذا العيد في ذكر المن الذي انزله الله عليهم في التيه⁽⁴⁾، ولهذا العيد اسم عبري هو عشرتا بمعنى الاجتماع و قد تقيد الربانيون فقط بهذا العيد ولا يجب عندهم أيام الثلاثاء و الخميس و السبت⁽⁵⁾ ومن الأعياد اليهودية التي استحدثتها اليهود وزعموا أن التوراة ذكرتها هو عيد الفوز " البوريم " و عيد الحنكة " الحانوكه " و عيد الفوز يأتي في ذكر انتصار اليهود على الوزير الفارسي هامان و يبدأ هذا العيد بالصيام في الثالث عشر من آذار حتى الخامس عشر من نفس الشهر ثم يقيم اليهود مهرجاناً صاخباً يحرقون فيه تمثالاً من الورق مملوءة بالبخالة رمزاً لهامان و يبدو أن هذا العيد كان يرتبط بمظاهر اللهو والخلاعة في عصر المماليك لدرجة جعلت المؤرخين المسلمين يطلقون عليه اسم عيد المسخر أو عيد المسخرة و كان اليهود يتبادلون الهدايا والهبات في هذا العيد⁽⁶⁾.

أما عيد " الحانوكه " أو " الحنكة " فكان الاحتفال به يستمر على مدى ثمانية أيام والاحتفال به يكون في ذكرى انتصار اليهود على " أنطيوخوس أبيغاس " الذي حاول إرغام اليهود على عبادة الأصنام و لكنهم استعادوا هيكلهم و طهروه من الأصنام و الكلمة العبرية "حانوكه " تعني التنظيف؛ لأن اليهود نظفوا الهيكل من تماثيل آلهة اليونانيين وفي عصر المماليك كان اليهود يوقدون المصابيح على الأبواب دورهم وفقاً لعدد تصاعدي ففي الليلة الأولى يوقدون قنديلاً واحداً وفي الليلة الثانية قنديلين حتى

(1) القلقشندي، صبح، ج2، ص464. قاسم، عصر، ص298، أهل النمة، ص117.

(2) القلقشندي، صبح، ج2، ص464.

(3) قاسم، عصر، ص298.

(4) القلقشندي، صبح، ج2، ص464 - 465. المقريري، الخطط، ج3، ص722.

(5) قاسم، أهل النمة، ص118.

(6) القلقشندي، صبح، ج2، ص265 - 266. قاسم، أهل النمة، ص118 - 119. قاسم، عصر، ص299.

يصل عددها إلى ثمانية قناديل في اليوم الثامن، ولم يكن القراءون يعترفون بهذا العيد على الإطلاق كما أن السامرة لم يهتموا به⁽¹⁾،

و في نهاية الحديث فقد شكلت هذه الأعياد و المناسبات و المواسم عند المسلمين وغيرهم من طوائف المجتمع الفلسطيني في العهد المملوكي ظواهر اجتماعية هامة وما زال بعض العادات و الطقوس التي وجدت في تلك العصر مستمرة إلى يومنا هذا كدليل على تراث و أصالة و تجذر هذا المجتمع .

الطعام :

يشكل الطعام أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في العهد المملوكي، حيث كان للمجتمع الفلسطيني في العهد المملوكي عاداته الخاصة التي تميزه عن غيره فقد وجد عندهم الكثير من الأطعمة و الطرق المتعلقة بصناعتها و التي اختلفت عن بقية المجتمعات .

فقد ذكر المقدسي أن سكان مدينة نابلس و القدس لهم الكثير من الأفران و الطوايين التي تحفر في الأرض المفروشة بالحصى و توقد بالزبل من حولها و كانت إذا احمرت توضع فيها الأرغفة، كما أنهم كانوا يطبخون العدس و البيسارة و يقلون الفول المنبوت بالزيت أو يسلقونه و يباع مع الزيت و يملحون الترمس و يكثر من أكله و يصنعون أنواعاً مختلفة من الحلويات من الخروب و تسمى القبيب، و يصنعون من السكر ناطفاً، و يصنعون في الشتاء زلابية من العجين غير مشبكة⁽²⁾

وما تقدم من حديث يعطي صورة واضحة عن عادات الطعام التي وجدت في فلسطين قبل سيطرة المماليك، ولعل هذا الأسلوب من أساليب الحياة اليومية هو الذي ساد في العهد المملوكي .

ومن أنواع الأطعمة التي وجدت في هذه الفترة و أشار لها رحالة زار فلسطين خلال العهد المملوكي صناعة المخلات التي تؤكل مع وجبات الدجاج و السمك و غيرها من أصناف الطعام⁽³⁾، كما انتشرت صناعة المربي من الخوخ في مدينة عكا بطريقة متقنة و جيدة⁽⁴⁾ .

و قد أشار العليمي إلى العديد من أنواع الأطعمة التي سادت في فلسطين خلال العهد المملوكي وخاصة عندما تحدث عن سماط الخليل أنه كان يعمل فيه كل جمعة الأرز المفلفل و يطبخ حب الرمان و العدس، أما في الأعياد فكانت الأطعمة فاخرة⁽⁵⁾، و أوقف السلاطين من اجل هذا السماط الأوقاف

(1) القلقشندي ، صبح ، ج 2 ، ص 466 . قاسم ، أهل الذمة ، ص 119-120 .

(2) التقاسيم ، ج 1 ، ص 167 .

(3) بور شاردي ، وصف ، ص 169 .

(4) المصدر ، نفسه ، ص 168 .

(5) الأنس ، ج 2 ، ص 97 .

فمن هذه الأوقاف قرية دير اسطيا من أعمال نابلس؛ لأن هذه السماط كان يوزع مجاناً⁽¹⁾، ومن أنواع الأطعمة التي وجدت و ما زالت مستمرة إلى يومنا هذا عادة فت الخبز في وعاء ووضع بعض أنواع الحشائش عليه⁽²⁾.

و انتشر أيضاً في مدينة الخليل أفران و طواحين حيث كانت تصنع العجائن من القمح والشعير⁽³⁾، وأشار الرحالة اليهودي عوبديا الى وجود الضيافة في الخليل حيث كان يوجد الطباخ و الخباز وخدام مرتبون يقدمون العدس بالزيت لكل من حضر من الفقراء والأغنياء⁽⁴⁾، وهذا يشير إلى ظاهرة اجتماعية هامة سادت في المجتمع الفلسطيني خلال العهد الملوكي و هي عدم التميز بين أبناء الطبقات المختلفة من المجتمع و كذلك عدم التميز بين أفراد الديانات المختلفة، وقد أشار الرحالة فابري إلى أن سكان المدن في فلسطين كان عندهم أسواق الطباخين و عندما زار غزة قال: " هناك كثير جداً من الطباخين "⁽⁵⁾، في إشارة إلى أنواع الطعام التي يتناولها البدو أنها السبب في طول أعمارهم حيث يخبزون الأرغفة في الرماد ويأكلون اللحم غير ناضجة (نية) ولا يطهونها على النار فهم يضعونها على الصخور الساخنة حتى تجف⁽⁶⁾، ويأكلون بعض الحشائش و الجذور و الحليب من الجمال، و يوجد عندهم أنواع من البقسماط القاسي⁽⁷⁾ و ذكر الباحثون المحدثون أنواع الطعام التي وجدت عند عرب الشام و هي التمر و الدقيق و يسمونها الحريرة و من طعامهم البسيطة و هو كل شيء خلط بغيره والمنسف و هي أكلة شعبية في البلاد الشامية تصنع من الأرز و اللحم المطبوخ باللبن الرائب ويعرف أيضاً بالشاكرية و المنسف أيضاً طبق مستدير واسع من الخشب يقدم فيه الطعام⁽⁸⁾ ومن أطعمة العرب في الشام أيضاً الوشيقة من اللحم و هو المسلوق في الماء ثم يقدم اللحم مع الحساء والعصيدة حيث يغلي الماء في وعاء و يوضع عليه الدقيق قليلاً قليلاً مع التحريك حتى يكون له قوام فيصب في القصاع و يقدم و إذا تم غلي الدقيق باللبن و الحليب بدل الماء فإنهم يسمونه التلبانة والدقينة و هي فتة من الخبز والأرز بمرقه اللحم و يوضع فوقه اللحم قطعاً والجريشة ويجرش القمح بحجر الرحي حتى يصير برغل خشن ثم يسلق جيداً ثم يسكب في قصاع ويخلط باللبن و السمن والجريش، والعصيدة أكثر

(1)العلمي ، الأنس ، ج 2 ، ص 94

(2)المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 152 .

(3)العلمي ، الأنس ، ج 2 ، ص 270

(4)المقدس، التقاسيم، ج 1، ص 159. العلمي، الأنس، ج 2، ص 234.94. Obadiah، op.cit. نقلاً عن علي، اليهود ، ص 118 .

(5)فابري ، رحلة ، ج 38 ، ق 4 ، ص 1258

(6)المصدر نفسه، ج 38 ، ق 4 ، ص 1258

(7)المصدر نفسه، ج 38 ، ق 4 ، ص 1288

(8)غوانمة ، التاريخ ، ص 152—153 . السيد ، تاريخ ، ص 200 .

أكل العرب⁽¹⁾ واستخدم في الطعام خلال هذه الفترة التوابل والمشهيات بكثرة⁽²⁾ ولا يغيب هنا أن أسواق الطباخين قد انتشرت بشكل واسع خلال العهد المملوكي وكان الناس يعتمدون عليها وهي تعمل في المطاعم اليوم وهو ما سبق الحديث عنه في الفصل الثاني، وهذا يشير إلى ظاهرة اجتماعية هامة جداً وهي انشغال الناس بالأعمال فكانوا يفضلون تلك العادة بدلاً من إضاعة الوقت في طهي الطعام. فالبعض نظر لهذا النظام على أنه أصبح من عادات الناس في العهد المملوكي⁽³⁾.

كذلك استخدم اللحم كمادة أساسية في تحضير أية وجبة ومما يدل على ذلك انتشار أسواق الجزارين في مختلف نيابات فلسطين خلال هذا العهد⁽⁴⁾.

و أشارت وثيقة ترجع الى سنة 967هـ/1559م إلى مؤسسات خيرية في القدس من بينها مطبخ ضخم لإطعام الفقراء حيث كان له 55 حجرة و أنواع الطعام المختلفة و فيه طباقون و خبازون و عليهم مراقبين من قبل الدولة و من بين الأطعمة التي ذكرتها هذه الوثيقة اللحم الذي يوضع في القصاع⁽⁵⁾ و الحنطة و الأرز و المرق بالسمن و مرق بالأرز غذاء و مرق بالحنطة عشاء و الكثير أيضاً من الأطعمة الفاخرة و كان يضاف بهذا المرق الحمص و البصل بمقادير معينة و اللبن، و أضيف إليها أيضاً البقدونس، و كما أضيف الفلفل للطعام كنوع من التوابل و الزعفران و العسل⁽⁶⁾.

تعتبر هذه الوثيقة من أهم الوثائق التي تفيد عن عادات الطعام و بعض أنواعه في فلسطين؛ لأنها صدرت في بداية حكم العثمانيين، و العادات لم تتأثر و استمر الكثير منها إلى نهاية العهد العثماني فهي صورة حقيقية للطعام في فلسطين و لا سيما أن العثمانيين أبقوا على كثير من أبناء الطبقة الحاكمة في مناصبهم بل يعتبر الطعام في العهد المملوكي و العثماني استمراراً لما كان عليه في العهد السابق و أشارت هذه الوثيقة أيضاً للاهتمام بنظافة الطعام من أجل المحافظة على الصحة العامة حيث كانت تفتح حجرات المطبخ و تكنس و تنظف و ترفع مخلفات الطعام و توضع في مكانها، و من الوظائف التي أشارت لها أيضاً الذين يغسلون الكؤوس و الذين ينفقون الأرز و الحنطة و وصفت ظاهرة اجتماعية هامة وهي توزيع الطعام على طبقات المجتمع المحتاجة مثل الفقراء و غيرهم و الأغنياء أيضاً⁽⁷⁾، و كان المطبخ الفلسطيني غني أيضاً بجميع أصناف الحلويات لدرجة أنها كانت تصدر الى مناطق الشام و هو

(1) السيد ، تاريخ ، ص 201 . ينظر: العسلي ، و ثائق ، ص 137 .

(2) براور ، الاستيطان، ص 481

(3) عاشور المجتمع ، ص 129-130 .

(4) المقرئزي ، السلوك ، ج 7 ، ص 17 ، زعرور ، الحياة ، ص 165 .

(5) يوضع فيها الطعام .

(6) العسلي ، و ثائق ، ص 125 ، ص 142 .

(7) ينظر: العسلي ، و ثائق ، ص 138 ، ص 141 . ينظر ملحق (5)

ما أكده المقدسي عند حديثه عن نابلس والقدس أنهم كانوا يصنعون الحلويات من الخروب والسكر والزلابية تعتبر نوعاً من أنواع الحلويات⁽¹⁾ و قد ذكر ابن بطوطة عند زيارته لمدينة نابلس كان يصنع فيها الحلواء من الخروب و يُصدّر إلى دمشق و مصر⁽²⁾، فهذه المعلومات تشير الى تقدم صناعة الحلويات في فلسطين .

و أشار ابن بطوطة أيضاً الى نوع من أنواع الحلويات التي تصنع في الشام وهى المربى المصنوع من العنب ويصنع الدبس ويوضع في الحلواء الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملمين و تسمى أيضاً جلد الفرس⁽³⁾ و بالتأكيد إن موائد الشام و مطابخها كانت غنية جداً بأصناف الحلويات لدرجة أنها كانت تصدر. كذلك كان المجتمع الفلسطيني يصنع القطايف والكعك المحشو بالتمر والكنافة خاصة في أيام الأعياد⁽⁴⁾ و ذكر الرحالة بور شار্দ صناعة أنواع من الحلويات من قصب السكر ومنها عسل السكر⁽⁵⁾، وكانت موائد أهل الذمة في البلاد الإسلامية لا تختلف كثيراً عن موائد المسلمين و هو ما أكده الرحالة عوبديا حيث قال: إنه يلمس الروح الشرقية عند إعداد الموائد ولكنها كانت تميز بعض العادات الدينية الخاصة في بعض الأحيان و كانوا يشربون الخمر في كؤوس خاصة حتى أنهم كانوا يجلسون على الأرض ويتبادلون الكلمات الطيبة على الطعام مع أن المؤرخين المسلمين ذكروا انتشار عادة الخمر بين المماليك، وكثير منهم تعرض للضرب من أجل هذه العادة⁽⁶⁾.

و أشار فابري أثناء زيارة غزة إلى العديد من طرق الطبخ وأدواته فقال: إنهم اشتروا الكثير من أدوات الطبخ وأدوات القلي وكل شيء يحتاجه المطبخ وأدوات شوي والكثير من صحون الزجاج و الأطباق و اشتروا الجبن و اللحم الجاف و زبدة و زيت و خل و قمع مجروش يستخدم في صناعة الحلوى سابقة الذكر و البصل و لوز و نوع آخر من اللحم المملح و أطعمة محفوظة حلوى ومملحة⁽⁷⁾ وترجع أهمية حديث هذا الحاج الى أنه تطرق إلى الكثير من الأطعمة التي وجدت في هذا العهد المملوكي في غزة والقدس وأدوات الطهي المستخدمة في الطعام وإعداده وهذا يؤكد أن موائد أهل الذمة لا تختلف كثيراً عما يأكله المسلمون؛ لأنهم كانوا يأكلون نفس السلع التي توفرت في الأسواق في تلك الفترة . ومن بين أسباب الاهتمام الكبير بالطعام في العهد المملوكي كما هو ملاحظ كثرة

(1)التقاسيم ، ج 1 ، ص 80 .

(2)رحلة ، ج 1 ، ص 80 .

(3)المصدر نفسه، ج 1 ، ص 100 .

(4)الدباغ ، ج 5 ، ق 2 ، ص 66 .

(5)وصف ، ص 168 ، ص 169 .

(6)المقريزي، السلوك، ج 2 ، ص 125 . ابن تغري، النجوم، ج 9، ص 73 . السيد ، اليهود ، ص 180-181.

(7)فابري ، رحلة ، ج 38 ، ق 4 ، ص 1251-1252 .

أعمال الخير التي قام بها السلاطين المماليك في المدن الفلسطينية وخاصة في المدن ذات الأهمية الدينية كما سبق حيث أوقفوا عليها الأوقاف وكانت توزع على مختلف طبقات المجتمع .كما امتاز العهد المملوكي بكثرة الاحتفالات وإقامة الولائم في المناسبات المختلفة مثل الأفراس والولادة والزواج و بناء دار جديدة والاحتفال بعودة مسافر أو حاج أو كان يقيمها السلاطين المماليك في مختلف المناسبات (1).

(1) عاشور ،المجتمع ، ص131 . غوانمة ،التاريخ ،ص150 – 151 .

الفصل الرابع

مظاهر الحياة الاجتماعية في المجتمع الفلسطيني في العهد المملوكي

وسائل التسلية

الميد

لعبة الكرة

المؤسسات التعليمية والصحية

الالتزام العقائدي في المجتمع الفلسطيني

النظام القضائي

الأثار الاجتماعية لسيطرة المماليك على فلسطين

وسائل التسلية : -

من المعروف أن المجتمع الفلسطيني كان يعتمد على حرفة الزراعة والصناعة والتجارة، ولذلك عرف الاستقرار الذي هو أساس الإبداع الحضاري ، وما يدل على ذلك غناه بالآثار التي وجدت في الأماكن الدينية مثل القدس: وغيرها، وما وجد في هذه المدن من مؤسسات اجتماعية لهو دليل على التقدم الحضاري والأوضاع الاقتصادية والثراء الذي انتشر في المجتمع الفلسطيني وما واكبه من تقدم و بذخ وعطاء ، وهنا لابد من تسجيل بعض المعلومات المتعلقة بمظاهر الترف الاجتماعي في فلسطين في عهد دولة المماليك الأولى .

و لاشك أن الترفيه أمر ضروري للإنسان مهما كان موقعه في الحياة حاكماً أو محكوماً، خاصة أن الترفيه باختلاف وسائله يشكل جانباً مهماً من جوانب حياة الإنسان حتى يمكن اعتباره الوجه الآخر للعمل، كما أنه لا يمكن أن نعتبر كل ترفيه لهواً أو مجوناً أو مضيعة للوقت كما يتصور البعض، فلترفيه جوانب إيجابية متعددة خاصة وسائل الترفيه التي تتصل بفن الرياضة و الفروسية،ولما قيل: لا تخلو تسلية من فائدة كذلك قيل: إن شعباً لا يعرف كيف يلعب لا يعرف كيف ينتج (1) .

وتعتبر وسائل الترفيه التي انتشرت في العهد المملوكي امتداداً لما كان سائداً في الدولة الفاطمية و العباسية و إن اختلفت بعض الشيء، ولعل السبب في ذلك كثرت الحروب التي دارت على أرض فلسطين بين الأيوبيين و الصليبيين من جهة، وبين المماليك من جهة أخرى، فقد قال ابن خلدون: إن طبيعة الملك الترف " و ذلك أن الأمة إذا تغلبت و ملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها كثرت رياضها و نعمتها فتكثر عوائدهم و يتجاوزون ضرورات العيش و خشونته إلى نوافله و رفته وزينته و يذهبون إلى إتباع من قبلهم في عوائدهم ... في المطاعم والملابس والفرش والآنية(2)

وأكد ابن خلدون على أهمية الرياضة كإحدى وسائل مكافحة الأمراض التي انتشرت في المدن والأمصار، وأنها منشطة للأرواح ، مقوية للأبدان وأن انتشار الأمراض يسبب الخمول. بينما قارن أهل البدو أن أغذيتهم بسيطة وتلائم أبدانهم، وأن الرياضة موجودة عندهم بسبب كثرة حركتهم و ركوبهم الخيل و الصيد أو طلب الحاجة لمهنة معاشهم (3) .

و يتضح مما تقدم إدراك المجتمع الإسلامي لأهمية الرياضة سواء لغرض بناء القوة البدنية التي تعد أساساً حيويًا للقوة والجهاد في سبيل الله تعالى أو على مستوى ممارسة النشاط الاجتماعي

(1) نصار ، وسائل ، ص7 .

(2) مقدمة، ج1 ، ص167.

(3) المصدر نفسه، ج1 ، ص416-417 .

المألوف لدى المجتمع، والذي كان يحافظ على ديمومة التراث الحضاري في مجال الألعاب الشعبية القديمة⁽¹⁾، وفيما يلي دراسة لبعض مظاهر الترف في المجتمع المدني لفلسطين في العهد المملوكي :

الغناء :

قيل: فضل الغناء على الكلام كفضل الكلام على الخرس⁽²⁾. و تعليقاً على ما سبق يبدو أن المجتمع الفلسطيني لم يكن بمعزل عن تيارات الثقافة التي انتشرت بين طبقة المماليك من كبار رجال الدولة والأمراء و شكلوا مجتمعاً خاصاً شغوفاً بالغناء و الموسيقى، وكانوا يعقدون في بيوتهم مجالس الأُنس و اللهو و الطرب من عزف و غناء و شراب . وسبق ذكرنا لبعض أنواع الغناء عند الحديث عن الاحتفالات العائلية كالزواج والأفراح و خاصة التي تتعلق بالمماليك و التي بدون شك أثرت في بقية أجزاء الدولة المملوكية ففي سنة 740هـ/1339م تحدث المقرئزي عن مصادرة أموال المغاني من النساء، وذكر أنه وجد في العهد المملوكي ما يسمى شاد المغاني والضامنة وهو نوع من أنواع الضرائب تسمى (ضريبة المغاني)⁽³⁾، وكان السبب في هذه المصادرة انتشار الفتن والانحلال ومجالس الخمر، وفرض عليهم عقوبة عبارة عن مبلغ من المال⁽⁴⁾ وقد ذكر ابن حجر عند حديثه عن ضمان المغاني في مصر والشام أنه: " ما كان أحد يقدر يعمل عرساً حتى يغرم قدر عشرين إلى ثلاثين مثقالاً ذهباً"⁽⁵⁾ أما في الريف فقد ذكر ابن حجر أن للمغاني حارة مفردة ينتشر فيها الفساد جهراً⁽⁶⁾، وفي سنة 775هـ/1373م أبطل السلطان الأشرف " ضمان المغاني "⁽⁷⁾ وذكر بعض المغنيين في بلاد الشام وخاصة دمشق ومنها دنيا بنت الأقباعي المغنية الدمشقية والتي اشتهرت بالتقدم في هذه الصنعة، وسافرت إلى القاهرة في سنة 779هـ/1377م واستدعاها الملك الناصر حسن⁽⁸⁾ وكانت سبباً

(1) ابن خلدون ، مقدمة، ج 1 ، ص 417، 416، 167. ينظر: إبراهيم، الحياة، ص 95
— 96. الأغا، الأوضاع، ص 241—245.

(2) نصار ، وسائل ، ص 126—127 .

(3) المقرئزي، السلوك ، ج 3 ، ص 279 . ابن حجر ، إنباء ، ج 1 ، ص 127 .

(4) المقرئزي، السلوك ، ج 3 ، ص 279 .

(5) ابن حجر ، إنباء ، ج 1 ، ص 127 .

(6) إنباء ، ج 1 ، ص 127 .

(7) المقرئزي، السلوك ، ج 4 ، ص 362. ابن حجر ، إنباء ، ج 1 ، ص 58 .

(8) الملك الناصر حسن بن الملك الناصر بدر الدين وقيل ناصر الدين أبو المعالي حسن واللقب الثاني أصح لأنه أخذ كنية أبيه ولقبه وشهرته ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون واستمر في السلطانية إلى أن عزل أخيه الملك المظفر حاجي فقام الأمراء بتوليته السلطنة في سنة 748 هـ/1347م استمر في السلطنة إحدى عشرة سنة وهو السلطان التاسع عشر من ملوك الترك بالديار المصرية والسابع من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون، ينظر: ابن تغري، النجوم، ج 10، ص 187.

في إسقاط مكس المغاني (1) . ومما يدل أيضاً على انتشار الغناء في بلاد الشام أبان العهد المملوكي أنه في سنة 782 هـ/1380م أبطل السلطان برقوق (2) ضمان المغاني في حماه و الكرك و الشوبك وغيرها من المناطق في بلاد الشام، حتى أن هذه الإصلاحات الضريبية شملت فلسطين و خاصة منطقة الغور ونهر الشريعة (3)، وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون قدمت مغنية جاءت معه من دمشق من جملة مغانيه عشرة آلاف درهم وأعطاهها أصنافاً مختلفة من الملابس زركش وثلاثون عباية (4) قماش (5)، كذلك كانت الموسيقى تصحب جيوش المماليك وقت القتال وتوزع الفرق الموسيقية في أنحاء المعسكرات بحيث يكون كل أمير بطبله الخاص و كان لها أنغام متعددة ودقات اصطلاحية، و تحفظ الطبول في أيام السلم في الطبلخاناه (6)، ومن الأدلة القوية على انتشار صبغة الغناء في الدولة المملوكية أن أم السلطان الناصر أسماها بياض كانت تجيد الغناء (7)، ورغم أننا لم نجد نصوصاً تؤكد وجود هذه الصنعة بشكل واضح في المجتمع الفلسطيني خلال العهد المملوكي إلا أن الإشارات التي سبقت عن وجود المغنيين في دمشق و الكرك يؤكد بطريقة غير مباشرة وجود مثل هذه الصنعة، وحتى لو لم توجد ربما إن المغنيات كانت تأتي إلى فلسطين من المدن المجاورة، فقد لاحظنا أن بعض مغنيات الشام ذهبن إلى القاهرة و ذاعت شهرتهن فيها وهذا لا ينفي وجود المغنيات في فلسطين، حيث وردت إشارة تدل على ما تقدم وذلك بقدم شخص أسمه نجم الدين إلى صفد مع ابن الفصيح المغني وكان صوته جميلاً، ولم يكن له طبع الرقص (8). وقد ذكر أحد الباحثين المحدثين أن الأفراح في مدينة القدس كانت تحيها جوقة من المغاني، ويختلط الغناء بضرب الدفوف وزغاريد النساء (9) . و كما شغف السلاطين المماليك شغف أيضاً الناس في ذلك العصر بسماع

(1) ابن حجر ، إنباء ، ج 1 ، ص 163 ، ص 164 .

(2) السلطان الملك الظاهر أبوسعيد سيف الدين برقوق بن أنص العثماني اليلبغاوي الجاركي القائم بدولة الجراكسة بالديار المصرية وهو السلطان الخامس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية والثاني من الجراكسة تولى الملك في وقت الظهر من يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمئة، ينظر: ابن تغري، النجوم ج 11، ص 221.

(3) ابن حجر ، إنباء ، ج 1 ، ص 219 .

(4) العبائة نوع من الأكسية واسع فيه خطوط سود كبار ويقال لإ عبائة، ينظر: ابن منظور، لسان ، ج 15، ص 26.

(5) ابن تغري ، النجوم ، ج 9 ، ص 130 .

(6) القلقشندى، صبح، ج 4، ص 13. حسن، علي إبراهيم، تاريخ المماليك البحرية ص 51 .

(7) ابن تغري ، النجوم ، ج 10 ، ص 50

(8) الصفدي، الوافي، ج 3، ص 120-121 .

(9) علي ، القدس ، ص 69 .

الموسيقى والغناء، ومما جعل للموسيقى والغناء أهمية كبيرة في ذلك العصر تشجيع السلاطين وإفاقهم على المغنيين والمغنيات وانتقلت الأغاني إلى الناس عن طريق السماع (1) .

و هذه الأسباب أيضاً دفعت إلي انتشار لون من ألوان الشعر الغنائي كما ذكر المقرئ في حوادث سنة 731 هـ/1330م ضياء الدين الأذري الشافعي "ولد في نابلس وعاش في الرملة و تولى القضاء ستين سنة وله مؤلفات في الأرجاز والموشحات" (2) .

ولا يغيب هنا أن الغناء انتشر بين البدو في الشام بشكل عام، حيث ذكر ابن خلدون نوعاً من الغناء اسمه (الهوراني) نسبة إلى حوران انتشر بين البدو في العراق و الشام، ولهم أيضاً غيره من فنون الغناء الصعبة (3) وربما يلحنون فيه أحياناً بسيطة ليست على طريقة الصناعة الموسيقية ثم يغنون به (4)، ومن أنواع الغناء أيضاً التي وجدت في الشام الحداء و هو الغناء للأبل وهي تشرب أو تسير؛ لأنها تستعذب بالشرب و تحب السير على صوت الحداء وكانوا يحضرون المغنيات أثناء ممارسة بعض ألعابهم مثل المبارزة وركوب الخيل حيث تجلس سافرة في الهودج و هي تغني و أمامهم العبيد تميل على الركائب و ترقص، ومن آلات الطرب عند العرب المنجيرة وهي الصفارة و الزمور و تسمى في مصر القرون (5) .

ولعل من الدلائل على أن المجتمع الفلسطيني في العهد المملوكي تأثر بمظاهر الترف التي سادت المجتمعات الشامية الأخرى انه في سنة 700 هـ/1300م عندما لجأ السلطان إلي إلغاء مكس المغاني وافقه نائب طرابلس و القدس على هذا القرار وكذلك وافقه نائب غزة على نفس القرار (6)، أما فيما يتعلق بأهل الذمة فيبدو أيضاً أنه انتشر عنهم الغناء بدليل أن ابن حجر ذكر أنهم يحيون أعراسهم بنفس طريقة المسلمين " بالمغاني و الملاهي " (7)، و ذكر أحد الباحثين المحدثين أن أفراح اليهود تميزت بالصخب الشديد والرقص و الغناء و الضرب على الدفوف والطبول (8)، و خلاصة القول في هذا الموضوع أنه رغم عدم العثور على نصوص قوية تدل على صناعة الغناء إلا أنها وجدت في المجتمع الفلسطيني من خلال الوافدين .

(1) ابن تغري، النجوم، ج9، ص102. نصار، وسائل، ص128 .

(2) السلوك، ج3، ص148 .

(3) مقدمة، ج1، ص582-583 .

(4) القنوجي، أجد العلوم، ج1، ص311 .

(5) السيد، تاريخ، ص202 .

(6) ابن حجر، الدرر، ج2، ص56، ص57 .

(7) إنباء، ج1، ص273 .

(8) السيد، اليهود، ص178 .

الصيد :

يعتبر الصيد من الرياضات التي مارسها السلاطين المماليك و أيضاً عامة الشعب على أرض فلسطين في عهد المماليك، وكانوا يلبسون لها لباساً خاصاً يسمى " طرد وحش " سبق الحديث عنه في الفصل الثالث، وكانت تحتاج هذه الرياضة مهارة عالية ، خاصة ركوب الخيل من أجل مطاردة الفرائس .

أما عن هذه الرياضة فقد مورست في فلسطين بشكل موسع بسبب غناها بالغابات التي توفر فيها جميع أصناف الحيوانات والطيور، ففي عهد السلطان الظاهر بيبرس سنة 663 هـ/1264م ركب من العوجاء للتصيد في غابة أرسوف وأمر للأمرء من يريد منهم الصيد أن يحضر إلى غابة أرسوف وقيسارية فأنها كثيرة السباع (1) .

وفي سنة 661هـ/1262م سار السلطان الظاهر بيبرس من مصر إلى الشام و استمر في الصيد حتى وصل غزة فوجد فيها صيداً كثيراً جداً (2) ،وتؤكد النصوص التاريخية أن غابات فلسطين كانت مليئة بالوحوش ففي سنة 662هـ/1263م عندما حدث زلزل في كل من غزة و الرملة والكرك ووقعت الأمطار والسيول وخربت طواحين العوجاء وانكسرت أحجارها وجد أحد عشر أسداً قد ماتت (3)،ومن سرحات(4) الصيد التي تعلق بالسلاطين على أرض فلسطين أنه في سنة 699هـ/1299م توجه السلطان من مصر إلى الشام " فلما وصلوا غزة أقبلوا على الصيد و الاجتماع و النزاه " (5) .وفي سنة 672هـ/1273م أيضاً خرج السلطان بصحبة أمراء الشام ليتصيد فتوجه إلى المرج(6)والتقيف(7)وصفد(8).

(1) المقرئزي ، السلوك ، ج2 ، ص 18 .

(2) المقرئزي ، السلوك ، ج1 ، ص 550 . نصار ، وسائل ، ص 214 .

(3) المقرئزي ، السلوك ، ج2 ، ص 239-240 .

(4) الخروج للصيد ، ينظر: ابن شاهين، زبدة كشف، ص128

(5) المقرئزي ، السلوك ، ج2 ، ص 317. أحمد ، رياضة الصيد ، ص 138 .

(6) المرج بسكون الراء والجيم هي في شرقي الغوطة تنسب إلى مرج راهط بينها وبين دمشق خمسة فراسخ تنصب إليها فضلات مياه دمشق ، ينظر: الحموي، معجم، ج1، ص352.

(7) شقيف أرنون والشقيف كالكهف وهي قلعة حصينة جدا في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين

الساحل، ينظر: الحموي، معجم ، ج3، ص356

(8) المقرئزي ، السلوك ، ج2 ، ص 87. أحمد، رياضة الصيد ، ص 216 .

ومن السلاطين الذين شغفوا بالصيد في أرض الشام السلطان المنصور لاجين⁽¹⁾ في منطقة العقبة والكرك، وكان في عهده حسام الدين لاجين نائب الشام حيث وصف بأنه "رأسا في الصيد ولعب الطير"⁽²⁾.

و ذكر الرحالة بورشارد أن منطقة بحيرة الحولة تنمو فيها في فصل الصيف الحشائش والأغصان بكثافة كبيرة حيث توجد فيها الأسود و الدببة و بعض الحيوانات البرية و تجري فيها مسابقات الصيد⁽³⁾.

وعندما تحدث هذا الرحالة عن الأراضي المقدسة عدّد مجموعة كبيرة من الحيوانات البرية التي وجدت في غابات فلسطين منها إناث الظبي والأرانب البرية إلى جانب بعض الحيوانات الداجنة التي يرببها السكان⁽⁴⁾.

و كذلك كان السلطان الناصر محمد من أشد سلاطين المماليك تعلقاً بالصيد حتى عندما استمر سلطاناً للمرة الثانية في 698 هـ/1298م كان يتصيد بالغور في الشام⁽⁵⁾. وأشار الرحالة إلى انتشار رياضة الصيد كعادة بين أبناء بيت المقدس، فقد قال الرحالة "بوم جارتين" الذي زار المدينة في أواخر شهر نوفمبر عام 912 هـ/1507م انه كان يخرج أبناء بيت المقدس إلى بركة سلوان حيث يمارسون رياضتهم المفضلة وهي صيد الطيور فيقول: "هناك كانت لدينا الفرصة لكي نشاهد طريقة صيد الطيور، والتي لم نرها من قبل. ذلك لأنهم لا يصيدون الطيور كما نفعل عن طريق الصقور والشواهين ولكن عن طريق المياه التي تصب على الصخور؛ لأن هذه البلاد جافة جداً والطيور عندما تطير في الجو تكون مستعدة لأن تهبط فجأة بسبب العطش، وعندما ترى المياه تلمع خلال أشعة الشمس المتساقطة عليها تتجه نحوها مباشرة، وقبل أن تصل الطيور إلى مياه الشرب تكون قد وضعت في أيديهم عن طريق الشراك التي ينصبونها لها..."⁽⁶⁾ و هذا الرحالة يشير إلى انتشار رياضة الصيد بين أبناء العامة في المدن ليس فقط بين السلاطين و الطبقة الحاكمة. كما أنه قدم

⁽¹⁾ هو السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري سلطان الديار المصرية تسلطن بعد خلع الملك العادل كتبغا المنصوري كما تقدم ذكره في يوم الجمعة عاشر صفر من سنة ست وتسعين وستمائة، ينظر: ابن تغري النجوم ج8، ص85.

⁽²⁾ القرمانلي، أخبار، ص280. ابن تغري، النجوم، ج9، ص276. أحمد، رياضة، ص148.

⁽³⁾ وصف، ص64.

⁽⁴⁾ بورشارد، وصف، ص171.

⁽⁵⁾ المقرئزي، السلوك، ج2، ص310. نصار، وسائل، ص217.

⁽⁶⁾ The travels of. vol. p.462، نقلًا عن، علي، القدس، ص262.

مقارنة بين الصيد في المجتمع الفلسطيني والأوروبي وذكر أدواته التي استخدمها أبناء بيت المقدس وخاصة الشرك .

و لم يقتصر الصيد في فلسطين في العهد المملوكي على الطيور والحيوانات فقط بل شمل صيد الأسماك سواء من البحر أو من بحيرة طبرية وهو ما دفع البعض لوصف مدينة طبرية بأنها " كثيرة الأسماك ... و السفن فيها " (1).

ومما يؤكد ما سبق ذكره الرحالة بورشارد عندما تحدث عن بعض أنواع المأكولات عند السكان ومن بينها السمك (2) حتى أن السلطان المنصور قلاوون ركب المراكب للصيد (3).

وبعد الحديث عن أنواع الصيد المختلفة البري منها والبحري كوسيلة من وسائل الترفيه يجب ذكر أهم وسائلها ومنها قوس البندق (4) والجرادة (5) والزبطانة (6) والفخ (7) والصنانير (8).

و تطرق بعضهم لوسائل الصيد عند الحديث عن السلطان الناصر أنه كان مشغولاً بالصيد؛ لأنه لم يدع أرضاً فيها صيد إلا وأقام فيها وكان معه أثناء هذه الرحلات طيور الجوارح من الصقور والشواهين والسنافر والبزاة ورتب لها حراس الطير وأقطعهم إقطاعات، وكذلك أعطاهم الرواتب واللحم والعليق (9) والكساوي (10) وكان يمتلك 80 كلباً لاستخدامها في أغراض الصيد (11).

(1) المقدسي ، التقاسيم ، ج 1 ، ص 151. الحموي ، معجم ، ج 4 ، ص 18 .

(2) وصف ، ص 169.

(3) ابن تغري ، النجوم ، ج 9 ، ص 170 .

(4) ويسمى الجلاهق قوس يتخذ من القنا ويلف عليه الحرير ويغري؛ وفي وسط وتره قطعة دائرة تسمى الجوزة توضع فيها البندقة عند الرمي ، ينظر: القلقشندي ، صبح ، ج 2 ، ص 154 .

(5) وهي آلة من جلد يجعل فيها البندق الطين الذي يرمى به القوس المقدم ذكره، ينظر: القلقشندي ، صبح ، ج 2 ، ص 154.

(6) وهي آلة من خشب مستطيلة كالرمح مجوفة الداخل يجعل الصائد بندقة من طين صغيرة في فيه، وينفخ بها فيها فتخرج منها بحة فتصيب الطير فترميه؛ وهي كثيرة الإصابات، ينظر: القلقشندي ، صبح ، ج 2 ، ص 154.

(7) وهو آلة مقوسة لها دفتان تفتحان قسراً، وتعلقان في طرف شظاة ونحوها، إذا أصابها الصيد انطبقة عليه، ينظر: القلقشندي ، صبح ، ج 2 ، ص 154.

(8) جمع صنارة؛ وهي حديدة معقفة محددة الرأس يصاد بها السمك، ينظر: القلقشندي ، صبح ، ج 2 ، ص 154.

(9) هو طعام الدواب من الشعير أو غيره، ينظر: ابن تغري، النجوم، ج 9، ص 58.

(10) الملايس، ينظر: ابن منظور، لسان، ج 15، ص 224.

(11) ابن تغري ، النجوم ، ج 9 ، ص 170 .

و من طرق الصيد التي وجدت في بلاد الشام أنهم كانوا يصنعون الحوائط أمام فرائس الصيد ويطاردونها حتى يصطادونها (1)، وعلى ضوء العرض السابق يتضح أن هدف رياضة الصيد لم يقتصر على صيد الطيور والحيوانات وإنما كان لها أهداف عسكرية تدريبية وترفيهية في نفس الوقت، ولاسيما أن بعض السلاطين مارسوا هذه الرياضة عندما كانوا يفرغون من معركة مع الأعداء، ويتضح كذلك أن هذه الرياضة مارسها النخبة الحاكمة من السلاطين والأمراء وكذلك أبناء عامة الناس في المجتمع الفلسطيني.

وقد وصف الرحالة فابري غنى شواطئ فلسطين في العهد المملوكي بأنواع السمك عندما زارها و نزل في ميناء يافا فقال: "عندما أشرقت الشمس وقامت الأسماك بالسباحة على وجه البحر ... و لقد رأينا هناك أسماكاً رائعة حيث كان بعضها كبيراً و مستديراً مثل مروحة الغريلة (2) وكان لبعضها رؤوس مثل رؤوس الكلاب " (3).

لعبة الكرة :-

شاعت لعبة الكرة أو الأكرة في عصر دولة المماليك و أولع بها السلاطين و الأمراء ومارسوها باعتبارها إحدى ألعاب الفروسية المشهورة فأعدوا لها الميادين المخصصة لذلك (4).

ومن صور شغف السلاطين المماليك بهذه اللعبة أن ممارستها بدأت منذ عهد السلطان المعز أيك ففي سنة 655 هـ / 1257م مارس لعبة الكرة في ميدان اللوق (5) .

وكذلك مارس الظاهر بيبرس هذه الرياضة بشغف كبير جداً في ميادين القاهرة، وأنشأ لها ميادناً خاصاً بها سمي ميدان الظاهري و استمرت ممارسة اللعب في هذا الميدان حتى سنة 714هـ / 1314م حيث قام بهدمه بسبب بعده عن النيل و جعله بستاناً (6)، وكانت هذه اللعبة تمارس في المجتمع الفلسطيني أبان العهد المملوكي ليس بين النخبة الحاكمة — السلاطين والأمراء — فقط بل بين عامة الناس فيذكر الصفي: أن "الشيخ نجم الدين خطيب صفد كان يلعب مع أولاد صفد الكرة في الميدان

(1) ابن منقذ، الاعتبار، ص71. إبراهيم، الحياة، ص95 .

(2) الغريال الذي ينخل به الدقيق، ينظر: ابن منظور، لسان، ج11، ص491.

(3) فابري، رحلة، ق1، ج38، ص328 .

(4) الفلقشندی، صبح، ج3، ص408. غوانمة، تاريخ، ص149، ص150. إبراهيم، الحياة، ص94 — 96. نصار، وسائل، ص245 .

(5) الصفي، الوافي، ج9، ص265. نصار، وسائل، ص245 .

(6) ابن تغري، النجوم، ج9، ص188—193. نصار، وسائل، ص245 .

على رجليه و يلعبون و هم قدامه " (1)، كذلك مارس السلطان الظاهر بيبرس لعبة الكرة في دمشق و أثناء سيره إلى القدس و الخليل (2).

و تجدر الإشارة إلى أنه في العهد المملوكي وضع للعبة الكرة نظاماً و أوقات معينة لممارستها، و جهزت الخيول الأصيلة من أجل هذه الغاية، وكان يشرف عليها موظف يسمى الجوكان أو عصا البولو (3) فكان السلطان يركب لممارسة لعبة الكرة بعد صلاة الظهر و الأمراء معه ثم ينزل و يستريح و يستمر الأمراء إلى صلاة المغرب (4) .

و كانت طريقة هذه اللعبة أن ينقسم أمراء المماليك إلى فريقين يكون السلطان على رأس أحدهما و على الرأس الآخر أتاك العسكر، و يقام السماط بعدها، وكان السلطان يوزع الخلع على المشتركين في اللعب و على الجوكندار (5) و أتباعه حتى بلغ ما خلعه أحدهم في يوم واحد وقت لعبة الكرة ألفاً و مائتي تشريف (6).

ويلاحظ أن هذه اللعبة كانت تقترب بالفروسية و ركوب الخيل، و انتشرت بين البدو من سكان الشام، فقد لعب الظاهر بيبرس الكرة مع الأمير زامل بن علي أمير آل علي من عرب الشام حيث كان معتقلاً بالقاهرة حيث أفرج عنه و لعب معه في الميدان الكرة (7) .

وما سبق يؤكد أن البدو في بلاد الشام كانوا يمارسون مثل هذه اللعبة لدرجة أن السلطان أفرج عن الأمير السابق ذكره و لعب معه .

و من أشكال اهتمام المماليك بالفروسية و الخيول بناء الكثير من الاصطبلات لها و اقتناء أفضل السلالات (8)، ولعل السبب في الاهتمام بالفروسية إدراك السلاطين المماليك لفائدة هذه الرياضة

(1) الوافي، ج9 ص 275 .

(2) المقرئزي، الذهب المسبوك، ص 124-125

(3) ابن كثير ، البداية ، ج 12 ، ص 280 . أبو شامة ، الروضتين ، ج 1 ، ص 39 . الصفدي ، الوافي ج 10 . ص 67.

النعيمي ، الدارس ، ج 2 ، ص 195 . غوانمة، تاريخ، ص 150.

(4) القلقشندي ، صبح، ج 4 ، ص 48 .

(5) الجوكاندرا. وهو لقب على الذي يحمل الجوكان مع السلطان في لعبة الكرة، و يجمع على جوكان دارية، وهو مركب من لفظتين فارسيتين أيضاً: إحداهما جوكان، وهو المحجن الذي تضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان أيضاً: والثانية دار ومعناه ممسك كما تقدم. فيكون للمعنى ممسك الجوكان. و العامة تقول: جكندار، ينظر: القلقشندي ، صبح، ج 4، ص 48 .

(6) نصار ، وسائل ، ص 215 .

(7) المقرئزي ، السلوك ، ج 2 ، ص 25 . السيد ، تاريخ ، ص 202 .

(8) ابن تغري ، النجوم، ج 9، ص 156-193 . نصار ، وسائل ، ص 250 .

في تدريب العسكر على الشجاعة ودقة الأصالة التي تعكس صورة حقيقية لمعارك المماليك مع أعدائهم، وما يؤكد هذا القول ما ذكره المقرئزي عندما صف الظاهر بيبرس وعسكره بعد فتح عكا وهم يلعبون بالرمح " وخرج أهل عكا لمشاهدة العسكر... والسلطان" (1).

و لاسيما أيضاً أن معظم طبقة المماليك هم عبارة عن عسكر تمرسوا على القتال و كثرة المعارك سواء مع الصليبيين أو التتار التي بدأت هجماتهم إلى بلاد الشام في بداية سيطرة المماليك على الحكم .

و لفتت هذه الرياضة نظر الرحالة فابري عندما زار فلسطين وخاصة عند زيارته يافا حيث شاهد مجموعة من الفرسان الذين ينتظرون على شاطئ البحر لحراسة بعض القادمين أنهم مارسوا الفروسية فقال: " ركض هؤلاء الرجال نحو الأمام و نحو الخلف طوال النهار على الشاطئ مقابل المكان الذي رسونا فيه و اشتبك أحدهم مع الآخر عن طريق التدريب و ركبوا بغالهم و ساقوها كأنهم يتحاربون " (2) وهذا يؤكد بشكل أكبر أهمية هذه اللعبة في العهد المملوكي في فلسطين حيث كانت بمثابة تدريب على المعارك الحقيقية إلى جانب أنها وسيلة ترفيهية في المجتمع مارسها الناس

النرد:

ومن الألعاب الترفيهية التي انتشرت خلال العهد المملوكي لعبة النرد وهي فارسية الأصل (3). وهي المعروفة اليوم بلعبة الطاولة، وهذه اللعبة كان يمارسها العامة والخاصة في ذلك العصر، فكان الأمراء ورجال الأدب والشعراء يهونون لعب النرد (4) وكانت تعرف هذه اللعبة بنرد شير نسبة إلى أرد شير ابن بابل أول ملوك الفرس الأخيرة وضع النرد (5).

و لاشك أن المسلمين أخذوها عن غيرهم من الشعوب التي احتكوا بها بعد الإسلام ويعتبرها البعض من الألعاب الهادئة؛ لأنها كانت تجرى والقوم جلوس بعضهم إلى جانب بعض على النقيض من عادات العرب إذ أن العربي القح كان يشعر بما في ذلك من غرابة عن طباعه و مألوف

(1) السلوك ، ج2 ، ص78 .

(2) فابري ، رحلة ، ق1 ، ج38 ، ص329 .

(3) القرشي ، طبقات الحنفية ، ج1 ، ص444-445 . ابن العماد ، شذرات ، ج7 ، ص157 .

(4) نصار ، وسائل ، ص309

(5) القرشي ، طبقات الحنفية ، ج1 ، ص444 .

عادته⁽¹⁾، وتعتمد لعبة النرد على الحظ، واستعمل فيها أربعة وعشرين بيتاً عدد ساعات الليل والنهار ووضع فيها ثلاثين حجراً تشبيهاً بأيام الشهر ولها خصمان تشبيهاً بالليل والنهار⁽²⁾ .

ومن الألعاب التي وجدت إلى جانب لعبة النرد لعبة الشطرنج و توصف بالهادئ ومن وضع أسسها حكام الهند فكان ظهورها كرد على تفاخر الفرس بلعبة النرد و ما فيها من تخطيط⁽³⁾

ب - المؤسسات التعليمية والصحية :-

تميزت الحياة العلمية في فلسطين زمن المماليك بخصوصية عن غيرها من الفترات التاريخية التي مرت بها فلسطين، كما تجدر الإشارة أن فترة سيطرة الصليبيين كان لها آثار كبيرة على الحياة العلمية في فلسطين؛ لأن الصليبيين ارتكبوا المجازر والقتل بحق العلماء والفقهاء، وعلى فرض أن دولة المماليك هي امتداد لما كانت في العهد الأيوبي فلم تختلف الحياة العلمية كثيراً عما كانت عليه في هذا العهد وخاصة في عهد دولة المماليك الأولى ولاسيما أن أغلب فترات حكمها اتسمت بالحروب سواء كانت مع الصليبيين أو التتار، أما في عهد دولة المماليك الجراكسة فكانت بدايتها أكثر استقراراً فأثرت إيجاباً على الحركة العلمية خاصة في بداياتها وكان للنشاط الاقتصادي وحالة الاستقرار التي تحققت في عهد المماليك أثر واضح على بناء مجموعة من المؤسسات التي تتعلق بالتعليم في فلسطين، وقد تميزت مدينة القدس بالنصيب الأكبر من هذه النهضة ولاسيما أن لها خصوصية دينية تختلف عن غيرها من المدن، فعندما استولى الصليبيون على بيت المقدس قتل من المسلمين سبعون ألفاً أغلبهم من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد ومعظمهم من الوافدين إلى القدس من مختلف أقطار العالم الإسلامي⁽⁴⁾، وهذا يعطي دليلاً واضحاً على سياسة القمع والإرهاب التي مارسها الصليبيون ضد العلماء وكان لها أكبر الأثر على الحركة العلمية في فلسطين .

هذا إلى جانب احتلال الكثير من المدن الفلسطينية وتحويل مؤسساتها الدينية والتعليمية إلى معابد وكنائس ومؤسسات تخص النصارى، وتحويل أسماء الكثير من الشوارع والأماكن بأسماء فرنجية وأشهر المدن التي شملها التدمير والقتل وهدم المؤسسات التعليمية والدينية عكا وعسقلان والخليل وطبريا واللد وغيرها من القرى والمدن⁽⁵⁾.

(1) نصار وسائل ، ص310 .

(2) اليعقوبي ، تاريخ ، ج 1 ، ص 89 . القرشي،طبقات الحنفية ، ج1،ص245.ابن خلكان،وفيات،ج4، ص357.

(3)ابن خلكان ، وفيات ، ج 4 ، ص 357 .

(4) ابن الأثير،الكامل ،ج9،ص19.ابن خلدون ، تاريخ ، ج 5 ، ص 25 .

(5)ابن الأثير ، الكامل ،ج9،ص19-20.الأغا ، الأوضاع ، ص 263 .

وأهم النتائج التي تترتبت على سياسة الاحتلال والقمع هجرة الكثير من العلماء إلى خارج حدود فلسطين الأمر الذي ترتب عليه تدهور الحياة العلمية ومؤسسات التعليم في فترة سيطرة الفرنج ولكن وضع الحركة العلمية اختلف عما كان عليه عندما استرجع صلاح الدين بيت المقدس وغيرها من المدن الفلسطينية بعد معركة حطين سنة 583هـ / 1187م ففي بيت المقدس أعاد صلاح الدين الأبنية الإسلامية إلى سيرتها الأولى وخاصة ما أحدثه الداوية⁽¹⁾. ورتب في المساجد الخطباء والأئمة، وأكمل بناء منبر نور الدين وركبه في المسجد الأقصى وزوده بالمصاحف ورتب فيه القراء " فعاد الإسلام هناك غصاً طرياً "⁽²⁾.

و لعل هذا يفسر بداية بعث النشاط في الحركة العلمية مرة أخرى على يد صلاح الدين الأيوبي في فلسطين، وربما أن أهم أسباب نشاط الحركة العلمية في فلسطين بعد حركة تحرير المدن سواء في العهد الأيوبي أو المملوكي هو المكانة لبعض المدن الفلسطينية وعلى رأسها القدس والخليل و بيت لحم، وهذا هو الدافع وراء استقطاب مجموعة كبيرة من العلماء وكان أيضاً لحركة النشاط الاقتصادي التي سبق الحديث عنها دور في هذا النشاط .

و كان للسلطين المماليك دورهم في تنشيط هذه الحركة بالمؤسسات المدنية والدينية في المدن الفلسطينية، وتمتعت المدن في العهد المملوكي ببعض الاستقرار مما انعكس على الحياة العلمية في المجتمع الفلسطيني إضافة لاهتمامهم بإعادة أسلمة المدن في فلسطين مرة أخرى، فاستوجب ذلك منهم بناء المؤسسات وكان نصيب المؤسسات التعليمية منها كبيراً جداً، وهو ما أكده بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة، فذكر العليمي أكثر من أربعين مدرسة في بيت المقدس لوحدها وأكثر من عشرين زاوية فضلاً عن مكاتب الأطفال والمساجد⁽³⁾.

ولم يقتصر التعليم على المؤسسات التي ذكرت سابقاً فقد ذكر بعض الدارسين المحدثين اتخاذ التربة في العهد المملوكي كمؤسسات تعليمية ، حيث رتب بها منشؤها المدرسين والطلبة، ومن ذلك التربة الطازية التي تقع بجوار الأقصى من ناحية الغرب، ووقفها الأمير طاز⁽⁴⁾ المتوفي سنة 763هـ/1361م ونقش عليها " بسم الله الرحمن الرحيم ،تربة العبد الفقير إلى الله تعالى المقر الأشرف طاز توفى رحمة الله سنة ثلاث وستين وسبعمائة"⁽⁵⁾، وأورد العمري ما يشير إلى استخدام

(1) قوم من الأفرنج يحبسون أنفسهم لجهاد المسلمين ويمنعون أنفسهم من النكاح وغيره ولهم أموال وسلاح ويتعاونون القوة ويعالجون السلاح ولا طاعة عليهم لأحد، ينظر: الحموي، معجم، ج2، ص264

(2) ابن الأثير ، الكامل ، ج 10 ، ص 157- 158.

(3) الأنس ، ج 2 ، ص 35 ، 416 . علي ، القدس ، ص 152

(4) كان الأمير طاز احد أكابر أمراء الديار المصريه، ينظر القلقشندي، مآثر، ج2، ص162

(5) العليمي، الأنس، ج2، ص45. علي، القدس، ص152.

الترب كمؤسسات تعليمية عندما ذكر هذه المؤسسات في القدس فقال: "بها مدارس و خانقاه وربط وزوايا وترب"⁽¹⁾. وقد أطلق العليمي على هذه التربة اسم المدرسة لإشتهارها بالتعليم، و ذكر جماعة من الشافعية درسوا فيها أغلبهم من آل الفلقشندى⁽²⁾.

أما التعليم الذي يتعلق بالأطفال ووجود ما يسمى بالمكتب أو الكتاب فقد وجد في العصر المملوكي، وكثيراً ما كان يدخل ضمن التعليم في المدارس العادية و يؤكد لنا العليمي ما سبق في حديثه عن شمس الدين بن عيسى البسطاطي كان من الصوفية و كان يحفظ القرآن و يقرئ الأطفال بالمدرسة الطازية⁽³⁾ .

و ذكر أيضاً الفقيه شمس الدين محمد بن غضية 880هـ / 1475م كان يؤدب الأطفال بالجوهرية⁽⁴⁾، وأكد الرحالة فابري الذي زار فلسطين في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وجود هذا النوع من التعليم عندما زار مدينة القدس بقوله: " بينما كنت مرة نازلاً من جبل صهيون في طريقي إلى الكنيسة للصلاة سمعت أولاداً يقرؤون بصوت مرتفع فاقتربت من باب المدرسة و نظرت إليهم فرأيت أطفالاً جالسين على الأرض في صفوف وكانوا يرددون مجتمعين نفس الكلمات بصوت عال و يهزون رؤوسهم للأمام و الخلف وقد استطعت أن أحفظ الكلمات التي رددوها مع موسيقاها و هي أول ما يعلمون صبيانهم؛ لأنها أصل عقيدتهم " ⁽⁵⁾.

كذلك وجدت في العهد المملوكي الكثير من الزوايا التي يذهب إليها الأطفال . صغار السن وخاصة الأيتام لحفظ القرآن على أيدي المؤدبين بها⁽⁶⁾ .

وكان الأطفال يتلقون تعليمهم داخل المسجد الأقصى في مكان مخصص لهم حيث ذكر العليمي أن الشيخ عمر بن إسماعيل الحنبلي مؤدب الأطفال بالمسجد الأقصى بالمكان المجاور لجامع المغاربة من جهة القبلة والمتوفى سنة 880هـ / 1975م⁽⁷⁾ . ورغم ذلك ذكر الحنبلي وجود مكاتب لتعليم الأطفال مما يشير إلى تعدد وسائل التعليم التي تتعلق بهم وخاصة عندما تحدث عن نفسه وعن شيوخه الفقيه علاء الدين المعروف بابن قاموا 890هـ / 1485م فقال أدب الأطفال وسمع الحديث وقرأ القرآن وقد قرأ عليه الحنبلي نحو عشر سنين بمكتب باب الناظر الذي سمي بذلك لوقوعه بجوار باب

(1) مسالك ، ج 3 ، ص 331 .

(2) الأنس ، ج 2 ، ص 45-194 . على ، القدس ، ص 152 .

(3) الأنس ، ج 2 ، ص 194 .

(4) العليمي ، الأنس ، ج 2 ، ص 233 .

(5) فابري ، رحلة ، ج 38 ، ق 2 ، ص 519 .

(6) العليمي ، الأنس ، ج 2 ، ص 34-37 . على ، القدس ، ص 157 .

(7) العليمي ، الأنس ، ج 2 ، ص 267 .

الناظر أحد أبواب المسجد الأقصى (1). والمقصود بالمكاتب "هي ما عرفت مؤخراً باسم الكتاتيب وكانت تقوم مقام مدارس المرحلة الأولى في وقتنا الحاضر حيث يبدأ الصبي بها حياته العلمية، ويلاحظ أن مهمتها الأساسية كانت تحفيظ القرآن الكريم بالإضافة إلى تعليم الأطفال القراءة والكتابة، ومن المرجح أن تكون مدينة بيت المقدس قد عرفت نوعين من المكاتب النوع الأول: المكاتب التي يرسل الآباء إليها أولادهم ليتعلموا مقابل دفع أجره التعليم لصاحب المكتب ويمكن أن تسمى المكاتب الخاصة وهي تشبه المدارس الخاصة حالياً من حيث مبدأ دفع أجره التعليم (2).

والنوع الثاني: المكاتب التي أنشئت بهدف تعليم الأيتام والفقراء علاوة على صرف " المعاليم " النقدية والعينية لهم ولمؤدبيهم من الأموال الموقوفة (3).

أما عن تعليم أهل الذمة أبناءهم فلم ترد إشارات تبين طريقة أو كيفية تعليمهم ولكن ربما أنهم في عهد السلاطين المماليك لم يختلفوا عن طريقة تعليم أبناء المسلمين، ولكن لهم برامج تعليمية خاصة تتعلق بعقيدتهم ودينهم، وكذلك يبدو أن اليهود كان لديهم مكاتب لتعليم الأطفال حيث كانت تحتم عليهم إرسال أطفالهم ليتعلموا من سن الخامسة أو السابعة وفي تلك المكاتب كان يتم تعليم الأطفال القراءة والكتابة وفهم وحفظ قوانين التوراة شفهيّاً تمهيداً لدراسة التوراة، ومن الملاحظ أن طريقتهم لم تختلف كثيراً عن أطفال المسلمين كذلك كانت تشارك جماعة اليهود في تعليم أبناء الفقراء (4).

وما تقدم من معلومات عن نظام تعليم الأطفال يعكس الصورة الحقيقية للاهتمام بهذه الفئة من المجتمع على اختلاف طوائفهم مسلمين ونصارى ويهود وهذا ما يعكس الحرية الدينية والتعليمية التي سادت في المجتمع الفلسطيني خلال العهد المملوكي، وشمل هذا التعليم الطبقات المتدنية من السكان الفقراء، ومن المرجح أن طرق التعليم لم تختلف كثيراً بين الطوائف المختلفة إلا في البرامج الدراسية التي تتعلق بالنواحي الدينية.

أما عن التعليم في المدارس فقد انتشرت في جميع المدن الفلسطينية وبدأ الاهتمام بها منذ العهد الأيوبي، وأكمل السلاطين المماليك هذا الاهتمام مما كان له أكبر الأثر على المجتمع الفلسطيني ولكن يلاحظ هنا أن مدينة القدس استقطبت الكم الأكبر من هذه المدارس، وكان نظام التعليم فيها لا يختلف عن نظم التعليم في البلدان الإسلامية في ذلك الوقت من حيث كونه لم يخضع لنظام ثابت أو يجري داخل مؤسسة رسمية وكان هناك علاقة وطيدة بين المدرس وطلابه، هذا

(1) العليمي، الأنس، ج2، ص237. علي، القدس، ص157.

(2) العليمي، الأنس، ج2، ص194. علي، القدس، ص157.

(3) العليمي، الأنس، ج2، ص35-163. علي، القدس، ص157.

(4) علي، القدس، ص160.

بالإضافة إلى أنه وجد نوع من التعليم العالي عن طريق الملازمة، حيث يعيش الطالب ملازماً لمدة طويلة لأستاذه بحيث يكتسب فيها معظم تعاليم شيخه، وفي بعض الأحيان كان يدفع الطالب مبلغاً من المال لأستاذه مقابل أتعابه وفي بعض الأحيان يساعده في نسخ بعض المحفوظات أو يعمل ما يطلبه منه عن طريقه يكتسب العلم⁽¹⁾.

ورغم عدم الحصول على معلومات عن عدد الطلاب سابق الذكر إلا أن إحدى الدراسات الحديثة أشارت إلي أن عدد الطلاب في كل فصل دراسي إذا جاز لنا القول ، أن نسبة المدرسين إلى الطلاب في المدرسة كانت شيخاً واحداً مشتغلاً بالتدريس لكل خمسة وعشرين طالباً⁽²⁾. وكان في المدرسة الدوادية ثلاثون من المتصوفة وعشرة من الطلاب يسمعون الحديث وعشرة يقرؤون القرآن، وكان فيها شيخ يسمع الحديث النبوي و قارئ يقرأ عليه كما كان فيها مدح ينشر مدح النبي صلى الله عليه وسلم⁽³⁾، ومن المؤكد أن العلماء في عهد الدولتين كانوا يملكون سلطات إدارية واسعة ويدلل هذا على وحدة الاختصاص والعقلية والمفاهيم التي جمعت بين أركان الإدارة المدنية في الدولتين، وهكذا ملك العلماء في هذين العصرين إمكانات سلطوية هائلة التأثير، وحاسمة في كثير من الأحيان⁽⁴⁾.

ومن صور اهتمام السلاطين المماليك بالحركة العلمية في فلسطين إنشاء المؤسسات الدينية والعلمية، مثل: المساجد و الخوانق و الربط والزوايا و المدارس ، التي تمثل أماكن المعرفة والثقافة و الفكر، واهتمام هؤلاء السلاطين بالمساجد و الجوامع يأتي في سياق أهميتها و أثرها الاجتماعي من حيث كانت المساجد مراكز للتعبئة الاجتماعية والدعوة للجهاد في سبيل الله، هذا إلى جانب دورها الفكري و الثقافي⁽⁵⁾، وقبل الحديث عن المدارس لابد من الإشارة إلي أن السبكي أشار إلى أصناف المدرسين من الشافعية أو الحنفية أو المالكية أو الحنابلة إضافة إلى أنه تحدث عن المناهج التعليمية التي كانت تلقى في تلك المدارس وهو التفسير أو الحديث أو النحو أو الأصول، وأشار إلى الالتزام التعليمي وأن ذمة المدرس لا تبرأ إذا لم يدرس ما اختصت به المدرسة فهو آكل حرام، و ذكر أن المدرس في كثير من الأحيان كان ينوع فيذكر تفسيراً أو حديثاً أو غيره من العلوم الشرعية بقصد التنويع على الطلبة و بعث عزائمهم⁽⁶⁾.

(1) العليمي، الأنس ، ج 2 ، ص 41 – 48. علي ، القدس ، ص 161 . العريني، الأيوبيون، ص 218–229.

(2) عبد المهدي ، المدارس في بيت المقدس ، ج 1 ، ص 130 .

(3) السبكي ، معيد النغم ، ص 108 – 111. عبد المهدي ، المدارس ، ص 130 .

(4) العليمي، الأنس ، ج 2 ، ص 224. زعرور، الحياة ، ص 124 – 125 .

(5) ابن تغري، النجوم، ج 7، ص 195، ج 9، ص 131. العليمي، الأنس ، ج 2، ص 272. المدني، الحياة، ص 165–169.

(6) السبكي ، معيد ، ص 107 .

في هذا النص إشارات تربوية هامة جداً تدل على أساليب التربية و أصناف المدرسين و مناهج التعليم التي سادت في المدارس خلال العهد المملوكي، وأفضل أسلوب ثمت الإشارة إليه هو التنويع على الطلاب حتى لا يملوا من العملية التعليمية .

ومن الشروط الهامة التي يجب أن تتوفر في المدرس هو الإلمام بالعلوم المختلفة⁽¹⁾، وكان هؤلاء المدرسون يحثون الطلاب بشكل مستمر على طلب العلم، و قد أكد هذا العلمي عندما ذكر كمال الدين ابن أبي شريف بقوله أنه " باشر تدريس الصلاحية و النظر عليها مباشرة حسنة عمرها و أوقافها و شدد على الفقهاء (الطلاب) وحثهم على الاشتغال " ⁽²⁾ .

ومن المدارس التي انتشرت في فلسطين خلال العهد الأيوبي و المملوكي و اختلفت انتماءاتها المذهبية و الفكرية و شملت مختلف المدن و النيابات في فلسطين وهي :

(1) المدرسة الصلاحية :

وردت إشارة تدل على أن الذي بنى هذه المدرسة هو السلطان نور الدين محمود بن زنكي بالقرب من البيمارستان النوري و نسبت للسلطان صلاح الدين⁽³⁾، و تعتبر من أقدم المدارس التي بنيت في بيت المقدس بعد تخليصه من الفرنجة، فيقول الأصفهاني: إن صلاح الدين رتب أحوال القدس " فاوض جلسائه من العلماء الأبرار و الأتقياء و الأخيار في مدرسة الفقهاء الشافعية و رباط للصلاح الصوفية فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصفد حنا عند باب الأسباط و عين دار البطريرك وهي بالقرب من " كنيسة قمامة للربط و وقف عليها و قفاً " ⁽⁴⁾

و ذكر العلمي أنها كانت كنيسة من زمن الروم تعرف بقبر حنه أم مريم عليها السلام و قفت سنة 588هـ / 1192م⁽⁵⁾ . و ذكر أن كنيسة صندحة أصبحت في الإسلام دار علم و كان يدرس فيها العالم و الفقيه نصر بن إبراهيم المقدسي قبيل الاحتلال الفرنسي للقدس و بعد الاحتلال أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام و لما فتح صلاح الدين بيت المقدسي أعادها مدرسة⁽⁶⁾ .

و قد اهتم السلاطين المماليك بالمدرسة الصلاحية اهتماماً كبيراً و كان يشترط فيمن يتولى مشيخة هذه المدرسة أن يشهد له بالعلم و الفضل، يتم ذلك بمرسوم من القاهرة، و كان لشيخ

(1) المصدر نفسه، ص 107 .

(2) الأئس ، ج 2 ، ص 379 . عبد المهدي ، المدارس ، ج 2، ص 130 .

(3) بدران، منادمة الأطلال ، ج 1 ، ص 112 . ينظر: العارف، المفصل، ص 236-238.

(4) الأصفهاني " الفتح ، ص 95. العلمي، ج 1 ، ص 341. العسلي، معاهد، ص 61.

(5) الأئس ، ج 2 ، ص 41 .

(6) ابن واصل ، مفرج ، ج 2 ، ص 470 .

الصلاحية تقديره واحترامه الخاص لدى السلاطين والأمراء (1) وذكر العليمي كل من درس في هذه المدرسة من زمن الأيوبيين إلى عصر المماليك فقال: "أذكرهم على ترتيب ولايتهم من زمن صلاح الدين إلى عصرنا"(2).

(2) المدرسة التنكزية

وقفها الأمير تنكز الناصري نائب الشام، وهي مدرسة عظيمة تعتبر أئقن المدارس في البناء، تقع عند باب السلسلة ولها مجمع راكب على الأروقة الغربية في المسجد، ولواقفها الكثير من أعمال الخير في المسجد مبنية من الرخام وبدأ بناؤها سنة 727هـ/1326م ووصل القدس ودخل إلى وسط المسجد الأقصى في أواخر سنة 728 هـ/1327م ووجد على باب المدرسة تاريخ بنائها سنة 729هـ/1328م(3) وقد أشارت إحدى الوثائق المملوكية وهي عبارة عن وقفية تعود إلى الأمير سيف الدين تنكز وجدت مثبتة في السجل رقم 92 المؤرخ سنة 1020هـ/1611م من سجلات المحكمة الشرعية في القدس، إلى أقسام المدرسة التنكزية وأوصافها والمواد الذي بنيت منها وأبوابها وموقعها بالتحديد، وكانت تنقسم إلى أقسام ثلاثة: مدرسة ودار للحديث ومسجد (4)، وتجدر الإشارة أن الأمراء كانوا يتابعون دور التعليم ويشرفون عليها بأنفسهم حرصاً منهم على مسيرة التعليم وأهميته بالنسبة للعامة في المدن، ومن ذلك أن الأمير سيف الدين تنكز حضر التدريس بنفسه بهذه المدرسة مرة أو مرات فقط، وذكر في حوادث سنة 730هـ/1329م أنه زار القدس وحضر تدريس التنكزية الذي أنشأها بصحبة علم الدين محمد ابن أبي بكر بن عيسى بن بطران السبكي الأحنائي سنة 732هـ/1331م(5).

ويبدو أن السبب في الاختلاف حول بنائها هو إنجازها في عدة مراحل خلال ثلاث سنوات سألقة الذكر، وتم الانتهاء منها في آخر تاريخ ذكر وهو الذي وجد على بابها.

(3) المدرسة الإشرافية:

تقع داخل المسجد الأقصى بالقرب من باب السلسلة وسبب بنائها أن الأمير حسن الظاهري كان قد بنى المدرسة القديمة للملك الظاهر خشقدم، وبعد وفاته سأل الملك الأشرف قايتباي قبولها فقبلها منه ونسبت إليه ورتب لها شيخاً وصوفية وفقهاء وصرف لهم المعاليم، وحضر الملك

(1) العليمي، الأئس ص 96 ص 185.

(2) العليمي، الأئس، ج 2، ص 101. ينظر: العسلي، معاهد، ص 34-40

(3) ابن كثير، البداية، ج 4، ص 148. الأئس، ج 2، ص 35. النعيمي، الدارس، ج 1، ص 277. ينظر: العسلي، وثائق

ص 109. ينظر: العسلي، معاهد، ص 118-133، ينظر ملحق (4)

(4) ينظر: العسلي، وثائق، ص 109. النعيمي، الدارس، ج 1، ص 91. ابن العماد، شذرات، ج 6، ص 81

(5) ابن كثير، البداية، ج 14، ص 148. النعيمي، الدارس، ج 1، ص 277. ينظر: عبد المهدي، المدارس، ج 2، ص 31-43.

الأشرف للقدس في سنة 880هـ/1475م فلم تعجبه فأمر في سنة 884هـ/1479م بهدمها وتوسيعها بما يضاف إليها من العمائر، فكان بداية حفر أساسها في سنة 885هـ/1480م ووضع على سقفها الرصاص وبالغ في تزيينها حتى وصفت بأنها " جوهرة ثلاثة" (1) .

(4) **المدرسة العثمانية:** كانت عند باب الموضأ وأوقفتها امرأة من أكابر الروم — المقصود العثمانيين اسمها أصفهان شاه خاتون — وعليها أوقاف في الدولة العثمانية ووجد على بابها تاريخ دفن المرأة التي بنتها سنة 804 هـ/1401م ويبدو أنها بنيت قبل هذا التاريخ، وتقع بالقرب من سور المسجد الأقصى(2).

(5) **المدرسة الخاتونية:**

تقع عند باب الحديد وكان بناؤها علي مرحلتين، وأول من قام على بناء هذه المدرسة وأوقف عليها هي أغل خاتون بنت شمس الدين القازانية البغدادية، وأوقفت عليها مزرعة سنة 755هـ/1353م ثم أكملت عمارة المدرسة أصفهان شاه سابقة الذكر سنة 782هـ/1380م (3)

(6) **المدرسة الأرغونية :**

تقع عند باب الحديد بناها أرغون الكاملي نائب الشام توفي قبل انجاز بنائها ودفن فيها سنة 758هـ/1356م بالقدس وأكملت عمارتها بعد وفاته سنة 795هـ/1392م (4).

(7) **مدرسة المزهرية:**

تقع عند باب الحديد،أوقفها الزيني أبوبكر الأنصاري الشافعي،وكان صاحب ديوان الإنشاء بمصر،تقع بجانب المدرسة الأرغونية وتم الفراغ من بنائها سنة 885هـ/1480م(5).

(8) **المدرسة المنجكية :**

أوقفها الأمير منجك نائب الشام وكان قد وصل إلى مدينة القدس سنة 741هـ/1340م ليبنى المدرسة للسلطان الملك الناصر حسن، فلما قبل السلطان سنة 762هـ/1360م بناها ونسبت إليه وأوقف عليها ورتب لها الفقهاء وأرباب وظائف، وتقع هذه المدرسة في الجهة الغربية من

(1)العليمي،الأنس،ج2،ص35—36.ينظر:العسلي،معاهد،ص157—177.عبدالمهدي،المدارس،ج2ص156—173

(2)العليمي،الأنس،ج2،ص35—36.ينظر:العسلي،معاهد،ص176—186

(3)العليمي،الأنس،ج2،ص35—36.ينظر:العسلي،معاهد،ص182—185

(4)العليمي،الأنس،ج2،ص37.ينظر:العسلي،معاهد،ص186—188

(5)العليمي،الأنس،ج2،ص37.ينظر:العسلي،معاهد،ص192—195

المسجد، وحسب ما ذكره الحنبلي أن هذه المدرسة في عهده لا يوجد لها أثر في قوله: " تلاشت أحوالها في عصرنا " (1).

9) المدرسة الجاولية :

بناها الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائب غزة وكان من أهل العلم ويعتبر من طبقة الشافعية، ويبدو أنها بنيت قبل عام 740هـ/1339م؛ لأنه توفي في هذا التاريخ، ويبدو أنها في عهد الحنبلي تحولت لسكن نواب القدس (2).

10) المدرسة العمادية :

ويبدو أنها من أوائل المدارس التي أنشأت في العهد المملوكي في مدينة نابلس، أنشأها عماد الدين بن بدران النابلسي الحنبلي سنة 698هـ / 1298م (3).

11) المدرسة الصببية :

أوقفها علاء الدين محمد (ت 806هـ/1403م) نائب القلعة الصببية و كان قد تولى نيابة القدس وعمر بها المدرسة المذكورة (4).

12) المدرسة الأسعدية :

سميت بهذا الاسم نسبة إلى مجد الدين عبد الغني بن يوسف الأسعدي، وقد أوقفت سنة 770هـ/1368م (5).

13) المدرسة الملكية:

بناها الحاج ملك الجوكندار، وكان بناؤها في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون في سنة 741هـ/1340م، تقع بالقرب من الرواق الشمالي في المسجد الأقصى، وقد أوقف عليها زوجة السلطان المذكور سابقاً، وتاريخ هذا الوقف سنة 745هـ/1344م ويبدو أن زوجها عمرها من مالها الخاص (6).

(1) العليمي، الأنس، ج2 ص38. السخاوي، الضوء، ج7، ص52. النعيمي، المدارس، ج1، ص461. بدران، منادمة، ج1، ص210

.ينظر: عبد المهدي، المدارس، ج2، ص76-82

(2) العليمي، الأنس، ج2، ص38.

(3) ابن العماد، شذرات، ج5 ص44. الصفدي، الوافي، ج18، ص35. ابن تغري، النجوم، ج8، ص189

(4) العليمي، الأنس، ج2، ص38.

(5) العليمي، الأنس، ج2، ص38

(6) المصدر نفسه، ج2، ص38.

14) المدرسة الفارسية :

سميت نسبة إلى الأمير فارسي البكي نائب السلطنة بالأعمال الساحلية و الجبلية ونائب غزة، وتنسب إليه الفارسية بداخل المسجد الأقصى، وذكر الحنبلي حصوله على كتاب يؤكد وقف مدينة طور كرم على المدرسة المذكورة بتاريخ 755هـ/1353م⁽¹⁾.

15) المدرسة الأمينية :

تقع بباب شرف الأنبياء المعروف بباب الدويدارية، وأوقفها صاحب أمين الدين عبد الله في سنة 730هـ/1329م⁽²⁾.

16) المدرسة الدويدارية :

سميت نسبة إلى علم الدين سنجر بن عبد الله الدويدار النجمي و كانت تعرف بدار الصالحين، كان بناؤها في سنة 695هـ/1295م، وقررت لها أوقاف في سنة 696هـ/1296م⁽³⁾، على المتصوفة وعلى تدريس المذهب الشافعي والحديث و قراءة القرآن الكريم وأوقف عليها أوقافاً كثيرة⁽⁴⁾ .

17) المدرسة الباسطية :

تقع بالقرب من المدرسة الدويدارية و يعتبر الشيخ شمس الدين محمد الهروي شيخ الصلاحية و ناظر الحرمين، ولكنه توفي فعمرها القاضي زين الدين عبد الباسط ووقفها واشترط على الصوفية قراءة الفاتحة وإهداء ثوابها للهروي، وكان الوقف عليها في سنة 834هـ/1430م⁽⁵⁾.

18) المدرسة الكريمة :

توجد عند باب حطة، وأوقفها صاحب كريمة الدين بن مكاسب ناظر الخواص الشريفة⁽⁶⁾ بالديار المصرية وقفة في سنة 718هـ/1318م⁽⁷⁾.

⁽¹⁾العلمي، الأنس ، ج 2 ، ص 37-38 .

⁽²⁾المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 39

⁽³⁾المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 39

⁽⁴⁾ينظر: زكار ، فلسطين ، ص 610 .

⁽⁵⁾العلمي ، الأنس ، ج 2 ، ص 39

⁽⁶⁾ناظر الخاص الشريف. المسئول عن رسم المكاتبه وتعريفه ناظر الخواص الشريفة

، ينظر: القلقشندي، صبح، ج 7، ص 180

⁽⁷⁾العلمي ، الأنس ، ج 2 ، ص 39

19) المدرسة الغادرية :

تقع بداخل المسجد وقفها الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر⁽¹⁾، وذكر الحنبلي أنه ثبت في عهده سنة 897هـ/1491م أن بناءها كان في سلطنة الأشرف برسباي⁽²⁾ في سنة 836هـ/1432م⁽³⁾.

20) المدرسة الطولونية :

تقع بداخل المسجد الأقصى عند الرواق الشمالي، ويصعد إليها من السلم الموصل إلى منارة باب الأسباط، أنشأها شهاب الدين أحمد الطولوني ويلاحظ أن أسمها اشتق من اسمه وكان بناؤها زمن السلطان الظاهر برقوق على يد مملوكه أقبغا⁽⁴⁾ قبل سنة 800هـ 1397م، وكتب لها كتاب وقف سنة 827هـ 1423م⁽⁵⁾.

21) المدرسة الغنرية :

و هي مقابل الطولونية من جهة الشرق، وهي من إنشاء شهاب الدين الطولوني، عمرها مع مدرسته السابقة الذكر، وأنجزت في عهد الظاهر برقوق، وبعد وفاته وتولي ابنه الناصر فرج رتب لها قرى، وأقام نظامها وخصص لها مصروفات، وسميت بالغنرية نسبة إلى شخص من الروم (العثمانيين) اسمه محمد شاه بن الغنري⁽⁶⁾

(1) من التركمان أمير أبلستين على حدود بلاد الشام الشمالية، ينظر: ابن تغري، النجوم ، ج14 ، ص49-50

(2) برسباي الدقماقي الظاهري البرقوقى الملك الأشرف اشتراه برقوق ثم أعتقه واستمر في خدمة ابنه الناصر ثم صار مع المؤيد بعد قتل الناصر وحضر معه إلى مصر فولاه نيابة طرابلس تولى السلطنة سنة 825هـ/1421م توفي سنة 841هـ/1437م، ينظر: الشوكاني، البدر، ج1، ص161-162

(3) العليمي ، الأنس ، ج2 ، ص40 .

(4) أقبغا العلاء الهدباني الظاهري برقوق الأطروش ولي لأستاذه بعد رجوعه من الكرك الحجوبية الكبرى بحلب ثم نيابة صفد ثم طرابلس ثم حلب في سنة 801هـ/1398م وأسس بها جامعه ولم يكمله ثم تولى نيابة طرابلس سنة 804هـ/1401م ثم دمشق ثم أعيد إلى حلب بعد دقماق واستمر على نيابتها أربعين يوماً ثم مات في ليلة الجمعة سابع عشري جمادى الثانية سنة 806هـ/1403م ودفن قبل الصلاة بتربته التي أنشأها داخل جامعه "وكان ساكناً عاقلاً قليل الشر مائلاً إلى الخير ذكره ابن خطيب الناصرية ثم شيخنا"، ينظر: السخاوي الضوء ج2، ص316.

(5) العليمي ، الأنس ، ج2 ، ص40

(6) المصدر نفسه ، ج2 ، ص40

(22) المدرسة الحسنية :

تقع عند باب الأسباط ،قال الحنبلي هي " آخر المدارس ولم يطلع على كتاب وقف لها، ولكنه ذكر أنها أوقفت في عهد السلطان الناصر حسن (ت762هـ-1360م) على يد شاهين الحسني الطواشي (1).

هذا عن أهم المدارس في نيابة القدس حيث يلاحظ مّا تقدم أهمية هذه المدينة وكثرة المؤسسات التعليمية فيها.أما عن نيابة غزة فقد ذكر العمري وجود المدارس فيها إلى جانب غيرها من المؤسسات التعليمية الأخرى مثل الترب التي اتخذت كمراكز تعليمية في عهد المماليك واستخدامه صيغة الجمع يدل على كثرة هذه المدارس(2).

ومن المدارس التي ثبت وجودها في غزة هي :

(1) مدرسة الشافعية :

كان بناؤها على يد "علم الدين سنجر الجاولي " أثناء نيابته على غزة وأوقف عليها الكثير من الأوقاف في غزة والخليل والقدس(3).

(2) مدرسة الكجكي :

تقع بجوار مسجد الطواشي وأنشأها " الأمير شاهين بن عبد الله الكجكي"(4) عام 821هـ/1418م أيام السلطان الملك الظاهر برقوق (5)

(3) مدرسة البرديكية :

أنشئت هذه المدرسة في القرن التاسع الهجري و كانت عبارة عن جامع، و بعد أن أصبحت مدرسة صارت داراً للقضاة، ومن قام ببناؤها هو الأمير بردبك الدوادر(6) عام 859هـ/

(1)العلمي،الانس ، ج2 ، ص40

(2) مسالك : ج3 ، ص335 .

(3)ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، ج3 ، ص24 ، ص25 . عطاءالله نيابة ، ص245 .

(4) لم أعثر على ترجمة له في المصادر .

(5) عطا الله ، نيابة ، ص245-246

(6)هو الأمير بردبك الأشرفي أينال ، كان من جملة مماليك السلطان اينال ، حيث ملكه عام (829هـ/1425م)، فرباه واعتقه وجعله خازن دارا ثم دوادارا له ولما سلطن، عام (857هـ/1453م) وقاه إلى الدوادارية، وكان قتله يوم الأحد منتصف ذي الحجة عام (868هـ/آب1464) ومع ذلك فقد " كان عاقلا سيوسيا =ضخما إلى الطول والشقرة اقرب متواضعا ذا أدب وحشمة ومحبة للفقراء والصالحين ومزيد إحسان وبر لهم ..."

ينظر:السخاوي،الضوء،ج3،ص5.

1455م ويبدو ذلك من النص التالي " بنى هذه المدرسة المباركة ابتغاء لوجه الله تعالى المقر الأشرف العالي السيدي المالكي المخدومي السيفي بردبك الدوادر المكي الأشرفي أعز الله أنصاره في شهر ذي الحجة الحرام سنة 859هـ/1454م " (1).

4 مدرسة الأشرف قايتباي:

كانت هذه المدرسة إحدى المؤسسات التعليمية التي بناها في المدن الفلسطينية(2)، ومن الذين

باشروا الإقراء والتدريس فيها الشيخ عبد القادر بن شعبان الغزي(3).

وأورد ابن العماد إشارة تدل علي انتشار مهنة التدريس في نيابة صفد عندما ذكر محمود الصفدي الغرابي أنه رجع إلى صفد وأقام فيها يدرس إلى أن مات(4) وذكر ابن شاهين في صفد "جوامع ومدارس"(5)، وبنييت المدارس في الرملة أيضاً، والدليل على ذلك ما أورده ابن حجر أن يحيى بن عمر الكركي تولى تدريس مدرسة الرملة إلى أن مات سنة 762هـ/1360م(6)، وقام قراسنقر الشمس الظاهري برقوق في عهد الدولة الأشرفية بإنشاء مدرسة صغيرة بالقرب من ميدان الخليل ببركة الناصري وعين فيها الموظفين وخصص لها وقفاً، أما عن قلة المدارس في مدينة صفد فيبدو أنه رجع إلى اعتماد هذه المهنة على الجامع الظاهري (جامع الأحمر) الذي بناه الظاهر بيبرس فيها بعد أن فتحها، ومن كبار العلماء الذين عملوا بالتدريس فيه، عبد اللطيف بن محمد الدين الصفدي الشافعي حيث زار بيت المقدس وقرأ البخاري في الجامع المذكور وعمل في الإفتاء والتدريس(7).

تدل هذه الإشارة على أن مهنة التدريس وجدت ولكنها لم تذكر المدارس، وإنما ذكر الجامع كمؤسسة تعليمية مما يؤكد أنه لعب دوراً كبيراً في الحركة العلمية داخل مدينة صفد وأكد الصفدي في حديثه عن ابن الرسام الشافعي وكيل بيت المال بصفد ومدرستها حيث مارس مهنة التدريس في الجامع الظاهري(8).

(1) ينظر: السخاوي ، الضوء ، ج 3 ، ص 5-7 . عطا الله ، نيابة ، ص 246 .

(2) ابن العماد، شذرات ، ج 4 ، ص 267 . القرمانى ، أخبار ، ص 318-319 .

(3) السخاوي ، الضوء ، ج 4 ، ص 267 . عطا الله أ نيابة ، ص 246 .

(4) شذرات ، ج 6 ، ص 289 .

(5) زبدة كشف الممالك، ص 44 .

(6) الدرر ، ج 6 ، ص 192 .

(7) السخاوي، الضوء ، ج 4، ص 338. الذهبي، العبر ، ج 5 ، ص 275. ابن العماد، شذرات، ج 5، ص 314. ابن

تغري، النجوم، ج 7، ص 195. الصفدي ، الوافي ، ج 10، ص 213. السلامي، الوفيات ، ج 2 ، ص 351. الكتبي ، فوات ، ج 1، ص 259. الطراونة ، مملكة ، ص 259 .

(8) الوافي ، ج 2 ، ص 112 .

وكذلك انتشرت مهنة التدريس في قرى صفد، و ما يشير إلى ذلك أن الشيخ عبد الله بن عمر الكناوي الصفدي ت 912هـ / 1409م كان عالماً يحضر الصلوات والتدريس وقراءة صحيح البخاري " على كرسي بصوت حسن " و كان إماماً بالمسجد " في كفر كنا⁽¹⁾ وكان يقرأ الطلبة في الحديث و الفقه و الفرائض و النحو " ⁽²⁾ و يبدو أنه يشير في حديثه عن هذا الشيخ أنه كان يعلم الطلاب على طريقة ما يعرض بالكتاب حيث كان يجلس ومن حوله الطلاب على شكل حلقة يستمعون لما يلقيه عليهم معلمهم، إضافة للجوامع كانت فيها الخوانق والزوايا حيث كانت تقوم بدور تعليمي⁽³⁾.

و لعل هذا يؤكد خلو مدينة صفد من المدارس النظامية على الأقل، ويلاحظ أن سكان صفد اعتمدوا على مدارس المدن المجاورة في تعليمهم ومنهم الشيخ زين الدين الصفدي كانت معظم حياته العلمية في دمشق، وتولى كاتب السر في مدينة حلب وله كتابة الدرج⁽⁴⁾ في صفد و القاهرة ⁽⁵⁾ .

وغيره كثير من العلماء الذين فضلوا الرحلة العلمية في طلب العلم و اعتمدوا على المؤسسات التعليمية المجاورة لمدينة صفد .

و من أبناء صفد كذلك الذين برعوا و تعلموا خارج أرضها محمود الصفدي الغرابي نسبة إلى غرابية من قرى صفد، اشتغل بدمشق و درس 0. في مدارسها ثم رجع إلى صفد فأقام بها يدرس⁽⁶⁾ و تكرر كلمة درس التي ارتبطت بعلماء صفد تدل على وجود هذه المهنة، وفي نفس الوقت تؤكد المعلومات سابقة الذكر واحتمال تكون هذه المدينة أصبح فيها اكتفاء ذاتي من العلماء والمتقنين فأصبحت تصدر العلماء، وربما تدل على قلة النشاط الثقافي في هذه المدينة لان أبنائها اعتمدوا في تعليمهم على مدارس المدن الشامية المجاورة كما أوضحنا.

⁽¹⁾ كفر كنا: بفتح الكاف وتشديد النون. بلد بفلسطين وبكفر كنا مقام ليونس النبي عليه السلام وقبر لأبيه، ينظر: الحموي، معجم، ج4، ص470. كانت ضمن أراضي مملكة صفد في العهد المملوكي

⁽²⁾ ابن العماد ، شذرات ، ج 8 ، ص 58 .

⁽³⁾ الطراونة مملكة ، ص 261 — 262 .

⁽⁴⁾ كاتب الدرج. وهو الذي يكتب المكاتبات والولايات وغيرها في الغالب وربما شاركه في ذلك كتاب الدست، ويعبر عنه بالموقع، ينظر: الفلقشندي، صبح، ج2، ص120

⁽⁵⁾ الصفدي، الوافي، ج22، ص287. الذهبي، ذبول العبر، ج6، ص364. ابن حجر، الدرر، ج2، ص207—208.

السلامي، الوفيات، ج2، ص269. قاضي شهبة ، طبقات ، ج3، ص89. المقرئ، السلوك، ج4، ص245 .

⁽⁶⁾ ابن حجر ، أنباء ، ج1، ص286

مدارس القدس: كما لاحظنا تركزت المدارس في فلسطين خلال العهد المملوكي في مدينة القدس لما لها من أهمية دينية عند المسلمين، هذا إلى جانب أن المدن الكبرى في فلسطين مثل صفد وغزة والخليل و نابلس والرملة وجدت فيها أكثر من مدرسة، إضافة لذلك فإن الحركة العلمية لم تكن وفقاً على المدارس فقط بل أقيم إلى جانبها الأروقة و الزوايا و الربط⁽¹⁾ والخوانق ودور القرآن والحديث و الكتاتيب ومكاتب الأيتام، ولعل ما تفيده كثرة المؤسسات التعليمية في مدينة القدس وغيرها من مدن فلسطين الكبرى هو حجم الحركة العلمية و نشاطها الكبير في العصر المملوكي إضافة إلى أنها كانت ضمن خطة تتكون من شقين، الشق الأول هو إعادة الطابع الإسلامي لتلك المدن بعد تحريرها من الصليبيين والثاني التقرب من المجتمعات الإسلامية بحكم أن طبقة المماليك كانت عبارة عن رقيق تحاول اكتساب الشرعية من خلال بنائها لتلك المؤسسات ذات الطابع الديني والعلمي والخيري في آن واحد. فقد ذكر العليمي إلى جانب 41 مدرسة أكثر من عشرين زاوية اتخذت كمؤسسات تعليمية⁽²⁾، فضلاً عن الدور الكبير الذي قامت به دور القرآن التي تولت إقراء القرآن وكل ما يتعلق به من تفسير وتجويد وأسباب النزول والأحكام وكان لكل دار شيخها ونظامها وأوقافها⁽³⁾ .

و أشهر هذه الدور هي " السلامية " ، أوقفها سراج الدين عمر بن أبي بكر السلامي سنة 761هـ / 1360م، وأقامها في طريق باب السلسلة⁽⁴⁾ .

و كما اهتمت دور القرآن بالقرآن الكريم و علومه ، عنيت دور الحديث برواية الحديث ودارية مع معرفة أحكامه وقواعده وأصوله ورجاله وأنواعه وأسائده وطرقه مع بعض ما تعلق به من تفسير و سيرة و لغة. ومن شدة اهتمام المسلمين بعلم الحديث بني نور الدين زنكي أول جامعة للحديث في مدن الشام و نالت المدن الفلسطينية نصيباً منه وخاصة بيت المقدس⁽⁵⁾ .

وأشهر دور الحديث في مدينة القدس كانت :

(1) دار الحديث الهكارية :

⁽¹⁾ أماكن تقام بجانب المدارس والمساجد يقيم فيها طلاب العلم والصوفية، ينظر: النعيمي، الدارس، ج2، ص120

⁽²⁾ الأوس ، ج 2 ، ص 34-48. لمزيد ينظر الملاحق .(6)

⁽³⁾ ينظر: زكار ، فلسطين ، ص622 .

⁽⁴⁾ العليمي ، الأوس ، ج 2 ، ص 45 . زكار ، فلسطين ، ص622 .

⁽⁵⁾ أبوشامة، الروضتين، ج1، ص47. السبكي، طبقات، ج7، ص223. الصفدي، الوافي، ج29، ص87. النعيمي، الدارس، ج1، ص

74. بدران، منادمة، ج1، ص59. ينظر: زكار ، فلسطين ، ص623 .

تقع إلى جانب التربة الجالقية من جهة الغرب، أوقفها الأمير شرف الدين عيسى ابن بدر الدين الهكاري سنة 666هـ / 1228م⁽¹⁾ .

(2) دار الحديث التنكزية :

و تعرف أيضاً باسم " دار الحديث السيفية "، أنشأها نائب الشام الأمير تنكز سابق الذكر، وكان ذلك سنة 729هـ / 1329م⁽²⁾ .

و يجب أن نذكر هنا أن دار الحديث التنكزية كانت عبارة عن جزء من المدرسة التنكزية سابقة الذكر، وهذا ما أثبتته وقفية تعود إلى عهد الأمير تنكز نائب الشام ووجدت في سجلات المحكمة الشرعية في القدس، و لذلك من كان يدرس في المدرسة التنكزية كان يعمل في تدريس الحديث⁽³⁾ .

خلاصة القول أن فلسطين حظيت باهتمام علمي كبير من المماليك وزخرت بالمؤسسات التعليمية المختلفة التي كانت تؤدي أدواراً مختلفة في الحياة العلمية⁽⁴⁾ .

البيمارستانات :

يبدو أن فترة العصر الوسيط في فلسطين زخرت بإنشاء المؤسسات الصحية خاصة البيمارستان؛ لأن هذه الفترة كما سبق انتشرت فيها الأوبئة والأمراض التي كانت تأتي على البلاد في فترات تاريخية مختلفة .

و يلاحظ أن بناء تلك المؤسسات في فلسطين قد بدأ منذ العهد الفاطمي، وما يؤكد ذلك أنه عندما زار البيمارستان في القدس ناصر خسرو سنة 438هـ / 1047م فقال عنه " مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة، و يصرف لمرضاه العديد من العلاجات والأدوية، وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف المقرر لهذه المستشفى"⁽⁵⁾ .

(1) العليمي ، الأونس ، ج 2 ، ص 44-45 .

(2) ابن العماد ، شذرات ، ج 6 ، ص 81 . النعيمي ، الدارس ، ج 1 ، ص 47 .

(3) الأونس، ج 2، ص 43، ص 157. ابن حجر، الدرر، ج 2، ص 74. العسلي، وثائق، ص 108، ص 114. زكار، فلسطين، ص 624. النعيمي، الدارس، ج 1، ص 48 - 49 .

(4) العليمي ، الأونس، ج 2، ص 178. العسلي، وثائق، ص 108. زكار، فلسطين، ص 623. لمزيد عن المدارس ينظر جدول (6)

(5) سفرنامه ، ج 1 ، ص 57. لمزيد، ينظر: حمارنة، الطب العربي، ص 5-17.

ومن الجدير ذكر أن هذا المستشفى استمر في تقديم خدماته الطبية حتى سقوط بيت المقدس في يد الصليبيين، أما بعد سقوط مدينة القدس في يد صلاح الدين الأيوبي سنة 583هـ—1187م فقد حول دار الأسبترارية إلى بيمارستان، وهو بالقرب من كنيسة القيامة⁽¹⁾.

وأوجد فيه الأدوية والعقاقير وأوقف عليه الأوقاف العديدة⁽²⁾، ومن الملاحظ أن هذا البيمارستان استمر في تادية واجبه الصحي في العهد المملوكي، وما يؤكد هذا القول إشارات قدمها الرحالة الألماني لودولف الذي عاش في فلسطين مدة خمس سنوات 737هـ—/1336م—/742هـ/1341م فقال البيمارستان الصلاحي يقع بالقرب من كنيسة القيامة، وأنه بيمارستان عظيم يتسع لألف شخص⁽³⁾.

كذلك أثبت العلمي وجود هذا المشفى في العهد المملوكي عندما ذكر شوارع بيت المقدس في قوله: إن خط الدركاه و به البيمارستان الصلاحي و كنيسة القيامة و يليه حارة النصارى من جهة الغرب⁽⁴⁾، وتآلف المشفى الصلاحي من أربعة أقسام : قسم الجراحة وقسم للحمّيات وثالث للرمد وأمراض العين والرابع للنساء وقد حوي المشفى عدداً من الأسرة، كان كل واحد منها يخصص لمن يدخله من المرضى⁽⁵⁾، كذلك أثبت الرحالة فابري الذي زار فلسطين في القرن الخامس وجود هذا المشفى حيث نعتة باسم مشفى القديس يوحنا و قال : من يدخله يدفع ماركين بندقيين لمديره، ووصفه بأنه كان بيتاً ومشفى واسعاً جداً وفخماً " إلى حد أنه لو وصل هناك ألف من الحجاج لكان كل واحد منهم سيجد غرفة له من دون ازدحام وهذا يمكن رؤيته من خلال خرائبه ومن خلال الجزء الذي ما يزال قائماً... وهذا الجزء المتبقي متسع بما فيه كفاية لاستيعاب أربعمائة حاج للعيش فيه "⁽⁶⁾.

ولكن يلاحظ على حديث فابري أنه يتحدث عن أكثر من مبنى عندما ذكر البيت المقدس والمشفى، ويبدو أنه أقيم إلى جانب هذا المشفى فندق لإقامة الحجاج فيه وأن الخراب أصاب هذا المشفى وهذا يدل على أن صلاح الدين أقام المشفى بالقرب من المشفى القديم الذي كان عبارة عن دار للاسبيطار أو على جزء منه وهذا ما أشار له الرحالة سابق الذكر.

(1) العلمي ، الأوس ، ج 2 ، ص 47 .

(2) العلمي ، الأوس ، ج 2 ، ص 391 .

(3) لودلف ، وصف ، ص 360 . فابري ، رحلة ، ج 38 ، ق 2 ، ص 518 .

(4) الأوس ، ج 2 ، ص 53 .

(5) ينظر: زكار ، فلسطين ، ص 590 .

(6) فابري ، رحلة ، ج 38 ، ق 2 ، ص 518 .

ولكن الرحالة بنيامين التطيلي عندما زار مدينة القدس سنة 559هـ / 1163م أشار إلى وجود بيمارستانين يتسع الأول لإيواء أربعمائة أما الثاني فهو بيمارستان الملك سليمان ويستطيع علاج نفس العدد، وهؤلاء المرضى كانوا يأتون إلى القدس من جميع أنحاء مملكة اللاتين في الشام⁽¹⁾.

وهذا يؤكد ما ذكره فابري من أن المبنى كان ينقسم إلى قسمين، ويبدو أن إحدى هذين البيمارستانين تحول مع الزمن إلى فندق أو مكان لإقامة الحجاج الأوروبيين خاصة بعد تحرير المدينة من الاحتلال الفرنسي.

وكان الحجاج الأوروبيون في العهد المملوكي إذا دخلوا هذا المستشفى يدفع الواحد بنسيين بنديقيين بدل معالجته في المستشفى. ويدفع هذا المبلغ مرة واحدة بغض النظر عن المدة التي يقيمها المريض في المستشفى⁽²⁾.

ويؤكد ما ذكره العماد الكاتب عن صلاح الدين شدة الاهتمام بالمؤسسات الصحية لما لها من أهمية في خدمة طبقات المجتمع المختلفة ضمن ذلك منشورات تضمنت واجبات الطبيب تجاه طبقات المجتمع بقوله: " وأمرناه بأن يواظب على الخدمة... لمداواة أهلها وحياسة مرضاه، مرضاه، أو معالجه كل حالة بمقتضاها"⁽³⁾، ويتضح مما سبق اهتمام سلاطين الأيوبيين والمماليك بالمؤسسات الصحية ولاسيما المستشفيات وحرصهم على تزويدها بالأدوية والعقاقير وتوفير الخدمة الطبية لكافة فئات المجتمع بغض النظر عن مستوياتهم الاجتماعية .

أما عن أهم البيمارستانات التي أنشئت في فلسطين خلال العهد المملوكي فهي كثيرة وأثبتت المصادر التاريخية والرحالة سواء المسلمين أو الأوروبيين الذين زاروا فلسطين خلال هذه الفترة وجودها، فقد بني السلطان المنصور قلاوون في الخليل مشفى (بيمارستان) في سنة 680هـ / 1281م. عرف باسم البيمارستان المنصوري، وأوقف عليه الأوقاف الكثيرة ورتب فيه الخدمات فعين له الأطباء للقيام بمهام الرعاية الصحية لسكان الخليل⁽⁴⁾.

(1) رحلة ، ص 99 ، ص 100 . غوانمة ، نيابة ، ص 133 ، ص 134.

(2) لود ولف ، وصف ، ص 360.

(3) البرق الشامي، ج 5، ص 138-139.

(4) العلمي، الأنس، ج 2، ص 391. زكار، فلسطين، ص 586. غوانمة ، نيابة ، ص 136. الدباغ، بلادنا، ج 5، ق 2، ص 75.

وتجدر الإشارة هنا أن البيمارستان الذي وجد في القدس ليس من بناء المماليك وإنما وجد منذ العهد الأيوبي حيث أنه بني على يد صلاح الدين كما سبق أن أشرنا وهذا يؤكد ما ذكره الرحالة سالف الذكر وكذلك حديث العليمي عن "بيمارستان القدس الشريف" (1).

وقدم لنا الرحالة فابري الذي زار مدينة الخليل سنة 889هـ / 1484م وصفاً لهذا المشفى فقال: "وبعدما فرغنا ... سرنا نازلين مسافة قصيرة فوصلنا إلى باب المشفى المخصص للفقراء وهو موجود تحت المسجد، ودخلنا إليه فشهدنا مكاتبه الجميلة، وفي مطبخه وفرنه كانت هناك استعدادات عظيمة معمولة لصالح الحجاج المسلمين. الذين يزورون بأعداد كبيرة كل يوم الكهف المزدوج، وقبور البطارقة، ولهذا المشفى ميزانيات سنوية تصل إلى ما يزيد عن أربعة وعشرين ألف من الدوقيات، ففي كل يوم يخبز فيه ألف ومائتي رغيف من الخبز، ويعطي هذا الخبز إلى كل طالب ولا ترفض الرعاية والضيافة إلى أي حاج، ومن أي دولة كان، أو شعب أو عقيدة أو طائفة وكل من يسأل طعاماً يتسلم رغيفاً من الخبز وبعض الزيت" وبعض المعجنات (2).

ويلاحظ اهتمام المماليك بمثل هذه المؤسسات في أغلب المدن الفلسطينية، وأوقفوا عليها الأوقاف، فقد بني الملك الناصر قلاوون البيمارستان في غزة وكان جزءاً من المؤسسات التي بنيت في غزة (3)، وكان قسماً من هذا البيمارستان مخصص لمداداة أصحاب الأمراض العصبية وظل هذا البيمارستان عامراً حتى عام 1215هـ / 1800م حيث خرب أبان حملة نابليون بونابرت (4).

وكذلك بني الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام العديد من المؤسسات الصحية كان من بينها البيمارستان في صفد (5)، هذا كل ما توفر عن مستشفى صفد فلم تفصل المصادر التي ذكرته طريقة العمل فيه أو حتى وصفه ولكن ربما لم يختلف عن بقية المستشفيات التي وجدت في المدن الفلسطينية المختلفة.

وأقرب صورة للعمل في البيمارستان هو ما قدمه الرحالة ابن جبير عندما زار بيت المقدس ووصف البيمارستان بأن له قومة معهم سجلات تحتوي على أسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجونها والأدوية والأغذية، وكان الأطباء يأتون مبكراً إلى المشفى ويصفون العلاج

(1) الأيس، ج2، ص253.

(2) فابري، رحلة، ج38، ق4، ص1222، ص1223.

(3) الصفدي، الوافي، ج15، ص93. العمري، مسالك، ج3، ص335، بدران، منادمة، ص67.

(4) عطا الله، نيابة، ص242.

(5) الصفدي، الوافي، ج10، ص262. الكتبي، فوات، ج1، ص263. النعيمي، الدارس، ج1، ص93.

للمرضى، وكان في المستشفى قسم خاص بالأمراض العقلية والنساء ويتوفر لكل مريض سرير خاص به (1).

يلاحظ أن العمل في المستشفيات في العهد المملوكي شبيهة بما يمارس اليوم من كتابة سجل عن كل حالة يصفها ويوضع في مكان وجود المريض في المستشفى حتى يطلع الطبيب على هذه الحالة .

ولم يقتصر الاهتمام ببناء البيمارستانات على السلاطين فقط، فقد ذكر أن ناظر الجيش محمد بن فضل القبطي أسلم وأعرض عن النصارى وتسمى محمدا وحج عشر مرات وزار القدس، وأحرم مرة من القدس إلى مكة، وكانت صدقته في كل يوم ألف درهم، وبني عدة مساجد وعدة أحواض يسقى فيها الماء في الطرقات"وله مارستان بالرملة وآخر بنابلس" (2)، وهذا يؤكد شيئاً آخر وهو أن البيمارستانات لم تقتصر على غزة والقدس وصفد والخليل بل شملت الرملة ونابلس لما لها من أهمية في تأدية دور اجتماعي هام ولاسيما أن هذا الشخص كان يعمل في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وأعتقل في سنة 712هـ/1312م ثم أعيد إلى وظيفته وأخذ يمارس نشاطه مرة أخرى (3)، كذلك احتوت المستشفيات على الصيدليات الخاصة التي يركب فيها الأدوية والعقاقير وتعطى للمرضى وفق ما يصفه الأطباء (4) .

وهكذا يلاحظ الدور الاجتماعي الكبير الذي لعبته هذه المؤسسات الصحية حيث كانت توفر الخدمات لسكان فلسطين على اختلاف طوائفهم، وكانت توفر الخدمات الصحية للحجاج الأوروبيين القادمين لزيارة المؤسسات الدينية . أما طبقة الأطباء التي كانت تعمل في فلسطين فقد كانت تتميز بالكفاءة، وكان أغلبهم من السريان والمسلمين واليهود سواء في العهد الأيوبي أو العهد المملوكي (5) .

ولكن الأطباء الفلسطينيين كانت لهم شهرة حيث دخل بعضهم في خدمة السلاطين من أمثال رشيد الدين أبي حليقة كان في خدمة الظاهر بيبرس (6) .

(1) ابن جببر ، رحلة ، ج 1 ، ص 198 ، ص 52.

(2) ابن تغري، النجوم، ج 9، ص 296. ابن حجر ، الدرر، ج 5 ، ص 397 ، ص 398 . علي ، القدس ، ص 249.

(3) ابن حجر، الدرر، ج 5 ، ص 398 . علي ، القدس ، ص 249.

(4) ابن جببر ، رحلة ، ج 1 ، ص 162 . زكار ، فلسطين ، ص 59 . علي ، القدس ، ص 249 .

(5) ينظر: الأغا، الأوضاع ، ص 274

(6) ابن أبي اصبيعة ، عيون ، ج 1 ، ص 591 . الصفدي ، الوافي ، ج 27 ، ص 254.

وألف هذا الطبيب المقدسي كتاباً اسمه " المختار في ألف عقار " ،وله مقالة في ضرورة الموت وأن الإنسان تحلله الحرارة التي في داخله، وكتاب الأمراض وأسبابها وعلاقتها ومداواتها بالأدوية المفردة والمركبة (1).

إنّ ما سبق يشكل نموذجاً هاماً يدل على تقدم علم الطب في فلسطين في العهد المملوكي، ومن المرجح أن السبب الذي ساعد على تقدم علم الطب في فلسطين هو اتخاذ البيمارستانات كمعاهد لتعلم الطب إلى جانب معالجة الأمراض .

وأشار أحد الباحثين المحدثين إلى طرق العلاج في البيمارستان حيث كانت تنقسم إلى قسمين: خارجي – أي أن المريض يتناول الدواء من البيمارستان ثم ينصرف ليتعاطاه في منزله، وفي هذه الحالة كان الطبيب يجلس على دكة ، ويكتب لمن يرد عليه من المرضى العلاج في أوراق خاصة يصرفون بها تلك الأشربة والأدوية التي يصفها لهم الطبيب، هذا بالإضافة إلى العلاج الداخلي –، أي في داخل البيمارستان حيث يوزع المرضى على العنابر أو القاعات بحسب أمراضهم وكان لكل قسم من أقسام البيمارستان طبيب أو اثنان أو ثلاثة بحسب اتساعه وكثرة المرضى، وإذا اقتضت الضرورة يدع الطبيب من قسم آخر غير القسم الذي يعالج فيه المريض لاستشارته (2).

كذلك وجد للبيمارستان ناظر يشرف على إدارته وكان النظر على البيمارستان محدود من الوظائف الديوانية الهامة، وكان نائب المدينة يختار ناظر البيمارستان من أرباب الأقاليم (3) .

كذلك وجد لكل قسم من أقسام الأمراض المختلفة رئيس مثل رئيس الجراحية ورئيس المجبرين ورئيس الكحالين وغيرهم، كذلك وجد في البيمارستان كثير من الفراشين من الرجال والنساء والمشارفة والقوام للخدمة ولهم المعاليم الواقية ومن الجامكية (4) العرافة (5).

مما سبق يتضح لنا كيف كانت هذه المؤسسات الصحية تؤدي دوراً اجتماعياً هاماً في خدمة المجتمع المملوكي بمختلف طوائفه سواء المسلمين أو أهل الذمة حيث أشار الرحالة الذين سبق ذكر وصفهم لتلك المؤسسات أنهم كانوا يتلقون العلاج في البيمارستانات التابعة للمسلمين سواء في القدس أو غيرها من المدن الفلسطينية أبان هذا العهد، ويتضح كذلك مدى الاهتمام ببناء

(1) الصفدي، الوافي، ج27، ص254. الكتبي، فوات، ج2، ص586. ابن أبي أصيبعة، ج1، ص597. المدني، الحياة، ص225

(2) علي، القدس، ص249 .

(3) القلقشندي، صبح، ج4، ص197، ص198. علي، القدس، ص249 .

(4) الاجر أو الراتب أو المنحة، والجمع جامكيات، جوامك، جماكي، ينظر: دهمان، معجم، ص51.

(5) القلقشندي، صبح، ج4، ص200. علي، القدس، ص249 – 250. يلاحظ أن المقصود بالمرضى

البيمارستانات التي شملت اللاجئين وغيرهم من الحكام في الدولة ، وكذلك يظهر الرد السابق أن النظام الطبي في العهد المملوكي كان دقيقاً جداً في الإدارة والتنظيم والرقابة، وكأننا عندما نصف الطب والبيمارستان في فلسطين في العهد المملوكي نصف المستشفيات اليوم .

الاتزام الديني :

يلاحظ على المجتمع الفلسطيني في العهد المملوكي تميزه بالصفة الدينية عن غيره من المجتمعات سواء في مصر أو الشام، فكان أكثر التزاماً عن غيره ربما بسبب وجود المسجد الأقصى وغيره من المقدسات التي تتعلق بالدين الإسلامي أو غيره من الديانات الأخرى ، فقد سبق الحديث عن تأثير هذا المجتمع خاصة بعد السيطرة الفرنجية عليه وقتل العلماء وهدم المساجد وتحويلها لكنائس مما انعكست آثاره على المجتمع.

ولذلك وبعد تحرير المدن من أيدي الفرنج، أخذ الأيوبيون يتبعون سياسة أسلمه المدن الفلسطينية وإعادة الطابع الإسلامي وبناء المؤسسات الدينية فيها والاهتمام بالمذاهب السنية الأربعة وعلى رأسها المذهب الشافعي⁽¹⁾.

واستمر المماليك في هذه السياسة والاهتمام بالحياة الدينية من خلال بناء المؤسسات التي تخدم المجتمع في هذا الجانب ، فقد قام الظاهر بيبرس في سنة 663هـ/1264م ببناء العديد من المؤسسات الدينية وخاصة المساجد والجوامع والزوايا والربط والخانقاه⁽²⁾، ومن هذا نستطيع أن نستنتج الدور الكبير للسلطين في الاهتمام بالحياة الدينية في فلسطين، ويعود السبب في ذلك أنهم طبقة غريبة عن المجتمع أرادوا بمثل هذه الأعمال أن يتقربوا منه⁽³⁾.

كذلك أراد السلطان بيبرس أن يتقرب من الرعية ويرضيهم بأفعال الخير فقام بإبطال ما كان أحدثه الملك المظفر قطز من مصادرات عندما توجه لقتال التتار، وكتب بذلك مراسيم قرئت على منابر الجمعة فقال الشاعر:

لم يبق للجور في أيامكم أثر

(1) ابن الأثير ، الكامل ج10، ص157. أبو شامة، الروضتين، ج3، ص396. ابن كثير ، البداية، ج12، ص156-323. ابن تغري ، النجوم ، ج5، ص149

(2) ابن الأثير ، الكامل ، ج10 ، ص159. ابن كثير ، البداية، ج12، ص323، ص325. العلمي، الأنس، ج1، ص239.

(3) الصفي ، الوافي ، ج1 ، ص262 . الكتبي ، فوات ، ج1 ، ص263. النعيمي، الدارس، ج1، ص93. العلمي، الأنس، ج2، ص34 . ابن إياس ، بدائع ، ص340. العمري ، مسالك ، ج3 ، ص330 ، ص340 .

إلا الذي في عيون الغيد من حور⁽¹⁾ .

وكان هذا السلطان يحرص على زيارة بيت المقدس والخليل بشكل دائم وكان منقاداً إلى الشريعة، يحب العلماء والصلحاء وفعل الخير⁽²⁾.

ومن صور اهتمام السلاطين بالالتزام الديني في المجتمع أن السلطان الظاهر بيبرس أبطل الكثير من المنكرات التي سادت المجتمع وأدت إلى انحلاله في الفترة السابقة على حكم المماليك، ومنها إبطال ضمان الحشيش وإحراقها وخرّب بيوت المسكرات وأراق ما فيها من خمر ومنع التصرفات التي تخرج عن الأخلاق والعلوق واللواط، وقد جعل عقوبة فاعل الخمر والحشيش وغيره الصلب والقتل وليس الجلد وفيه قال: الشاعر ابن دانيال⁽³⁾

لقد كان حد السكر من قبل صلبه

خفيف الأذى إذا كان في شرعنا جلدا

فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي

ألا تب فإن الحد قد جاوز الحد

كذلك قام السلطان بيبرس وغيره من السلاطين بحبس الغواني حتى يتزوجن، وحارب البغايا والمنكرات في مصر والشام⁽⁴⁾، ومن أعمال السلطان الظاهر بيبرس الخيرية التي وثقت علاقته بالمجتمع في فلسطين وكانت تعتبر من أفضل الأعمال التي تساعد على الالتزام الديني واقتفاء أثر الحاكم في ذلك ما قام به من أعمال أعمار وبناء الكثير من المؤسسات الخيرية التي شملت أغلب المدن الفلسطينية، فقد جدد بالقدس وكان قد تهدم من قبة الصخرة وجدد قبة السلسلة وزخرفها وأنشأ قلعة في قاقون، وبني بها جامعاً وأوقف عليه الكثير من الأوقاف وبني في الرملة جامعاً وبني عدة جوامع ومساجد بالساحل، وقام بإنشاء الكثير من المؤسسات في صفد وبني فيها صهاريج للمياه وكذلك بني الحمامات وحول الكنيسة التي وجدت فيها إلى جامع وأنشأ فيها رباط⁽⁵⁾ .

كل ما سبق يؤكد الدلالة الدينية في مثل هذه التصرفات لأنها شملت كل جوانب الحياة العامة التي تخدم المجتمع وترسخ فيه الالتزام الديني والعقائدي .

(1) ابن إياس ، بدائع ، ص311.

(2) المصدر نفسه، ص311 ، ص341.

(3) الصفدي، الوافي، ج10، ص214. الكتبي، فوات، ج1، ص260

(4) المقرئ، السلوك، ج3، ص279، ج5، ص97. إسماعيل، النظم، ص200 .

(5) ابن تعزي ، النجوم ، ج7، ص194-195 .

وزار السلطان المؤيد شيخ سنة 820هـ/1417م مدينة القدس ووزع بها الكثير من الأموال وجلس بالمسجد الأقصى، قرأ صحيح البخاري هو والفقهاء القادمون من القاهرة ومن كان بالقدس من أهله، وكذلك توجه إلى الخليل وانفق به الأموال وتصدق ثم توجه إلى غزة وصلى صلاة العيد بها⁽¹⁾.

وهذا يؤكد أن معظم تصرفات السلاطين كانت ذات صبغة دينية، ورغم ما ظهرت به طبقة المماليك من مظاهر ترف إلا أنهم في كثير من الأحيان ظهروا بمظهر المتواضعين حتى عندما زاروا مدينة القدس جلسوا مع القضاة ومع عامة الناس من أهل القدس .

وسبق أن أشرنا أن السلطان الأشرف قايتباي كان له اهتمامات دينية وخيرية في بيت المقدس، حيث قام ببناء مدرسة سميت باسمه وتعتبر آخر مدرسة بنيت في بيت المقدس، وتولى مشيختها شيخ الإسلام كمال الدين أبي المعالي ابن أبي شريف الشافعي⁽²⁾. وعندما تولى السلطان الناصر فرج السلطنة في سنة 880هـ/1475م نزل بلاد الشام ودخل بيت المقدس ودخل المدرسة التنكزية وفرق مالا كثيرا على الناس⁽³⁾.

أما السلطان الظاهر جقمق فكان له الكثير من أعمال الخير على رجال الدين وأهل المؤسسات الدينية من مساجد وزوايا وخانقاه وربط، حيث كان يرسل مائة وعشرين غرارة قمح قيمتها 3600 دينار⁽⁴⁾.

كذلك السلطان الأشرف برسباي عمّر الكثير من الأوقاف وأصدر مرسوماً بصرف المعاليم على قبة الصخرة الشريفة ونقش بذلك رخامة وألصقت بحائط الصخرة الشريفة سنة 836هـ/1432م⁽⁵⁾.

إنّ ما سبق من معلومات عن السلاطين ودورهم في المجتمع يدل على أنهم لعبوا الدور الأكبر في عملية الالتزام الديني داخل المجتمع، وما يؤكد ذلك ما قاموا به من حركة عمرانية تدل على هذا الشيء .

(1)المقريزي ، السلوك ، ج 6 ، ص 450 ، ص 451 . ابن تغري،النجوم ، ج14، ص 55 ، ص 60 .

(2)العلمي، الأئس ، ج 1 ، ص 26.

(3)المصدر نفسه، ج 2 ، ص 95 .

(4)المصدر نفسه، ج 2 ، ص 225 .

(5)العلمي، الأئس، ج 2 ، ص 96 .

ووصلت درجة إلتزام السلاطين أنهم كانوا لا يأخذون رأياً إلا بحضور العلماء، كما فعل السلطان المنصور قلاوون كان لا يتخذ رأياً إلا إذا جمع مشايخ الصالحة وأمرأء الحل والعقد وصعد هو وهم إلى مكان يشاورهم الرأي⁽¹⁾ .

كذلك عندما تعرضت بلاد الشام لهجوم التتار نشر الأعلام المحمدية وبأيع السلطان المنصور قلاوون الله ورسوله (صلي الله عليه وسلم) وأخذ يدعو الله أن ينصره وارتفعت أصوات المشايخ والفقهاء بتلاوة القرآن واجتمع حول جواده الفقراء والمشايخ والصلحاء⁽²⁾ .

وهذا ما يظهر الوازع الديني عند السلاطين بشكل واضح؛ لأنهم كانوا يتصرفون بطريقة تدل على التدين، ولعل هذا عائد إلى طريقة التربية التي خضع لها هؤلاء المماليك حيث كانوا يتعلمون القرآن وحفظه، وكان لكل طائفة من فقيه يعلمهم القرآن والخط وآداب الشريعة⁽³⁾ .

وعند وفاة الملك السعيد قام السلطان المنصور قلاوون بمباشرة القبر بنفسه وقراءة القرآن⁽⁴⁾، وكان الأمير ببيرس الدودار عالماً فاضلاً فقيهاً نحويًا وألف كتاباً سماه "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة"⁽⁵⁾ .

والتصرفات التي تحسب للسلاطين المماليك وخاصة في الناحية الجهادية ضد التتار أنهم لم يخرجوا إلا إذا صحبوا أو استشاروا الفقهاء، كما فعل السلطان سيف الدين قطز قبل خروجه لملاقاتهم حيث طلب شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام بحضرة الظاهر ببيرس والمنصور قلاوون فشجعه على ملاقاته التتار بعد وصولهم إلى عين جالوت فقال له: "أخرج وأنا أضمن لك النصر"⁽⁶⁾ .

وما يدل على سياسة المماليك الدينية الكثير من التسميات الدينية على مكاتباتهم الرسمية مثل "نصير أمير المؤمنين" و"سلطان الإسلام والمسلمين" و"ظل الله في أرضه" والقائم بسننه وفرضه" (وحامي الحرمين الشريفين والقبليتين) واسم "أمير المؤمنين" وهو أعلى لقب، وهذا يؤكد على شرعية حكمهم بعد إحيائهم للخلافة العباسية⁽⁷⁾ .

(1) ابن علي الكاتب، الفضل المأثور، ص 68 .

(2) ابن علي الكاتب، الفضل المأثور، ص 68 . ص 72 .

(3) المقرئزي، الخطط، ج 3، ص 347-348. العريني، المماليك، ص 89.

(4) ابن علي الكاتب، الفضل المأثور، ص 59 .

(5) ابن إياس، بدائع، ص 408.

(6) السبكي، معيد النعم، ص 51.

(7) علي، القدس، ص 26.

يشير ما سبق إلى سياسة المماليك الدينية التي انعكست على المجتمع في فلسطين وعلى المؤسسات الدينية .

ومن أروع صور الالتزام الديني أن السلطان المنصور سيف الدين بن قلاوون في سنة 682هـ/1283م خصص جوالي الذمة⁽¹⁾ في القدس والخليل وبيت لحم وبيت جالا لعمارة بركة الخليل⁽²⁾ . وهذا يعني أن المرافق العامة التي تخدم الناس حظيت باهتمام من جانب السلاطين المماليك بشكل كبير .

وبذلك نجد أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قام ببناء العديد من المؤسسات التي تقربه من العامة والمجتمع وتظهر الجانب الديني في سياسته فقد أوقف الكثير من الأوقاف على خدمة المجتمع الفلسطيني في فترة حكمه، وشملت هذه الأعمال صفا وعجلون والقدس ونابلس والرملة " وعمر بالقدس رباطا وحمامين وقياسر"⁽³⁾ .

مما سبق يعتبر نموذجا يؤكد على وجود مثل التزام الديني عند السلاطين المماليك الذين سيطروا على مجتمع بلاد الشام فترة من الزمن كانت كما ذكرنا زاخرة ببناء المؤسسات والاهتمام بدور العبادة على وجه التحديد، وهذا يؤكد أن السياسة المملوكية كانت تميل إلى تغليب الجانب الديني على الكثير من الأعمال حتى تظهر بمظهر السلطة الشرعية عند المجتمعات سواء كان ذلك في مصر أو في الشام، هذا ناهيك عن دورهم الجهادي الذي سبق الحديث عنه في الفصل الأول وظهورهم بمظهر حماة الإسلام والمسلمين، بل هي الحقيقة؛ لأنهم استطاعوا أن يقضوا على أسطورة جيش التتار الذي لا يقهر .

أما عن دور الفقهاء فهو كبير جداً ووجوده يؤكد أن المجتمع في فلسطين خلال العهد المملوكي كان يتميز بالالتزام الديني، و كذلك اجتذبت المدن الفلسطينية الكثير من الفقهاء والعلماء وخاصة مدينة القدس التي أمها العلماء من المشرق و المغرب كان له أكبر الأثر على المجتمع وترسيخ الكثير من الأفكار الدينية والمذاهب الأربعة التي وجدت في فلسطين وكان لهؤلاء العلماء و الفقهاء و القضاة دور في الحياة العامة حيث ذكرت لنا المصادر التي عاصرت هذه الفترة نماذج كثيرة منهم مثل: ما أورده العليمي عن القاضي العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد البايروتي (ت855هـ / 1451م) أنه كان ذا هيبة عند الناس والحكام و نفذ أمره حتى تكلم في الأسعار فكان

(1) ينظر الفصل الثاني من هذه الدراسة ص 164.

(2) لمقريري ، السلوك ، ج 2 ، ص 165

(3) ابن تغري ، النجوم ، ج 9 ، ص 158. ابن حجر ، الدرر ، ج 2 ، ص 67. فيما يتعلق بالقياسر ينظر الفصل الثاني من هذه الدراسة ص 139.

يطلب اللحامين والخبازين وغيرهم من أرباب الحرف و يأمرهم ببيع بضائعهم بسعر معين فلا يتم مخالفته (1) .

بشكل عام نجد العلماء قد لعبوا دوراً هاماً في مجال الحياة العامة في عهد المماليك و كانت لهم مكانة مرموقة في مجتمع غلبت عليه الصبغة الدينية، ولم تكن تلك المكانة بسبب نفوذهم المباشر على الرأي العام و تقديره لهم باعتبارهم أئمة المسلمين وحماة العقيدة فحسب بل نتيجة احتكاكهم المباشر بكافة طبقات المجتمع، و اختلاطهم بهم من تجار وأصحاب حرف فضلاً عن اتصالهم بالطبقة الحاكمة من المماليك وهم الذين حرصوا على مصاهرة هؤلاء العلماء لكي يكتسبوا مكانة اجتماعية نظراً لأنهم غرباء عن المجتمع وقد كانت الحياة الاجتماعية و الدينية تتركز غالباً حول العلماء والمؤسسات الدينية نظراً لإشرافهم على الأوقاف وتوليهم المناصب الهامة وهم المتحدثون الرسميون في كافة الشؤون القانونية والاجتماعية والمدافعون عن حقوق الناس وأتباعهم وخاصة أن فقهاء وقضاة المذاهب كانوا بمثابة زعماء دينيين ينافسون السلاطين في قوتهم وسيطرتهم على الجماهير(2).

ولا يغيب عنا في هذا المجال ما قام به الفقهاء من دور جهادي ضد الأعداء، فعندما اعتدى الفرنج علي بيت المقدس دعا الفقهاء الناس للخروج إلي الجهاد(3)، كما تظهر قضية الالتزام الديني بشكل واضح في العهد المملوكي بين الفقهاء والعامة من الناس في موقفهم من أهل الذمة وتصرفاتهم الفاسدة في بيت المقدس، خاصة في قضية الكنائس ومحاولتهم السيطرة على الأماكن الدينية و بناء الكنائس، وموقفهم من عمليات الهدم، فقد ذكر العليمي أنه عقد مجلساً للفقهاء في بيت المقدس داخل المدرسة التنكزية حضره الشيخ كمال الدين بن أبي شريف و غيره من الفقهاء وتناقشوا في أمر كنيس اليهود وانتهى المجلس بمنع اليهود من بناء كنيس لهم في بيت المقدس، وكتب محضراً بذلك وأمر بهدم الكنيس وشارك المسلمين في هدمه، وفي هذا المجلس شرع الفقهاء في تحريض الناس على الهدم (4). ومن العرض السابق يستدل على درجة الالتزام في المجتمع المقدسي عن غيره من مدن الشام

(1) الأُنس ، ج 2 ، ص 224 .

(2) علي ، القدس ، ص 173 .

(3) ابن كثير ، البداية ، ج 12 ، ص 156. العليمي، الأُنس ، ج 1 ، ص 308 .

(4) الأُنس ، ج 2 ، ص 307 .

كذلك تؤكد لنا قصة هدم الكنائس الدور الكبير الذي لعبه الفقهاء في بث روح الالتزام الديني داخل المجتمع والذي ربما من أجله تعرضوا كثيراً للعقاب من السلاطين، فقد تعرض فقهاء القدس حسب ما ذكره العليمي للسجن والعقاب وأمر السلطان بالقبض على بعضهم⁽¹⁾ .

وفي نفس السياق ذكر أنه تعرض الكثير منهم للعزل من منصبه، وتم إعادة كنيس اليهود لهم، وحصلت محنة للمسلمين من العلماء وغيرهم، وسعي اليهود إلى إعادة كنيسهم من خلال تقديم الرشوة وإصدار الفتاوى التي تجيز لهم بناء كنسهم، وكان أعظم شخص ساعد اليهود هو يشبك الدوادر الكبير مقابل حصوله على مال دون علم السلطان⁽²⁾ .

ويشير السرد السابق إلي أن التزام علماء وفقهاء فلسطين خلال العهد المملوكي كان له آثار على المجتمع؛ لأنه انعكس على العامة من الناس، ومحاولة هؤلاء الفقهاء الحفاظ على المجتمع من خلال محاربة اليهود المعروفين بفسادهم كما سبق ونشرهم للرشوة والمحسوبية التي تؤدي إلى تفكك المجتمع.

خلاصة القول إن كثرة المؤسسات التي انتشرت في فلسطين خلال العهد المملوكي تشير إلى درجة الالتزام الديني الكبير داخل المجتمع؛ لأنها شملت أغلب مدن فلسطين وقراها وانتشرت في كل مكان وبالتالي ساعدت على التزام المجتمع، وكذلك ساعدت سياسة المماليك الدينية التي من خلالها حاول السلاطين المماليك التقرب إلي الرعية كما ساعدت في انتشار ثقافة الجدية والالتزام الديني وجعله من خصائصه .

النظام القضائي : -

تعتبر المؤسسة القضائية من أهم مؤسسات الدولة وأكثرها تأثيراً على المجتمع ليس في العهد المملوكي فقط بل في مختلف العهود الإسلامية لما لها من تأثير مباشرة على المجتمع كما تنظم العلاقة بين أفراد وطوائفه المختلفة .

وقد بدأ الأيوبيون الاهتمام بهذه المؤسسة الهامة في فلسطين منذ بداية تحرير المدن الفلسطينية على يد صلاح الدين الأيوبي، حيث احتلت مؤسسة القضاء المرتبة الثانية بعد مشيخة الصلاحية فعين في القدس قاضياً شافعيّاً هو بهاء الدين ابن رافع بن شداد صاحب صلاح الدين أو كاتب سيرته (المحاسن اليوسيفية)، وجمع ابن شداد بين قضاء القدس و قضاء العسكر السلطاني و النظر في أوقاف القدس⁽³⁾ .

(1) المصدر نفسه، ج 2 ، ص 307

(2) المصدر نفسه، ج 2 ، ص 312

(3) العليمي ، الأنس ، ج 2 ، ص 102 . زكار ، فلسطين ، ص 588 .

وبما أن مؤسسة القضاء مؤسسة رائدة في التاريخ الإسلامي، فلذلك يهمننا هنا أن نشير إلى أن السلطنة المملوكية اعترفت بأربعة مذاهب إسلامية فقط وهي: الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي وكان أغلب سكان مصر والشام شافعية و تلاهم الأحناف وكان الحنابلة والمالكية أقلية⁽¹⁾، أما بعد وصول المماليك إلى الحكم فقد استحدث الظاهر بيبرس تعديلات في المؤسسة القضائية، حيث جعلها محصورة بأربعة قضاة حسب المذاهب السنية الأربعة ومع أن هذا النظام قد جرى تعميمه علي غالب نيابات الدولة إلا انه لم يطبق في مدينة القدس واستمر منصب القضاء وفقاً على قاضٍ شافعي واحد حتى سنة 784هـ/1382م حيث استحدث السلطان الظاهر برقوق منصب قضاء الحنفية⁽²⁾.

وقد أرجع الدارسون المحدثون ظهور المذهب المالكي – الذي انتشر في المغرب الإسلامي – في فلسطين وخاصة في القدس وغيرها من النيابات إلى مجيء الكثير من المغاربة لأداء فريضة الحج ولم تكتمل هذه الفريضة في القدس، كما دفعت حروب الاسترداد في الأندلس إلى هجرة الكثير منهم وخاصة الذين يمتلكون الخبرة الإدارية وذلك لزيادة أعداد المهاجرين من أتباع المذهب المالكي وتعد الحاجة إلى استحداث منصب قاضٍ للمالكية في القدس وكان هذا سنة 802هـ/1399م⁽³⁾.

وقد وجد في نيابة صغد قبل التاريخ المذكور من قضاة المالكية عبد الكريم القببائي تولى قضاء المالكية في صغد في ذي القعدة سنة 786هـ/1384م اشتهر عنه قلة دينه وقلة عقله وجهله وردالته، عزل في جمادي الآخرة سنة 788هـ/تموز 1386م⁽⁴⁾.

كذلك ظهر في نيابة القدس المذهب الحنبلي الذي كان منتشرأ بالأصل في بغداد وحران وبعض مدن الشام الشمالية، وقد دفع أعمال المغول العسكرية في العراق و الشام عدداً كبيراً من الحنابلة إلى الهجرة جنوباً واستقر بعضهم في القدس ومع ازديادهم توفرت الأسباب لاستحداث منصب قاضي الحنابلة وكان هذا سنة 804هـ/1401م⁽⁵⁾.

وقد استحدثت وظيفة القاضي الحنفي في نيابة غزة زمن السلطان الظاهر برقوق سنة 784هـ/791هـ /1382/1388م وكانت ولايته من الأبواب السلطانية⁽⁶⁾، مع العلم أنه يجب الأخذ

(1) ابن تغري ، النجوم، ج7، ص122، ص133، ص134، ص137.المكي، سمط، ج4، ص123. زكار فلسطين ، ص562

(2) ابن تغري ، النجوم ، ج7 ، ص122. الحنبلي، الأوس، ج2، ص118. القلقشندی ، صبح، ج4، ص199. زكار فلسطين، ص588

(3) ابن تغري، النجوم، ج7، ص134. زكار فلسطين ، ص588. ينظر: لمين، مبارك، جوانب من الوجود الأندلسي في القدس الوسيط، ص1-15.

(4) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج1، ص139-184. الطراونة ، مملكة ، ص312 .

(5) ينظر: زكار ، فلسطين، ص588 .

(6) القلقشندی ، صبح ، ج4، 199، ج12، ص216. عطا الله ، نيابة ، ص142-143

بعين الاعتبار أنه لم يوجد في غزة أي قاض مالكي أو حنبلي في الفترة الواقعة بين عامي 806هـ/1404م إلى ما بعد منتصف القرن التاسع الهجري فالجواب يكمن في انه في هذه الفترة صدر أمر بأبطال القاضيين المالكي والحنبلي في القدس وغزة (1) ، وأشار كذلك القلقشندى إلى وجود القضاة الأربعة في نيابة صفد و لكنه لم يذكر سنوات تعيينهم والراجح أن ما أستجد في مصر و الشام من تعديلات على المؤسسة القضائية شملت صفد (2) .

وقبل أن تصبح القدس نيابة مستقلة كان قاضي الشافعية فيها قد تمت توليته من قبل قاضي القضاة في دمشق، ويعتبر نائباً عنه و كذلك غزة وصفد (3)، و أشارت المصادر إلى تغير طريقة تعيين القضاة حيث أصبح يعين بمرسوم أصدر عن السلطان في القاهرة و هكذا أصبح القاضي المعين مثله مثل بقية الموظفين الكبار في النيابة يدخل عند تعيينه إلى القدس مرتدياً التشريف السلطاني ويتوجه نحو المسجد الأقصى لقراءة مرسومه بحضور النائب(4) والناظر(5)

وشيخ الصلاحية(6) وبقية أعيان النيابة،ويلاحظ أن وظيفة القضاء في القدس ذات مردود مالي كبير، لذلك كان بعض القضاة يبذلون الأموال للحصول عليها (7).

وجمع القاضي في القدس بين قضائها و قضاء مدينة الخليل و قضاء الرملة أحياناً لذلك عمد بعض القضاة إلى تولية نواب لهم خارج القدس في مدن النيابة الكبرى (8)، و يلاحظ أن بعض القضاة كان يجمع بين أكثر من وظيفة في آن واحد حيث كان يتولى القضاء و رئاسة المدرسة الصلاحية أو الخطابة في المسجد الأقصى أو يجمع بين القضاء ووظيفة أخرى وحصل في بعض الأحيان أن تولي القضاء في القدس قاضيان شافعيان في وقت واحد و يرجع سبب ذلك إلي شدة التنافس على هذا

(1) ابن حجر ، أنباء ، ج2 ، ص267 . عطا الله ، نيابة ، ص157 .

(2)صبح ، ج4 ، ص267 . عطا الله ، نيابة، ص157 .

(3)العلمي ، الأنس، ج2، ص114، ص116، ص134 . القلقشندى، ج4، ص199، ص209. زكار، فلسطين، ص588.

(4)النائب. والمراد نائب صاحب الباب ويعرف بالمهمندار وهي رتبة جليلة، يتولاها أعيان العدول وأرباب

الأقلام؛ وصاحبها ينوب عن صاحب الباب، ينظر: القلقشندى، ج3، ص559.

(5)وهو المعبر عنه في مصطلح الدواوين المعمورة بالصحبة الشريفة وأن صاحبها يتحدث مع الوزير في كل ما يتحدث فيه وبشاركه في الكتابة في كل ما يكتب فيه، ويوقع في كل ما يوقع فيه الوزير تبعاً له وإن كان الوزير صاحب سيف، كان ناظر الدولة هو المتحدث في أمر الحسابات، وما يتعلق بها الوزير مقتصر على النظر والتنفيذ، ينظر: القلقشندى، ج4، ص29.

(6)المدرسة الصلاحية في بيت المقدس، ينظر: العلمي ، الأنس، ج1، ص139

(7)العلمي ، الأنس ، ج2 ، ص291 ، ص292 ، ص297 ، ص302. زكار، فلسطين ، ص588

(8)العلمي ، الأنس ، ج2 ، ص118 ، ص119 ، ص121، ص124، ص126، ص128 ، ص130. زكار، فلسطين،

المنصب لكثرة المتقاضين، ففي سنة 815هـ/ 1412م كان القاضي شرف الدين أبو المناقب موسى بن برهان الدين أبي اسحق يلي قضاء الشافعية مع القاضي شهاب الدين أبي الحكمة، وكان كل واحد منهما يجلس في مكان مستقل عن الآخر" فكان القاضي شرف الدين يجلس بالمدرسة الظاهرية و القاضي شهاب الدين يجلس بدار الحديث " (1)

وهذا يشير إلى الاهتمام الكبير بالمذهب الشافعي في بلاد الشام عامة وفلسطين خاصة، وكذلك يدل على شيء هام وهو الأماكن التي جلس الفقهاء فيها للنظر في قضايا الناس المختلفة وهي ذات طابع ديني مثل المساجد أو دور الحديث، وما يؤكد ذلك ما ذكره المقرئزي أن نواب الشافعية عشرة في بلاد الشام بخلاف المذاهب الأخرى كانت أقل فاللحنفية خمسة و المالكية أربعة (2). وكان يساعد القاضي في عمله عدد من المباشرين حيث قاموا ببعض الوظائف مثل: الكتابة و الحجابة والأمانة وشهادة العدل، فالحاجب هو الذي كان يستأذن على القاضي ويرفع الأمور إليه، و كان الكاتب هو الذي يتولى تسجيل القضايا والأحكام الصادرة حولها، أما الأمناء فهم الذين كانوا يحتفظون بأموال اليتامى و الغائبين، وتولى الشهود العدول كتابة العقود والوثائق كما اقتصوا بالنظر في صحة الإجراءات القضائية ونقيب القاضي ووكلاء دار القاضي وهم أناس نصبوا أنفسهم لخلص حقوق الخلق (3)، وتجدر الإشارة إلي أن الشهود كانت لهم حوانيت يتكسبون منها ووجدت في الشام خاصة في دمشق وكانت عبارة عن دكاكين الوراقين حيث يحررون المكاتيب وغيرها فإذا كتبوا تلك المكاتيب ساروا إلى بيوت العدول فيشهدونهم على ما يريدون، ثم انتقلت هذه الفكرة بعد ذلك إلى مصر (4) أما فيما يتعلق بالقضاة فقد تمتعوا بمكانة عالية لم يتمتع بها الخلفاء في عهد السلاطين المماليك، وقد روعى في اختيار القاضي شروط معينة هي: البلوغ، العقل، الحرية، الذكورة، الإسلام و العدالة والسمع والبصر والعلم (5).

ويبدو أن هؤلاء الشهود كان لهم دور اجتماعي كبير جداً لدرجة أن أحد الشعراء وصفهم بالسلاطين في قوله:

قوم إذا غضبوا كانت رماحهم...بث الشهادة بين الناس بالزور
هم السلاطين إلا أن حكمهم ... على السجلات والأملك والدور(6).

(1)العلمي ، الأنس ، ج2. زكار ، فلسطين، ص588

(2)السلوك ، ج6 ، ص407 .

(3) السبكي ، معيد النعم ، ص55 ، ص64 . القلقشندى ، صبح ، ج4 ، ص192 . زكار ، فلسطين، ص588

(4) السلوك ، ج1 ، ص386 . عاشور ، المجتمع ، ص175-176 .

(5) المقرئزي ، السلوك ، جص. ، السبكي ، معيد النعم ، ص63. عاشور ، المجتمع ، ص173

(6) السبكي ، معيد النعم ، ص63 .

وقد تطرق ابن خلدون لشيء هام يتعلق بالقضاة في قوله: "إن القائمين بأمر الدين من القضاء... لا تعظم ثروتهم في الغالب"⁽¹⁾، ولكن قول ابن خلدون لم يكن ينطبق على القضاة في فلسطين في العهد المملوكي؛ لأنهم كما سبق في الفصل الثالث لبسوا الملابس الفاخرة التي تفوق ملابس السلاطين في بعض الأحيان، كذلك الجيش المملوكي كان له قضاة "قضاة العسكر"، وهم مختصون بشؤون الجند وليس لهم ولاية على غيرهم كما كانوا يفصلون في القضايا القائمة بين العسكر والمدنيين، ويلاحظ أن قضاة العسكر كانوا ثلاثة يمثلون المذاهب: الشافعي والحنفي والمالكي وأحياناً يوجد قاضٍ حنبلي، وكان قضاة العسكر يحضرون مع القضاة الأربعة بدار العدل ولكن مجلسهم كان دون هؤلاء القضاة كما جرت العادة بأن يصحبوا السلطان في أسفاره⁽²⁾.

الآثار الاجتماعية لسيطرة المماليك على فلسطين :

كان لسيطرة المماليك على فلسطين آثار سلبية وأخرى إيجابية وكان لهذه الآثار انعكاسها على المجتمع .

فمن الآثار الإيجابية لسيطرتهم ما سبق أن أشرنا إليه من كثرة بناء المؤسسات الاجتماعية والدينية والاقتصادية التي تخدم مختلف طوائف المجتمع⁽³⁾، أما عن الآثار السلبية فكان أولها: تدمير المدن أثناء المعارك مع الصليبيين لأهداف أمنية تمنع الصليبيين من العودة لها، (سياسة الأرض المحروقة) وهذه السياسة لم تتبع في العهد المملوكي بل هي سابقة على عهدهم، طبقها بنو أيوب وخاصة في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي قام بهدم الكثير من المدن الفلسطينية بعد تحريرها من أيدي الصليبيين وسار عليها المماليك⁽⁴⁾ .

أما عن أهم المدن التي قام المماليك بتدميرها فعسقلان⁽⁵⁾ وقيسارية، وأرسوف،⁽⁶⁾ وحيفا⁽⁷⁾ وعكا⁽⁸⁾ .

(1) ابن خلدون ، مقدمة ، ج 1 ، ص 393 .

(2) القلقشندي ، صبح ، ج 4 ، ص 37 .

(3) ينظر الفصل الأول والثاني من هذه الدراسة ص 90.

(4) المقرئزي، السلوك ، ج 1، ص 208-209، ج 2، ص 48. أبو الفداء ، تقويم ، ص 339. ينظر: الأغا ، الأوضاع ، ص 276-279 .

(5) أبو الفداء ، تقويم ، ص 339 .

(6) المصدر نفسه ، ص 339 .

(7) العمري ، مسالك ، ج 3 ، ص 330 .

(8) ابن كثير ، البداية ، ج 13 ، ص 335 .

و تدل الإشارة التاريخية أن التدمير لم يقتصر على المدن فقط بل شمل القرى، وما يؤكد ذلك ما ذكره المقرئزي في حديثه عن معارك الظاهر بيبرس سنة 663هـ/1265م حيث فتح عتليت وأمر العسكر بتدميرها وقطع ما حولها من الأشجار و الكروم (1) .

و يتضح من خلال ما تقدم الآثار الاجتماعية المترتبة على ما حدث للمدن والقرى، حيث غيرت في الكتل السكانية و أصبح معظم سكان فلسطين يعيشون في المدن الداخلية بعد تدمير المدن الساحلية لاعتبارات أمنية، وبالفعل كان لها آثار اقتصادية حيث تم تدمير الكثير من البساتين والكروم، وقد أكد الرحالة لودولف أن أغلب المدن والقرى والقلاع الواقعة شمال أرسوف على ساحل البحر المتوسط تم تدميرها لعمق أربعة أميال، و قد غدت معزولة تماماً ومهجورة (2)، كذلك كان لسياسة التدمير التي لحقت ببعض المدن دور في تراجعها إلى قرى، ومن هذه المدن مدينة الناصرة حيث أرسل السلطان الظاهر بيبرس العسكر سنة 661هـ/1262م وهدموا المدينة و خاصة كنيسة كنيستها و يظهر أن سبب هذا الهدم كان دينياً؛ لأنها أكبر مكان لعبادة النصارى (3)، وذكر لودولف الذي زارها سنة 737هـ/1336م 742هـ/1341م أنها كانت فيما مضى مدينة شهيرة و هي " محاطة من كل جوانبها بالجبال، وليست مسورة، بيوتها قائمة أحدها بعيد عن الآخر، ومع ذلك فهي مليئة بالسكان " (4)، وما يؤكد تراجع هذه المدينة أن بعض المؤرخين ذكرها بقرية الناصرة ولم يطلق عليها اسم المدينة (5)، ويلاحظ أن السلاطين المماليك اتبعوا هذه السياسة لاعتبارات دينية وأنهم حماة الإسلام ويبدو ذلك من كثرة بناء المؤسسات الدينية والأنفاق عليها.

كذلك إن لهجمات التتار على مدن فلسطين وتدميرها دوراً كبيراً في إحداث خلل في عدد السكان، ففي فلسطين خلال العهد المملوكي ذكر الذهبي بعض المدن الفلسطينية التي دخلها التتار وخاصة نابلس وغزة حيث ألحقوا الدمار بالقرى والضياح (6) ويظهر من حديث هذا المؤرخ أن التدمير لم يشمل الجوانب الاجتماعية فقط بل امتد للجوانب الاقتصادية التي كان لها أثر على حياة السكان في فلسطين خاصة أن الكثير من هذه القرى والضياح كانت تستخدم لممارسة حرفة الزراعة وتربية الماشية والطيور وهي أهم الأعمال السائدة في المجتمع آنذاك.

(1) السلوك ، ج2 ، ص48 .

(2) وصف ، ص314 ، ص315 .

(3) العلمي ، الأوس ، ج2 ، ص86 .

(4) لودولف ، وصف ، ص337-378 .

(5) ابن العماد، شذرات ، ج7 ، ص118. ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية ، ج4 ، ص20 .

(6) القرمانى، الأمصار ، ص38 .

ويبدو أن المدن الفلسطينية تعرضت بشكل عام للتدمير والنهب من قبل التتار أكثر من مرة مما كان له أكبر الأثر على المجتمع فيها (1) .

ومن المدن الفلسطينية التي تم تدميرها بشكل كبير طبرية، حيث كانت من أول المدن الفلسطينية التي تعرضت لهجمات التتار مما أحدث فيها خللاً اجتماعياً كبيراً دمر معظم مقوماتها الاقتصادية من زراعة و غيرها حتى أنهم نهبوا الثروة الحيوانية، ونستنتج مما تقدم اجتماع الكثير من العوامل منها الحروب حيث كان لها آثار اجتماعية على الكثير من المدن الفلسطينية حتى أن بعض سلاطين المماليك حاولوا إصلاح هذا الخلل عن طريق ترميم بعض المدن وإعادة إسكانها مرة أخرى حتى تتجاوز تلك المدن الآثار الاجتماعية التي ترتبت عليها نتيجة ما لحق بها من دمار وخراب كما فعل الظاهر بيبرس سنة 664هـ / 1266م ولاسيما عندما عمّر طبرية وغيرها من المدن مثل: صفد وأسكن بها من المسلمين وهدم كل ما يتعلق بالفرنجة وأقام الكثير من المؤسسات الاجتماعية التي تخدم السكان وغيرها من المدن (2)، ولكن من المؤكد أن الكثير من هذه المدن تعرضت للهدم أكثر من مرة زمن بني أيوب كما سبق وخاصة في فترة صلاح الدين الأيوبي ومنها مدينة طبرية سابقة الذكر وغيرها مثل: يافا وأرسوف وقيسارية حتى أن بعض هذه المدن تم نقل أهلها إلى مدن أخرى (3) وبالفعل هذا غير الكتل السكانية في فلسطين ولاسيما في عهد بني أيوب وبداية سيطرة المماليك على مقاليد الحكم في بلاد الشام وهو السبب الذي أدى إلى تراجع الكثير منها إلى قرى. وقد أكد هذا القول بعض الرحالة أو الجغرافيين الذين رأوا المدن الفلسطينية خلال الحكم المملوكي ومنهم ابن بطوطة عندما ذكر أن مدينة طبرية كانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها رسوم تدل على أنها كانت ضخمة فيما مضى (4)، وفي نفس السياق وصفها أبو الفداء بأنها كانت قاعدة الأردن و هي خراب حررها صلاح الدين من أيدي الفرنج وأمر بتخريبها (5) .

وعليه فإن الظروف الأمنية دفعت السلاطين المماليك إلى تدمير الكثير من المدن الفلسطينية الأمر الذي أثر تأثيراً مباشراً على البنية السكانية لفلسطين ودفع الكثير من السكان لتترك المدن والتمركز في مدن أخرى أكثر أمناً من المدن التي تتعرض للهجوم من قبل الأعداء مثل المدن الساحلية التي بات أغلبها مدمراً بلا سكان باستثناء بعض الجنود الذين يعملون في حراسة تلك الموانئ

(1) ينظر الفصل الأول من هذه الدراسة ص 90.

(2) العليمي ، الأوس ، ج2 ، ص 86- 87 .

(3) المصدر نفسه ، ج1 ، ص 365 .

(4) ابن بطوطة ، رحلة، ج1 ، ص 81-82.

(5) تقويم ، ص 242-243 .

واغلبهم من المماليك وكذلك المسافرون وهم من الحجاج الأوروبيين القادمين لزيارة الأراضي المقدسة وهو ما أكده الكثير من الرحالة أمثال فابري (1).

التفكك الخلقي في المجتمع المملوكي وتأثيره على فلسطين :

تجدر الإشارة هنا إلى أن المماليك ورثوا مجتمعا مفككا وفيه الكثير من الانحراف والانحلال بسبب سيطرة الفرنج على فلسطين، حيث أنهم مارسوا الكثير من أشكال الرذيلة التي كان لها أكبر الأثر على المجتمع الشامي والمصري بشكل عام ومنها فلسطين كجزء من هذا المجتمع، وبذلك يجدر بنا الإشارة إلي أن المجتمع انتشرت فيه بعض أشكال الرذيلة والفاحشة وهي من أخطر الأمراض الاجتماعية التي تهدم المجتمع و تساعد في تفككه، والغريب في الأمر أن بعض هذه المظاهر قد انتشرت خلال العهد المملوكي ربما بسبب الأمراض وكثرة الأموال خلال العهد المملوكي الأول على الأقل، واستمرت خلال الدولة المملوكية الثانية بسبب الأزمات الاقتصادية وكثرة الحروب التي تؤدي إلى قتل أعداد كثيرة من الرجال مما أدى إلى حدوث مشكلة اجتماعية وهي زيادة عدد النساء على الرجال .

وتظهر صور التدهور الأخلاقي في التفكك خلال فترة سيطرة المماليك الجراكسة (الدولة الثانية) من حكم المماليك حيث انتشرت الدعارة بترخيص من الدولة المملوكية نفسها، حيث فرضوا عليها ضريبة تسمى "ضمان المغانم" (2)، فقد ذكر المقرئزي أن هذه الضريبة كانت تدر على الدولة المملوكية عوائد كبيرة جدا ففي حوادث سنة 699هـ / 1300م أمر بإدارة الخمارة بدار ابن جرادة فظهرت الخمر والفواحش "وضمنت في كل يوم بألف درهم" (3) .

وفي سياق الحديث عن انتشار التفكك والانحلال الأخلاقي والدعارة في المجتمع إبان العهد المملوكي فقد كان ضمان المغاني مسؤولين عن النساء اللواتي يحترفن الدعارة وهو ما أكده المقرئزي في خطبه عند حديثه عن البغايا في مصر فقال: " ضمان المغاني فكان بلاء عظيما وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا فلو خرجت امرأة في مصر تريد البغاء حتى نزلت اسمها عند الضامنة وقامت بما يلزم ما قدر أكبر أهل مصر على منعها من الفاحشة" (4).

وما سبق يدل على انتشار حرفة الدعارة خلال العهد المملوكي بل وصل درجة تنظيم مثل هذه الحرفة إلى وجود كشوفات بأسماء من تريد أن تحترف مثل هذه المهنة، ومما بلغت في "ضريبة

(1) فابري ، رحلة، ج38 ، ق1 ، ص

(2) المقرئزي ، السلوك ، ج4 ، ص362 .

(3) السلوك ، ج2 ، ص326 .

(4) المقرئزي ، الخطط ، ج1 ، ص306 .

المغاني "لم يقتصر عمله على تسجيل أسماء النساء المنحلات أخلاقياً فقط بل كان له أعمال أخرى تتعلق بالنساء مثل المسؤولية عن المغنيات والواعظات والقارئات والندابات إلى جانب مسؤوليته سابقة الذكر⁽¹⁾.

وقد أدرك سلاطين المماليك خطورة مثل هذه الضرائب؛ لأنها كانت تساعد على انتشار الفساد والتفكك داخل المجتمع، ففي سنة 775هـ/1373م خلال حكم السلطان الأشرف أبوالمعالى اجتمع معه الفقهاء وأظهروا له خطورة مثل هذه الضرائب على المجتمع وأمر بأبطالها⁽²⁾.

كذلك لم يكن هذا السلطان أول من اتخذ إجراءات لإبطال ضمان المغاني والقضاء على صور الفساد التي ورثها المجتمع من خلال سيطرة الفرنج فعندما بدأ يعزز الظاهر ببيرس سيطرته على الدولة المملوكية سنة 666هـ/1267م وأمر بإرقاة الخمور وأزال أثار المنكرات ومنع الحانات من بيعها في جميع أقطار مملكته بمصر والشام ومنع النساء من ممارسة البغاء وحبس الكثير منهن حتى يتزوجن وأمر في جميع أقطار الدولة أن ترفع الأموال المقررة على النساء البغايا من أموال الدولة وعم ذلك على جميع أقطار الدولة⁽³⁾.

و الناصر بن المنصور قلاوون من السلاطين الذين حاربوا الفساد بشدة وأبطلوا بيوت الفواحش وأرباب الملاهي وأغلقوا الخانات وكتبوا لنواب الشام بإبطال الخمور واستتابة أهل الفواحش " فعمل ذلك في سائر مدن البلاد الشامية وضياعها وجبالها " ⁽⁴⁾.

هذا يدل على أن الفساد لم يكن مقتصرًا على المدن فقط بل شمل أيضاً القرى والضياع، والدليل على ذلك ما ذكره المقرئزي بأنهم اتخذوا منطقة عرفت باسمهم، وكرأ لبيع الخمور والدعارة "حتى التظاهر بالزنا، واللياطة، وحماية من يدخل إليها من أرباب الديون، وأصحاب الجرائم وغيرهم، فلا يقدر أحد، ولو جل على أخذ من صار إليهم واحتمى بهم" ⁽⁵⁾.

وذكر ابن الصيرفي انتشار الدعارة في الريف حيث وجدت حارات خاصة لممارسة مثل هذا النوع من الفساد في قوله "ومن اجتاز بها غلطاً ألزم أن يزني بخاطئة، فإن لم يفعل فدا نفسه بشيء" ⁽⁶⁾،

(1) ابن تغري ، النجوم ، ج 11 ، ص 291 . الأغا الأوضاع ، ص 288 ، .

(2) المقرئزي ، السلوك ، ج 4 ، ص 362 .

(3) المقرئزي ، السلوك ، ج 2 ، ص 38 ، الخطط ، ج 1 ، ص 305 .

(4) المقرئزي ، السلوك ، ج 3 ، ص 30 . ابن تغري ، النجوم ، ج 11 ، ص 291 .

(5) المقرئزي ، الخطط ، ج 2 ، ص 395 .

(6) ابن الصيرفي ، نزهة ، ج 1 ، ص 168 ، ج 3 ، ص 144 .

وقد انتشرت بعض هذه الأمراض الاجتماعية في مدن فلسطين على وجه الخصوص حيث ذكر في حوادث سنة 800هـ / 1397م في عهد السلطان الظاهر برقوق أنه في العشر الأوسط من رمضان بلغه أن الأمير شيخ الصفوي المقيم بالقدس كان يتعاطى المنكرات ويتحرش بنساء الناس وأولادهم، وإن نائب القدس كلمه فقبض عليه وضربه فأمر السلطان بأن يعتقل في قلعة المرقب (1) .

ووصفت المصادر انتشار الشذوذ الجنسي وممارسة اللواط وخاصة في عهد السلطان الظاهر برقوق " وحتى تشبه البغايا لبوارهن بالغلمان لينفق سوق فسوقهن " (2) .

وذكر السخاوي عند حديثه عن شيخ الصفوي انتشار مثل هذا المرض الاجتماعي الخطير وهو اللواط عندما قال " فلم يلبث أن نقل إلى حبس المرقب لشكوى المقادسة من تعرضه لأبنائهم وإكثاره من الفساد " (3) .

مما سبق نستنتج درجة الانحلال التي وصل إليها المجتمع في عهد الدولة المملوكية الثانية حيث انتشرت الأمراض الاجتماعية بشكل واسع ربما بسبب عدم قدرة سلاطين المماليك على السيطرة على تلك المجتمعات بسبب كثرة الحروب والأزمات الاقتصادية أحياناً، أو بسبب انتشار الترف أحياناً أخرى أو ربما لوجود طبقات تتمتع بالثراء الكبير مثل طبقة المماليك التي استأثرت بأغلب الأموال والمناصب في الدولة مما أدى إلى ظهور مرض اجتماعي يعتبر من أهم الآثار الاجتماعية لسيطرة المماليك على المجتمع وهو انتشار البذل والبرطلة وتعني بمصطلح العصر الحديث الرشوة (4) . فمثل هذه الأمراض تضاهي الأمراض السابقة وتنتشر الفساد في المجتمع، وقد وجدت مثل هذه الممارسات في العهد المملوكي في المدن الفلسطينية وخاصة في بيت المقدس، وهذه الظاهرة تدل على مدى ما أصاب المجتمع الإسلامي بوجه عام والجهاز الإداري بوجه خاص من انحلال وتفكك نتيجة لتأصل هذه الظاهرة لدى كل من الحكام والمحكومين (5) .

ومن الوظائف التي امتدت إليها ظاهرة البذل والبرطلة وظيفه النيابة في بيت المقدس ومن الأشخاص الذين تولوا نيابة القدس أكثر من مرة بالبذل والبرطلة الأمير خشقدم رغم كراهية أهل

(1) ابن العماد، شذرات، ج7، ص63. ابن تغري، النجوم، ج12، ص71. السخاوي، الضوء، ج3، ص308. علي، القدس، ص278 .

(2) المقرئزي، السلوك، ج5، ص231 .

(3) السخاوي، الضوء، ج3، ص308. المقرئزي، السلوك، ج5، ص421 .

(4) أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص5

(5) العليمي، الأوس، ج2، ص296. أحمد، البذل، ص5. علي، القدس، ص278. زعرور، الحياة، ص84 .

القدس له، وذلك نظراً لما أتصف به من ظلم وعنف وقد أكد العليمي هذا في قوله: "وشكوه للسلطان فعزله وطلب إلى القاهرة ثم بذل مالا وولي مرة ثانية" (1) .

وتكمن خطورة مثل هذه الأمراض في أنها امتدت إلى الوظائف الدينية وخاصة القضاء والحسبة والخطابة ومشيخة الشيوخ ووكالة بيت المال وليس أدل على ذلك ما ذكره العليمي في حديثه عن قضاء بيت المقدس بأن جمال الدين الديري وصل إلى قضاء القدس سنة 878هـ/1473م ولم يستمر فيه سوى 14 يوماً ولكنه لم يحكم حكماً بعد مال بذله (2). كذلك ورد أن القاضي الكمال بن البدر الجعفري المقدسي ولي قضاء بيت المقدس ولم تحمد سيرته ونسب إليه مزيداً من الرشا (3) هذا بالإضافة إلى ما ذكره العليمي في حديثه عن قاضي المالكية في بيت المقدس سنة 892هـ/1487م حيث تم عزله لأخذه الرشوة (4). وفي سياق الحديث عن انتشار مثل هذه الأمراض فقد امتدت الرشوة وبذل المال إلى منصب الخطابة حيث ذكر ابن حجر أن ابن السائح الرملي استقر في خطابة القدس مقابل مال بذله يقدر بثمانية آلاف وصرف منها ابن غانم النابلسي (5). كذلك أورد العليمي انتشار الرشوة في منصب الخطابة ببيت المقدس سنة 801هـ/1398م عندما ذكر قاضي القضاة جمال الدين يوسف بن غانم حيث ولي قضاء نابلس ثم قضاء صفد ثم ولي خطابة القدس "بمال بذله" (6). ويلاحظ مما تقدم أن أغلب مظاهر الفساد وانحلال المجتمع الفلسطيني كان خلال عهد الدولة المملوكية الثانية (الجراسية)، ويبدو أن الأسباب التي أدت لذلك كان أهمها الأسباب الاقتصادية وكثرت ما أصاب الدولة من مجاعات وقحط أدى إلى إجهاد الدولة من الناحية الاقتصادية الأمر الذي كان له أكبر الآثار الاجتماعية، كما لعبت الحروب نفس الدور بنشر الأمراض والمشاكل الاجتماعية داخل بنية المجتمع مما أدى إلى انتشار حياة الترف بين طبقة المماليك ووصولهم إلى مناصب هامة وهم لا يستحقونها تسببت في انهيار الجهاز الإداري والديني في المجتمع .

فشل الإدارة المملوكية في قيادة المجتمع :

من المعروف أن الإدارة المملوكية تعتبر امتداداً لما سبقها من دول سيطرت على بلاد الشام بشكل عام وفلسطين بشكل خاص حيث يعتبر النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي امتداداً لما ساد في عهد

(1) العليمي ، الأنس ، ج2 ، ص276 . علي ، القدس ، ص279 .

(2) العليمي ، الأنس ، ج2 ، ص297 . علي ، القدس ، ص279 .

(3) السخاوي ، الضوء ، ج9 ، ص110 .

(4) الأنس ، ج2 ، ص340 .

(5) إنباء ، ج2 ، ص92 . علي ، القدس ، ص280 .

(6) الأنس ، ج2 ، ص138 . علي ، القدس ، ص280 .

كل من السلاجقة و الزنكيين والأيوبيين (1). فمن بين أهم الملوك السلاجقة وأولهم إتباعاً لنظام عطاء الجنود هو نظام الملك، وهو أول من طبق نظام الإقطاع (2)، واستخدم الزنكيون نظام الإقطاع كوسيلة لحشد الجنود في وجه الأعداء حيث بلغ أوج تطوره في عهدهم و كان الهدف منه الولاء الشخصي، وكذلك اتبع نفس النظام في عهد دولة الأيوبيين ولكن جرت عليه تعديلات كثيرة من أجل جعله أكثر مواءمة للتطورات العسكرية التي تتطلبها مرحلة تلك الدولة، وهذه التعديلات هي التي أوصلت النظام الإقطاع بشكله النهائي للدولة المملوكية فكان من أهم التطورات التي جرت على النظام الإقطاعي العسكري تحوله إلى إقطاع شخصي غير وراثي (3).

و في تفصيل لتلك التغيرات فقد كان الإقطاع يمنح في أكثر من موضع في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (4).

ومن أول الأسباب التي دفعت الناصر إلى إحداث تغييرات في نظام الإقطاع داخل الدولة المملوكية هو الحد من نفوذ الأمراء خوفاً من تمردهم على الدولة ولذلك أعاد عملية توزيع الاقطاعات على الأمراء والأجناد في نفس الوقت وكان ذلك في سنة 716هـ/1316م وكذلك سار الملك المنصور لاجين على نفس النظام فعمل الروك الحسامي (5).

ويبدو واضحاً مما ذكره ابن تغري، حين عقد مقارنة بين النظام الإقطاعي ومساوئه في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون والمنصور لاجين وضح فيه هدف سلاطين المماليك من إدخال تغييرات على النظام الإقطاعي وهدف اجتماعي من أجل تخفيف الظلم عن بعض طبقات المجتمع حيث قال: إن المظالم في عهد الملك المنصور قلاوون أكثر مما كانت عليه أيام الناصر وخاصة في إدارة الدولة وجمع الأموال، وكان هدف الملك الناصر من إيجاد الروك إبطال الكثير من المظالم مثل الضمانات والمكوس وغيرها (6).

ويبدو مما سبق أنه قصد بهذه التغيرات بعض طبقات المجتمع التي فرضت عليها الضرائب وكان لها علاقة بالإقطاع مثل طبقة الفلاحين الذين عملوا كعمال في هذه الاقطاعات، حيث تعرضوا لظروف قاسية جداً بسبب تطبيق هذا النظام وهو الإقطاع العسكري المملوكي، فكان الفلاح لا يستطيع

(1) القلقشندي، صبح، ج 4، ص 51-52. ينظر، الأغا، الأوضاع، ص 289.

(2) الطوسي، سياسة نامه، ج 1، ص 43.

(3) المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 161. الخطط، ج 1، ص 255، ص 259. ينظر، زعرور، الحياة، ص 80، ص 83. الأغا، الأوضاع، ص 289، ص 298.

(4) المقرئزي، الخطط، ج 1، ص 259.

(5) القلقشندي، مآثر، ج 2، ص 122-134. المقصود بالروك هو إعادة توزيع الاقطاعات.

(6) النجوم، ج 8، ص 90، ص 94، ج 9، ص 178. الصفي، الوافي، ج 12، ص 225.

مغادرة الأرض التي يعمل فيها حتى يصبح له ثلاث سنوات وإن حاول أن يتركها يتم إعادته إليها بالقوة حيث ذكر السبكي "ومن قبائح ديوان الجيش إلزامهم الفلاحين في الاقطاعات بالفلاحة...وقد جرت عادة الشام بأن من نزع من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد إلى القرية قهراً و يلزم بشدة الفلاحة " (1). وهذا يؤكد لنا قسوة حياة الفلاح وتعرضه لشتى أنواع الظلم حيث أصبح عبداً لا يستطيع ترك الأراضي التي يعمل فيها" ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحاً قراراً، فيصير عبداً قنّاً لمن أقطع تلك الناحية إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق بل هو قنّ ما بقي، ومن ولد له كذلك". (2) كما أشارت مصادر تلك الفترة إلى المجتمع الريفي الفلسطيني الذي جعل الفلاحين شبه أفنان – في أراضي المقطعين – يعانون كافة مظاهر السخرة والاستغلال والاضطهاد سواء من المماليك أو الأمراء العرب، وغيرهم حيث يذكر المقرئ في أحداث سنة 824هـ / 1421م: "ثم مر السلطان الظاهر المظفر في طريقه بمدينة القدس فرفع إليه أن من عادة نائبيها أن يجبي من فلاحي الضياع أربعة آلاف دينار... ونادي بإبطال هذه المغارم " (3).

و ذكر في سنة 702هـ / 1302م أن الأمير سيف الدين بكتمر تولى الحجوبية و توجه إلى صفد كاشفاً و عندما حرر الكشف و دققه فقال زين الدين عمر بن حلاوات موقع صفد (4)

يا قاصدا صفدا فعد عن بلدة من جور بكتمر الأمير خراب
لا شافع تغني شفاعته ولا جان له مما جناه متاب
حشر وميزان ونشر صحائف وجرائد معروضة وحساب
وبها زبانية تبث على الورى وسلاسل ومقارع وعقاب

و قد أشارت بعض المصادر إلى كثرة الضرائب على طبقة الفلاحين و ما لها من آثار اجتماعية و دور الظلم في انهيار و تفكك الدول و زوال الحكم، و قدم المقرئ و صفاً لهذه الضرائب عندما قال: "فتعدوا إلى الأراضي الجارية في اقطاعات الأمراء وأحضروا مستأجريها من الفلاحين... وزادوا في مقادير الأجر فتقلت...فجعلوا الزيادة ديدهم كل عام حتى بلغ الفدان لهذا العهد نحو من عشرة أمثاله... لا جرم أنه لما تضاعفت أجرة الفدان من الطين.... عظمت نكاية الولاية والعمال واشتدت وطأتهم على أهل الفلح... وكثرت المغارم في عمل الجسور وغيرها... فخرّب بما ذكر

(1) معيد النعم ، ص34. زعرور ، الحياة ، ص82 .

(2) المقرئ ، الخطط ، ج1 ، ص148 . ينظر ، الأغا ، الأوضاع ، ص292 .

(3) السلوك ، ج7 ، ص41 . ينظر ، الأغا ، الأوضاع ، ص292 .

(4) الصفي ، الوافي ، ج10 ، ص121 .

معظم القرى وتعطلت أكثر الأراضي من الزراعية فقلت الغلات... لموت أكثر الفلاحين وتشريدهم في البلاد⁽¹⁾.

وقد اعتبر ابن خلدون أن الفلاحة هي أهم أنواع الحرف حيث تقوم عليها الكثير من الحرف مثل التجارة وأرجع سبب تدهور الحرفة إلى كثرة فرض الضرائب واعتبر أن سبب تدهور الدولة اقتصادياً يرجع إلى عدم استثمار الأموال في الفلاحة⁽²⁾.

وكذلك ذكر ابن خلدون كيف كان السلاطين يبتزون الفلاح عند حديثه عن التجارة السلطانية حيث كانت الدولة إذا احتاجت للأموال زادت من النفقات و المكوس و الاستيلاء على حيوانات و بضائع التجار و حددت السلطات الأسعار التي تريدها بأيسر ثمن فكان السلطان " لا يجد من يناقشه في شرائه فيبخس ثمنه على بئعه"⁽³⁾، وقد ذكر لنا العليمي كيف كانت السلطات في بعض الأحيان تكلف التجار بشراء سلعة معينة بالسعر الذي حددته الدولة حيث عرف ذلك العهد ما يعرف بضريبة الرمي 898هـ/1492م حيث كان يفرض على التجار شراء كميات من الزيت المستخرج في مدينة نابلس و خاصة على تجار القدس و الخليل و غزة و الرملة وكانت أكثر الطبقات تأثراً بمثل هذه الضرائب الفقراء لكثرة الخسارة في بيعه حيث كانت الخسارة نحو النصف ووصلت درجة التأثير أن كل أهل القدس والرملة تأثروا بهذه السياسة والغريب في الأمر أنه فرض على التجار والناس أخذ الزيت⁽⁴⁾.

وهذا دليل على أن الدولة المملوكية خاصة في نهايتها كانت لا تهتم بالمجتمع فقد كانت تركز على جمع الأموال وتفرض الضرائب بغض النظر عن الضرر الذي يلحق بالطبقات الاجتماعية المختلفة لدرجة أنها لم تعف أحداً في المدن الفلسطينية من فرض كمية من الزيت عليه ليبيعه بالسعر الذي تريده الدولة بغض النظر عما يلحق بها من خسائر حيث طلب التجار والناس وألزمهم نائب القدس بأخذ الزيت⁽⁵⁾.

كذلك تأثر المجتمع بالفتن الداخلية التي كانت تحدث في الدولة و خاصة هجمات البدو على المدن الفلسطينية فكثيراً ما كان يتعرض هؤلاء السكان لعمليات النهب كما حدث لأهل الرملة سنة 898هـ/1492م حيث نهبت أبقارها⁽⁶⁾.

(1) إغاثة ، ج 1 ، ص 40-41 .

(2) مقدمة ، ج 1 ، ص 282

(3) ابن خلدون، مقدمة، ج1، ص 281 .

(4) لمزيد، ينظر: الأنس، ج2، ص 273-274 .

(5) المصدر نفسه، ج2، ص 274.

(6) العليمي ، الأنس ، ج2، ص 274. ينظر الفصل الأول من هذه الدراسة.

و بالتأكيد مثل هذه الهجمات كانت تدفع الكثير من السكان و خاصة الفلاحين لتترك الأراضي التي يعملون فيها و لم يسلم ذلك المجتمع من التسلط الداخلي سواء كان من بعض الشخصيات التي تعمل داخل السلك الإداري للدولة أو من خلال ضعف هذه الدولة بسبب كثرة الأزمات الاقتصادية و الحروب التي تعرضت لها في أواخر عهدها و خاصة من قبل الدولة العثمانية القوة المتنامية على حدود الدولة المملوكية الشمالية (1) ،ومما أضعف الداخل وأدى إلى تجرؤ الكثير من القوى مثل البدو لإحداث خلل اجتماعي في بعض المدن والقرى إلى جانب التأثيرات السياسية والاقتصادية مما أدى في النهاية إلى حدوث الكثير من التمردات والثورات بسبب عدم رضي المجتمع عن الظلم الذي تعرض له بسبب كثرة الأعباء التي وضعت على كاهله .

وقد صور الرحالة فابري الذي زار فلسطين في سنة 884هـ/1480م التسلط الداخلي للمماليك عندما زار مدينة غزة حيث ذكر انه توجه في الصباح ليشتري بعض الحاجيات التي تتعلق بسفرهم هو والحجاج المسيحيين فوجد "جميع أكشاك وبيوت التجار وحوانيت الطباقين ومحلات اللحامين...مغلقة، وعندما سألنا عن سبب ذلك أخبرونا أنه لن يكون هناك سوق طوال الوقت الذي يبقى فيه المماليك في المدينة...بسبب جشعهم، وما من أحد يتجرأ على عرض بضائعه للبيع؛ لأن المماليك يقدمون ويتناولون كل ما يعجبهم ويأخذونه دونما دفع وما من إنسان يتجرأ أن يقول لهم لا وأبقى شعب غزة دوابهم أيضاً في بيوتهم وكذلك حميرهم وأبقارهم أغنامهم وماعزهم تحت أشرفهم ولم يتركوا للذهاب إلى مراعيهم خشية استيلاء العسكر عليها (2).

هذا بالفعل يوضح التسلط وأثره على المجتمع في مدن فلسطين خلال العهد المملوكي وعلى وجه الخصوص في نهاية الدولة الثانية حيث لم يتركوا أي طبقة من طبقات المجتمع إلا وألحقوا بها الضرر بسبب تسلطهم .ونهبهم للسكان مما كان له أكبر الأثر على الحياة اليومية في تلك المدن وقد لاحظنا كيف تعطلت كل مرافق المدينة أثناء وجود المماليك في غزة .

و يؤكد لنا ما سبق أيضاً عدم وجود رقابة من قبل الدولة على هؤلاء العساكر المماليك ومما يدل على درجة الضعف التي وصلت إليها هذه الدولة في نهايتها وانعكست هذه الآثار على المجتمعات سواء عن طريقة تفككه أو إنهاكه اقتصادياً .

(1)العليمي ، الأنس ، ج 2 ، ص 37 ، ص 342 .

(2) رحلة ، ج 38 ، ق 4 ، ص 1249 – 1250 .

الختاتمة

توصلت هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

- أظهر السلاطين المماليك اهتماماً كبيراً بالمجتمع في فلسطين ويتضح هذا من كثرة بنائهم المؤسسات الدينية والمدنية والاجتماعية والاقتصادية.
- لعب المماليك دوراً كبيراً في إعادة الطابع الإسلامي للمدن في فلسطين بعدما كانت الأغلبية فيها من المسيحيين الذين جاءوا مع الحروب الصليبية إلى الشرق.
- كانت فلسطين تتميز بتنوع البنية السكانية، وهذا يؤكد السياسة السمة للسلطة المملوكية حيث لم تعمل على الاضطهاد العرقي كما فعل الصليبيون أثناء سيطرتهم، من طرد أهل البلاد الأصليين.
- لعبت الأوبئة والمجاعات والكوارث الطبيعية دوراً كبيراً في التأثير على البنية السكانية في فلسطين حيث أبادت أغلب القرى والمدن بأكملها وخاصة في دولة المماليك الجراكسة.
- كان للنظام الإقطاعي وكثرة فرض الضرائب خاصة في فترات الضعف أثارها على المجتمع حيث تدمر السكان من أساليب القمع وطرق جمع الضرائب التعسفية.
- انتشار بعض العادات الغريبة في المجتمع مثل تقديس قبور الأولياء وبعض الأماكن مثل عين المقذوفات وكذلك انتشرت عادة الحسد.
- كان للقبائل البدوية في فلسطين دور في زعزعة سلطة المماليك، مما كان له أكبر الأثر على المجتمع عن طريق عمليات السلب والنهب، وقتل أعداد كبيرة من السكان وتدمير الممتلكات والمؤسسات .
- كانت الأسواق في فلسطين خلال العهد المملوكي عبارة عن مراكز إعلامية تنتقل من خلالها الأخبار إلى جانب الكثير من العادات .
- كانت طبقة الفلاحين من الطبقات الاجتماعية التي تعاني من الظلم وقسوة النظام الإقطاعي الذي لم يسمح لهم بمغادرة الحقول الزراعية وإن غادروها يتم إعادتهم بالقوة.
- كان التركيز السكاني إبان العهد المملوكي في المدن الداخلية؛ لأن أغلب المدن الساحلية تم تدميرها لاعتبارات أمنية.
- لعب النشاط الاقتصادي دوراً في زيادة الكثافة السكانية في مدن فلسطين وخاصة التجارة حتى وصفها البعض أنها محشوة بالسكان (مثل غزة عندما وصفها الرحالة فابري).
- انتشار بعض الأمراض الاجتماعية في أواخر الدولة المملوكية الثانية مما أدى إلى انتشار بعض مظاهر التفكك في المجتمع.
- شمل التعليم جميع طبقات المجتمع بغض النظر عن المستوى الاجتماعي.

- دخل المجتمع طبقات جديدة مثل التركمان والبغاددة(سكان بغداد)الذين جاءوا بسبب اجتياح المغول لبلادهم،وكذلك دخول طبقة المغول الذين أسلموا مما أدى إلي زيادة عدد طبقة المماليك التي وجدت منذ العهد الأيوبي.
- لعب اليهود دوراً في نشر الكثير من مظاهر الفساد في المجتمع مثل الرشوة والمحسوبية وأظهروا عنصرية حتى في طوائفهم فلم يعتبروا السامرة من الطوائف اليهودية.

ملاحق البحث

مرسوم من السلطان المملوكي خشقدم مؤرخ في ١٣ رمضان سنة ٨٧٠ هـ.

مرسوم كريم الى الفلاحين بقربة بيت لحم

لله الحمد والتكبير

الملك الظاهري

يعتمد

المرسوم بالامر الكريم العالي المولوي
الاميري الكبير السيد المالكي المخدمي المقامي الشهابي احمد الظاهري
سند المقام الشريف عز نصره الى الفلاحين بناحية بيت لحم
بالقدس الشريف الجارية في ديواننا العزيز يعلمهم ان الرهبان
بدير صهيون بالقس الشريف اتهاوا الينا انهم فقراء الحال
ومتسببون ومقيمون بالدير المذكور وانكم تشوشوا عليهم
بالضرر والاذية واخذ ما تجدوه معهم من طعام وعناب
 وغيره واخر ذلك بحالهم فيتقدموا بعدم التعرض الى الرهبان
بقول او فعل ولا يكلفهم ولا يشوشوا عليهم ولا يأخذوا
منهم شيا وكف اسباب الاذى والضرر عنهم والوصية التامة بهم
قولا واحدا وامرا جازما والله الموفق بكرمه ان شاء الله تعالى
في ثالث عشر شهر رمضان المعظم من شهر

عام سبعين وثمانئة

والحمد لله وحده وصلى الله على نبينا محمد واله وصحبه وسلم

الملحق رقم (2) القلقشندي، صبح، ج 11، ص 378.

الوظيفة الأولى

رأسه اليهود

وموضوعها التحدث على جماعة اليهود والحكم عليهم، والقضاء على مقتضى دينهم وغير ذلك. وقد تقدم في الكلام على النحل والملل أن الموجودين من اليهود ثلاث طوائف: وهم الربانيون، والقراؤون، والسامرة. وقد جرت العادة أن يكون الرئيس من طائفة الربانيين دون غيرهم، وهو يحكم على الطوائف الثلاث.

وهذه نسخة توقيع برأسه اليهود، من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، وهي: أما بعد حمد الله الذي جعل أطاف هذه الدولة القاهرة تصطفي لدمتها من اليهود رئيساً فرئيساً، وتختار لقومها كما اختار من قومه موسى، وتبهج لهم نفوساً كلما قدمت عليهم نفيساً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي، والرسول الذي أجمل الوصية بالملّي والذمي، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه كما هطل وبلي، وما نزل وسمي - فإن معدلة هذه الدولة تكتنف الملل والنحل بالاحتياط، وتعمهم من إنصافها وإسعافها بأوفر الأنصبا وأوفى الأقساط، وتلمهم من حادث الزمن إذا اشتط ومن صرفه إذا شاط، وتضمهم كما ضمت النبوة إلى جناح النبوة الأسباط، لاتزال ترقب الإل والذمة، في المسلمين وأهل الذمة، وتقضي لهم بحسن الخبرة ورعاية الحرمة، وتبيحهم من أمر دينهم ما عليه عوهدوا، وتمنحهم من ذلك ما عليه عوقدوا، وتحفظ نواميسهم بأخبار تحمد موادهم إذا شوفهوا وتحسن مرآهم إذا شوهدهوا: من كل إسرائيلى أجمل للتوراة الدرسة، وأحسن لأسفار أنبيائه اقتباسه وأجمل التماسه، ومن نبهته نباهته للتقدمة فما طعم اجتهاده يوماً حتى صار وجه الوجاهة في قومه ورأس الرأس، فأصبح فيهم معدوم النظر، معدوداً منهم بكثير، وموصوفاً بأنه في شرح أسفار عبرانية حسن التفسير، واستحق من بين شيعته أن يكون رئاس الكهنة، وأن تصبح القلوب في مجامعهم بحسن منطقة مرتبهة، وبأن للجهالة بتتقيفه لشيعته تحجب عقائدهم عن أن تغدو ممتبهة.

ولما كان فلان هو لمحاسن هذا التقريظ بهجة، ولجسد هذا التفويض مهجة، ولممادح هذا الثناء العريض لهجة، ولعين هذا التعيين غمضها، وليد هذه الأيادي بسطها وقبضها، ولأبكار أفكار هذه الأوصاف متقاضيا ومقتضها، ومن أدنيت قطاف النعماء ليد تقدمته على غيظ من غص منها واجتنتى غضها - اقتضى حسن الرأي الشريف أن يميز على أبناء جنسه حق التمييز، وأن يجاز له من التتويه والتتويل أجل ماجيز. ورسم بالأمر الشريف - لازال يختار فيجمل الاختيار، ويغدو كالغيث الذي يعم بنفعه الربا والوهائد والأثمار والأشجار - أن تفوض إليه رأسه اليهود على اختلافهم: من الربانيين، والقرائين، والسامرة بالديار المصرية حماها الله وكلاها، فليجعل أسبابهم بالتقوى تقوى، وغروسهم بالتدبير لاتنوى، ومقاصدهم لا يمازجها شك وشكوى، ولينزل عليهم منا مناً يسليهم صنعاً حتى لا يفارقوا واختلابها تأتية؛ وإياه والتية حتى لا يقال: كأنه بعد لم يخرج من التية.

وجماعة الربانيين فهم الشعب الأكبر، والحزب الأكثر؛ فعاملهم بالرفق الأجدى والسر الأجدر، ولكونك منهم لاتمل معهم على غيرهم فيما به من النفس الأمانة تؤمر.

وجماعة القرائين فهم المعروفون في هذه الملة، لملازمة الأدلة، والاحتراز في أمر الأهلة، فانصب لأمرهم من لم يتوله حين يتوله؛ ومن كان منهم له معتقد فلا يخرج عن ذلك ولا يجرج، ولا يلجم منهم بلجامٍ من نار إنكار من في ليلة سبته بيته عليه لايسرج.

والسامرة فهم الشعب الذين آذن التنظيف أهله بحروبه، ولم يك أحدهم لمطعم لكم ولا مشرب بأكوله ولا شروبه؛ فمن قدرت على رده بدليل من مذهبك في شروق كل بحثٍ وغروبه، فارده من منهج تحيده عن ذلك وهروبه، وإلا فقل له: ياسامري بصرت بما لم تبصروا به. " وليكن حكمك فيهم بالبت " ، وافق بهم فإن " المنبت لأرضاً قطع ولاظهاً أبقي " فإياك أن تكون ذلك المنبت، ومرهم بملازمة قوانينهم كيلا يعدو أحد منهم في السبت، واجعل أمور عقودهم مستتبه، وأحسن التحري والتحرير لهم في إتقان كل كتبه؛ ولاتختر إلا الأعيان، من كل خزانة وديان؛ ومن كان له من داود عليه السلام لحمه نسب، وله به حرمة نسب، فارغ له حقه، وأصعبه من الرفق أكرم رفقة. والجزية فهي لدمائكم وأولادكم عصمة، وعلى دفاعها لادافعها وصمة، ولأجلها ورد: من آذى ذمياً كنت خصمه، وهي ألم من السيف إجارة، وهي أجرة سكنى دار الإسلام كما هي لاستحقاق المنفعة بها إجارة؛ فأدوها، وبها نفوسكم فأدوها، " وإن تعدو نعمة الله لاتحصوها، فعدوا أطفاف الله بها ولا تعدوها؛ ودوام على مه، زجراً لتارك علامة؛ ومن قصد منها خلاصه، فقل له في الملاء: ماذا خلاصه؟ ؛ ومن ركن في أمرها إلى الإخلاق والإخلاق، وسكن إلى الإهمال، ولم يرض بأن راية الذلة الصفراء على رأسه تشال، فأوسعته إنكار " ، وألزمه منا شعاراً؛ وإن قام بنصره منهم معشر خشن فأرهم بعد العلامة خشكاراً؛ وخذهم بتجنب الغش الذي هو للعهد مغير ومغيب، واكفف من هو لما ينافيه معير ومعيب؛ وأما من هو مجيب لذلك فهو لقصده محبب، وانقل طباعهم عن ذلك وإن أبت عن التناقل فاننقلمانا يتلو: " قل لا يستوي الخبيث والطيب " . وقد علم أن الذي تتعاطونه من نفخ في البوق إنما هو كما قلت للذكور، فاجتهدوا أن لا يكون لتذكور العجل الحنيذ الذي له خوار؛ هذه وصايانا لك ولهم فقل لهم: هذه موهبة الدولة وإحسانها إليكم، ولطفها بكم وعاطفتها عليكم، وبصرهم بذلك كلما تلا إحساننا إليهم: " يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم "

ملحق رقم (٣) نقلاً عن العسلي، وثائق، ص ٦٣

نهونجان من وثائق دير الفرانسييسكان

نص مرسوم من السلطان المملوكي جقمق مؤرخ في (صفر سنة ٨٥١ هـ)

الحمد لله

الملكي الظاهري

يعتمد

المرسوم بالامر الكريم العالي المولوي السيدي الملكي المخدم القاضوي الامامي العالي العلامي مولانا المقر الاشراف الاميني ابي الميامن عبد الديري الحنفي الظاهري ناظر الحزمين الشريفين وما مع ذلك اعلاه الله تعالى ان يتقدموا الروسا بقرية بيت لحم والفلاحون بتمكين الرهبان بقرية بيت لحم من تكملة بنا ما هدم لهم من ديرهم على حكم ما حكم لهم بالشرعية المطهرة الاشهاد

المكتب بيدهم وذلك يمكنهم من حاكورة شرقية ديرهم بمقتضى المراسيم الشريفة شرفها الله تعالى وعظمتها وثبت لهم ذلك بالشرع الشريف ويتقدموا الروسا بعدم المعارضة للرهبان المذكورين وكف اسباب الضرر عنهم على وجه الشرعية المطهرة وان لا يتعرض لهم احدا من الفلاحين فيبادروا الى ذلك قولاً واحداً وامراً لازماً والحذر ثم الحذر من المخالفة يعلموا ذلك ويعتمدوه والاعتماد في ذلك على الخط الكريم العالي اعلاه الله اعلاه حجة ان شاء الله تعالى

كتب في حادي عشر صفر الخير

من شهور سنة احد وخمسين وثمان مائة

الحمد لله وحده وصلى الله على مرسله محمداً وآله وصحبه وسلم .

قيد بأذن المولى العالم العامل المدقق الكامل سيد قضاة الاسلام سند الموالي
العظام حسنة الليالي والايام عبد الحليم مصطفى (١) دام علاه في اوائل شهر جمادى
الاولى سنة ١٠٢٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم : اللهم صلي (٢) على سيدنا محمد وعلى جميع الانبياء
الكرام وسلم هذا نسخة كتاب وقف شرعي ثابت محكوم به منفذ لدى حكام الشريعة
المطهرة مسطر بمسندتات مضمونة الحمد لله ميسر انواع الخيرات ومسهل اسبابها
ومولي مواهب المبرات المخلصة لوجه وهابها وجاعل الطاعات في مرضاته اقرب
سبيلها وابوابها وقابل القربات ممن اخلصها طلبا لاجرها ورغبة في ثوابها نحمده
حمدا * من سبحها ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة
نتنفع بها حين لا ينفع شيء ونشهد ان محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى
اله واصحابه الذين تأدبوا بحاسن شريعته واجتنبوا محارم نواهيه فساعدوا
باجتنابها .

اما بعد فان اولى ما ادخر الانسان ليوم معاده . . . * خالقه عند قيام اشهاده
واقترض الله القرض الحسن فاخصب وادى مراده الصدقة التي يدخر المتصدق
بها الثواب ويدرا بها عن نفسه وبيل العذاب وتكون له على الصراط جوازا
وعلى ثواب العمل الصالح طرازا فان من فضائلها ان النار تنقأ بها حتى بشق ثمرة
ويرقا الى الله تعالى ولو مثقالا من ذرة وتلقى . . * اشهد الكفاح ويامن المتصدق
بها البلا ويتحقق له بحصولها الفلاح لا سيما صدقات الاوقاف التي هي من
اعلا الصدقات واسناها وارفعها قدرا عند الله تع واعلاها فانها الصدقات الجارية
والدخاير الباقية يجلوها * والعيان ويتلوها الاثر واللسان ولا ينقطع نفعهما
وان طال الزمان ، وقد بدأ نبينا صلى الله عليه وسلم بذكرها حيث قال « اذا
مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية او علم ينتفع به او ولد
صالح يدعوا له » (٣) ولما اتصل ذلك بعلم مولانا المقر (٤) الاشراف العالي المولوي
الاميري السيدي الكبيرى العالمى المجاهدى الشاغرى (٥) المرابطى المؤيدى المظفرى
المنصورى الهامى القوامى النظامى المشيدى المهيدى الزعيمى السيفى ركن
الاسلام فخر الانام ملك الامرا كهف الفقرا مقدم العساكر ذى المفاخر والمآثر
غياث المجاهدين حصن المسلمين ظهير الملوك والمسالطين سيف امير المؤمنين ابي
سعيد تنكز عبد الله الملكى الناصرى نايب السلطنة المعظمة بالبلاد الشامية

المحروسة ادام الله تع ايامه واعلا اعلامه بادر الى تحصيل هذه الصدقات الاتي
 ذكرها التي تقرب بها الى الله الكريم رجاء رحمة وفضله العميم واشهد بها
 على نفسه الكريمة حرسها الله تع من يضع خطه آخره من العدول في حال
 صحته وسلامته ادامها الله تع واختياره وطواعيته وجواز امره وتضرعاته انسه
 وقف وحبس وسبل وايد حرم وتصديق بجميع ما ياتي ذكره مما هو جار في ملكه
 المبارك وتحت يده الكريمة مما هو معلوم عنده فمن ذلك جميع المدرسة المباركة
 التي انشأها الواقف المسمى مولانا ملك الامرا المشار اليه تقبله الله منه وهي
 بمدينة القدس الشريف جوار الحرم الشريف على الباب المعروف بباب السلسلة
 ويغلق على هذه المدرسة المذكورة باب خاص كبير بمصراعين من خشب الجوز
 يصنح نحاس اصفر ببوابة معقودة بالحجر النحيت الابيض والاسود والاصفر
 وبها طراز مذهب مكتوب فيه اسم الواقف المسمى شرفه الله تع وكرمه وتشمل
 هذه المدرسة المذكورة على اربعة اواوين معقودة بالكلس والحجر في كل واحد
 منها شبك حديد مطل الى حارة المغاربة ولكل واحد من الشبايك المذكورة
 والمجلسين المشار اليهما باب بمصراعين منجور معظم بالعاج والابنوس . وهذا
 الايوان القبلي وقفه الواقف المسمى تقبل الله تع منه مسجدا لله تع له
 حرمة المساجد وكرامتها وسبله وفي الايوان الشرقي من هذه المدرسة المذكورة
 شبكان حديد يطلان الى الحرم الشريف لكل واحد منهما باب بمصراعين منجور
 معظم بالعاج والابنوس وجميع هذه المدرسة المذكورة مؤزرة بالرخام الملون
 وارضها مفروشة بالرخام الملون ولها عراقية و... خشب ورقرق مدهون وفي
 وسط هذه المدرسة المذكورة بركة مئنة يجري لها الماء من قناة العروب بحق
 واجب معلوم من معلم مشترك ينقسم مأؤه بين جهات الحرم الشريف وبين هذه
 المدرسة المذكورة من الفرع المساق من قناة العروب بحق واجب معلوم ولهذه
 المدرسة مطبخ برسم المرتبين بهذه المدرسة المذكورة الاتي ذكرهم . ولهذه المدرسة
 طهارة تشمل على خمسة بيوت مبنية بالحجارة النحيت والكلس احدها مستحم
 وفي كل بيت منها جرن حجر يجري اليه الماء من قناة العروب المذكورة بمقسم
 خاص بها بحق واجب معلوم . وجميع اواوين هذه المدرسة المذكورة مبلطة
 بالبلاط الابيض وحايط هذه المدرسة القبلي مبني على اقبيا رومية تعرف قديما
 بامطيلات الداوية (٧) وهي من حقوق هذه المدرسة المذكورة ويتطرق الى هذه
 الاقبيا من حارة المغاربة بباب خاص . وتحت الجانب الشرقي من هذه المدرسة

المذكورة قبو سليمانى (٨) قديم جدده الواقف المسمى تقبل الله منه وبها بير
 لجمع ماء الاشتهية الذي ينزل اليه من طرق اعدت له في اسطحة المدرسة المذكورة
 طوله خمسة واربعون ذراعا بالذراع القاسمي وعرضه تسعة عشرة ذراعا
 بالذراع المذكور ويستقى الماء من هذا القبو من طاقية في بيت استجده الواقف
 المسمى ادام الله تع نعمته ملاصق لرباط النسا الاتي ذكره على ظهر القبو المذكور
 وفي هذا البيت جرن حجر طوله ثلاثة اذرع بالذراع القاسمي وعرضه ذراعان
 بالذراع المذكور والى جانب هذا القبو الى الحرم الشريف من باب السلسلة . حد
 هذا القبو من القبلة الحائط الذي انشاه الواقف المسمى اعز الله تع انصاره من
 جهة حارة المغاربة ومن الشرق سور الحرم الشريف ومن الشام الحاكورة المعروفة
 بحاكورة السقاية وفيها بابيه ومن الغرب اقبا خراب . وهذا القبو السليمانى المذكور
 من حقوق المدرسة المذكورة وعند الحاجة بالماء المجتمع فيه يقدم اهل المدرسة ،
 ثم ما يحتاج الحمامان الاتي ذكرهما في دوارتهما عند قلة مايهما الجاري اليهما
 وانقطاعه عنهما ثم ساير خلق الله . وفي هذه المدرسة المذكورة اثنتان وعشرون
 بيتا فيها في السفلى من هذه المدرسة المذكورة احد عشر بيتا برسم الفقها
 الحنفية الاتي ذكرهم منها بيت برسم بواب المدرسة المذكورة والباقي في علو
 المدرسة المذكورة وهو احد عشر بيتا برسم الصوفية الاتي ذكرهم وجميع
 هذه البيوت معقودة بالكس والحجارة ولكل بيت منها باب خاص مكبر وعلى ظهر
 بوابة المدرسة المذكورة طبقة ذات منافع ومرافق ومراقد شرقي وغربي وسقفها
 خشبي ولها طاقات مظة الى جهة الشمال وشبابيك حديد ولها مرتفق خاص وعلى
 ظهر بيتين من بيوت العلو المقدم ذكرها طبقة بسقف خشب لها طاقات مظة
 الى جهة القبلة ومنافع ومرافق ومرتفق خاص ويصعد الى ذلك والى المسجد
 الاتي ذكره من السلم الحجر المدرسة المذكورة وهاتان الطبقتان المذكورتان
 يرسم سكن من يختار الناظر في هذا الوقف اسكانه فيها وظهر ذلك جميعه
 واهويته وفايض مياهه واوساخ مرتفقاته تنصرف الى قناة الوسخ التي
 استجدها الواقف المسمى بحيق واجيب . حد هذه المدرسة المذكورة من القبلة
 جارة المغاربة . ومن الشرق الحرم الشريف ومن الشمال الطريق واليه يفتح
 باب هذه المدرسة ومن الغرب دار تعرف بدار الحاج ايوب المصري ومنه جميع
 ببناء المسجد وما لاصقه من الابنية من شام وهو الذي انشاه الواقف المسمى

هذا المشلح الى داخل هذا الحمام ويشتمل على قبة معقودة بجوامت زجاج
تحتها اربعة اجرنة رخاما وعلى اربع مقاصير معقودة قبابا بجوامت (١٦) منهن ثلاث
موزرات بالرخام الملون تشتمل كل واحدة منهن على جرنين رخاما والرابعة تشتمل
على جرن واحد رخاما وفي بيت الزجاج من هذا الحمام جرن رخام وطشتية مرخمة
برسم الماء البارد وارض جميع هذا الحمام المذكور ومقاصره مرخم ذلك جميعه
بالرخام الملون ويتصل بهذا الحمام اقميمه (١٧) المبارك وفيه آلتة المتخذ لمايه
وفي هذا الاقميم مصنع (١٨) يجري الماء وينقسم الماء بينه وبين الحمام الاتي
ذكره الذي هو الغربي من الحمامين المذكورين وهو الصفيير منهما ، وجميع داخل
هذا الحمام وارضه مرخم ذلك جميعه بالرخام الملون وفي الاقميم المقدم ذكره آلة
هذا الحمام ايضا المعدة لمايه الجار وقدره وحق هذين الحمامين من الماء من قناة
تعرف بالعروب وهو حق واجب معلوم حد هذين الحمامين المذكورين من القبلة
الطهارة (١٩) الاتي ذكرها التي انشأها الواقف المسمى احسن الله تع اليه ومن
الشرق حاكورة الطهارة ومن الشمال الطريق السالك الى الهرم الشريف من
باب يعرف بباب السقاية وفيه يفتح باب الحمام الغربي ايضا المذكور ومن الغرب
الطريق السالك من وادي الطواحين (٢٠) الى البركة الواصل اليها الماء من قناة
العروب وفيه يفتح باب الحمام الكبير ومنه جميع الطهارة (١٩) التي انشأها الواقف
المسمى اعز الله تع انصاره وهي بالقرب من ذلك ويغلق عليها باب خاص وتشتمل
على سبعة بيوت أحدها مستحم وبها حوض حجر ولكل بيت منها جرن حجر
ويجري الماء الى ذلك بحق واجب معلوم من قناة العروب وفايض مياه هذه
الطهارة واخبائها تنصرف الى قناة الوسخ المذكورة بحق واجب فظهورها خواص (٢١)
لها حدها من القبلة حوض السبيل الذي انشأها الواقف المسمى تقبل الله تع
منه وجعله مسبلا لجميع خلق الله تع وبير ؟ الواصل اليه من فايض بركة
قناة العروب وتمام الحسد الطريق وفيه بابها ومن الشرق المصنع المختص بالحمامين
المتقدم ذكرهما ومن الشمال الحمام القبلي ومن الغرب الطريق ومن ذلك جميع
الضيعة ومزارعها المعروفة بعين قنية من عمل القدس الشريف وتشتمل هذه
الضيعة ومزارعها على اراضي عاطلة وعامرة وسهل ووعر واقاصي واداني
ومصايف ومشاتي ومروج وصير (٢٢) وبيادر وطواحين ثدور بماء الاثتية واشجار
زيتون ونارنج وكروم عنب مختلف الاجناس وبساتين وجناين وتين وخروب وغير

ذلك ودمنة برسم سكن فلاحيتها وبها اعين ماء نبع سادحة (٢٤) حد هذه الضيعة
 ومزارعها بكمالها من القبلة اراضي قرية نوبا وتمام الحد اراضي قرية كفرتيا
 ومن الشرق اراضي قرية رام الله وتمام الحد اراضي لدنا ومن الشمال اراضي
 قرية دير بن شعبان وتمام الحد اراضي قرية السرايين ومن الغرب
 اراضي قرية دجانية وتمام الحد اراضي قرية دير بزيع بجميع حقوق ما ذكر وسمي
 ووصف وحدد وطرق ذلك ومرافقه وسفله وعلوه وابنيته واحجاره ورخامه وبلاطه
 واخشابه ورفوفه وابوابه وحديدته وبقية الاته وما يختص به من القنى والمجاري
 وبكل حق هو لذلك داخل فيه وخارج عنه معروف به منسوب اليه فاليها المدرسة
 المبدأ بذكرها وما بها من الابنية سفلا وعلوا فقد وقف الواقف المسمى ذلك
 تقبل الله منه وقفا صحيحا شرعيا على الفقهاء الحنفية والمحدثين والصوفية وشرطه
 ان يكون حافظا لكتاب الله تع عالما بمذهب الامام سراج الدين ابي حنيفة النعمان
 ابن ثابت رضي الله تع عنه ملازما لذكر الدرس بهذه المدرسة المذكورة على
 جاري العادة في ذكر الدروس وان يكون اماما في الصلوات الخمس بالمسجد الذي هو
 الايوان القبلي من المدرسة المذكورة وصلاة التراويح في ليالي شهر رمضان المعظم
 من كل سنة بمن يحضر الى المسجد المشار اليه من كافة المسلمين وان يستعرض
 المتوسطين والمبتدئين من الفقهاء والمتفقهة بالعلم الشريف ويحث من يحضر منهم
 عنده في درس المدرس ويفعل مثل ذلك بعد صلاة العصر كل ذلك في ايام ذكر
 الدروس وخمسة عشر فقيها ومتفقهها يرتبون ثلاث طبقات منتهيون ومتوسطون
 ومبتدئون ويكن منهم خمسة اشخاص مزوجين وعلى كل واحد منهم حضور هذه
 المدرسة الدرس وملازمة الاشتغال بها والبيت فيها على جاري العادة
 ومن مضت منهم عليه اربع سنين من حين ترتيبه بالمدرسة المذكورة ولم يكمل
 حفظ كتاب في مذهب الامام ابي حنيفة رضي الله عنه ويظهر عليه الفقه فيستبدل
 الناظر على هذا الوقف غيره ويقدم الفقيه الغريب على الفقيه من اهل القدس
 ويقدم العزب على المزوج منهم وعلى هؤلاء المذكورين اجمعين من المدرس والمعيد
 والفقهاء والمتفقهين الاجتماع لذكر الدروس في الايوان القبلي المشار اليه وان يقرأ
 كل واحد منهم جزا من ثلاثين جزا من كتاب الله تع العزيز في الربعة الشريفة
 ويختمون (قراتهم) بقراءة سورة الاخلاص والمعوذتين (٢٥) وفاتحة الكتاب العزيز

وأوائل السمورة التي تذكر فيها البقرة ثم يدعو المدرس عقب ذلك لولانا السلطان
 الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبي الفتح محمد خلد الله تع سلطانه وللواقف
 المسمى تقبل الله تع منه ولذريته المباركة كثرهم الله تع ويستغفر الله تع لهم
 ويسأله ان يجعل ثواب ذلك في صحايف الواقف المسمى احسن الله تع اليه ثم
 يذكر المدرس على جاري العادة . ومن شرط كل واحد من الجماعة المذكورين ان
 يكون من اهل الخير والدين والصلاح وتضبط غيبة الفقها ممن يعينه الناظر في هذا
 الوقف لذلك ومن غاب منهم لعذر شرعي سُمح في مدة الغيبة في جامكيتيه (٢٦)
 وجرايته الاتي ذكرهما ومن غاب منهم بغير عذر شرعي نقص من جامكيتيه وجرايته
 بقدر مدة غيبته واما المحدثون بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الشيخ
 ومن شرطه ان يكون عالي الرواية مقصودا بالسمع عليه والاخذ عنه حسن
 الضبط والقاري للحديث النبوي على قتيله افضل الصلوة واتم السلام وشرطه ان
 يكون جيد الضبط حسن القراءة (٢٧) وان يقرأ في الميعاد بهذه المدرسة من صحيح
 البخاري رضي الله عنه ما تيسر فاذا اكمل قراءة جميع الصحيح المذكور في المواعيد
 قرا من صحيح الامام مسلم رضي الله عنه حتى يكمل قراءة جميعه كذلك وكلما فرغ
 من قراءة هذين الصحيحين في المواعيد اعاد قراتهما كذلك وعشرون محدثا وعلى
 كل واحد منهم ان يحفظ في كل يوم من ايام الميعاد حديثا واحدا من الاحاديث الثابتة
 عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويعرضه على الشيخ بعد فراغ الميعاد
 وعلى جميع هولاء الجماعة المذكورين من الشيخ والقاري والمشتغلين في الحديث
 ان يجتمعوا كئيل يوم بعد صلوة الظهر في الايوان الشرقي من المدرسة المذكورة
 ويقرأ كل احد منهم ما تيسر من كتاب الله تع في الربعة الشريفة ويختمون القرآن
 بقراءة ما ذكر من ختم قراءة الفقها من القرآن العظيم ثم يدعو الشيخ كدعاء
 المدرس المقدم ذكره ثم يقرأ القاري من احد الصحيحين المذكورين كما ذكر على
 جاري العادة في ذلك ويضبط القاري اسماء الحاضرين من المرتبين وغيرهم على
 جاري عادة المحدثين ومن شرط كل واحد من هولاء الجماعة المذكورين ان يكون
 من اهل الخير والدين والصلاح وحكمهم في الغيبة كما ذكر في حق الفقها واما
 الصوفية المنتسبون الى الانتدا بالسادة مشايخ الصوفية رضي الله عنهم وهم
 الشيخ المرتب المشيخة عليهم وخمسة عشر صوفيا يكون واحد منهم خادما واخر
 طباخا لهم وعليهم اجمعين ان يجتمعوا صبيحة كل يوم قبل طلوع الشمس في

الحنطة والارز ويكون وظيفة كل واحد منهما ثلاثة دراهم ورجل يكيل الحنطة والارز ويكون وظيفته ثلاثة دراهم ورجل يقوم بمصالح حنطة الطعام من الدق والتقشير بلا اهمال وتقشير ويكون وظيفته ستة دراهم ورجل طحان يقوم بمصالح طحن حنطة العمارة ويكون وظيفته ستة دراهم ورجلان يفربلان الحنطة ويكون وظيفة احدهما اربعة دراهم والاخر ثلاثة دراهم ورجل جاروشي امين يتعاطى خدمة جرش الحنطة من غير غدر وحطة ويكون وظيفته درهمان ورجلان يقوم احدهما بمصالح نقيق الخبز حيث يرفع الحنطة من انبار العمارة الى الطاحونة وبعد الطحن يأتي بالدقيق الى الانبار ويكون وظيفته اربعة دراهم والاخر يأتي بالماء الى سقاية مقدار الكفاية ويرش الماء قدام البقاع الشريفة وحواليها وقت الحاجة ويكون وظيفته ثلاثة دراهم ورجل دين تقي طاهر الذيل نقي يكون قميما وسراجيا يقيم لوازم خدمات الحجرات والمسجد الشريف من الكنس والتنظيف ويفتح ابوابها في الصبح اذا تنفس ويغلقها في الليل اذا عسعس ويوقد السرج والتناديل بلا اهمال ولا تعطيل ويكون وظيفته خمسة دراهم ورجل امين دين قادر على الخدمة متدين يكون خانيا وفراشا وبوابا في خان العمارة المذكورة ويقوم ساير خدمته على العادة المعتادة ويكون وظيفته اربعة دراهم ورجل اخر بواب يلتزم في المطبخ والماكل خدمة الباب ويكون وظيفته اربعة دراهم ورجل اخر يكون فراشا بحيث يكنس المطبخ والماكل وحرم العمارة ويرفع المزابل الواقعة فيها ويلقيها في محلها ويكون وظيفته اربعة دراهم ويعين ايضا رجل نجار بنساء وحجار يقوم بخدمة تعمير الاوقاف ومرمتها واصلاح المسبلات برمتها يتعهد احوالها كل حين واوان من غير تكاسل وتوان ومهما وقف على خلل يسير يسارع الى المرمة والتعمير كيلا يؤدي التسوييف والتأخير الى ضرر عظيم وشر كثير ويكون وظيفته خمسة دراهم ورجل مرمتي يرم ما اختل من ابنية الحمامين على الوجه المسطور بلا تقصير ولا قصور ويكون وظيفته اربعة دراهم ورجل قناتاتي يقوم بمصالح قناتاتي الحمامين بالعمارة مع ساير ما يحتاج اليه ايصال الماء اليهما ويكون وظيفته اربعة دراهم ورجل صيرفي يكون وظيفته اربعة دراهم وعينت لدهن القناديل كل يوم درهمين وشرطت الحضرة العالية العلية المشار اليه كما أسبق الله نعم انعامه عليها ان يطبخ في العمارة المعمورة لا زالت موايدها موفورة في كل يوم سوى ليالي الجمع الشريفة مرق

بالسمن مرتين ومرق بالارز غذاء ومرق بالحنطة عشاء وفي ليالى الجمع الشريفة
يطبخ مرق الحنطة غذاء والاطعمة النفيسة الاتي ذكرها عشاء وعينت لمرق الارز
في كل وجبة من الارز الصافي النقي عشرين منا قدسيا (٢٨) يكون بالاواق
الاستانبولي اربعين اوقية ومن السمن ثلاثة امان ومن الحمص ثلاثة اواق ومن
البصل اربعة اواق ومن الحطب ستين منا يكون مائة وعشرين اوقية ومن
الملح منان ونصف من يكون خمس اواق ومن اللبن الحامض خمسة وعشرين منا يكون
خمسين اوقية ولثمن المعدنوس (٢٩) اربعة دراهم ومرق الحنطة في كل نوبة من
الحنطة النقية اربعة امداد قدسية ومن السمن ثلاثة امان يكون ست اواق ومن
الملح خمس اواق ومن البصل منان ومن الحطب سبعين منا قدسيا ومن الكمون
ثلاث اواق ومن الحمص منا ونصف من وشرطت ان يطبخ في كل ليلة من ليالي
الجمعة الطعامان المعروفان بدانة برنج وزردة (٤٠) وعينت لحوايجها من الارز
اثني وستين منا قدسيا يكون مائة واربعة وعشرين اوقية ومن لحم الضان
خمس وثلاثين منا يكون سبعين اوقية ومن السمن ثلاثة عشرة منا ونصف من
يكون سبع وعشرين اوقية ومن الحمص اربع اواق ومن البصل كذلك ومن الحطب
تسعين منا يكون مائة وثمانين اوقية ومن الفلفل اربعين درهما وزنيا (٤١) ومن
الملح اربعة امان ونصف من يكون تسع اواق ومن العسل ستة عشر منا
ونصف من يكون ثلاثة وثلاثين اوقية ولثمن الزعفران اربعة عشر درهم وشرطت
ان يطبخ في الليالي الشريفة الرمضانية الطعامان المعروفان بدانة برنج وزردة
على التفصيل المزبور وشرطت ان يطبخ يوم عاشورة اربع قزغات مملوة
بالمرق المعروف بجملة حوايجه ولوازمه ويفرق الى علما القدس وفقرايه
وصلحائه واغنيائه على وجه العموم ويصرف اليه بقدر ما يحتاج اليه من
الاوقف المبرورة المذكورة جعل الله مساعي صاحبها مشكورة وشرطت ان يطبخ
كل يوم في فرن العمارة اخبزة معروفة (بفدولة) (٤٢) مقدار كل واحد منها مطبوخا
تسعون درهما وزنيا ويكون عدد الخبز المذكور لكل يوم الفين ومن الحطب خمسة
وخمسين منا يكون مائة اوقية وعشر اواق ومن الملح ثلاثة امان يكون ست اواق
وشرطت الحضرة المذكورة لا زالت مساعيها مشكورة ان يعطى من الاطعمة
اليومية كل غداة وعشية لكل واحد من مجلوري تلك الحجرات المجتنبين عن تضييع
الاقوات طعام واحد مقداره ملء مقرفة واحدة وخبز واحد وفي ليلة الجمعة

يضاف اليها قطعة من اللحم وان يعطى على النسق المار من الاطعمة
وقطعتان من الاخباز خبزة لكل واحد من خدمة المسجد الشريف والعمارة
العلمرة وغيرها المسطور اسماهم في تلك السطور على الوجه المهور
وهم الامام وكاتب الاوقاف والشيخ ووكيل الخرج وكاتبه والكيلاري والابباري
والطباخان وتلميذهما والخبزون * وتلميذهم والنقيبان وغسالا الكؤوس ومرقبوهما
والكيال ومنقيا الارز والحنطة والجباة ومن يأتي بالدقيق من الطاحونة والطحان
والجاروشي والمغربلان ومن يصب الماء الى السقاية والقيم والخاني وبواب
المطبخ والماكل وفراشهما والمرميتان والقناواتي وشكرت تقبل الله
تعالى صدقاتها وضاعف اجور مبراتها ان يعطى منها كل غداة وعشية
لاربعة مائة نفر من الفقراء والمساكين والضعفاء والمحتاجين الحاضرين في الماكل
مايتا كاس لكل اثنين منهم واقسي من الاطعمة واللحم مقدار ما يعطى لواحد
من المجاورين ولكل واحد منهم خبز واحد وشكرت ان لا يعين شيء من
الاطعمة لمن يطلبه من الخارج سوى الخدام لفرد من افراد الناس بواسطت
الشفاعة والالتماس فمن خالف هذا الشرط فما اخذه يكون سحتا وحراما
وسيلقى في الاخرة عذابا وغراما وشكرت الواقعة رفيع الله خيام اقبالها على
اعمال العز والخلود وربط اطنانب سرادقات جلالها بأوتاد الابود (٤٢) ان يكون
امور الاوقاف المرقومة بجملتها ومصالحها المرسومة برمتها منوطة بربايها
المنير ومفوضة الى جنابها الخطير بحيث تتصرف فيها على اي وجه تختار
وتريد من غير منازع ولا مساهم من قريب وبعيد وتستقل في نظم مصالحها
وتعيين مصارفها وكيفية استغلالها وكيفية وظايفها ونقضها وزيادتها
وبديها واعادتها ونصب اربابها وعزل اصحابها وغير ذلك من الامور
المعروفة عند الجمهور وتستبد في تغير الشرايط وتبديلها وتساثر في نقض
الضوابط وتحويلها الى ما هو احسن وانفع واعجب وابدع حسبما ما يقتضيه
المصلحة والتدبير ويرتضيه رايها المنير وتنفع بما فضل من المصارف المزبورة
من اموالهم ولا نزاع ما دامت في قيد الحياة لمسح الله في اجلها وبلغها الى
غاية املها حتى اذا ذاقت من كاس الحمام ولبت دعوة الله والله يدعو
الى دار السلام يكون الامر مفوضا الى والي الزمان فيأمر بالعدل والاحسان

* الخبزون .

ويقلد التولية من يصلح لها كايانا من كسان من الأمناء المنعوتين بالاخلاق
المرضية والموصوفين بالوصاف المرعية يؤدي الخدمة على التفصيل المذكور
ولا يخل في ذلك بأمر من الامور وهكذا ساير الجهات على الاطلاق يفوضها الى من
فيه الاهلية والاستحقاق وشرطت الحضرة العلية حفا الله تعالى بعنايته
الجليلة ان يكون كل من يكون اميرا في باب السعادة العليا وهو المعبر عنه
بقابواغاسي (٤٤) ناظرا على اوقافها حسبة لله تعالى ويأخذ من متولي
الاقواف محاسبتها في اخر كل سنة فما فضل من المصارف المحررة المرقومة والوظايف
المقررة المرسومة يسلمه المتولي الى الناظر المزبور فيحفظه الناظر باتم الاحتفاظ
والاحتياط عاريا عن الاختلال في دقايق المحافظة والاحتياط لرغبة اصول الموقوفات
من المستغلات وبقاع الخيرات عند الاحتياج العارض من طوارق الحدثن
وحوادث الازمان من الحرق والزلازل وسائر الافات والمخافات الناشئة بانقلاب الازمنة
والساعات واقرا ايضا بان حضرة الواقفة المزبورة نعتها المستطاب في صدر هذا
الكتاب ابد الله الملك الشكور ايام دولتها الى انتهاء الدهور اخرجت جملة
تلك الاوقاف عن يدها الكريمة وازالت عنها ملكيتها القديمة وسلمت كلها الى
قدوة الامثال الكرام وعمدة الاكارم الفخام المختص بعناية الملك المنان حيدر
كتخذا بن عبد الرحمن الذي نصبته متوليا الى ان يستتب امر التسجيل تسليما
صحيحا عاريا من الموانع بجملتها وهو تسلمها منها تسليما صحيحا جامعاً
للشرايط برمتها اقراراً صحيحاً شرعياً موافقاً لقوانين الشريعة الشريفة
الغراء واعترافاً صحيحاً مرغياً جارياً على مناهج الملة الحنيفية البيضاء مصادفاً
للتصديق من قبل المتولي المسفور في جميع ما رقم من الامور فلما تم من الجانبين
المقال وال الامر الى هذا المال رام الوكيل المزبور ان يرجع عن وقفيتها حسبما
هو المأمور من قبل حضرة الموكله المرقومة نعتها الكريمة ويردها الى ملكيتها
القديمة مقتدياً اثار الامام الاعظم والهمام الافخيم الطود الاشم والبحر الخضم
سراج الائمة ومقتدى الائمة كاشف استار الحقايق عن وجوه التنزيل منور
اسرار الدقايق في منصة التأويل سلطان سائر الاجتهاد حجة الحق
على كائنة العباد حضرة الامام ابي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي
عامله تعالى بلطفه الجليل والخفي فعارضه المتولي المرقوم متمسكا بقول من
قال باللزوم من الائمة الكبار والاعزة الاخيار وتمكادي التنازع والتشاجر

في البين الى ان بلغ السيل الزبى (٤٥) وجاوز الحزام الطيبين (٤٦) فلما تحاكما المولى
 الفاضل الرباني والنحرير الكامل الصمداني ناظر الشريعة الفراهيدي المحجة
 البيضاء فخر الاسلام ووشمس الائمة حجة الحق على كافة الامة رافع مرتبة
 العلم الى الغاية القصوى مظهر كلمة الله العليا الحاكم الموقع اعلا الكتاب
 بتوقيعه الشريف المستطاب لا زالت عقد المسائل مطولة بأسنان اقلامه ومحذرات
 القضايا الشريعة متقلدة بقلائد احكامه ونظر في محل النزاع نظرا انيقا
 وتامل فيه تأملا حقيقيا وشاهد في جانب المتولي رجحانا قويا وعين في يده
 برهانا جليا حكم بصحة هذه الاوقاف ولزومها على الشرايط المنسورة بخصوصها
 وعمومها على رأي من يراه من الائمة المهتدين رضوان الله عليهم اجمعين
 حكما صحيحا شرعيا وقضاء صريحا مرعيا وقفا لازما مسجلا لا يجوز بعد ذلك
 تغييره وتبديله « فمن بدله بعدما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله
 سميع عليم (٤٧) » واجر الواقفة على الله الكريم جرى ذلك وحرر في
 اواسط شعبان سنة اربع وستين وتسماية . شهود الحال

محمد اغا كتحداي اغا | محمود اغاي | حسين اغا ابن | مصطفى اغا بن | امثال صورة
 باب السعادة | سراي جديد | عبد الله | عبد الله | امضايهما

صورة الواقفة المعلمة بالعلامة السلطانية المطابقة لاصلها المنيف .

نمقه الفقير الى الفنى اللطيف عبد الله بن نصوص القاضي بالقدس الشريف
 وما ضم اليه وأضيف عني عنه

ملحق (6) جدول مدارس القدس في العهد المملوكي

اسم المدرسة	مؤسسها	سنة التأسيس
المدرسة الصلاحية	السلطان صلاح الدين الأيوبي	583هـ/1187م
المدرسة الدوادارية	الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله بن عبد ربه بن عبد الباري الدوادار الصالحي	695هـ/1295م
المدرسة الوجيهية	الشيخ الإمام وجيه الدين محمد بن عثمان بن أسعد بن المنجا التتوخي	701هـ/1302م
المدرسة السلامية	الخوaja مجد الدين إسماعيل السلامي	743هـ/1342م
المدرسة الكريمة	الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن المعلم	718هـ/1318م
المدرسة التتكرية	الأمير تتكز نائب الشام	729هـ/1328م
المدرسة الأمينية	أمين الدين عبد الله	730هـ/1330م
المدرسة الملكية(الجوكندار)	سيف الدين الحاج الملك الجوكندار	741هـ/1340م
المدرسة الفارسية	الأمير فارس البكي ابن الأمير قطلو ملك ابن عبد الله	755هـ/1354م
المدرسة الخاتونية	الأميرة أغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية	755هـ/1354م
المدرسة الأرغونية	الأمير أرغون الصغير الكامل وأكملها الأمير ركن الدين بيبرس السيف	759هـ/1358م
المدرسة القشتمرية	الأمير قشتمر السيفي	759هـ/1358م
المدرسة الأسعدية	الخوaja مجد الدين عبد الغني بن سيف الدين أبي بكر	نهاية النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي
المدرسة المحدثة	المحدث عز الدين عبد العزيز العجمي الأردبيلي	762هـ/1360م
المدرسة الحسينية	الطواشي شاهين الحسني	762هـ/1361م
المدرسة المنجكية	سيف الدين منجك اليوسفي الناصري	76هـ/1374م
المدرسة الطازية	الأمير سيف الدين طاز بن قطغاج	763هـ/1362م

1373هـ/775م	الأمير بيدمر الخوارزمي	المدرسة الحنبلية
1367هـ/768م	الأميرة سفري خاتون ابنة شرف الدين أبي بكر بن محمود المشهور بالبارودي	المدرسة البارودية
غير معروف	الأمير بدر الدين لؤلؤ غازي	المدرسة اللؤلؤية
1380هـ/782م	الأمير سيف الدين منكلي بغا الأحمدى	المدرسة البلدية
	الأمير سيف الدين طشتمر بن عبد الله العلاتي في أواخر حياته	المدرسة الطشتمرية
1395هـ/797م	أبي بكر بن علي الشيباني	المدرسة الموصلية
قبل 1398هـ/790م	الأمير جهاركس (أوجركس) الخليلي (أمير أخور الملك الظاهر برقوق)	المدرسة الجهارسكية
زمن الملك الظاهر برقوق	شهاب الدين أحمد بن الناصري محمد الطولوني الظاهري	المدرسة الطولونية
	شهاب الدين الطولوني	المدرسة الفنرية
	الأمير علاء الدين علي بن ناصر الدين محمد	المدرسة الصببية
1431هـ/834م	زين الدين عبد الباسط بن خيل الدمشقي	المدرسة الباسطية
1433هـ/836م	مصر خاتون	المدرسة الغادرية
1436هـ	أسفهان خاتون بنت محمود العثمانية	المدرسة العثمانية
عهد السلطان الظاهر سيف الدين جقمق	صفي الدين جوهر القنقبائي الخازندار	المدرسة الجوهرية
1492هـ/897م	التاجر شمس الدين محمد بن عمر بن الزمن الدمشقي	المدرسة الزمنية
1470هـ/875م	حسن بن ططر الظاهري ناظر الحرمين الشريفين بالقدس	المدرسة الأشرفية
1332هـ/732م	القاضي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن فصل الله	الخانقاة الفخرية
1380هـ/782م	تاج الدين أبو الوفاء محمد	الزاوية الوفاية

703هـ/1304م	الشيخ عمر بن عبد الله بن عبد النبي المغربي المصمودي المجرد	زاوية المغاربة
760هـ/1359م	الشيخ الإمام علي الصفي البسطامي	الزاوية البسطامية
666هـ/1268م	الأمير علاء الدين أيدغدي بن عبد الله الصالح	رباط علاء الدين البصير
681هـ/1282م	السلطان المنصور قلاوون	الرباط المنصوري

ملحق رقم (7) توقيع هدنة سنة 667هـ / 1268م بين الظاهر بيبرس والمملكة الحلبية الصليبية،
القلقشندي، صبح، ج13، ص53

و هذه نسخة هدنة من هذا النمط، عقدت بين السلطان الملك الظاهر " بيبرس " أيضاً، و بين ملكة بيروت من البلاد الشامية، في شهور سنة سبع و ستين و ستمائة حين كانت بيدها، و هي: استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين " بيبرس " و بين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة، فلانة ابنة فلان، مالكة بيروت و جميع جبالها و بلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية، أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع و ستين و ستمائة الموافق لتاسع أيار سنة ألف و خمسمائة و ثمانين يونانية - على بيروت و أعمالها المضافة إليها، الجاري عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل، أبي بكر بن أيوب، و أيام ولده الملك المعظم عيسى ، و أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز، و القاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية، بمقتضى الهدنة الظاهرية، و ذلك مدينة بيروت و أماكنها المضافة إليها: من حد جبيل إلى حد صيدا، و هي الموضع الآتي ذكرها: جونية بحدودها، و العذب بحدودها، و العصفورية بحدودها، و الراووق بحدودها، و سن الفيل بحدودها، و الرح و الشويف بحدودها، و أنطلياس بحدودها، و الجديدة بحدودها، و حسوس بحدودها، و البشرية بحدودها، و الدكوانة و برج قراجار بحدودها، و قرينة بحدودها، و النصرانية بحدودها، و جلدا بحدودها، و الناعمة بحدودها، و رأس الفيقة، و الوطاء المعروفة بمدينة بيروت، و جميع ما في هذه الأماكن من الرعايا و التجار، و من سائر أصناف الناس أجمعين، و الصادرين منها و الواردين إليها من جميع أجناس الناس، و المتمردين إلى بلاد السلطان فلان، و هي: الحميرة و أعمالها و قلاعها و بلادها و كل ما هو مختص بها، و المملكة الأنطاكية و قلاعها و بلادها، و جبلة و اللاذقية و قلاعها و بلادها، و حمص المحروسة و قلاعها و بلادها، و ما هو مختص بها، و مملكة حصن عكا و ما هو منسوب إليها، و المملكة الحموية و قلاعها و بلادها و ما هو مختص بها، و المملكة الرحبية و ما هو مختص بها: من قلاعها و بلادها، و المملكة البعلبكية و ما هو مختص بها: من قلاعها و بلادها دن و المملكة الدمشقية و ما هو مختص بها: من قلاعها و بلادها و رعاياها و ممالكها، و المملكة الشقيفية و ما هو مختص بها: من قلاعها و بلادها و رعاياها، و المملكة القدسية و ما يختص بها، و المملكة الحلبية و ما يختص بها، و المملكة الكركية و الشوبكية و ما يختص بها من القلاع و البلاد و الرعايا، و المملكة النابلسية، و المملكة الصرخدية، و مملكة الديار المصرية جميعها: بنغورها، و حصونها، و ممالكها، و بلادها، و سواحلها، و برها، و بحرها، و رعاياها، و ما يختص بها، و الساكنين في جميع هذه الممالك: المذكورة و ما لم يذكر من ممالك السلطان و بلاده، و ما سيفتحه الله تعالى على يده و يد نوابه و غلمانه يكون داخلاً في هذه الهدنة المباركة، و منتظماً في

جملة شروطها، و يكون جميع المترددين من هذه البلد و إليها آمنين مطمئنين على نفوسهم و أموالهم و بضائعهم، من الملكة فلانة و غلمانها، و جميع ما هو فيه حكمها و طاعتها: برأ و بحراً، ليلاً و نهاراً و من مراكبها و شوانيتها. وكذلك رعية الملكة فلانة و غلمانها يكونون آمنين على أنفسهم و أموالهم و بضائعهم من الساطان و من جميع نوابه و غلمانه و من هو تحت حكمه و طاعته: برأ و بحراً، ليلاً و نهاراً: في جبلة، و اللاذقية، و جميع بلاد السلطان، و من مراكبه و شوانيه.

و على أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة، و القواعد المستقرة من الجهتين. و إن عدم لأحد من الجانبين مال، أو أخذت أخيدة، و صحت في الجهة الأخرى ردت إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة.

ملحق (8) المقريري، السلوك، ج2، ص52.

وفيه وردت رسل صاحب عكا بهدية فحصل الاتفاق على أن تكون حيفا للفرنج ولها ثلاث ضياع، وأن تكون مدينة عكا وبقية بلادها مناصفة هي وبلاد الكرمل، وأن بلاد صيدا الوطاة للفرنج والجبلية للسلطان، وأن الهدنة لعشر سنين، وأن الرهائن تطلق وبعث السلطان لصاحب عكا هدية فيها عشرون نفسا من أسري أنطاكية، وتوجه القاضي محيي الدين عبد الظاهر والأمير كمال الدين بن شيت لاستحلافه، فدخلا عكا في عشري شوال، وقد وصاهما السلطان ألا يتواضعا له في جلوس ولا مخاطبة، فلما دخلا كان الملك على كرسي، فلم يجلسا حتى وضع لهما كرستين جلسا عليهما قبالتة، ومد الوزير يده ليأخذ الكتاب فلم يرضيا حتى مد الملك يده وأخذه، و لم يوافق على أشياء فتركوه ولم يحلف.

خريطة (9) نقلا عن أطلس تاريخ الإسلام، حسين مؤنس، ص 305.



خريطة (10) نقلًا شوقي أبو خليل أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ص 90.



قائمة المصادر والمراجع

أولاً، المصادر

المصادر العربية

المصادر الأجنبية المعربة

ثانياً، المراجع

المراجع العربية

المراجع المعربة

ثالثاً، الموسوعات

رابعاً، الرسائل العلمية

خامساً، البحوث

أولاً: المخطوطات:

- 1) السلطان برقوق مؤسسة دولة المماليك الجراكسة، من خلال مخطوط عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان لبدر العيني(784-801هـ/1382-1398م)،تحقيق، شكري إيمان عمر،الناشر مكتبة مدبولي،2002م.
- 2) مخطوطة ديوان ابن زقاعة،مراجعة سليم المبيض.-www.oppc.pna.net\mag\mag3\p13-3.htm

ثانياً: المصادر:

- ابن الأثير محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني (ت630هـ/1232م):
- الكامل في التاريخ، 11 أجزاء، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت،1995م.
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس (ت56هـ/1166م):
- 3) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (اسطوانة مكتبة التاريخ والحضارة الإصدار الثالث).
- الأصبهاني،أبو طاهر أحمد بن محمد السفلي(576هـ/1180م)
- 4) معجم السفر،1ج،تحقيق عبد الله عمر البارودي،نشر المكتبة التجارية،مكة المكرمة،د.ن.د.ط
- الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت430هـ - 1039م):
- 5) حلية الأولياء، 10 أجزاء، ط4، دار الكتاب العربي،1405هـ.
- الأصفهاني،عماد الدين محمد(ت597هـ/1201م)
- 6) الفتح القسي في الفتح القدسي،علق عليه ووضع حواشيه،إبراهيم شمس الدين،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت،2003م
- 7) البرق الشامي،ج2،تحقيق فالح حسين،ط1،مؤسسة عبد الحميد،عمان،1987م
- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس احمد بن القاسم بن حذيفة(ت668هـ/ 1269م):
- 8) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 1 جزء،تحقيق نزار رضا بدار مكتبة الحياة، بيروت
- ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي(ت930هـ/ 1533م)
- 9) نزهة الأمم في العجائب والحكم، تحقيق محمد فهيم محمد عزب، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة،1995م.
- 10) بدائع الزهور في وقائع الدهور،حققها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى،ط1،نشر فرانز شتاينر،فيسبادن،سنة1395هـ/1975م
- 11) البصراوي،علي بن يوسف بن أحمد(ت1499/905م)

- تاريخ البصري 1، ج، تحقيق أكرم حسن العلبي، نشر دار المأمون للتراث، دمشق، ط1، سنة1408هـ.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت279هـ/892م)
- 12) فتوح البلدان، 1ج، تحقيق رضوان محمد رضوان، نشر دار الكتب العلمية، بيروت. د.ط، سنة1403هـ.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي (ت 874هـ - 1469م):
- 13) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 16ج نشر وزارة الثقافة، مصر د.ط
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت597هـ/1200م)
- 14) المنتظم 18ج، نشر دار صادر، بيروت، ط1، سنة1358هـ
- 15) تلقيح فهوم أهل الأثر، 1ج، نشر دار الأرقم، بيروت، ط1، سنة1997م
- ابن حجر، الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت852هـ/1448م)
- 16) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة 6ج، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، نشر مجلس دائرة المعارف، الهند، ط2، سنة1392م/1972م
- 17) إنباء الغمر بأبناء العمر، 4ج، تحقيق د.حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، القاهرة، سنة1389هـ/1969م
- الحموي أبي الفضائل، محمد بن علي بن نظيف:
- 18) التاريخ المنصوري 1ج (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان)، تحقيق أبو العبد دودو، مطبعة الحجاز، دمشق، 1981م.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله (626هـ/1228م).
- 19) معجم البلدان، 5ج، د.ط، دار الفكر، بيروت، د.ط.
- ابن حوقل:
- 20) صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، 1992م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت 808هـ/1405م):
- 21) مقدمة ابن خلدون، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984.
- 22) تاريخ 1ج، نشر دار القلم، بيروت، ط5، سنة1984م
- ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ/1282م):
- 23) وفيات الأعيان وأنباء الزمان، 8أجزاء، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1968م.
- الدمشقي، أبي الفداء عبد الله بن محمد البدري المصري (ولد سنة 847هـ/1444م):
- 24) نزهة الأنام في محاسن الشام، المكتبة العربية، بغداد، المطبعة السلفية بمصر، 1341هـ.
- الذهبي، الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، أبو عبد الله (ت748هـ/1347م):

- (25) سير أعلام النبلاء، 23 جزء، ط9، تحقيق شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1413هـ .
- (26) مختصر العلوم للعلي الغفار، ج1، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. نشر المكتب الإسلامي بيروت 1412هـ/1991م.
- (27) معرفة القراء الكبار، ج2، تحقيق بسام عواد معروف وآخرون، نشر مؤسسة الرسالة بيروت ط1، سنة 1404هـ.
- (28) من ذيول العبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، نشر مطبعة الكويت الحكومية د.ط.د.ت.
- (29) تاريخ الإسلام ورد في الموسوعة الشاملة
- (30) الأمصار ذوات الآثار، تحقيق، قاسم علي سعد، نشر دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1، 1406هـ — سنة 1986م
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت721هـ/1321م):
- (31) مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، د.ط، مكتبة لبنان، بيروت، 1995م.
- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت771هـ/1369م)
- (32) معيد النعم ومبيد النقم، ج1، حققه وضبطه وعلق عليه محمد علي النجار وآخرون، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، سنة 1413هـ / 1993م
- (33) طبقات الشافعية الكبرى، ج10، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، ط1، نشر هجرة للطباعة والنشر د.م سنة 1413هـ
- السلامي، أبو المعالي محمد بن رافع (ت774هـ/1372م)
- (34) الوفيات، ج2، تحقيق صالح مهدي عباس وبشار عواد معروف، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1402هـ
- السمعاني، أبي سعيد عيد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت 562 هـ / 1166م):
- (35) الأنساب، تحقيق عبد الله عمر البارودي، ط1، دار الفكر، بيروت، 1998م.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت 903 هـ/ 1497 م)
- (36) الضوء اللامع ج6 منشورات دار مكتبة، د.ط، د.ن بيروت
- (37) التبر المسبوك في ذيل السلوك، ج1، مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة (مخطوط)
- السيوطي، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911 هـ / 1505م):
- (38) تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، مطبعة السعادة، مصر، 1969م.
- الشافعي، أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله (ت571هـ/1175م)
- (39) تاريخ مدينة دمشق ج70، د.ط، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، سنة 1995م

- أبو شامة المقدسي، الحافظ المؤرخ شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل (ت 665هـ/1267م):
- (40) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزبيق، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م.
- ابن شاهين، غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري
- (41) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعنتي بتصحيحه بولس روايس، طبع في مدينة باريس بالمطبعة الجمهورية، سنة 1894م
- الشوكاتي، محمد بن علي (ت 1250هـ/1834م):
- (42) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، 2 جزء، دار المعرفة، بيروت.
- شيخ الربوة الدمشقي، أبوطالب الأنصاري (ت 727هـ/1326م)
- (43) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق مهرا، ط1، بطرسبرج، 1935م.
- الشيرازي، إبراهيم بن علي بن يوسف أبو اسحق (ت 476هـ / 1083م):
- (44) طبقات الفقهاء، تحقيق خليل الميسي، 1 جزء، دار القلم، بيروت.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ / 1071م):
- (45) الوافي بالوفيات، عدد ج 2000، 29 تحقيق أحمد الأرنؤوطي وتركي مصطفى، نشر دار إحياء التراث، بيروت، سنة 1420هـ/2000م.
- (46) أعيان العصر وأعوان النصر، 5 ج، تحقيق د. عدنان درويش، منشورات وزارة الثقافة، دمشق سنة 1995م
- الصيرفي، علي بن داود الجوهري (ت 900هـ/1494م)
- (47) إنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، دار الفكر العربي 1970
- (48) نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب 1970
- ابن طاهر المقدسي المطهر (ت 501هـ / 1113م) :
- (49) البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد.
- ابن طولون، شمس الدين محمد (ت 953هـ/1546م)
- (50) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان 2ق، تحقيق محمد مصطفى، المؤسسة المصرية العامة للنشر 1962م
- ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله عبد الله الشافعي (571هـ/1175م)
- (51) تاريخ مدينة دمشق، 70 ج، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، نشر دار الفكر، بيروت، د. ط، سنة 1995م
- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (809هـ/1456م):
- (52) بغية الطلب في تاريخ حلب، 12 ج، تحقيق سيهل زكار، ط1، دار الفكر بيروت، 1988م. د. ط

- (53) زبدة الحلب من تاريخ حلب، حققه وقدم له سيهل زكار، نشر دار الكتاب العربي، دمشق، ط1، سنة1418هـ/1998م.
- ابن عرب شاه، شهاب الدين أحمد (د.ت)
- (54) عجائب المقدور في أخبار تيمور، طبع في أردوكايند في بندر، سنة1399هـ/1882م. (مخطوط غير محقق)
- ابن علي الكاتب، العسقلاني، شافع بن علي (730هـ/1329م).
- (55) الفضل المأثور في سير السلطان الملك المنصور، تحقيق عمر بن عبد السلام تدمري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1998م.
- العلمي، مجير الدين الحنبلي (ت927هـ/1520)
- (56) الأئس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، تحقيق عدنان يونس عبد المجيد نباتة، نشر مكتبة دنيس، عمان، د.ط، سنة1420هـ/1999م.
- ابن العماد، الحنبلي عبد الحي بن احمد العسكري، دمشق (ت189هـ/1775م):
- (57) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج10، دار، تحقيق عبد القادر الارناؤوط ومحمود الارناؤوط، نشر دار ابن كثير، دمشق، ط1 سنة1985م.
- العمري، فضل الله العمري شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى (ت749هـ/1349م)
- (58) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق، أ.د. محمد عبد القادر خريسات وآخرون، إصدارات مركز زايد للتراث والتاريخ، سنة2001م
- أبي الفداء، الملك المؤيد عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن أيوب (ت732هـ/1331م)
- (59) المختصر في أخبار البشر، علق على حواشيه، محمود ديوب، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، سنة1997م
- (60) تقويم البلدان، صححه رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، سنة1815م
- ابن الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم
- (61) تاريخ بن الفرات، م5، ج1، تحقيق حسن محمد الشماع سنة1970م.
- ابن قاضي شهبه، تقي الدين أحمد (ت851هـ/1448م)
- (62) طبقات الشافعية، ج4، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1407هـ
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (276هـ/889م)
- (63) المعارف، ج1، تحقيق ثروت عكاشة، نشر دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- القرشي، عبد القادر بن أبي الوفاء (ت775هـ/1373م)
- (64) طبقات الحنفية، ج1، نشر مير محمد كتب خانه، د.ط.
- القرماني، أحمد بن يوسف (ت1019هـ/1610م)

- (65) أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، مج2، تحقيق أحمد حطييط، وفهمي سعد، نشر عالم الكتب
- ابن القلاسي، أبويعلي حمزة (ت555هـ/1160م)
- (66) ذيل تاريخ دمشق، ط1، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908م
- القلقشندى، أحمد بن عبد الله (ت 821 هـ / 1418م):
- (67) مآثر الأناقة في معالم الخلافة، 5 أجزاء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط2، مطبعة حكومة الكويت، 1985م.
- (68) صبح الأعشى في صناعة الانشاء، تحقيق محمد حسين شمس الدين، 15 جزء، دار الكتب العلمية، بيروت. شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه، نبيل خالد الخطيب ط1 / 1407-1987
- (69) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، د. ط، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- (70) قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، حققه ووضع له الفهارس إبراهيم الأبياري، الناشر: دار الكتب الإسلامية. دار الكتاب المصري، القاهرة. دار الكتاب اللبناني، بيروت. ط2، 1402هـ / 1982م
- القنوجي، صديق بن حسن (ت 1307 هـ / 1889م):
- (71) أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت: 774هـ):
- (72) البداية والنهاية، 14 ج، مكتبة المعارف، بيروت. د. ط، د.ت.
- المحبي (اسطوانة مكتبة التاريخ والحضارة الإصدار الثالث)
- (73) خلاصة الأثر، 4 ج، د. ط، الناشر دار صادر - بيروت، ط1، د.ت
- المقرئ، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي (ت 845 هـ / 1441م):
- (74) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية، 3 ج تحقيق محمد زينهم، ومديحه الشرقاوي، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997م.
- (75) السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م
- (76) الضوء الساري في خبر تميم الداري، تحقيق سيد أحمد عاشور، ط1، دار الاعتصام، بيروت، القاهرة 1976،
- (77) إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة، 1940
- (78) الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط1 1420 هـ - 2000 م
- المكي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي العاصي (ت1111هـ/1699م)

- (79) سمط النجوم العوالي ج4، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، دار الكتب العلمية د.ط بيروت 1419هـ - 1998م
- **ابن منظور**، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري (ت711هـ/1311م) (80) لسان العرب، 15ج، الناشر دار صادر - بيروت، ط1، د.ت
 - **ابن منقذ**، مؤيد الدولة أبو المظفر اسامة بن مرشد بن علي (ت584هـ/1188م) (81) الاعتبار، تحقيق سهيل زكار، وقع في الموسوعة الشاملة، ج12، ط1، دار الفكر، دمشق، 1995م
 - **المنائوي**، محمد عبد الرؤوف (ت1031هـ/1621م) (82) التعاريف، 1ج، تحقيق محمد رضوان الداية، نشر دار الفكر المعاصرة، بيروت - دمشق، ط1 سنة 1410هـ
 - **النعمي**، عبد القادر بن محمد النعمي (ت 978هـ / 1570م): (83) الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق إبراهيم شمس الدين، 2 جزء، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ.
 - **النويري**، شهاب الدين أحمد (ت732هـ/1332م) (84) نهاية الإرب في فنون الأدب، د.ط، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة، د.ت
 - **اليافعي**، أبو محمد بن عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت768هـ/1366م) (85) مرآة الجنان، 4ج، د.ت، نشر دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، سنة 1413هـ
 - **جورج يعقوب**
 - (86) طيف الخيال لابن دانيال الموصللي، 3ج، 1-2 طبع أرلارنجن 1910م، 3ج طبع برلين 1912م. نقلًا عن عاشور، المجتمع.
 - اليعقوبي**، أحمد بن أبي يعقوب (ت284هـ/896م): (87) تاريخ اليعقوبي، د.ط، دار صادر، بيروت، د.ت.
 - (88) كتاب البلدان، وضع حواشيه وعلق عليه محمد أمين ضناوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م.
 - **الكتبي**، محمد بن شاكر بن أحمد (ت764هـ/1362م) (89) فوات الوفيات، 2ج، تحقيق علي محمد بن يعوض الله وعادل بن عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، سنة 2000م

ثالثاً: المراجع:

- إبراهيم علي طرخان:
90) النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968م.
- أحمد حطيط:
91) قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، الفرات، 2003م
- أحمد عبد الرازق أحمد:
92) البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك (دراسة عن الرشوة)، الهيئة العامة للكتاب، 1979م.
- 93) المرأة في مصر المملوكية، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999م.
- أحمد محمد رمضان:
المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977م.
- أحمد محمد عدوان:
التاريخ الاقتصادي لدولة المماليك، الطبعة الأولى، دار العلوم للطباعة والنشر، السعودية، 1998م.
- أحمد مختار العبادي:
قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، سنة 1969م.
- إسماعيل البيومي:
94) النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الصحافة، 1998م.
- علي السيد علي:
95) القدس في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، سنة 1986.
- ضومط، أنطوان خليل:
96) الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، ط1، (1290—1422م) نشر دار الحداثة، بيروت، 1980م.
- السيد الباز العريني،
97) المماليك، دار النهضة العربية، بيروت.
- 98) الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الأيوبيون، د.ط، دار النهضة العربية، بيروت، 1967م.
- الجبرتي:
99) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، 3 أجزاء، دار الجيل، بيروت.
- رئيسة عبد الفتاح العزة

- 100) نابلس في العصر المملوكي، ط1، منشورات دار الفاروق، سنة 1999م.
- سرور محمد جمال الدين:
- دولة بني قلاوون في مصر الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص. د.ط، نشر دار الفكر العربي، القاهرة.
- سعيد عبد الفتاح عاشور:
- 101) المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة طبعة جديد 1992م.
- 102) الأيوبيين والمماليك في مصر والشام دار النهضة العربية، القاهرة طبعة جديد 1996م.
- 103) العصر المماليكي في مصر والشام دار النهضة العربية، القاهرة طبعة جديد 1976م.
- طه تلجي الطروانة:
- 104) (رسالة ماجستير منشورة)، مملكة صفد في عهد المماليك، الطبعة الأولى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1982م.
- العارف، عارف:
- المفصل في تاريخ القدس، ط2، نشر مكتبة الأندلس في القدس، 1406هـ/1986م.
- عامر نجيب موسى ناصر
- الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، ط1، الناشر دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله، سنة 2003م.
- عبد المهدي، عبد الجليل حسن:
- 105) جزآن، المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي، ودورها في الحركة الفكرية، ط1، نشر مكتبة الأقصى، عمان - الأردن، 1401هـ/1981م.
- 106)
- بدران، العلامة عبد القادر (1346هـ/1927):
- 107) منادمة الأطلال، ج1، تحقيق زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، سنة 1985م.
- عبد الله سعيد محمد الغامدي:
- جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين (في النصف الثاني من القرن السابع الهجري)، عبارة عن رسالة ماجستير منشورة، معهد البحوث العلمية، مكة المكرمة، 1410هـ.
- عصام محمد شبارو:
- 108) السلاطين المماليك في المشرق العربي ومعالم دورهم السياسي والحضاري (648هـ - 1250-
- 1517م)، دار النهضة العربية، بيروت، 1995م.
- علي إبراهيم حسن :
- 109) تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية.

- علي أحمد محمد السيد:
- 110) اليهود في شرق البحر المتوسط، ط1، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، القاهرة، 2006م.
- غوانمة، يوسف غوانمة:
- 111) تاريخ نيابة القدس في العهد المملوكي، ط1، دار الحياة للنشر والتوزيع، الزرقاء، 1982م.
- 112) التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ط2، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع، عمان، 1982م
- 113) فؤاد خليل:
- الإقطاع الشرقي بين علاقة الملكية ونظام التوزيع، ط1، دار المنتخب للدراسات والنشر والتوزيع، 1996م.
- فاروق عمر فوزي، وحسين محسن محمد:
- 114) الوسيط في تاريخ فلسطين، في العصر الإسلامي الوسيط، ط1، دار الشرق للنشر والتوزيع، رام الله، 1999م.
- قاسم عبده قاسم:
- 115) عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي والاجتماعي، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 1998م.
- 116) أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية المماليك، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2003م.
- 117) أسواق مصرفي عصر سلاطين المماليك، ملزم الطباعة والنشر، مكتبة سعيد رأفت، جامعة عين شمس، القاهرة، 1978م
- 118) رؤية إسرائيلية للحروب الصليبية، مركز بحوث الشرق الأوسط، سلسلة دراسات عن الشرق الأوسط (10) ط1، القاهرة، 1983م
- 119) نظرات في تاريخ المسلمين، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2005م
- كامل جميل العسلي:
- 120) مج1، وثائق مقدسية تاريخية، مع مقدمة حول بعض المصادر الأولية لتاريخ القدس، ط1، مطبعة التوفيق، عمان، 1983م.
- 121) معاهد العلم في بيت المقدس، نشر بدعم من الجامعة الأردنية.
- 122) الحياة الفكرية في فلسطين، وقع ضمن الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، ج3، ط1، بيروت، 1990م.
- لطفي احمد نصار:
- 123) وسائل الترفية في عصر سلاطين المماليك في مصر، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م.

- محمد أحمد دهمان:
- 124) معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر بيروت، 1990م.
- محمد عبد الغني الأشقر:
- 125) نائب السلطنة المملوكية في مصر (648-783هـ/1250-1383م)، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- محمود السيد:
- 126) تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي، الناشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997م.
- 127) تاريخ القبائل العربية في عهد الدولتين الأيوبية المملوكية، الناشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، سنة 1998م.
- محمود شلبي:
- 128) حياة الظاهر بيبرس، الأسد الضاري، قاهر التتار ومدمر الصليبيين، ط1، نشر دار الجيل، بيروت، سنة 1992م.
- محمود نديم أحمد فهيم:
- 129) الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري (648-783هـ/1250-1383م)، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983م.
- نبيل محمد عبد العزيز أحمد:
- 130) رياضة الصيد في عصر سلاطين المماليك، د.ط، مكتبة الأنجلو المصرية، 1999م.
- عبد المنعم ماجد:
- 131) نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر (دراسة شاملة لنظم البلاط ورسومه)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1967م.
- خاشع المعاضيدي المعاضيدي:
- 132) الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي (359_567 هـ/969_1171م) ط1، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1976م.
- (133)
- محمد الحافظ النقر:
- 134) القوى الفاعلة في المجتمع، في العصرين الأيوبي والمملوكي ط1، دار المسار للنشر والتوزيع، الأردن، سنة 2002م.

رابعاً: المصادر الأجنبية العربية:

- لايبس، إيرمارفين
135) مدن الشام في العصر المملوكي، ط1، نقله إلي العربية وقدم له، سهيل زكار، دار الإحسان للطباعة والنشر، دمشق، 1985م.
- بورشارد، الحاج بورشارد من دير جبل صهيون:
136) وصف الأرضي المقدسة، ترجمة سعيد البيشاوي، ط1، دار الشروق، عمان، 1995م.
- التطيلي، بنيامين التطيلي:
137) ترجمة عزار حداد ، ط1، المدرسة الوطنية، بغداد، 1945م.
- ثيودرس:
138) وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ترجمة سعيد البيشاوي، رياض شاهين، ط1، دار الشروق، عمان الأردن، 2003م.
- سايولف:
139) رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس و الأرض المقدسة (1102_1103م) ترجمة سعيد البيشاوي، ط1، دار الشروق، عمان، 1997م.
- الشارترى، فوشيه الشارترى:
140) تاريخ الحملة ألي القدس، ترجمة زياد العسلي، ط1، دار الشروق، عمان، 1990م.
- الصوري، وليم الصوري:
141) تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2003م.
- فابري:
142) جولات الراهب فيلكس فابري ورحلاته، ج4، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج40، ط1، دار الفكر، دمشق، 1998م.
- الفيتري، يعقوب الفيتري:
143) تاريخ بيت المقدس ، ترجمة سعيد البيشاوي ، ط1، دار الشروق، عمان، 1998م.
- لودولف:
144) وصف الأرض المقدسة، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج39، ط1، دار الفكر، دمشق، 1999م.

خامساً: المراجع الأجنبية العربية.

- براور يوشع براور:
(145) الاستيطان الصليبي في فلسطين، مملكة بيت المقدس، ترجمة عبد الحافظ البناء، ط1، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، القاهرة، 2001م.
- ان.بولياك:
(146) الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ط1، نقله عن الانكليزية، عاطف كرم، منشورات دار المكشوف، بيروت، 1948م.
- ل.ا.سيمينوفا:
(147) ترجمة حسن بيومي، صلاح الدين والمماليك، في مصر، المشروع القومي للترجمة، 1998م.
(148)
- هايد، فيلهلم هايد:
(149) تاريخ التجارة في الشرق الأردني في العصور الوسطي، ج4، ترجمة احمد محمد رضا، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985_1994م.

سادساً: الموسوعات

- الدباغ، مراد مصطفى الدباغ:
(150) موسوعة بلادنا فلسطين، ج10، ط1، دار الهدى، كفر قرع، 2000م.
- زكار، سهيل زكار:
(151) الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة، ج50، ط1، دار الفكر، دمشق، 1995_2001م.
- الزبيدي، مفيد:
(152) موسوعة التاريخ الإسلامي (العصر المملوكي)، دار اسامة للنشر، الأردن، 2003م.
- مجموعة من المؤلفين:
(153) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، ج6، بيروت، 1990م.

سابعاً: الرسائل العلمية:

- الأغا، حسام حلمي يوسف الأغا:
154) الأوضاع الاجتماعية في فلسطين زمن الحروب الصليبية (492_690هـ/1099_1291م) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، 1428هـ/2007م.
- إبراهيم، عبد المجيد إبراهيم:
155) الحياة الاجتماعية في بلاد الشام العصر الأيوبي، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، اتحاد المؤرخين، بغداد، 2000م.
- الجزائر، هاني فخري:
156) النظام العسكري في دولة المماليك (648_923هـ/1250_1517م) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، 1428هـ/2007م.
- زعرور، إبراهيم زعرور:
157) الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي و المملوكي ، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم والآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، 1990م.
- المدني، رشاد عمر المدني:
158) الحياة العلمية في فلسطين في مرحلة الصراع الصليبي الإسلامي "491_690هـ/1098_1291م" رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، 1426هـ/2005م.

ثامناً: البحوث

- حمارنة، سامي خلف:
159) الطب العربي في فلسطين في زمن الفاطميين والأيوبيين، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ط1، الجمعية العلمية الملكية، عمان، الأردن، 1983م.
- خليل، عماد الدين:
160) فلسطين في الأدب الجغرافي العربي، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ط1، الجمعية العلمية الملكية، عمان، الأردن، 1983م.
- زايد، محمود:
161) دراسة للتقسيمات الإدارية في فلسطين، المدن الفلسطينية في القرن الخامس عشر من خلال رحلة براترندون دي لابروكويه (1432م)، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ط1، الجمعية العلمية الملكية، عمان، الأردن، 1983م.
- زيادة، نقولا:

162) فيليكس فابري في فلسطين، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ط1، الجمعية العلمية الملكية، عمان، الأردن، 1983م.

● عباس، إحسان:

163) الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين خلال القرنين: الرابع والخامس، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ط1، الجمعية العلمية الملكية، عمان، الأردن، 1983م.

● لمين، مبارك:

164) جوانب من الوجود الأندلسي المغربي في القدس الوسيط، جامعة ابن زهرة، المغرب. مجلة الفسطاط، www.fustat.com.

● ياغي، هاشم:

165) فلسطين في كتب الجغرافيين العرب، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ط1، الجمعية العلمية الملكية، عمان، الأردن، 1983م.

تاسعاً: المصادر الانجليزية:

Obadiah grd Da Bertinoro, Itinerary of Obadiah 1487-1490, A.D., in ,G.T.ed. Adler.N; London, 1930, pp.209-251.

La Brocquier, in Wright, Early Travels in Palestine, London, New York, AMS press, 1969. ■

Canon pietro casola, s pilgrims to jerusalem in the year 1494 By, M. Margret newwett, Manchester, the university press 1907.

Francesco souriano: treatise on the holy land trans. from the Italian By, fr. the ophilus Bellorini, Jerusalem 1948.

ملخص الدراسة بالعربي

تناولت هذه الدراسة الأوضاع الاجتماعية في فلسطين زمن المماليك من سنة 648هـ — 923/هـ (1260م/1517م) فقد لعب المماليك دورا كبيرا في التأثير على المجتمع الفلسطيني خلال فترة حكمه وحاولوا إصلاح الكثير من جوانب التفكك والضعف التي أصابت المجتمع خلال فترة سيطرة الصليبيين وقد بدأ الأيوبيون هذا الإصلاح، وسار على نفس السياسة المماليك في إصلاح المجتمع.

وقد تناولت الدراسة في طياتها البنية السكانية في فلسطين، والعوامل المؤثرة عليها، وأظهر هذا الجانب تنوع العناصر السكانية التي عاشت جنبا إلى جنب. وكذلك تبين عدم ثبات هذه الأعداد من السكان، بسبب تأثير عوامل عدة: منها الحروب، والأوبئة، والمجاعات، وبعض الكوارث الطبيعية التي أصابت فلسطين إبان عصر سلاطين المماليك.

وكذلك تحدثت هذه الدراسة عن الأوضاع المعيشية للسكان، وأهم الحرف التي مارسوها وتأثيرها على عناصر المجتمع الفلسطيني في مرحلة المماليك. وقد أظهرت الدراسة أن المجتمع الفلسطيني مجتمع حرفي بسبب انتشار الكثير من الحرف أهمها الزراعة التي لقيت اهتماماً خاصاً من السكان والسلطة لأنها المصدر الرئيس لمعيشتهم، والإنفاق على الأوقاف وعلى المماليك أنفسهم؛ لأن أغلب أرض فلسطين كانت مقسمة إلى إقطاعات ناهيك عن النظام الإقطاعي وتأثيره على طبقات المجتمع وخاصة الفلاحين والحياة العامة في الأسواق.

إلى جانب هذا وصفت الدراسة أهم العادات والتقاليد التي انتشرت في المجتمع الفلسطيني خلال الحقبة المذكورة وخاصة الغريبة منها مثل الحسد وتقديس قبور الأولياء، وتطرفت إلى أهم الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية. وأشارت إلى أصناف الطعام المختلفة وأساليبها وكذلك عالجت موضوع الأفراح والأتراح، وكيفية الاحتفال بها، وأشكال الترف والبذخ التي سادت المجتمع.

وأشارت أيضا إلى الآثار الاجتماعية لسيطرة المماليك على المجتمع الفلسطيني وهي انتشار وسائل الترف من ألعاب ورياضات مختلفة وتحدثت عن المؤسسات التعليمية، وطرق وأساليب التعليم، كما أنها أشارت إلى بعض عوامل تفكك المجتمع المختلفة، وأظهرت درجة من الالتزام الديني رغم ما أصابه من تفكك في بعض الفترات بين السلاطين من عامة الناس، و أظهر ذلك انتشار الكثير من المؤسسات التعليمية والدينية ودور الفقهاء في إصلاح المجتمع.

وانتهت الدراسة بخاتمة ذكر فيها الباحث بعض النتائج التي توصل إليها، إلى جانب إدراج قائمة المصادر والمراجع والملاحق .

Summary of the research

This study dealt with the social situations in Palestine from (1260 to 1517). During Al Mameluke age. At that time, those slaves played an important role in affecting on the palestinian society during their ruling. They tried to reform many of weakess points which were prevailed in the society during Christians controlling. Also Ayoubous started this reformation and worked in the same policy of slaves in their social reformation this study deal with amony it's folds with poputation in Palestine and variables that affected on population. This a spect revealed avariety in components of populations which lived al together. This study also explains unreliability in population, because of different elements such as wars. Diseases starvations and natural disasters which prevailed in Palestine at that time. This study also talked about the living circumistamces of population in Palestine and the basic jops that those people practice and the jops affection on the society at that time.

This study also revealed that the Palestinian society is aprofessional one, because of deploying many of jops agriculture which got of cal aspecial interesting from population and authority because it is the basic resource of their living because most of farms were divided into parts taking into consideration also the Fuedalism system and its affection COD on the layers of society, especially Farmers and general life in markets.

This study described the main habits and conventions in Palestinian society during the mentioned era.

These habits and braditions are such as:

Envy, holifying of tombs of higher people. This study also interested in some important national and religious occassious and it refers to some of kinds of food and it's methods.

This study also cured some subjects as weddings, festivals ar celebrations and the shapes of luxuries that prevailed at that time in the society.

This study indicated to social results of slaves controlling of the Palestinian society as spreading of ways of luxuries, games and different sports. The study talke about educational institutions and some strategies and methods of teaching and it points to some of reasous of weakness of society.

This study explained adegree of religions commite in spite of the prevailed weakness at some periods among sultans and other people.

This religions commite results in building may of religious and educational institutions which have abig role in the reformation of the society.

At the end of study, some findings are meutioned, beside mentioning some of resources, bibiolography and appendixes..

Islamic University
High student
Collage of art
Department of History



Master degree Titled in

Social conditions in Palestine in the Mamaleke age

Prepared by researcher
Nasem Z.J. Abu shalof

Supervised by/Dr
Riad Mustafa shahin

Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of
Master of Arts in Islamic History, Faculty of Graduate Studies, at The

.Islamic University Gaza, Palestine

2009